

المكتبة الأثرية . بمصر

عَلَامَةُ الْعَرَبِ

كتاب اجتماعي تاريخي اقتصادي أدبي

فيه كلام على مدينة : فرنسا ، وانكلترا ، والمانيا ، وإيطاليا ، واسبانيا ، وسويسرا ،
والبلجيك ، وهولندا ، والنمسا ، والمجر ، والبلقان ، واليونان ، والاسكندرية ، ومصر ، والشام
ومقالات في علائق الشرق بالغرب ، والغرب بالشرق . منذ الزمن الاطول ، ولا سيما صلات
القرب مع العالم الاسلامي ، والعربي منه خاصة . في جوبى ايطاليا وفرنسا والاندلس .

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

— الجزء الاول —

الطبعة الثانية

١٣٤١ هـ المطبعة الرحمانية — بمصر ١٩٢٣ م

غرائب الغرب

الطبعة الثانية

حقوقها محفوظة للمكتبة الاهلية - بمصر

مقدمة الكتاب

هذه فصول ومقالات بل آهات وتأوهات كتبتها في وصف معالم الغرب وما لقيته فيه وقد زرته ثلاث مرات الاولى في شتاء سنة ١٣٢٧ (١٩٠٩ و ٨) والثانية في شتاء سنة ١٩١٣ - ١٩١٤ م والثالثة في سنة ١٣٤٠ (١٩٢١ - ١٩٢٢) وأنا على مثل اليقين بأنها لا تحمل في مطاويها من تلك المدنية الساحرة الا بقدر ما تصل اليه يد عابر سبيل ويتفطن له فكر النزيل والدخيل وقد أبقيت ما كتبتة في حينه بحاله لم أدخل عليه أدنى تعديل ليقف القارىء على ما كتب برمته راجياً من كرمه تعالى أن ينفع بها قراء العربية ومنه أستمد العون والتيسير نعم المولى ونعم النصير .

محمد كرد علي

دمشق ١٩ صفر سنة ١٣٤١ و ١٠ تشرين الثاني (نوفبر) ١٩٢٢

الرحلة الاولى

الرحيل من دمشق الى لبنان



كان من أعظم أمانى النفس منذ بضع سنين . ان أرحل الى أوربا رحلة عامية أقضى فيها ردحا من الدهر . لا تتوفر على دراسة حضارة الغرب في منبعها ، واستطلاع طالع المعاهد ، التى منها نشأ المخترعون والمكتشفون . والفلاسفة المنزهون . والعلماء العاملون . والساسة المستعمرون ، والقادة الفارون ، والتجار والصناع والزراع والماليون . وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاهما وكانت الأحوال تعوق هذا القصد عن اتمامه ، وتحول دون البغية المنشودة الى أن قدر الله فأقام والى سورية السابق تلك القضية الملفقة على جريدة المقتبس واحتمال انتقاماً لنفسه لا قفال المطبعة وتوقيف الجريدة والمجلة قبل صدور حكم المحكمة علي فقلت الآن حان وقت الرحلة فى طلب العلم تتفرغ لتحقيق ما فى الخاطر ، ريثما يتبين الحق من الباطل ، والحالى من العاقل ، وعسى أن تذكر هوا شيئاً وهو خير لكم

فى الهزيع الأخير من ليل الثلاثين من رمضان (١٣٢٧ هـ ١٩٠٨ م) ركبت من دمشق عربة مع صديقين عزيزين ، قاصدين قرية القابون وفى ظاهرها وقمنا لحظات الى أن وصلت فرسى ووصل صديق لى آخر راكباً فرسه فركبنا وعاد ذانك الحبيبان الى المدينة ، وكان بدأ فى تلك الساعة الاشرار فى الافق ، والسكون لم يبرح مستحوذاً على الارباض والرياض ، ولم نكن نسمع من بعيد غير فمقعة أجراس الطحانين والمكارين ، وصياح الديكة أو عواء الكلاب ، وما كدت أعلو متن مطيتى حتى ترامى الى مسمى صوت مؤذن القابون ينادى

« هلموا الى طاعة الله يرحمنا ويرحمكم الله » فقلت : كلمة حق لو جرى العمل بالطاعة وما يلزم لها ، لرحموا ولكنها جل جميلة تقال ، ومعان شريفة لا يعمل بها وعادات ألقت بمعزل عما فيها من الأسرار النافعة في صلاح المعاش والمعاد التفت الى الغوطة الدمشقية التفاتة أخيرة وهي أحب بقعة الى قلبي في الارض وقد كثر في أفقها شفق الفجر فذكرت طرفا من أيامها البيض والسود . ذكرت الغوطة المحبوبة ، وذكرت مطاعم البشر . وانحطاط أخلاقهم وعقولهم ، فقاد ذلك الى التفكير في شقاء الانسان بالانسان . وموت بعض لحياة كل ، وافتقار مئات لا غناء أفراد ، وشقاء ربوات : لسعادة عشرات . ونعب فريق . لراحة أمة ، فتمثل لى عجيب صنع المولى في خلقه ، سبحانه لا يبقى العالم على حال ، هو المعز المذل ، القابض الباسط ، المغنى الفقير ، يقلب الارض ومن عليها ولا يرثها الا عباده الصالحون .

سارت بنا مطيتانا ، فاجتزنا قرية برزة ومعربا ، ولم تشرق الشمس الا وقد قطعنا أراضى معربا وأشرفنا على اكمامها فالتفتنا الى ماوراءها وقد نتجت لنا بعض بقاع الغوطة والمرج من خلف الجبال . فألقينا عليها نظرة الوداع ، وأغذنا السير الى بسيمة . ومنها الى دير مقرن فكفير الزيت فدير قانون فكفر العواميد ، وفي هذه القرية بتنا ليلة عيد الفطر .

ولم أشهد هذا الوادى وكنت مررت به راكباً منذ ستة عشر عاما شيئاً من التغير والارتقاء المحسوس ، فالقلايح فيه لا يزال ينتظر موسم الفاكهة ، ان سلمت أشجاره من لفحات الجليد ، يرتاش تلك السنة ويعتاش ، برمانه وجوزه ، وتقاحه وكثره ، وتينه وعنبه ، والا فيضطر في الاكثر الى الاستدانة على الموسم المقبل ، وان كان على شئ من القوة والجلد ، يرحل الى بعض الكور المجاورة كقري وادى العجم أو الغوطة يعمل فيها أشهر الصيف ليأتي في الشتاء بمؤونة تكفيه من الخنطة في كنهه وكنونه .

وذلك لان هذا الوادى منذ قرية دمر حتى سوق وادى بردى لا يغل من

الحبوب ما يسد عوز سكانه بعض السنة : لغلبة اليبوسة على جروده وجباله ،
ولأن أكثر تربته صخرية ، تحتاج للعمل الكثير على الطرق الزراعية الحديثة ،
لتأني أكلها . أما الأشجار وبعض الخضر والبقول التي ينتفع بها الفلاح هنا ،
فالفضل لنهر بردى في اروائها ، يأخذ من مائه في مجارى عليها بقدر حاجته
أو أكثر .

ولقد أخذت أثمان الفواكه تأني أصحابها بأرباح أكثر من السنين السابقة
خصوصاً منذ تم استثمار السكك الحديدية في سورية كسكة بيروت — دمشق —
حوران وسكة دمشق — حيفا — المدينة وسكة دمشق — حلب — بيرهجك
(البيرة) فأصبحت ثمارهم تصدر الى الجهات القاصية . وكانوا يقدمون أكثرها
في سنى الخير علفاً للدواب . أو يلقونها في الطريق . لان العطلة في نقلها من محلها
الى دمشق أو بيروت مثلاً على الدواب لا تقوم باجرة المكار ودابته .

نعم لم أر ارتقاء محسوساً في حالة فلاح وادى بردى (البيلية) وأنى يتم له
ارتقاء . وليس له طريق يسلك . غير ما حفرته أقدام المارة ، وحوافر الدواب
والماشية . وجرفته السيول والرياح منذ قرون . فالطرق المعبدة المطروقة
لا أثر لها في هذا الوادى ، ولعل ذلك ناشئ من كونه حديث عهد بالحكومة
المنظمة . فقد كانت معظم قراه من قبل تابعة لاقضية بعيدة أما الآن بعد ان
غدا من مركز قضاء الزبداني على بضع ساعات . فقد بات يرجى أن تنظم لاهل
قضاء الزبداني طرق غير طريق السكة الحديدية تصل بين قراهم وبين دمشق حاضرة
الولاية ، ليتيسر للناس الغدو والرواح ، من أيسر السبل . وما إخال ذلك متعذراً
على الحاكم اذا حث أهل كل قرية أن يقوموا بأنفسهم ، لتمهيد طريقهم . أيام
انقطاعهم عن العمل ، كفصل الشتاء مثلاً لما يعرفون من الفوائد التي تنجم لهم
عنها ، أو يعاونها بواسطة الموظفين الأمناء ، وان كانت هذه الطريقة لا تخلو
من محذور لأنها تؤدى الى السخرة ، والسخرة ممنوعة بنص القانون الأسامي
وتمهيد الطرق وبث الأمن من جملة الفروض العينية على كل حكومة .

وبعد فانه لا وجود فى وادى بردى لسائر المرافق التى يتمتع بها الفلاح فى البلاد المتقدمة . وذلك لان الحكومة الاستبدادية الماضية لم يهتم بها من الفلاح الا أن تأخذ منه لا ان تهيب له سبيل الاخذ . فكان قصاراها تكثير الجباية ، وتوفير الضرائب ، وأخذ من تريده للخدمة العسكرية ، أما امتاع الاهلين بالوسائل الصحية . وتعليمهم الطرق الزراعية القريبة المأخذ . وفتح سبل المواصلات ، ورفع علم الامن ، وتعليمهم الضرورى من القراءة والكتابة ، فكانت أموراً لا تعرفها لافى وادى بردى فقط بل فى جميع أودية البلاد العثمانية وسهولها وجبالها .

ومن أغرب ما رأيناه فى وادى بردى : ان بعض قراها تحفر القبور لموتاهها أمام الدور ، فترى حى الاحياء مع حى الاموات . وما أدري هل يأتون ذلك بالقصد حرصاً على رفات موتاهم من ان تسطو عليها الوحوش الكاسرة فى مدافنها اذا لحدودها بعيدة عن العمران ولو بضع خطوات ، أو انهم يؤثرون دفن الموتى أمام أعينهم لبذكروا كل شارقة وبارقة مصير الانسان الى دار البقاء ويزهّدوا فى دار الفناء . فلا يهتمون بأسباب الهناء والصفاء .

ومما عمت به البلوى فى الفلاحين . إنك ترى القاذورات أيضاً نعى العيون ونخنق الانفاس . فترى روث البهائم وغازط الآدميين . وسط الدور وخلفها وقدامها وعن ايمانها وشمائلها . ولولا بقية من عادة النظافة والتطهر ورثها المسلمون بالتسلسل عن آباءهم وشيء من جودة الهواء فى الجملة فى القرى لما بقيت باقية لسكان هذا الاقليم ومن حوله

ركبت صبيحة العيد ورفيقي قاصدين سوق وادى بردى واعلها سميت كذلك لسوق كانت تقام فيها فيما مضى للبيع والشراء على العادة فى أسواقنا الباقية حتى الآن فيقال مثلاً سوق الاحد وسوق الجمعة وسوق الخيل وسوق الحمير، ولهذا الاسواق أمثال فى أوربا . وبالقرب من السوق تضيق فوهة الوادى وينقطع العمران ليخرج منه الى منفسح وادى الزبدانى . وجبال السوق لا تخلو من

نواويس قديمة على نحو ما تجد منها في جبال الشام محفورة في الغالب في القمم والآكام . ومن السوق انتهى بنا نفس السير الى قرية عيتا الفخار من أعمال البقاع العزيز ، وهي القرية التي اشتهرت منذ عهد بعيد بفخارها الذي تطبخه أكثر بيوتها في تنانير خاصة وتبيعه في المدن الداخلية من أعمال دمشق

وقد شعرنا بتغير المشاهد منذ أطلعنا على عيتا ، ورأينا بيوت القرميد التي بنيت بالحجر النحيت على المثال الذي نشاهد في أكثر بيوت سورية وعلمنا ان سبب ما شاهدناه من جمال المساكن في عيتا ، تلك الاموال التي جلبها بعض سكانها من هجرتهم الى اميركا . وأحبوا حتى من لا تحدثهم أنفسهم بالسكنى ثانية في عيتا أن يظهروا غناهم بانشاء الدور المنظمة ليصبح عليهم المثل العربي « أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها » « ان الغنى طويل الذيل مياس » أو الاثر المشهور « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » وليس كالبیوت تم عن يسار وتدل على سعة ، وبعد عيتا مررنا بكامد اللوز فجب جنين فللا فبعول من وادي البقاع وفي هذه القرية بقنا عند رجل من أهلها أنزلنا عنده وأكرمنا ولم يعرفنا . ومع حرصه على معرفتنا اكتفينا من التعريف بالتعريض . وفي المعارض مندوحة عن الكذب .

وقد سرت الى هذه القرية والى جميع قرى البقاع عدوى الهجرة وتناول الاغتراب السكان على اختلاف نحلهم ، ومن حديث كثير من البقاعيين تبين ان أهل كل قرية في الغالب يؤثرون في بلاد المهجر اقلية خاصاً لهم ينزلونه أو مملكة يوجهون وجهتهم اليها فيقصد مثلاً أهل قرية كذا ولاية كذا من شمالي اميركا وأهل القرية الفلانية يقصدون جمهوريات الجنوب وآخرين ينزلون كندا وغيرهم اوستراليا وفريق السنيغال وبعض الترنسفال . فكان عدوى الانتقال تسرى اليهم بالعشرة ، فلا يحب المواطن الا أن يقلد مواطنه في مآتيه ومنازعه ، بل في شقائه وسعادته . وقد أذكرنا هذا بحال العرب في الفتح وبعده فكان القيسيون ينزلون بلاد كذا واليابانيون اقليم كذا ثم لما امتدت الفتوحات وفتحوا الاندلس

كان جند الشام يختار بقعة غير التي اختارها جند حمص ولذلك كان الجند يدعون كل بلد ينزلونه باسم بلدهم الأول كما يحاول بعض مهاجرة السوريين الآن مثل ذلك في لولايات المتحدة .

وفي اليوم الثالث قصدنا مشجرة فمررنا بجسرهما المخرب الممتد على نهر الليطاني وأنجدنا قاصدين جزين أول حدود لبنان الى الجنوب ، ومشجرة أقصى بلد عامر بالزراعة والصناعة في البقاع الغربي وهي مشهورة الى الآن بدبغ الجلود للأحذية اشتهار مدينة زحلة أو أكثر ، والمسافة بين مشجرة من أعمال ولاية سورية وجزين من متصرفية لبنان ثلاث ساعات تعلو قمة عالية ، ثم تنحدر في واد عميق ومع ان قضاء البقاع من أعمر أقضية ولاية سورية بزراعته لخصب تربته ، وتوفر المياه الدافقة عليه من سفوح لبنان الغربي ولبنان الشرق . ومتاخته لجبل لبنان الذي يحتاج لكل ما تنبته أرض البقاع من الحبوب والثمار . ومع كثرة الأعيان الذين يملكون فيه المزارع والأراضي الواسعة ومنهم من أنشأ فيه حقولا نموذجية حقيقية وصرفوا عليها الاموال الطائلة واستخدموا لها أحدث الطرق الزراعية كالأراضي التي عمرها نجيب بك سرسق في عميق ودير طحنيش وأقامها الآباء اليسوعيون في تعنايل — مع كل هذا العمران المستبحر ، وماتأخذه النافعة من أموال الأهلين كل سنة باسم الطرق والمعار لا ترى في القضاء طريقاً مسلوكة اللهم الا طريق الشام القديم الذي تركته شركة الديليجانس لما أنشئ خط بيروت الحديدي ، وقيل لنا ان الحكومة صحت عزمها مؤخراً على انشاء طريق عجلات بين المعلقة مركز القضاء وبين مشجرة في غربه وان هذا الطريق وصل أو كاد الى قرية عيتنيت ولعله يكون جسماً لا اسماً كما كثر الطرق التي أنشأتها النافعة في الولايات فكانت لفظاً بلا معنى واسماً بلا مسمى لم ينشأ عنها الا التعجيل في سلب نعمة الفلاح وخراب بيته باسم العمران وخدمة الاوطان .

وصف لبنانه الطبيعي

٢

كنت في لبنان أشبه بأبي زيد السروجي أو أبي الفتح الاسكندري احتاج الى راوية مثل الحارث بن همام أو عيسى بن هشام يروى كل منهما لمثل الحريري أو بديع الزمان تلك المظاهر التي اضطرت الى الظهور فيها لانجوى من مخالب عدو ممازق أو جاسوس مخادع وليتيسر لي درس حالة البلاد بدون حجاب .

فقد قيل : اكتم ذهابك ومذهبك وذهبك ، ولكن هذه القاعدة لا يرضاها منك اللبنانيون الاذكياء ، فتجدهم يحرصون كل الحرص على استطلاع طلع كل مصطفى بينهم . أو سائح في جبالهم ، والوقوف على مقصده . ومبلغ ثروته . والدين الذي يدين به . وربما كان سؤلهم عن الاخير قبل كل شيء لان عامتهم متدينون جداً فهم يسرون اذا شعروا انهم يتعارفون الى رجل يشاكلهم في المعتقد ، وأنى لمن قضى عليه شدة اخلاصه في خدمة وطنه ودولته ، أن يصرح لهم بهويته ، وهو مشرد طريد . محكوم عليه بالجناية حكماً قره قوشياً

ودعني رفيقي غداة وصلنا الى حزين وعاد الى الفيحاء وبقيت وحدي لارفيق لي الا كتابي وفرسي . فانقلبت لساعتي من حزين قاصداً دير القمر . فاجتزت اليها بتاتر وعماطور والمختارة وغيرها ، والطريق بين هذه القرى القديمة عامرة من وراء الغاية تمشى فيه وسط أشجار الزيتون وهي غابات غيباء في الشوف كما ان أشجار السنوبر كذلك في قضاء المتن . ودير القمر هو مركز الجبل القديم وصلت اليه قبيل الغروب وقد بدت القصة بأبنيتها الشاهقة كالعروس في حليها وعكست شمس الاصيل على زجاج نوافذها وسطوحها فاختلطت الحمرة بالصفرة بالخضرة بالزرقة فكان من أجل منظر تقع عليه عين انسان وأهل الدير كمعظم سكان الجبل موصوفون بالرقّة وحسن العشرة يتحببون الى الغريب كيف كانت

حاله ، وفي هذه القصبة الى اليوم جامع قديم من القرن العاشر بناه أحد أمراء لبنان ولا يزال الدير يحرصون على سلامته فيتعهدونه بالعمارة وان لم يكن له من يقم فيه الصلاة

وقصبة الدير بكثرة سكانها ، وتوفر مرافق الحياة فيها ، أشبه بالمدن منها بالقرى . وهي مشهورة بتجارة الحنطة تحمل اليها من حوران فتوزع في الاطراف وليس دير القمر وحيداً في نوعه باكتظاظ الاقدام فيه فمدينة زحلة لا يقل سكانها عن خمسة وعشرين ألف نسمة وأوصل بعضهم نفوسها الى خمسة وثلاثين وتكثر النفوس في حمانا ورأس المتن وبرمانا وبيت مري وبعبدات وبيت شباب وبكفيا وبسكنتا وبعبداء والشويرة وحصرن والشويفات وحدث الجبة وبعقلين ومجد المعوش وعالية ومعلقة الدامور وجزين وجبيل واهميج وتنورين وعمشيت وغزير وجونية وكفر ذبيان والبترون واهدن والهرمل وأميون وزغرتا وكوسبا وفي غير ذلك من القصبات التي يعد فيها النفوس بالآلوف والمئات

والقرى والمزارع متصلة خصوصاً في المحال التي ترتفع كثيراً عن سطح البحر ولا يتعذر العيش فيها في الشتاء لكثرة ثاجها وبردها وجليدها وأعاصيرها وما أشبه لبنان وقراه ومزارعه لا تقل عن تسعمائة وست وخمسين قرية^(١) الا بقصر نحم جيل ! واسم الارعاء . مخفوف من أطرافه بالرياحين والأزاهير العطرية . وغرفته الكثيرة تلك الدساكر والضيايح . لا يكاد المتجول يعمل من مقصورة ، حتى ينتقل الى أخرى ، وما أسرع وصوله اليها من تلك الطرق المعبدة . وهذا القصر مزدانه أفنيته وأروقته بأقصى ما يخص به يد الصانع من بدائع الزينة ويد المخلوق لم تقصر كثيراً في تعهده

معنى لبنان الأبيض ، وهو اسم عبراني سمي به لتعم قمه بالثلج في الشتاء والربيع وبعض الصيف . وقد ورد ذكره في الشعر القديم . فقال النابغة الذبياني :

(١) دليل لبنان لابراهيم الاسود

حتى غدامثل نصل السبف منصلتاً يقرأ الاماعز من لبنان والا كما
وقال أحمد بن الحسين بن حيدرة المعروف بابن الخراساني الطرابلسي من
المحدثين :

دعوني لقاً في الحرب أطفو وأرسب ولا تنسبوني فالقواضب تنسب
وان جهلت جهال قومي فضائي فقد عرفت فضلي معد ويعرب
ولا تعتبوني إذ خرجت مغاضباً فمن بعض ما بي ساحل الشام يفضب
وكيف النذاذي ماء دجلة معرقاً وأمواه لبنان ألد وأعذب
فالي وللأيام لا در درها تشرق بي طوراً وطوراً تغرب
وأنشد المتنبي في مدح أبي هرون بن عبد العزيز الأوارجي من قصيدة :
بيني وبين أبي علي مثله شم الجبال ومثلهن رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء

وقال البحري :

وتعمدت أن تظل ركابي بين لبنان طلعا والسنير
مشرقات على دمشق وقداء رض منها يياض تلك القصور

وقال الجغرافي اليزه ركلو من المناخرين يصف لبنان : اذا ما القيت ببصرك
من البحر . الى سلسلة لبنان المستطيلة . رأيت من هذا الجبل منظرأ مهيباً فيلوح
لك أزرق أو ورديا في الصيف و، شتملا في الشتاء والربيع بجلباب ثلجه الفضي
واذا تصاعدت الأبخرة في الجو ألبت قمه الشاخنة ثوبا شفافا هوائيا ، غاية
في اللطف ، بيد أن جمال هذا المنظر ، لا يخلو من سطاوة الشدة ، فترى ذاك
الجبار يتمطى بضلوعه الشديدة وينطح برأسه الشامخ لا يقوم في وجهه قائم
على ان النظر الى محاسن هذا الجبل عن كشب هي دون جماله عن بعد فترى ظهره
على طول ١٥٠ كيلو متراً . أقهب أجرد لا تكسوه الخضرة : أوديته متشابهة
ومشارفه كأنها قدت على قالب واحد

وقال الأب لامنس : أن لبنان أشبه بجدار عظيم من الصخور وجهته من

الجنوب الغربي الى الشمال الشرقى وفى الجهة الشرقية تراه ينقطع بفتة . أما من جهة الغرب فهو يتفرع فروعاً متعددة على هياث شتى من آكام وبطون وسهول وربى متسلسلة يدخل بعضها فى بعض ، واذا استثنينى هذه التفرعات الثانوية والتجمعات غير المنتسقة . تحققت أن سلسلة لبنان المعظمى قد وضعها الخالق على صورة نظامية ، وجانب كبير من البساطة ، ولذلك قلما ترى فى لبنان تلك المناظر المتباينة التى تقر بها العين ، وإنما يقع البصر على حاجز كبير فى حدود الأفق . يتواصل على خط مستقيم لا تكاد قممه العليا تمتاز عن بقية أقسامه

ووصف شكله أيضاً فقال : ومن تفرع الجبل من الجنوب الى الشمال وجده يتزايد علواً وكذلك يتسع عرضاً . ولو تأمل الناظر من علو الجو عرض لبنان بين صيدا ومشغرة لوجده يزيد عن ٢٩ كيلو متراً وهو يبلغ بين بيروت وقب الياس ٣١ كيلو متراً ، ومعظم اتساعه بين طرابلس والهرمل ٤٦ كيلو متراً . فيكون لبنان على كل ذا شكل مربع منفرج عن زاويتييه العلويتين اهـ

قدروا مساحة لبنان بثلاثة آلاف وخمسمائة كيلو متر مربع يحده جنوباً صيدا وأعمالها وشمالاً طرابلس وكورتها . وشرقاً ولاية سورية وغرباً البحر المتوسط ومدينة بيروت ، هذا هو حده الجديد وهو المعروف بلبنان الغربى والاصل فى التسمية ، ويطلقون اسم لبنان الشرقى على وادى التيم وجبل الشيخ (حرمون) أى على قضاءى حاصبيا وراشيا وما اليهما والبقاع فاصل بين اللبانيين وحدّه القدماء فقالوا : انه جبل مطل على حمص يحجىء من العرج الذى بين مكة والمدينة حتى يتصل بالشام فما كان بفلسطين فهو جبل الحمل وما كان بالاردن فهو جبل الجليل وبدمشق سنير وبحلب وحماة وحمص لبنان ، ويتصل بانطاكية والمصيصة فيسمى هناك الاسكاف ثم يمتد الى ملطية وسميساط وقاليقلا الى بحر الخزر فيسمى هناك القبق قال وفى لبنان سبعون لساناً لا يعرف كل قوم لسان الاخرين الا بترجمان (؟) وفيه من جميع الفواكه والزرع من غير ان يزرعه أحد وفيه يكون الابدال من الصالحين ، وقال القلقشندي ثم يمتد لبنان الى الشمال ويجاور

دمشق واذا صار في شمالها سمي جبل سنير .

وعلى ذكر الصالحين نقول أن لبنان مشهور منذ القديم بانقطاع الناس الى العبادة فيه قال ابن جبير في كلامه على العلم والمتعنين في الشام في القرن السادس للهجرة ما نصه : وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للاتقراء ، يلتزم ان أحب ضيعة من الضياع ، فيكون فيها طيب العيش ، ناعم البال وينهل الخبز عليه من أهل الضيعة . ويلتزم الامامة أو التعليم أو ماشاء ، ومتى سئم المقام خرج الى ضيعة أخرى ، أو يصعد الى جبل لبنان أو الى جبل الجودي فيلقى بها المريدين المنقطعين الى الله عز وجل فيقيم معهم ما شاء ، وينصرف الى حيث شاء ، ومن العجب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا به أحد المنقطعين من المسامين جلبوا لهم القوت وأحسنوا اليهم ، ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فيجب مشاركتهم . وهذا الجبل من أخصب جبال الدنيا فيه أنواع الفواكه ، وفيه المياه المطردة ، والظلال الوارفة ، وقل ما يخلو من التبتل والعبادة وقال ابن بطوطة في القرن الثامن : أن جبل لبنان من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين ، وهو شهير بذلك . ورأيت فيه جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه .

قلنا : ولذلك نرى المعروف اليوم بالاحصاء ان في لبنان نحو ألفي راهب وراهبة لهم ١١٨ ديراً ما عدا الكنائس والبيع والصوامع التي لا تخلو قرية عن واحدة أو عدة منها ولا يقل دخل الرهبانات والاديار فيه عن مئة وخمسين ألف ليرة في السنة كما أكد بعض العارفين ، وهو نحو ثلث ايراد لبنان وفيه المحابس التي ينقطع فيها الى النسك بعض الرهبان فيقيمون في منارة أو مكان منفرد يتعبدون في الخلاء ، زرت أحدهم في مديرية القاطع فرأيت متوفراً على كرم له هناك حتى جاد وأخصب يعمل فيه بيده ولا يكاد يأكل منه متى نضج ويصرف شطراً من وقته في النسك والصلاة ، ولو قام كل امرئ بالواجب عليه فسعى

للمعاش سعى هذا الحبيس وعبد الله وخافه لارتفعت الشرور من البشر وقل
احتياجنا للحكومات وقوانينها ، وهذه المحابس ^(١) قديمة في لبنان ترد الى عهد
هيلاريون الناسك أو قبله وفي عدلون بين صيداء وصور على مقربة من صرْفند
عند الجسر سخر عال حفر فيه نحو مائتي كهف اتخذها الرهبان مساكن لهم

وبالنظر لنوسط لبنان من سورية كان نافعا بعمرانه لها بطبيعته فكان
علو قمه — وأعلاها ظهر القضيبي علوه ٣٠٦٣ متراً ثم في الوسط جبل صنين
وعلوه ٢٨٠٦ متراً وأعلى نقطة في جبل الشيخ ٢٨٦٠ متراً — وتكثر ضبابه
وكثرة أشجاره وقربه من البحر كلها داعية الى كثرة الثلوج والامطار فيه فيتكون
من عصارانها ومسايلها أنهار ذات شأن عظيم في عمران الشام . فمن سفوح لبنان
تنبجس أعظم أنهار سورية فهر العاصي الذي يروى أراضي وادي حمص وحماة
وانطاكية ينبجس من الهرمل في شمالي لبنان ونهر الليطاني الذي يروى بلاد
صيداء وصور وتنتفع به بعض بلاد البقاع ينزع من لبنان ونهر طرابلس المسمى
بنهر أبي علي ويعرف قديماً بقاديشا يخرج من سفح لبنان ونهر الكلب ويروت
الذان يسقيان مدينة بيروت وصاحبتها ينبجسان من الشفح الغربي من لبنان
ونهر البردوني الذي يسقي زحلة وبعض البقاع هو لبناني المنبع أيضاً . ومن
لبنان الشرق ينبجس الأردن « الشريعة » كما ينبجس من غرب لبنان الغربي
نهر ابراهيم

فالبنان في فائده لسورية أشبه بجبال الالاب في سويسرا أو بنيل مصر من
حيث امتداد المنافع ، ولألب والنيل المثل الأعلى ، وفي لبنان عدة ينابيع
منها نبع الأربعين ونبع صنين وبقليع واللبن والعسل والباروك وعين زحلتا وقد
زرت هاتين الأخيرتين

وصلنا الى الباروك في زهاء ساعتين من دير القمر مارين ببيت الدين مركز
مصرفية لبنان الصيفي وكفرنبرخ وبعض المزارع وقرية الباروك في واد منفرج

قليلا تنبع عينها على قيد غلوة منها ، أما المصطافون فيها فيختارون في الغالب النزول بالقرب من رأس العين في نزل هناك أو خيام لهم يضربونها وسط الحراج المبتوثة على آكام الباروك وجبالها ، فتوفر لهم بذلك الى جودة الماء التي ما بعدها جودة فيما أظن : طيب الهواء ونسيم الأرز والصنوبر العليل الليل : ومن الباروك الى عين زحلنا ساعة على الراكب ، وفي هذه القرية فنادق حسنة لكثرة ورود المصطافين اليها للتمتع بنقع الصفا وقاع الريم اللذين ينبعان في ظاهرها ولتسريح عيونهم بجمال موقعها ، وخصب واديها وحراجة الغبياء ، وعين الباروك وعين زحلنا على مساماة واحدة في العلو . وماؤها يكاد يكون متشابهاً والطريق من عين زحلنا الى عين صوفر مارا بطريق السكة الحديدية نحو ساعتين ونصف في العربة أو على الراكب وهذه العيون يذفع بها كلها في سقى الحدائق في القرى البعيدة والقريبة

ومن صوفر قصدت حمانا وقرتايل فصليما فعبدت فبحنس فيكفيا فبيت شباب فالشاوية فالفريكة . وهنا قضيت مع صديقي الابرامين أفندي ريحاني الكاتب الشاعر المفكر الشهير أياما رائقة ريثما ركبت البحر من بيروت قاصدا القطر المصري فأوروبا ، هذا وقد كان سبق لي منذ سنين أن زرت بعض قرى كسروان والبترون وزحلة فأكون هذه المرة بما خبرته من حال هذه الاقضية الثلاثة الاخرى وهي جزيين والشوف والمتن خليقا بأن أتكلم على الجبل خصوصا ولم ينقصني منه الا قضاء الكورة فقط

نبذة في تاريخ لبنان

٣

لم يخرج لبنان في دور من أدواره عن كونه ممقلا حصيناً كل من سادته يكون في الأعم من حالاته الى الشدة والمضاء يتعب من يسودهم وقد يتعب به

جيرانه من أهل البلدان الأخرى . ولقد كان تاريخه السياسي كتاريخ معظم المقاطعات السورية استقلالاً وخضوعاً للغرب ولكن أيام الاستقلال أكثر من غيرها في غيره من أقاليم الشام

والغالب أن قاصيته خضعت للفينيقيين كما خضعت سواحله واستولت عليه حكومة الايتوريين العربية وأهالي جيدور حوران في عهد الروم . والايتوريون شعب شديد الشكيمة مولع بالحروب انكفأ من الجيدور والوجهاء ببلاده ونزل البقاع فأنشأ له مدينة شاليسيس أو عين جر (عنجر) جعلها عاصمة وأخذ يشن الغارات على لبنان وينتقل إلى الامام حتى تيسر له أن تسور قمه وأخضعه لسلطانه ثم انحدر إلى سواحل الشام وجعل مدينة طرابلس مركزاً ثانياً^(١) وأكثر من كانوا يتأذون من بأس الايتوريين سكان جبيل وبيروت فلم يكونوا يملكون معهم لا تقسمهم طولا ولا حولا .

نعم خضع هذا الجبل للفتاحين واستولى على زمامه المردة وهم قوم من نصارى الفرس أتى بهم الروم ليدفعوا عن لبنان غزوات الايتوريين فنزل المردة^(٢) في الشمال أوائل القرن الأول للهجرة ثم جاء التنوخيون ونزلوا جنوبيه وتوالى عليه الامراء المعنيون فآل عساف التركمان ومن سلالة المعنيين الامير نحر الدين الذي عهد اليه السلطان سليم فاتح سورية ومصر بولاية الشام ثم الشهابيون ومن أمراءهم الأمير بشير المالطي الثاني ومن أمراء لبنان جان بولاد (جنبلاط) الذي حكم الشام سفتين في القرن العاشر فيما ذكر .

وروى التاريخ أن سكان كسروان أخذوا في القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة يطيلون أيدي اعتدائهم على أبناء السبيل فيحطفون المسلمين ويبيعونهم من الأعداء فكان عناكر المسلمين معهم بين عدوين هم في جبال صنين أو الظننين كما سماهم أبو الفداء وجيوش التتار التي انتهالت على هذه البلاد

(١) تسريح الابصار (٢) هذه اللفظة فارسية ومعنى مرد الرجل

كسيل العرم ان نجا المسلم من التترى لا ينجو من الكسرواني (سنة ٦٩٩)
ولذا سار شيخ الاسلام ابن تيمية سنة ٧٠٤ لنصح أولئك العصاة فلما لم ينجع
النصح فيهم قاتلتهم الجيوش الشامية قتالا هائلا بزامة جمال الدين اقوش
الافرم نائب دمشق . والغالب أن سكان كسروان كانوا اذذاك خليطاً من النصيرية
والموارنة وغيرهم كما كان سكان ساحل كسروان من اليعاقبة

وما زال نواب الشام^(١) الاشرف بن خليل قلاوون والناصر محمد بن قلاوون
يحاربون النصيرية في كسروان حتى أخرجوهم وجعلوا بدلهم قوما من التركمان
في بعض النواحي وبقي كثير من المتأولة معهم كما فعل صلاح الدين يوسف لما
استخلص ساحل لبنان . ولا سيما جبيل وأعمالها من أيدي الافرنج سنة ٥٨٣
فرتب^(٢) في جبيل قوما من الاكراد لحفظها فبقيت على ذلك الى سنة ٥٩٣ فباعها
الاکراد الذين كانوا بها ورحلوا عنها ثم عادت تلك السواحل فاستولى عليها الافرنج
بعد صلاح الدين لان الكسروانيين كانوا نصراء الصليبيين يمدونهم بالذخائر
والرجال .

ولذلك أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق بأن تخرب بلادهم فخربت على
عهده وعهد غيره من حكامها ولا سيما على عهد الافرم كما تقدم اذ قضى بقطع
كروهم وتخريب بيوتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وتفرقوا في البلاد أيدي سبا .
ولما انتشر التركمان بكسروان سنة ٦٠٦ تداركهم^(٣) بثلاثمائة فارس وجعلوا
دركهم من حدود انطلياس الى مغارة الأسد على حدود معاملة طرابلس فكانوا
يمنعون من يستنكرونه أن يتعدى دربسد نهر الكلب الا بورقة طريق من
المتولى أو من أمراء الغرب كما كانوا يفعلون بقطية^(٤) على درب مصر وجعلوا
التركان ثلاثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهراً لحفظ المواني والدروب . وفي
سنة ٦٨٦ صدر منشور من ملك الامراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور

(١) تاريخ بيروت امالح بن يحيى (٢) معجم البلدان لياقوت (٣) تاريخ بيروت (٤) قرية
في طريق مصر وسط الرمل كانت الحجاز بين مصر والشام وقد مررت بها وأنا منهزم من وجه
حكومة سورية في ربيع سنة ١٣٣٠ هـ

قلاوون الى جمال الدين وزين الدين بن علي انه اذا بلغهما توجه المقر الشمسى سنقر المنصورى بالعساكر الى جهة كسروان والجردان يتوجها اليه بجموعهما وأسرتيهما وان من سبي امرأة منهم كانت له جارية أو صبياً كان له مملوكا ومن أحضر منهم رأساً فله دينار وان سنقر توجه لاستئصال شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم . وهذه الفقرات على شدتها لم تصدر عن أمراء الشام الا بعد ان طفق كائن صبرهم من تمرد الكسروانيين .

واختلف العلماء فى أصول سكان لبنان والارجح انهم خليط من الفينيقيين والآراميين والروم والعرب مزجتهم بودقة واحدة فغدوا مزيجاً واحداً كما هو حال معظم البلاد . فانك ترى كثيرين من أسرات لبنان المشهورة نزحت من بلاد حلب وحماة وحمص وحوران فى الداخلية ولا سيما فى القرون الخمسة الاخيرة . ذكر المؤرخون ان معاوية نقل الى طرابلس وجبيل وبيروت وصيदा قوماً من الفرس يسكنونها . وذكروا أيضاً ان أبا جعفر المنصور العباسي لما قدم دمشق من بغداد قدم عليه من بلاد المعرة الامير ارسلان وأخوه الامير منذر بجماعة من عشيرتهما قطابت نفس الخليفة بهما فأمرهما أن يسكنا فى جبال بيروت الحالية من السكان وأنعم عليهما بمقاطعات معلومة فسكنوا وبعضهم فى كسروان وأخذوا يشنون الغارات على مجاوريههم . وفى بعضها أحرقت قرى من كسروان السفلى ، وتقوى الامراء الارسلانيون بعشارهم وعمرؤا العائثر فى الشويفات وجوارها أما الموارد فكان أول منشأهم فى شمالي سورية فى الاغلب ينتسبون الى قديس لهم اسمه مارون وهم طائفة كاثوليكية لا يكادون يختلفون عن الكثلركة فى أمر جوهرى فى المعتقدات جاؤا شمالي لبنان أولاً ومازالوا يمتدون ويتردون سكان الجبال الاصليين أو ينصرونهم ويدمجونهم فى جملتهم حتى بلغوا الجنوب واحتفظ الدروز ببلادهم بما فيهم من الشدة والاباء

وزعم بعضهم ان الموارد لم يسكنوا كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد لانه لا يوجد بين اديار كسروان اليوم دير واحد يسبق عهده القرن السابع

عشر وان جبيل والبترون كانتا على الحياد مع الصليبيين فلم تنحازا اليهم ولا للمسلمين أصحاب البلاد الا ان هذا لم يمنع من الرواية الثانية من ممالأة الموارنة للصليبيين ودلالتهم على الطرق ونجدهم^(١) لهم وثباتهم معهم على العهد الى النهاية حتى خرجوا من سورية سنة ١٣٠٢ م ومن أجل هذا اضطر حكام البلاد أن يحرقوا ويقتلوا ويسبوا بعض القرى القريبة من طرابلس مثل اهدن وبقوفا وحصرون وكفر سارون والحدث

وما برح لبنان ينقسم بين أمراء المقاطعات يحكمونه على النحو الذي كانت عليه صورة الحكم في البلاد العثمانية قبل تنظيم الولايات . يقوى اليمانيون تارة والقيسيون أخرى والناس معهم في أمر مريب ومن النحزبات القيسية واليمانية ما وقع في الربع الأول من القرن السادس عشر للميلاد بين الأمير حر الدين المعنى القيسي وجمال الدين الارسلاني البني . قال المقرزي وعشير الشام فرقتان قبس ويمن لا يتفقان قط وفي كل قليل يشور بعضهم على بعض .

ونشأ حزب آخر وهو الحزب اليزبكي نسبة الى يزيك جد الشيخ عبد السلام العماد زعيمه والجنبلاتى نسبة الى الشيخ علي جنبلاط زعيمه الآخر وذلك سنة ١٧٢٩ — ١٧٥٤ وامتد في لبنان ولم يزل له أثر كما نشأت أحزاب أخرى كالمعلوفى والمكارمى ومثل هذه الأحزاب قد لا تخلو من حدود فتن تهرق فيها الدماء وتكثر الأيامى والاماء كما فعل الحماديون وأحرقوا بلاد جبيل والبترون وحرقت جميعها ونزح سكانها الى بلاد ابن معن وكانت المداوة بين بنى سيفا وبنى معن سبباً في تخريب الجبل أيضاً .

ومن الوقائع التى يتمت فيها الأبطال تلك الواقعة التى جرت في القرن العاشر عقيب أن نهب بعض أمراء لبنان الصرة السلطانية من جون عكا بينما كانت محمولة الى الاستانة فجمع ابراهيم باشا صهر السلطان مراد بن السلطان سليم العساكر من مصر وقبرص ودمشق وحلب وقدم بها الى مرج عرجوش قرب زحلة وأمسك

(١) تاريخ الطبريك الدوهي وتاريخ المقاطعة السكروايبه للاحتونى

طريق البحر والبقاع على الدروز ففضل نحو ستمائة منهم وأسر بعض الامراء .
وما زالت حال الجبل في اقبال وادبار تقع اليوم فتنة العاقورة وغداً وقعة
مرحلاتا وبعده وقعة أرض خلدة ثم فتنة برج العلول وبعد ذلك وقعة عين دارة
حتى أقامت له الدولة سنة ١٨٤٢ عمر باشا النمى واليا فلم تطل مدته حتى منحت
الدولة للجبل امتيازات وقسمته في السنة التالية الى مقاطعات . وتعرف الأولى^(١)
بقائم مقامية النصارى وهى الشمالية تمتد من نهر البارد فى عكا الى طريق دمشق مع
بعض قرى ساحل بيروت تولاها الامير حيدر اسماعيل اللعى وتعرف الثانية
بقائم مقامية الدروز وهى الجنوبية تمتد من طريق الشام الى منتهى جبل الريحان
فى الشمال مع قرى اقليم النفاح وبعض قرى ساحل بيروت وتولى شؤونها الامير احمد
عباس الارسلاني أما قصة دير القمر فكان يتولى شؤونها رجل من قبل والى
ايالة صيدا وكانت قائم مقامية النصارى مؤلفة من المتن وكسروان والبسترون
والسكورة وزحلة وقائم مقامية الدروز تشمل قضاء الشوف وجزيرن وقسمان
غربى البقاع وبعض قرى مديرية الساحل الداخلة اليوم فى قضاء المتن وفرض
على لبنان فى كل سنة ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس

ودام الحال على ذلك الى سنة ١٨٦٠ ومداشتمت جذوة تلك الفتنة المشؤومة
بين الدروز والنصارى فى لبنان فمنحت الدولة هذا الجبل استقلالاً ادارياً بأن
جعلته متصرفية يتولى شؤونها حاكم مسيحي تبعث به الدولة كل خمس سنين
أو تجدد انتخابه بمصادقة الدول . وجعل مال لبنان سبعة آلاف أو ثلاثة ملايين
ونصف مليون قرش وضعت على الاعناق .

ولحكومة لبنان موارد أخرى سنوية منها نحو أربعة ملايين قرش من
بدلات حاصلات الاراضى الاميرية ورسوم المحاكم والمقاولات والعربات
والعجلات وتعديل بثلاثة عشر ألف ليرة ولا تتناول الدولة الآن شيئاً من مال
الجبل ولا تعطيه وكانت منذ سنين تدفع اليه العجز فى ميزانيته وفى لبنان ألف

جندى لبناني بإدارة أميرالاي لبناني وفي بيت الدين فرقة من الجند العثماني المحافظ وعليها أميرالاي بإدارة حكومة لبنان .

وتحاول حكومة الجبل الآن أن تزيد الضرائب قليلا ليتيسر لها القيام ببعض الإصلاحات والتوسعة على موظفيها كما وسع عليهم في سائر البلاد العثمانية بعد الدستور الا أن معظم الاهلين يقاومونها وفاتهم أن الليرة منذ خمسين سنة لا تعاد لها اليوم الا الثلاث ليرات أو أكثر لوفرة الذهب وغلاء الاسعار وهم يعتبرون أن هذا العمل اخلال بشروط امتيازاتهم ويخافون أن يتدرج الامر الى العبث بقانونهم فيختل نظامه مع الزمن من أجل هذا أبى اللبنانيون أن يبعثوا الى مجلس الامة العثمانية بنواب منهم يمثلونهم وما نظن وطنيتهم تحول بينهم في الانتخاب القادم وبين ارسال نواب عنهم حتى يشتركوا وسائر اخوانهم العثمانيين في الغنم والفرم فليس من الانصاف أن يبقى جبلهم بدعوى قلة خصبه على الحياد وهو في وسط البلاد ويحسب جزءاً متمماً من أجزاء السلطنة العثمانية كيف تقلبت الحال وتمددت المظاهر والاشكال .

غابات لبنان



ليس في لبنان أرض تبلغ مساحتها مائة كيلو متر مربع بل غاية ما فيه من الاراضي منحدرات ومنعرجات وأودية ضيقة ومسائل صغيرة وفيها جعل القدماء زروعهم وأشجارهم وأكثر الاراضي مما يصلح للشجر أكثر مما يصلح للبقول والغلات شأن جبال الارض في الاكثر وليس في الايدي نص قديم يشير الى أصناف زراعة لبنان منذ عرف التاريخ غير ما نقلناه في نبذة سالفة عن مؤلفي العرب من ان فيه أصناف الفواكه والزروع وأكثرها مما ينبت بنفسه وهو

كلام مجمل لا يشبع ولا يقنع . واذ كانت طبيعة أرض لبنان لم تتغير منذ عشرات من القرون كانت الزروع التي لا تناسبها أرضه ضعيفة فيه أو تكاد تكون معدومة . ولكن لم تخل أرض لبنان في زمان من أزمانها من الزيتون والتين والكرم والخروب والجوز واللوز والتفاح والصنوبر والتوت من الاشجار المثمرة والزان والسنديان والسرو والارز من الاشجار غير المثمرة .

وقد أكثر القدماء والمحدثون من الكلام خاصة على تاريخ الارز لورود ذكره في الكتاب المقدس مرات ولان من خشبه بنى قصر داود وهيكل سليمان والهيكل الثاني الذي جدد في أيام زربابل وسقف الهيكل المجدد في عهد هيرودوس وقبة القبر المقدس وسقف الكنيسة في بيت لحم . وقالوا انه ثبت أن ملوك الاشوريين والبابليين استعملوا في قصورهم خشب الارز وان المصريين ادخلوا من خشبه في بناء هياكلهم وقصورهم كما فعل الفرس وان الاسكندر المقدوني وضع من خشب الارز في السد الذي أقامه بين الجزيرة والشاطئ حيث كانت مدينة صور وكذلك ملوك السلوقيين في سورية ادخلوا خشب الارز في بناء دورهم .

وكل هذه الاخشاب قطعت من لبنان أو من الجبال المجاورة له وكانت تحمل في الغالب إلى طرابلس وصيدا وصور حيث كانت دور الصناعات وقد أنشأ بعض ملوك الاسلام أساطيل من خشب الارز وقالوا ان بيروت^(١) كانت دار صناعة دمشق (مسلحتها أو ترساتها أو ورشتها) وبها عمر معاوية المراكب وجهاز فيها الجيش إلى قبرص ومعهم أم حرام وأسمها العميصاء وقيل انه عمر من الارز ألفاً وتسعمائة سفينة وبعد سنين جهاز أسطولاً أضخم من الارز نفسه وتبعه غيره من ملوك الاسلام في اختيار الاخشاب للسفن من غابات لبنان وما برح كثيرون من المتدينين بالنصرانية يتبركون بشجر الارز ويحملون من غصونه قطعاً ينقلونها من قارة إلى قارة ومن مملكة إلى أخرى وهو عطر لرائحة إذا وضع في النار ويحسن في المشم اذا مسسته ييدك ولونه أصفر فاقع مشرب بخطوط حمراء

(١) تاريخ بيروت

لا تعبث به الارضة ولا يفعل فيه السوس ولذلك كاد ينقرض لكثرة حرص السوريين وغيرهم على استعماله في أبنيتهم وقصورهم ويبيعهم وهياكلهم وتماثيلهم ونصبهم .
والغالب أن الحكومة السالفة القديمة في لبنان كانت تحتكر أربعة أشكال من الشجر تستثمرها لحزبها وهي السرو والعرعر والارز والعنوبر وتسمح بقطع غيرها واحتطابه أو غرس غيره محله . وقد بدأ النقص في هذه الاشجار ولا سيما الارز منها منذ خمسة قرون لان اللبنانيين احتاجوا إلى الاحتطاب وأخذوا يكثرون من زراعة التوت والكرم خصوصاً وقد جرت عادة بعض حكام لبنان اذا غضبوا على أحد أن يقطعوا أشجاره ويخربوا داره وإلى اليوم لا يزال من الامثال العامة السائرة في الجبل « الله يقطع رزقه » أى ما يملك من شجر و « الله يخرب رزقه » أى بيته — فانه في الدوائى

مثال ذلك أن الامير أحمد المعنى طرد المشايخ الحماديين المتأولة لما كثرت بغيتهم في كسروان ففروا الى بلاد بعلبك فاحرق قراهم في القرن الحادى عشر وقطع أشجارهم وقد رسم مرة بيدر — كما في تاريخ بيروت — نائب الشام لشهاب الدين ابن زين الدين صالح من أمراء الغرب في لبنان وكان في دمشق أن يركب على خيل البريد ويتوجه الى قرية عين زحلتا من شوف صيداء ليكشف عما فيها من أشجار التوت النافع لعمل النشاب فلم يجده موافقاً وربما أحب عدم تصديق أهل البلاد بقطعه ونقله ومنذ ذلك العهد احتد أهل الشوف في قطع شجر التوت وتمطيل نشوئه واستئصاله لئلا تصدعهم الدولة من جهته . قلنا ومثل ذلك ما نشاهده في أيامنا من أن بعض أهل القرى البعيدة عن مراكز الحكومة في الولايات العثمانية قد يسخون بقطع أشجارهم فراراً من ظلم ملتزمى الاعشار واشتطاطهم في تقاضى العشور عليها اضعافاً مضاعفة

ولم يبرح شجر الارز موجوداً في عدة أماكن من لبنان على كثرة ما انتابه من البوائق فبالقرب من معاصر الفخار على مقربة من بيت الدين غابة منه فيها نحو ٢٥٠ شجرة يسمونها الابل وأخرى فوق قرية الباروك غير ملتفة وضعيفة

النمو لكثرة الامطار والثلوج والعواصف في تلك الارزاء وثالثة فوق قرية عين زحلنا وكان أحرق أكثرها لاستخراج القطران منه وقطع بعضها أيام حادثة سنة ستين لتجدد بنخشبه بمض بيوت المنكويين ورابعة بين افقا والعاقورة في جرد جبيل من بلاد كسروان وخامسة بين قرية تنورين وبشري صغيرة الشجر وعدد شجيراتنا نحو عشرة آلاف وسادسة بالقرب من بشري على علو ١٩٢٥ مترا عن سطح البحر وهي مقصد السياح وفيها أضخم أشجار الارز ويبلغ عددها ٣٩٧ وقيل ٦٨٠ شجرة منها ١٢ كبرى وأكبرها شجرتان دائرة جذع كل منهما نحو خمسة عشر متراً وارتفاع اطولها خمسة وعشرون متراً وقدرها عمرها بثلاثة آلاف سنة . ولا أثر الآن في سورية لشجر الارز إلا في أعالي سير ببلاد الضنية (١) في وادي النجاص ففيه كثير من شجر الارز على ارتفاع ١٩٠٠ متر عن سطح البحر وبين سير ونبع السكر وفي الغابة الواقعة خلف وادي جهنم ويسمى عند أهله تنوب

ولو توفرت همة ابن الجبل اليوم على غرس شجر الارز أو أى كان من شجر الاحتطاب في الاماكن الخالية ولا سيما في القمم والقفن لما أتت عشرات من السنين إلا وقد زادت ثروة الجبل زيادة محمودة وكان مع طول الزمن لابن لبنان من أشجاره مورد آخر غير التوت والزيتون مثلاً لان شجر الارز لا يوجد في الغالب الا في مثل هذا العلو من الجبل بل من جبال سورية التي تشبه لبنان بطبيعتها وموقعها .

واذا زاد عدد الغابات في سورية زيادة كبرى وتوفرت عناية ولايات بيروت وسورية وحلب ومتصرفيتي القدس والزور بتكثير الغابات في الاماكن الخالية ولا سيما في المحال التي يعرف انها كانت غابات غيباء نافعة يتحول مناخ سورية وتكثر فيها الامطار بعد سنين ولا تعود تخشى اليبوسة وهلاك الزرع والضرع كما يحدث بعض السنين فيتأذى بذلك العرب الرحالة في باديتهم كما يتضرر ابن

المعمورة بهم ويصبح منهم بين نكبتين سماوية بقلة الامطار وارضية بسطو
ابن البادية على ما بقى لابن القرى من رزق
وليت حكومة لبنان تبدأ فتفرض على كل لبناني ان يغرس عشر شجرات
من أصناف الشجر عله تقتدى بها سائر حكومات بلاد الشام بعد ذلك فلا
يأتى علينا جيل الا وتصبح سورية غنية بغاباتها كفى سويسرا أو أكثر
والاشجار فى بلادنا أكثر نمواً مما هى فى أوروبا لما عرف من اعتدال الفصول
ولطف الجو ولقد جربت حكومة الجزائر فغرست الغابات منذ زهاء خمسين سنة
فكانت النتيجة ان أكثر اليوم تهطل الامطار فيها على طريقة منظمة وسيكثر
خيرها كلما زادت أشجارها وعسانا نقتدى فى سورية بهذا المثال

الهجرة من لبنان



منذ أمن السكان فى لبنان على أرزاقهم وانقطعت شأفة أرباب المقاطعات
الذين طالما اشتطوا فى مطالبهم وبطلت أو كادت السلطة الافراية الذوقية وقلت
الأوبئة والزلازل التى كانت تحصد العمران والسكان حصداً كالزلازل الذى طود
لبنان مرات سنة ١٧٥٩ م وخرب القرى وأهلك الناس والطاعون الذى حدث
سنة ١٧٨٩ وعم لبنان كله واستمر الموتان ثلاثين سنة - منذ خفت العوارض
الطبيعية والارضية أخذ كل فرد يحسن من حاله فنمت النفوس باستتباب أسباب
الراحة وأخذ المرسلون وغيرهم من رجال الدين منذ زهاء مئة سنة ينشئون أبناء
الجليل على المنازع الدينية ويلقنونهم شيئاً من اللغات الافرنجية والعلوم المصرية
كما ان الموارنة ما زالت لهم علائق مع الكرسى البابوى فى رومية يختلف اليه
أخبارهم منذ قرون وربما انتفع الجبل من هذه الصلة والعائد

ثم ان طبيعة الجبل تقتضى التحسين والتنظيم . والمسيحيون على الجملة يميلون الى الرفاهية . ويقدرّون طعم الحياة قدرها . ولم يكد يدخل القرن الثالث عشر للهجرة فى دور العدم . ويطلع القرن الرابع عشر . حتى دخل جبل لبنان فى طور جديد : فكثرت طرق عجلاته . حتى أصبح لديه منها الآن نحو ألف كيلومتر تجمع بين قراه ومزارعه كالشبكة المحكمة . وتسمى سبل التنقل على المصطافين فى ربوعه . وأكثر هذه الطرق فى قضاء المتن . لانه ظهر لبنان ونقطته الوسطى : ومقصد المصطافين : من البيروتين والشاميين والمصريين وغيرهم . وفيه الآن سبعون كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها خمسون من طريق بيروت ودمشق وعشرون من ترامواى شمالى لبنان .

وفى هذا الجبل ٢٥ مدرسة داخلية كبرى وصغرى و١٤ مدرسة اكليركية و٨ . مستشفيات و٢٠٦ من الحراج والغابات و١٤٧ من معامل الحرير و٨١٩٧ من الدوايب وبلغت حاصلاته من الفبالج (الشرائق) سنة ١٩٠٦ — ٢٠٢٧٠٣٠ أوقية ومن الزيت ٢٥٤٨٨ أقة وثمان الحرير الذى يخرج منه نحو ثمانية ملايين فرنك فى السنة وكثر سكانه حتى عدلوا ان فى كل كيلومتر مربع ٦١ نفساً ولا يفوق الجبل فى ذلك غير ولاية الاستانة وجزيرة سيسام (ساموس) . وسكانه الآن زهاء أربعمئة وثلاثون ألف نسمة منهم ٢٥٠ ألفاً من الموارنة و١٦٠ ألفاً من الروم و٣٦ ألفاً من الكاثوليك و٥٥ ألفاً من الدروز و٣٣ ألفاً من المسلمين (سنة وشيعة) و١٥٠٠ من البروتستانت والباقون ارمن واسرائيليون وكلدان ولاتين وفيه خمسمئة من أهل الوبى يعيشون فى مضاربهم خارج القرى وأكثرهم فقراء يستوكفون الاكف وقد أحصى غليهموس الصورى فى تاريخ الصليبيين عدد الموارنة فى عصره فكانوا أربعين ألفاً وما زال عددهم يربو على عدد وفياتهم وان هاجر كثيرون بعد ذلك الى قبرص ورودس والقدس ومالطة ولا يبعد أن تكون اللغة العربية انتشرت فى جزيرة مالطة بواسطتهم .

ولا يسعنا وقد وصلنا من بحثنا فى شؤون الجبل الى هذا الحد الا أن نرسل

جملة في شغف اللبنانيين بالهجرة الى أميركا وغيرها من البلاد التي توهم ابن سورية ان المال فيها ملقى على الشوارع لا يحتاج الا لمن يمد يده ليتناوله مع أن أولئك المهاجرين لو صرفوا في بلادهم نصف ما يصرفون من الوقت والقوة في بلاد المهجر على طول السنة وحسبوا ما صرفوه في ذهابهم وإيابهم وقدروا عدد من هلكوا منهم لرأوا ان المعدل واحد والفرق قليل لا يساوي هذا النصب .

والذي ظهر من قرائن الاحوال ان ابن لبنان كان أول فلاح سوري هاجر الى أميركا أو جراً سائر السوريين على الهجرة محدوباً بما اشتهر عن القارة الاميركية من الغنى ولكثرة علائق لبنان مع الغرب قبل حادثة سنة ١٨٦٠ وبعدها ولان ابن لبنان أكثر أهل جبال سورية تعلماً ونوراً وأوفرهم نشاطاً ومضاء وشماعاً وادلالاً بل ان مجموع القارئين والكاتبين فيه أوفر من مجموع القارئين والكاتبين في مجموع مدن الشام

وأول من دخل أميركا (١) من السوريين الخوري الياس بن القسيس حنا الموصلي الكلداني من سنة ١٦٦٨ - ١٦٨٣ وأول من دخل أميركا الشمالية في القرن الماضي الخوري فلاييانوس الكفوري سافر اليها سنة ١٨٤٨ وأخذ معه ناصيف الشدودي وأول من دخل الجنوبية المطران باسيلوس حجار سنة ١٨٧٤ وكانت غايتهم جمع الاحسان وأول من دخل أميركا الشمالية للتجارة تجار من بيت لحم حملوا مصنوعاتهم الخشبية المرصعة بالصدف الى معرض فيلادلفيا سنة ١٨٧٦ ثم عادوا الى بلادهم بثروة وافرة فاقتنى أثرهم غيرهم واتصل ذلك بشمالى لبنان وامتد في كل سورية ثم كثرت الجالية السورية في العالم الجديد وأستراليا وجزر البحر المحيط بل وفي افريقية شرفها وغربها وشمالها وجنوبها وقدّر بعضهم ان ثلث المهاجرين يسكن أميركا وثلثهم يرجع الى وطنه والثلث الآخر يموت . ونظن ان الثلث الاخير مبالغ فيه وان كان عدد الهاالكين في المهجر غير قليل . وأحصى عدد السوريين المهاجرين الى سنة ١٩٠٦ فكانوا مائتين وخمسين ألفاً منهم ستون ألفاً في الولايات المتحدة وخمسون ألفاً في جمهوريات

أميركا الجنوبية وخمسة وعشرون الفأى أميركا الوسطى وعشرة آلاف فى أستراليا وبعض الجزائر والباقيون فى إفريقيا والهند والفلبين وكوبا ومصر وعدد اللبنانيين منهم ستون ألفاً نصفهم ذكور ونصفهم إناث وربما كان الذكور أكثر كثر الهجرة منذ نحو عشرين سنة وذهب بعض سكان لبنان بأقدامهم وذكائهم المعهود فنزلوا فى دار الهجرة بلاداً نحتاج إلى أيد عاملة ونفوس لا تعرف التعب فأنشأوا يعملون ويذخرون ويقفرون على أنفسهم فى المنفعة على خلاف عادة معظم المهاجرين إلى أميركا من أهل أوروبا مثلاً فأب من قدرت له السلامة منهم ولم يكن له رأس مال فى هجرته غير صحته بمئات من الليرات فكان أول همه أن يعمر له داراً قوراء بالحجر المحيى والقرميد على المثل الذى رآه فى بيوت المهاجرين وكثر تقليد الناس بعضهم بعضاً ومنهم من اشترى له أرضاً فى بلده وطلق الآخر ينجر بما حناه من ذلك الرأس المال القليل . أما الأفراد الذين اغتنوا فعدت ثروتهم بالآلاف فقد استوطنوا البلاد التى هاجروها جرياً على المثل العامى « فى المطرح الذى فيه تررق العسق » وهم ان كانت نحدتهم أنفسهم بالرحوع لا يهنأ لهم بال متى عادوا اذ يتحلى لهم الفرق الكبير بين نيويورك وشيكاغو وسان فرانسيسكو وبوس ابرس وسان باولو مثلاً وبين عشقوت وبسكنتا وعمشيت وعرنة ومعرونة أما أولادهم فينطبعون بطابع البلاد التى ولدوا فيها وأكثرهم لا يتعلمون اللغة العربية ولذلك لا يرجى البتة أن يعودوا إلى موطن آبائهم وهذا القسم من حسرتهم البلاد حقيقة والذى يزيد فى الحسرة عليهم ان بعضهم ذهب برأس مال من بلاده ولو طفيف وبعضهم على جانب من الاخلاق والمعرفة لم يعمدوا إلى الطرق السافلة فى تحصيل الثروة .

نفعت الهجرة لبنان وأضرته وعندى أن المضار أكثر من المنافع اذ لا يظهر إلى العيان فى الغالب الا الحسن . فقد ذهب ألف مهاجر مثلاً إلى بلد كذا ولا ينجح منهم الا واحد أو اثنان فى أخذ الناس يتحدثون فى أمرها وينسون أولئك المئات الذين يعملون أربع عشرة ساعة كل يوم فى أشق الأعمال ولا يكادون

بعد مرور سنين يوفون أجرة الطريق التي استلفوها من أحد المرايين في بلدهم أو باعوا في الحصول عليها أرضاً لهم ورثوها من آبائهم خل عنك من هلكوا بالأمرض وغيرها وهكذا الحال في مجموع حالة لبنان من حيث منافع الهجرة ومضارها :

فان من نظر في الأمور نظراً سطحياً وشاهد تلك البيوت البديعة في قراه ومزارعه التي عمرت بمال أتى به المهاجرون من غير أرض لبنان وسمع بأن فلانا أصبح يملك كذا وكذا من الليرات وان بلد كذا يدخل اليه كل شهر من تحاويل أميركا ما يقدر بكذا من الذهب — من شاهد ذلك وسمعه لا يعم أن تعروه هزة الفرح لبلاده وربما اعتقد أن الحال اذا دام على هذا المنوال وأموال أميركا تتسرب الى بلادنا نصبح بعد بضع سنين أغنى من الأميركيان وننقل شطراً عظيماً مما عندهم من الذهب الوهاج وهذا منتهى السعادة البشرية .

ليست السعادة بكثرة المال . السعادة شيء غير ما يتوهمه من همهم انشاء البيوت وتزيينها من الظاهر وفي باطنها الشقاء والحسرة . قالت لي عجوز في صليبا وقد سألتها أين رجالكم : « ذهبوا الى أميركا وتركونا هنا نحرس لهم البيوت التي عمروها لتسرح فيها الفيران عادوا ليجمعوا كمية أكبر من المال لان ما جمعه لم يكفهم لاتمام هذه الدور على ما يحبون وفرشها ونقشها ثم ان حالة البلاد لم تعجبهم بعد ان شاهدوا مشاهد أميركا . » وقول هذه العجوز الذي أحزنتني مفزاه ولا تزال الأذن تردد صدهاء قد سمعت مثله من كثيرين من أهل لبنان رجال ونساء .

أي حسرة أعظم من ان تتوقع أم في كل أسبوع قدوم ابنها وقد تمضي الشهور ولا تتناول كتاباً منه أو زوجة تنتظر بعلمها منذ سنين هي وأولادها وهو لا يكاد يبعث لهم بنفقتهم فتضطر تلك المرأة المسكينة ان تعمل ليلاً ونهارها لتطعم اولادها من كدها وما هي بمفلحة ، وأي بلوى أكبر من ان تدخل القرية وتجد فيها عشرات من البنات عوانس ينتظرن عروساً لان شبان الضيعة هاجروا

وأكثرهم لا يريد ان يتزوج وبعضهم تزوج من امرأة اميركية وزهد في اسرته وقريته لانه تمدن بزعمه ولا يليق به ان يتزوج الا من متمدنة . ومن شاهد البنات العوانس في لبنان يدرك سر تمدد الزوجات في مثل هذه الحال ويسجل بأن أقل سيئة من سيئات الهجرة انقطاع الاهلين عن التناسل ولولا ذلك لكثرت نفوس لبنان كثرة تذكر لطيب هوائه ومائه وتوفر أسباب الراحة فيه .

وان دعوى من يدعون ان لبنان لولا الهجرة لاصبح خرابا مردودة من وجوه أحدها انهم يعتقدون ان تلك الاموال التي دخلت لبنان وهي تستخدم فيه الآن بفوائد طفيفة هي غنى لبنان وما الثروة في الحقيقة الا العمل ليس الا . فقد رأينا اسبانيا على عهد شارل كان يتسرب المال الى صناديقها بالبدر والسبائك من أقطار المعمور لان هذا الملك كان يعتقد ان كثرة النقود والذهب في بلاد كاف وحده في غناها ولكن لم تكن الصعة عقود من السنين حتى أمست اسبانيا أفقر بلاد أوروبا لان أهلها انقطعوا عن تهمة تربتها والاخذ بحظ من الصناعات اللازمة لهم والعلوم الراقعة من شأنهم .

ان انصراف وجهة اللبنانيين وغيرهم من السوريين الى نزول أميركا وافريقية للاغتناء من خيراتها بسرعة على أمل العودة الى مساقط رؤوسهم متى امتلأت أكياسهم وجيوبهم وعبابهم قد حال دون تهمة أرضهم واستثمار صناعاتهم في لبنان من الخيرات الطبيعية ما يكفي أهله اذا زادوا ضعف ما هم الآن . ومهما بلغت العناية اليوم بزراعته لا يزال فيه فضل للعمل وميدان واسع للجد ولا يشعر بذلك الا أرباب الاملاك . مثال ذلك ان « كدنة » الفلاحة كانت تساوي منذ سنوات قليلة خمسة وعشرين قرشا فأصبحت اليوم تساوي ستين على حين ان غلات التوت مثلا لم تزد على تلك النسبة وذلك لقلة ايدي العاملين وارتفاع اسعار الحبوب وغيره من مقومات المعاش في البلاد ولان المهاجر اللبناني الذي كان فلاحاً حراثاً الى عشرين او ثلاثين جداماً من اجداده اذا هاجر وقضى في هجرته ثلاث سنين ثم آب الى بلاده تكبر نفسه فلا يعود

يتنازل الى معاناة الزراعة بل يفضل ان يعيش كما يعيش تجار اميركا وارباب الاملاك في بلادنا وهو لا يملك رأس مال يكفيه سنة واحدة اذا ظل عطلا من العمل في أمثال العامة « أنا أمير وانت أمير فمن يسوق الحمير » حكمة لطيفة نافعة تصدق على كل لبناني مهاجر فاذا أحب كل فرد من المهاجرين أن يقلد الاعيان في عيشه ورفاهيته فمن يبقى لتعهد التوت والزيتون وغرس الصنوبر والارز والسنديان والزان وحفر الاقنية والاحواض وتمهيد الطرق ومعالجة الصناعات من حل الحرير وصنع الاقمشة المزركشة البسيطة وعمل الفرش والستور وأنواع الزينة .

ولقد قال الاقتصاديون ان من جملة ما ساعد المانيا على عظمها التجارية الصناعية العالمية انك تجد في رجالها أنواع العاملين ولا يستكف كل عامل من عمله بل ولا يريد أن يعرف الا به فالامان أشبه بجيش منظم فيهم الجندي كما فيهم الضابط الصغير والكبير والقائد العظيم وكل واحد منصرف الى عمله لا يتحدث نفسه أن يقلد رفيقه أو يعتدى عليه بل يعمل في دائرته بما يستطيعه ويحسنه ما أمكنه الحال ولو جرى اهل بلادنا على هذا المثال لاصبحنا بعد جيل امة راقية حقيقة ولما راينا الصغير يشكو لانه يريد تقليد الكبير واسبابه لا تساعده نحن لانجاري اولئك الذين يدعون ان لبنان كان خراباً لولا الهجرة لامور أقلها أن البلاد السورية واسعة واهل لبنان اليوم وقبل اليوم يستطيعون ان ينزلوا الاقاليم القليلة السكان المحتاجة الى العناية ويستعمروها فان فتشوا ذات العيين وذات الشمال ورأوا طرابلس وعكا وحمص وبعبك والبقاع ومرجعيون وصيداء تتأخم جبلهم وتحصرهم فيه فان لهم من بلاد الكرك وحوران وبادية الشام وبلاد حلب مثلاً ما يكفي لاغناء مئات الالوف من الناس فلونزلوا تلك البلاد الخاوية وعمروها بكدهم لاصبحت بعد سنين جنات زاهرة وأقل ما في ذلك من المنافع أن هذه البلاد منهم على أيام قليلة يستطيعون في استثمارها أن يقضوا معظم ايام السنة في جبلهم .

وقد كتب قائممقام سروج من أعمال حلب منذ مدة في جريدة المقتبس يقول ان خمسين قرية في قضاءه وحده محلولة وتباع كل واحدة منها بثلاثة آلاف فرش فلو اشتراها بعض أرباب الاموال من اللبنانيين وأنفقوا عليها النفقات التي ترقى زراعتها وغرسوا فيها الأشجار وأقاموا البيوت لما أنت ثلاثون سنة الا وهذا القضاء وحده من أعمار البقاع السورية فاما ما في غيره من الاضية والالوية والولايات العثمانية من الخيرات .

لا نوافق القائلين بالاعساء بسرعة . فان ما أتى بدون عناء كبير قد يذهب في الأثر كما جاء . وانا امؤثر أن بوجه اللبنانيون . ولا سيما في عهد الدستور السعيد وجوههم قبل البلاد الداخلة من سوريا والعراق والاندول فقهاء تسع لهم وفيها لهم مقام كثر لو صبروا على جنبها لكان لهم ولا بلأئهم وأحفادهم منها مال حالد وملاك لا يكاد يبلى .

وفي لبنان من الصناعات القديمة ما يرتقى لو سعوا الى تحسيه كعمل الاقمصة والنجارة والحدادة (١) وغيرها وله مورد آخر ثاريج ينتفع منه الآن أكثر من سائر حال سوريا ونعني به موسم المصطافين فان لسان من سورية ومصر كويسرا من أوروبا وأميركا يقصده الكنبرون كل سنة التماسا للصحة والراحة فلو عني اللبنانيون أكثر مما يعنون براحة من ينزلون عليهم لأنهم الصيف في كل سنة بما لا يقل عن مليون ليرة فقد حسب بعضهم عدد المصطافين في لبنان سنة ١٩٠٦ فكان خمسة عشر ألف نسمة أكثرهم من المصريين فلو فرضنا أن الواحد ينفق عشر ليرات لكان بذلك مبلغ لا يقل عن مائة وخمسين ألف ليرة فما الحال لو

(١) في قرية بات شاب من مديرية الناطم تصنع أجراس الكنائس وهذه الصناعة لا تعرف في بلاد العرب ولا في مصر وقد دخلت اليها في العالم على عهد الصليبيين وكان المسيحيون من قل في بلادنا يستعملون الواقس من الخشب وما زال هذه الصناعة محصورة في عائلة واحدة من عمال تلك القرية .

زاد هذا العدد ونحن نرى أن سويسرا وإيطاليا تريح كل منهما من موسم السياح كل سنة مالا يقل عن خمسة عشر مليون ليرة وإذا زادت عناية حكومة لبنان وأهله بالمصطافين في قم لبنان لا يعم أن يجلب إليه أناسا من المصطافين من أهل أوروبا نفسها خصوصا إذا رأى السياح أن النفقة في الجبل أقل مما في جبال الالب وأنها لا تبلغ مع أجور النقل في البحر والبر المبلغ الذي يصرفونه في بلاد الاصطياف .

وبعد فانا لا تقتأ نكرر القول بأن من الاتقع لابن لبنان أن يوجه بعد الآن وجهته الى الداخلية ليعتاش ويرتاش وانه اذا استفاد المهاجر منا الى أميركا من حيث ارتقاؤه في اقتباس بعض أصول التمدن في الملبس والمأكل والمسكن فان الأتفع له اليوم أن يستعمر بلاده نفسها وهي تحتاج الى أضعاف أضعافهم . وسوف يعامون أن هذه النصيحة صادرة عن اخلاص لا يراد منها الا تفع لبنان خاصة وسورية عامة . فان ما يقاسيه اللبناني من ألم الغربة والمهانة في الأحياء واحتقار الغربي له مهز باع من مكانته جدير بأن لا ينسبه بلاده والعيش بين أهله وجيرته . وقدر أحد العارفين مند ثلاث سنين ان ما حمله اللبنانيون المهاجرون الى لبنان يبلغ خمسمائة ألف ليرة أى على معدل خمس ليرات لكل مهاجر فلو فرضنا أن هذا القدر قليل وعدلناه نحن بمليون ليرة هل كان هذا المبلغ يعادل ما فقد من الرجال وخسرته البلاد من قواها المعنوية والادبية .

هالة مصر

٦

هبطت مصر وعهدى بها ليس ببعيد غبت عنها أربعة عشر شهراً ، وكنت صرفت فيها أربع سنين أيام الحكم الاستبدادى فى المملكة العثمانية فلم أرا اليوم وأنا عابر سبيل أن أمكث فيها أقل من أربعة عشر يوما قضيتها فى مشاهدة من

خلفتهم فيها من الاصدفاء الكثيرين . والقاهرة من البلاد العربية كباريز من البلاد الافرنجية حوت مافي العواصم من ضروب الرقي والانحطاط مما تنفقه على غيرها طوعا أو كرها ويأتى الناس من القاصية فيأخذونه عنها ويهتمون بتقليده وتأيينه .

أن من ينظر الى مصر نظراً سطحياً يأسف لها كثيراً ويعدها كنزاً ضائعاً ودماً ضييعه أهله . ومن يعمق النظر في مواردها ومصادرها وبدرس مساعيها ومقاصدها ويقيس النتائج بالمقدمات والماضى بما هو آت بدرك ان المستقبل الخبوء لمصر في حياتها الاجتماعية والسياسية لا يقل عما أحرزته في حاضرها من المنافع المادية والادبية اذا ظلت عناية أهلها متوفرة على التعليم والتربية وهم يتفننون سنة عن أخرى في تلقف ما ينفعهم من أنواع المعارف اقيام بناء مجدهم الجديد على أحسن نظام .

ليس في أقطار الشرق ولا في أقطار الغرب بلد عرف تاريخه كما عرف تاريخ مصر ولا بلد مثله أبقى على آثاره الخالدة واحتفظ بترانه القديم فرفع العلم والعالم بما ادخره . فقد قال لنا التاريخ ان عهد بعض سلاسل فراعنتها كان عهد ارنقاء ومدنية وان مدنيتهم لا تقل من وجوه عن المدنية الرومانية واليونانية والفارسية فكانت دولة فاتحة غازية مستعمرة كما كانت دولة فاضلة متحضرة . وانه جاء زمن طويل على مدينة الاسكندرية أيام الروم كانت تفيض العلم النافع على العالم أجمع بمدرستها كما كانت تفيض العلم مدرسة بغداد ومدرسة قرطبة أيام الخلفاء وكما تفيض كليات أوروبا وأميركا على آسيا وافريقية اليوم

أتى على مصر دور انحطاط بعد دولة الفاطميين اشتغلت فيه بنفسها وكان حظها من المعارف حظ سائر بلاد الاسلام وان كانت لها الميزة أبدا في هذا الباب على الاقطار المجاورة فقد كانت على عهد الايوبيين والجزراكسة والمماليك على انحطاطها مورداً تستقى منه البلاد الاخرى وكانت العلوم الاسلامية والادبية خاصة مما يحمل من أزهارها إلى شمالى افريقية وداخليتها وبلاد العرب والترك

وسورية وغيرها ، ولما جاء نابليون الاول ثم محمد علي الكبير دخلت فيها بواسطة علماء من الفرنسيين روح الحضارة الغربية وأسلوب التعاليم الاوربية وأخذت حكومتها ترسل بالبعثات العلمية بل بالبعوث السلمية إلى أوروبا ليدرس النشء في كلياتها ثم يعودوا إلى مصرهم فينفعموها بما علمهم الله والبشر الراقى

وما برحت هذه الارساليات تكثر ومصر الحديثة تتكون على المباحى الغربية حتى جاء الخديوى اسماعيل وأسرف في مالها اسراف جنون وجهل حتى اضطرت إلى الاستدانة من الممالين الاوروبيين وأكثروا انكليز وفرنسيين ولما حدثت الفتنة العراقية وجدت انكلترا مدخلا لها بحجة أن أرباب الاموال يوجسون خبقة على أموالهم ورأت من فرنسا غفلة أو نفاقا فعمات وحدها على اطفاء الفتنة فصدمت عليها كلمة نابليون في قوله وقد أخرجته انكلترا من مصر بعد احتلاله لها بضع سنين في القرن الماضى انها لم تخرجنا منها إلا لنأخذها لنفسها في المستقبل دخلت انكلترا مصر لا اطفاء الفتنة أولا ثم للمحافظة على ترعة السويس التي أصبحت أكثر اسهمها لجماعة من أبنائها . والترعة كما هو المعلوم طريق الهند الاقرب ومادة حياة دولة البحار . ومن حافظ على سلامته ومادة حياته يعذر

ولقد كان ميدان الاصلاح فسيحا أمام المحتلين لنوفر الاسباب الطبيعية لمصر وأن بلادا لا ينقطع ماؤها ولا تغيب شمسها ولا تنعب تربتها ولا تنعاصى على الانسان طبيعتها لا قرب البلاد الى معالجة الاصلاح في مجاهلها ومعالمها .

ولما استتب الامن في انحاء القطر أقبل أرباب الاموال من الغربيين وغيرهم يتحرون ويزارعون ويؤسسون المشاريع العمرانية . فكانت تلك الحركة نافعة في نهضة القطر الاخيرة نهضة اقتصادية كبرى حسنتها عليها بلاد كثيرة .

تهياً لمصر والحق يقال من رجال الاحتلال أناس عملوا باخلاص لتحسين زراعتها وريها وتنظيمها لينتفع من ذلك البريطانيون والمصريون معاً . وكان عميدهم الاكبر لورد كرومر الذى أدار دفة السياسة المصرية أربعاً وعشرين سنة أرخى في خلالها عنان الحرية الفكرية والاجتماعية فهاجر الى مصر كثيرون من

المشاركة . عمل هذا وغيره من الاعمال النافعة ولكنه كان يحاول أن يشف بالمصريين عند حد الاشتغال بالزراعة ثم بالوظائف القابلة التي لا تسمح الحال الا باعطائها للمصريين وما عدا ذلك من الارتقاء العقلي والسياسي . فقد كان الاورد يقول لهم كل سنة تصريحاً وتلويحاً في تقاريره السنوية . انكم لا استعداد لكم معاشر المصريين لغير ذلك من الاعمال فهل نسينم ماضيكم أيام كتم اساقون إلى السحرة سوقاً وتستعبدون استعباد العبيد والارفاء أيام الحكومات الماضية المدمرة فاحمدوا الله على أن أنجاكم مما كنتم فيه خالكم الآن أحسن من ما كنتم مئة مرة فعليكم أن تقنعوا بما حزنتموه .

ولكن نهاء مصر لم يفهم معنى هذه السياسة وكان الفصل الا كبرلاجرائد في تنبيه شعور الامة المصرية إلى أن وراء ما هم متمتعون به الآن مطلقاً اسمى وأتق فقاموا يسمون إليه سعيهم وهم على اخلاف في الطرق الموصلة اليه لا يخلفون في كون بلوغه لا يتأني إلا من طريق التعليم والتربية

فبدل أهل الاقتدار المالى ما سمحت به نفوسهم من الاشياء الكريمة في الارياض والمدن حتى أسمرت النتيجة بعد بصع سنين عن نكثير سواد القارئين والكتابيين ثم رأوا أن الامة لا ترقى إلا اذا كان فيها أفراد يحسنون تعليم الامة باغنها ما يلزمها من المعارف المادية والاقتصادية والاجتماعية فسعوا إلى اقناع الحكومة بجعل التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية باللغة العربية وكانت أكثره بالانكليزية من قبل ثم رأوا أنه اذا لم يكن لهم من أبنائهم من يعلم العلم العالى سبب ارتقاء الامم لا يكون العلم الا عقيماً ناقصاً فأنسأوا لذلك المدرسة الجامعة المصرية . وهم اليوم ينظمونها لتكون بعد سنين على مثال الجامعات الاوربية تدرس علوم الجامعات الاfrنجية باللغة العربية وهى أول جامعة من هذا النوع لامة لا يقل الناطقون بها عن ستين مليوناً من البشر .

نعم ان الجامعة المصرية اليوم وما دخل من الاصلاح على الازهر ومدرسة القضاء الشرعى ومدرسة دار العلوم ومدرسة الحقوق ومدرسة الطب ومدرسة

الهندسة والزراعة وسائر المدارس الاميرية والخصوصية هي التي تتألف منها اليوم طبقات رجال مصر الحديثة ولا بد لهذا الامر من آخر ولمساعيمهم الحسنة من نتيجة اذا سلك القوم سبيل النؤدة وطبقوا اعمالهم على قانون العقل الصحيح واستفادوا بتجارب الامم السالفة وانصاع العامة للخاصة ، ولم يبق المجال للغوغاء وحدهم وبذلك تصبح أسباب القوة المادية والمعنوية في بلادهم على مستوى ما هي عليه عند الامم الحية حقيقة لا مجازاً

لا جرم أن المصريين بما فيهم من الذكاء وما ورثوه من حضارتهم القديمة وتيسر لهم من الرقي المادى هم بمجموعهم أرقى من مجموع الشرفيين خل عنك اليابانيين وفيهم اليوم من العقلاء المفكرين العالمين والباحثين من ليسوا دون أبناء طبقتهم في الغرب وربما فاق الا تراك المصريين في الامور السياسية والحربية ولا يعاب على مصر الافتور همّة أبنائها في منتصف الطريق في الاغلب ، وهذا الخلق يكاد يكون عاماً في القطر لا يقوى في التغلب عايه الا التربية العملية وحبذا يوم نرى فيه مصر تقبل على تعلم العلوم الطبيعية والكيمياء والميكانيك والمعادن اقبالها على تعلم الحقوق مثلاً فقد نرى من ناشئتهم زهاء خمسمائة طالب في كليات أوربا وأميركا والقسم الاعظم منهم يدرسون الحقوق ليترشحوا منها الى الوظائف لانه وقر في النفوس ان فن المحاماة أكثر عائدة على صاحبه من غيره من الفنون خصوصاً وهو متوقف بمد العلم النظرى على طلاقة لسان وفضل بيان والمصريون أكثر العرب حظاً من تينك المزييتين .

أصبحت مصر بمجموعها اليوم قطعة من أوربا كما قال الخديوى اسماعيل ولكن أحبابها يريدون لها أن تكون كاوربا في صفاتها العالية وحضارتها الرافية حتى لا تخرج أملاً كها بطيش الطائشين من أبائها إلى أيدي الغريب فيعود المصرى بعد بضع سنين والعياذ بالله كالغريب في بلده وما أصعبها من حالة

ان مسألة الراية التي تحفق على أمة لاتهم بقدر ماتهم في الحقيقة مسألة الاملاك إذ أنه مهما بلغ من حيف أمة فاتحة أو مستعمرة لاتحدثها نفسها أن تنزع من

المالكة ملكه إلا برصاه . ومصر التي نأذى اليوم بوطأة الروم والاطلياني والانكليزي وغيره لا تنتقل بعض أملاكها منها إلا برضا أولئك الوارثين والمصرفين الذين لا يعرفون دخالهم من خرجهم ولا دينهم من دنياهم هذه الفئة الضالة الممساة في هذا القطر المحبوب ومنها يخشى على مستقبله فبقلة عقول المستهترين أصبحت نحو تسعة أعشار الاطيان والاملاك في مصر للغرباء وعليها مائتان وخمسون مليون جنيه من الديون منها نحو مئة مايون دين الحكومة ولا نعرف متى توفيه والباقي على عنق الفلاح الصغير والمزارع الكبير .

إن ما نخشاه على مصر هو الاسراف الزائد ونفليد الغربى على العمياء ولو كان لاهل وادى النيل شىء من الامساك المحمود والاقتصاد المعقول لكانت حال مصر السعيدة أرقى مما هي اليوم ومن حاز الثروة وقانون الحكمة يدبرها والحنكة فائدها ورأبدها وانتظر الفرص التي لا يزال الدهر يخبأوها للأفراد كما لا يسغل بها على الامم لا بد أن يتمتع يوماً بالسعادة السياسية والاجتماعية التي هي مستهى آمال كل أمة حية في هذا الوجود

مرسيليا

٧

في الساعة الرابعة بعد الظهر أقلمت بنا من الاسكندرية الباخرة ايكواتور (خط الاستواء) احدى بواخر شركة الميساجرى ماريتم الفرنسية فبلغنا نغر مرسيليا أكبر موانى فرنسا على البحر المتوسط والمحيط والمائش في اليوم السادس الساعة الخامسة بعد الظهر ولم نر في طريقنا شيئاً يستحق الذكر سوى بعض سواحل ايطاليا وفرنسا وقد تجلت عن بعد وكان نظرتنا يختلف اليها بقدر بعدنا أو قربنا منها ودام البحر رهواً حتى اذا خرجنا من مضيق مسينا أصبحنا واصبحت

سفينةتنا على كبرها واولها وعرضها العوبة العواصف والتيار ينقاذنا من كل مكان حتى لم يبق راكب في درجات السفينة الاربع الا وقد أخذه الدوار أو كاد ولم نملك حواسنا الا عند بلوغنا ساحل السلامة .

وقوة هذه الباخرة ٢٩٨٧ حصاناً ومحمولها ٣٨٤٨ طناً وتقطع في الساعة اثني عشر ميلاً وهي احدى بواخر الشركة التي تغدو وتروح بين موانئ البحر الابيض والبحر الاسود والبحر الاحمر وبحر الادرباتيک ولهذه الشركة التي جعلت رأس مالها خمسة وأربعين مائون فرنك تسع عشرة باخرة من مثل هذه خصت سيرها بالبحرين الأولين في الأغلب . ومن موانئنا التي تقف عليها بواخر الميساجري ماريتيم خابيا وسلاتيك والاستانة وجناق قلعة وازمير ومدانيا وفاقى ولارنكا ومرسين والاسكندرونة واللاذقية وطرابلس الشام وبيروت ويافا وحيفا ورودرس والاسكندرية وطرابلس الغرب وصمصون وطبرزون وبور سعيد والسويس ولولا أمنال هذه البواخر الفرسوية والتمسوية والروسية والايطالية والاسكلمرية والالمانية والرومانية لما بقيت لما تجارة تصدر من بلادنا وترد اليها وانعسر التنقل الا في السواحل على ظهور الجمال والبغال والحمير أو في المركبات وبعض القطارات القليلة التي تربط أجزاء ممالكنا بعضها ببعض .

ولشركة الميساجري أيضاً اثنتان وعشرون باخرة تمخر العباب الى الهند الصينية وتوابعها وخمس بواخر لخط الكوشنشين وست بواخر لخط اوسترايا وكليدونيا ^(١) الجديدة وخمس بواخر في المحيط الاطلانتيكى (الظلمات) وسبع احتضت بالبحر المحيط الهمدى وذلك ما عدا السفن الصغرى التي جعلتها في بعض الموانئ الكبرى . وأشغال الشركة متوسطة مع ان حكومة فرنسا تدفع

(١) لما صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب ناولها أفلام العلماء والأدباء المبريط والحمد معجن تشكر المقرضين ويريد في السكر لخصرات المامدين أعمال العلامة الدكتور يعقوب صروف في مجلة انقسط والاساد الاب لويس شيخوى بحجبه المشرق والمشرق الميسو كلمان هوار في الجبه الآسيوية Journal Asiatique والمشرق لور ماسدون في مجلة العالم الاسلامي Revue du Monde Musulman فأنهم أملا أوجوب علمهم الواسع فاستفدنا منه ووصفناه في المكان الاثنى به من هذه الطبعة الثانية جراههم الله عن التحقيق خيراً

اليها امانة مالية كل سنة لقاء نقلها البريد بين الشرق والغرب وخدمة الجمهورية فيما يلزمها .

ويقول الذين سافروا مرات بين بلادنا وبلاد الغرب أن البواخر الألمانية والانكليزية والطليانية تفوق بانتظامها وحسن خدمتها البواخر الفرنسية وأن الراكب يجد راحته في تلك أكثر من هذه مع أن الأجور واحدة . ولذلك اضطرت هذه الشركة وغيرها الى تخفيض الأجور في الصيف الى نحو النصف لراكب الدرجة الاولى والثانية والثالثة . وأخذت تحسم خمسين في المئة لكل شخص ثالث كان مع شخصين يدفعان القيمة المقررة . فاذا كانوا أربعة فأكثر تحسم للرابع فما بعده خمسة وسبعين في المئة . ولذلك يسهل السفر في الصيف لاعتدال أجوره .

ومن التسهيلات التي قامت بها هذه الشركة ان اتفقت مع شركات البواخر الانكليزية والاميركية وشركات السكك الحديدية على ان تنقل الركاب الى الموانئ التي تختلف اليها بواخرها . وتلك الشركات تنقلهم على بواخرها بحيث يطوفون العالم ويمجنزون من نصف الكرة الغربية الى النصف الشرقي والأجرة في ذلك معتدلة فيسلك الراكب ان أحب أحد الطرق التي يجتازها في قطع البحور والبرور فالطريق الأولى عن موانئ الصين واليابان وكندا مارا بفانكوفر وهو يكلف في الدرجة الاولى ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الثانية أستراليا وفانكوفر ويكلف في الدرجة الأولى أيضا ٣٥٧٥ والطريق الثالثة الى أستراليا فمضيق توريس فالبايان ففانكوفر وأجرتها ٤٢٥٧ في الدرجة الاولى والطريق الرابعة عن طريق الصين واليابان وسان فرانسيسكو وتكلف ٣٢٨٨ فرنكا والطريق الخامسة الى أستراليا ومضيق توريس واليابان وسان فرانسيسكو وتكلف ٤٢٥٧ فرنكا في الاولى فيركب الراكب من مرسيليا الى هونغ كونغ على بواخر شركة الميساجري عن طريق السويس وجيبوتي أو عدن وكولومبو وسنغافور وسايغون ومن هونغ كونغ الى شنغاي الى كوبى فيوكوها ما على بواخر الشركة أو على

بواخر شركة الباسيفيك الكندية بحسب ما يختار الراكب ومن يوكوها ما الى فانكوفر على بواخر الشركة الكندية ، ومن هنا يركب القطار الى كيبك ومونتريال وهاليفاكس وسان جون أو نيويورك ومن نيويورك الى ليفربول أو سوسامتون على احدى البواخر الانكليزية أو الاميركية أو النمسية أو من نيويورك الى الهافر على بواخر الراسلاتيك . ومن الهافر بالسكة الحديدية الى باريز .

هذه هي المسافات التي يقطعها من يريد الطواف حول الارض ولو قال قائل هذا لا حد أجدادنا الاقدمين . وذكر له اننى أريد السير للنزهة على هذه الخطة لنسب اليه الجنون وقال : ان ذلك لن يكون ولكن اذا عرف سر الاسفار في هذه الاعصار يقول : سبحان من سخر لنا قطع البحار بالبخار . يفعل ما يشاء ويختار .

وبعد فلم يتسع لي الوقت لادرس جميع معالم المدنية في مرسيليا لاني لم أصرف فيها إلا ثلاثة أيام قضيت أكثرها في الراحة من وعناء السفر الذي طال علينا احدى عشرة ساعة زيادة على المعتاد لما صادفته الباخرة في طريقها من الانواء ولطاريء طراً على آلتها في عرض البحر فأصلحتها ولولا ذلك لقطعت باخرتنا المسافة بين الاسكندرية ومرسيليا في خمسة أيام بلياليها لا تقف قرب اليابسة . ومن البواخر الانكليزية ما يقطع المسافة بين بورسعيد ومرسيليا في أربعة أيام وهذه البواخر خاصة بالبريد الانكليزي تنقله من أستراليا والهند الى الجزائر البريطانية في خمسة وثلاثين يوماً لا تكاد تستريح في طريقها إلا بقدر ما تحمل زادا ووقودا وركابا والمسافة المعتادة بين أستراليا وانكلترا لا تجتارها الشركات المعتادة في أقل من سبعين يوماً .

قامت مرسيليا في منقطع وادي الرن الجليل ، فكانت جملة الجمال الفرنسي بما فيها من الجبال والسهول ، وما أحرزته من مجد قديم وغنى حديث . وأن محيطها الذي لا تقل مساحته عن مئة كيلو متر مربع لاحتل من العافية في بدن

السقيم . أو النضارة في حدود الجوارى — كما يقول بديع الزمان — اسففر الله بل كاد يكون أجل من الحور الذي تقرأوه في عيون المرسليات الدعج . ولعل جمال العيون في النساء هنا التي فاقت عيون البدويات الرعايب ، انتقات اليهن من أجدادهن العرب . فقد قال ميشله المؤرخ . أن أصل سكان مضائق الرون مختلط كثيراً ففيه العنصر السلتي واليوناني والعربي وخليط من الطليان والغالب أن سكان جنوبي أوربا يوصف نساؤهم بدعج العيون وسواد الشعور كما يوصف الشماليات بزرقة العيون وشقرة الشعور .

وإلى اليوم يكثر في مرسيليا الغرباء ولا سيما الطليان ففيها ٥٥٠ ألفا من السكان خمسهم من الطليان ويبدعهم كثير من الصناعات والمعامل وهم عشر الاجانب في فرنسا وكان في مقاطعة مرسيليا سنة ١٩٠٦ : ٧٦٦٥٠٠ ساكن منهم ١٢٣٥٠٠ أجنب وفيها ٨١٧ مدرسة وفي مقاطعتها ٧١٧ كيلو متراً من الخطوط الحديدية و ١٦٣ كيلو متراً من الترام و ٢٨٤ من الطرق الاهلية و ٣٦٨٣ كيلو متراً من طرق العجلات الموصلة بين أقاليمها

وأهم صناعاتها عمل الاقشة وتحضير الاطعمة والمأكولات وصنع الفرميد والصابون خل عنك تجارتها الهائلة وزراعتها التي لا تختلف في الرقي عن زراعة عامة البلاد الفرنسية وفيها دور صناعة للاساطيل والبواخر التجارية ولا سيما دار صناعة الميساجري ماريتم

قال من كتبوا عن مرسيليا من المؤرخين أن تاريخها من أقدم التواريخ وهي أول ميناء بحرية لفرنسا يرد عهد انشائها إلى القرن السادس قبل المسيح وفي مقاطعتها اليوم ٤٩ ألف منزل منقسمة بين ألفي شارع وطريق ومعظم آثارها ومصانعها حديثة النشأة من عهد السلالة الملكية الثانية ومن أحسن متزهاتها الكورنيش الذي انتهى سنة ١٨٦٣ وكان عدد السفن التي دخلت مرفأها البالغ سطحه ٣٠٠ هكتار سنة ١٩٠٧ - ١٦٣٣٠ وعدد الركاب ٥٥٠ ألفاً وقدروا ما يدخل اليها ويخرج منها في اليوم بسبعة وأربعين باخرة وبارجة وناهيك به من عدد .

ويطبع فيها وينشر ١٤٦ جريدة ومجلة وجريدة البتي مارسيليه (المرسيلي الصغير) أوسعها انتشاراً تطبع ١٨٠ ألفاً كل يوم وهو في حجم الماتين والايكودي باري كما يطبع البتي باريزيان (الباريزي الصغير) الذي يصدر في باريز مليوناً ومائتي ألف نسخة في اليوم والثاني أكثر جرائد فرنسا انتشاراً . فكأن لهذه الاسماء الصغيرة من حسن التوفيق مالا يحالف الاعمال التي تبدأ باللقاب الضخمة والاسماء الفخمة .

زرت ادارة البتي مارسيليه فرأيت النظام مسنحكا في كل ما يتعلق بها وهي اليوم في السنة الثالثة والاربعين من عمرها وأقدم منها بل أقدم جرائد مرسيليا « الشيافوردي مارسيل » أنشئت سنة ١٨٢٧ وهي من الجرائد الجدية المعتمدة الا انها اقل انتشاراً . وهذه الجريدة تباع في مقاطعة الرون وما إليها مثلاً فلو فرضنا أن ما يطبع من جرائد مرسيليا ومجلاتها يبلغ كل يوم مليوني نسخة لاصاب كل فرد في مقاطعتها جريدتان ونصف على أقل تعديل هذا عدا الجرائد الباريزية وغيرها التي ترد على مرسيليا وتباع في شوارعها بالالوف أيضاً

ومن الاسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والايرانية لا يبلغ بكمينه قدر ما تطبع كل يوم جريدة البتي مارسيليه احدى جرائد ولايات فرنسا . وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقاءنا وارتقاء الفرنسيين وسجل عاينا بالفقر المدقع في كل شيء ولا سيما في الامور العقلية

ليون



ماذا يصف القلم من مدينة الفرنسيس وكل فرع من فروعها المدهشة لو
تعاورته الاقلام الكثيرة وتوفرت على البحث فيه العقول الكبيرة لما كانت
الا الى جانب القصور نعم لو جاء في عصرنا الرحالة ابن حوقل . وشاهد مدينة
فرسا فقط لحوقل واسترجع وقال : هذه حضارة لس لما في وصفها مطعم ولو
أنى المسعودى بقاءه وعنه اعجز عن الوصف والتسطير ولو جىء بابن بطوطة لآب
من رحلته الطويلة لا يحسن املاء ما رأى وسمع . ولو قام ابن جبير لاعترف
بقصور ذرعه . وعدم نماذ طبعه . وقال ان هذا الا حلم وخيال . ونحن لانسجل
في رحلتنا الا ما تقع عليه أبصارنا . ويتراعى الى آذاننا ، وتمسه أيدينا .

وبعد ماذا يصف القلم في ليون أجملها الطبيعي أم الصناعى : معاملها
الحريية أم مدارسها وكنيتها . أم انتظام شوارعها ودورها وقصورها وحدائقها
أم غناها ومتاحفها وعادياتها وكنائسها ومصانعها ومعارفها ومكاتبها . ومخازنها
وحوانيتها وتمائيلها وأنصابها ، وخطوطها الحديدية والكهربائية . وجسورها
الحديدية والحجرية . وأرصفتها البديعة وساحاتها وحدائقها . ونهرها العظيمين
الرون وانشون الذين يقطعانها شطرين . ويزيدان في بهجتها ما تقربه العين .

ماذا نذكر من ليون ثاني مدينة في فرنسا وقد شبهوها بموسكو الروسية
في كونها عاصمة دين كما هي عاصمة صناعة وعمل . وعلى جسر ليون الصليبيون
في القرون الوسطى ذاهبين الى المشرق لا تقاذ البيت المقدس من أيدي المسلمين
نعم ماذا نعدد من ليون وبدائع صنع الانسان فيها وما ضمت من معاهد قديمة
وحديثة . ومشاهد بهيجة ، وبالله ما أعجب معرض نموذج الأُنسجة الذى حوى
أربعمائة ألف نموذج . ليس لها نظير في العالم وعرضت على أنظار أهل البلاد

والسائحين ، ينتفعون بالنظر اليها ، ويستدلون بها على تفنن يد الانسان في كسوة الابدان .

لأن حرمت ليون من ميناء بحرية لتصرف مصنوعاتها بسرعة ، فان البخار البرى عوض عليها هذا الحرمان فزاد في عظمتها التجارية ففي كل يوم يمر في محطات سككها الحديدية ١٤٠ قطاراً جائية ذاهمة من أنحاء شتى ولا سيما من الشمال الى الجنوب . والمسافة بين باريز ومرسيليا ٨٥٠ كيلو متراً ليس فيها شبر واحد لا أثر للعمران فيه بقطعها القطار بالسير السريع في ١٤ ساعة ، وليون على مقربة من نصف الطريق بين باريز عاصمة البلاد ومرسيليا ثغرها . والحكومة اليوم شارعة عند خط حديدى ثالث لتسيير القطارات لان الخطين الموحدين لا يتأتى أن يجرى عليهما في كل بضع دقائق أكثر من قطار واحد مخافة أن يحدث اصطدام بين القطارات وسيكلف الخط الجديد بين باريز ومرسيليا مئات الملايين من الفرنكات . وكل ذلك حتى لا يتأخر راكب ولا بصاعة ، وتأخذ كل حمة حظها من العمران .

لم تقف ليون عند حد الاعمال الصناعية والتجارية والمالبة . بأن كانت هي التى أسست مصرف الكريدى ليونيه مثلاً من أعظم مصارف العالم بل لها حظ كبير من النهضة العلمية ، وأثر راسخ في الحضارة الفرنسية . وناهيك بكليتها التى تحوى فروع العلم . ولا سيما الطبيعى والحقوق والطب والتجارة يختلف اليها ٢٥٠٠ طالب منهم الاجانب ، وفيهم نحو خمسين مصرياً أكثرهم يدرسون الحقوق وقليل منهم الطب وأقل في التجارة ، والمصريون حديث عهدهم بنزول ليون للتخرج في كليتها وقد كثروا ورودهم عليها بعد ان ترك المسيو لامبر أحد أساتذة مدرسة الحقوق في القاهرة منصبه . فعينته حكومته في كلية ليون أستاذاً فكان من أثر محبته للمصريين ومحبة المصريين له ان جذب عشرات منهم للتعليم في كليتها وهو يشرف عليهم اشراف الاب على أولاده . وكانت مصر تعتمد في تنشئة أولادها من قبل على كليات الولايات

الفرنسوية ، ولا سيما كلية مونييه وذلك على عهد الخديوى اسماعيل لانه كان يعتقد ان أهل مونييه أقل معاداة للملوك وأبعد فرنساويين عن التطرف .

قضيت فى ليون يومين لزيارة معالمها ومشاهدة صديقى محمد لطفى افندى جمعة الكاتب الخطيب الغيور فرأيت فيها غاية الرقى الاجتماعى والتكافل الانسانى والدوق الفرنسى وفى مثل مدينة ليون من قواعد البلاد تعرف حقيقة الفرنسيين لما يشاهده السائح فيها من السكون والانتظام الى الاعمال الشريفة فلا يسمعون كماكثر سكان العواصم فى الاغلب للمكاسب الدنيئة أو يرضون بأن يكونوا عالة على الحكومة يأخذون رزقهم من خزائنها بالتوظيف والاستخدام

ويأما أبهج ساحة للمكور يوم الأحد والرجال والنساء والاولاد غادون رائحون فيها لا تقرأ فى وحوهم غير الادب ولا فى حركاتهم إلا التربية البيتية المالية . والتشبع بالنظام المدنى المعقول ، حتى إذا جن الليل يختلف القوم إلى دور التمثيل . وأما كن اللهو والطرب . وسماع الخطب والمحاضرات . وهكذا ليأهم كنهانهم عمل وراحة واستفادة وافادة أخذوا يحفظوا وافر من دنياهم . ولم ينسوا لعهد آدابهم . فليون بلد طيب أمين يسكنه المهذبون العاملون .

ولقد كنت كلما وقع نظرى فى ليون على شارع عظيم أو بناء جسيم تحدثنى النفس بسورية فأقول متى يأتى يكون فيها مثل ما فى ليون على الاقل . ولو أن عمران ليون وحدها وهى احدى مدن فرنسا وما فيها من قوة مادية وأدبية وزعت على سورية من عريش مصر الى الفرات ومن البحر المتوسط الى أقصى بادية الشام وحدود نجد والحجاز لغدت سورية وهى واسعة جداً بمساحتها من حيث عمرانها أرقى مدن المعمور ولكن الرزق لا يأتى بالتمنى والوجود لا ينتفع به إلا من يحسنون استخدام ما فيه من القوى والعناصر

نحية باريز

٩

سلام عليك مرزعة الحكمة . وريبة الرخاء والنعمة . وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية . ومحبة المدنية الاصلية في الاقطار الغربية والشرقية ، ومعلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين وأنى يضرب على أيدي الرؤساء والنبلاء والمالكين . أنت هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل . انت كنت في مقدمة العواصم التي انبعث منها تمجيد العقل بل تألبه . فقضيت بالنقد له على كل شيء في الوجود ، وبالغت في اكرام رجال العقول من أبنائك

سلام عليك يا عشيقة الابداع والاختراع . وسابقة الاقران في مضمار الانتفاع . بما حوت الرباع والبقاع . استخدمت القوى المادية فاجدت اسخدامها واستثمرت القوى العقلية . فابدعت في استثمارها . وأحييت حضارات الامم السالفة وأنشأت لك حضارة لا يزال يحسدك عليها أسبق الشعوب الى الترقى مهما تقلبت بك الحال . ويجدون في أوضاعك ما ليس يجدونه في أوضاعهم من المرونة والجمال

سلام عليك يا واضعة حقوق الانسان . وملقحة الازهان بالتناغمي بحب الاوطان . والداعية الى ثل عروش الجبارين والتخريين . أنت لم ترهبك نقالبد أبطال القرون الوسطى ، ولا بطش الباطشين من المحافظين عليها . ولم تعلق مسائلك على القضاء والقدر ، بل أخذت بالاسباب والمسببات فقتلت من أراد قتلك . ووضعت من لم يهجه رفعك ، وكنت للناهضين من الناس خير مثال .

سلام عليك يا معهد المعارف والصناعات بما أنشأته من مجامعك العلمية ، ومدارسك الجامعة والكلية ، ومجالسك العامة والخاصة ، وجمعياتك ونقاباتك لخدمة المدنية والانسانية ، ودور تمثيلك ومعاهد أنسك وسماحك . ومتاحفك

وحداثتك ومكاتبك ومعارضك ، وكل ما أبدعته أفكار أبنائك وأيديهم . ودل على مجد طريف وتالد ، وتاريخ على جبين الدهر خالد
سلام عليك يا ملقنة الخلق معنى الاخاء والحرية والمساواة . ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع ، حتى لا يبقى تمييز في الحقوق والواجبات . بين المختلفين في الموالد والديانات . وقطعت التفاضل الا بالاعمال الصالحة والاحلام الراجحة .

سلام عليك يا متشعبة بأفكار الحكماء ارتضيتها منهم قانوناً تجربن عليه لسعادتك . ولئن حاد بعض أبنائك بعض الشيء عنها ، فذلك لان سياسة المنافع والمصالح . قد تخالف ناموس الحق والعمل الصالح . ولان نظام بقاء الانسب لا قلب له . والتمنازع في جهاد الحياة كثيراً ما يدعو الانسان الى ركوب ما تحظره الشرائع الوضعية والسموية ولا سيما في هذه العصور التي يفصل فيها كل عمل على قالب الماديات . وما ذلك الا ليقر البشر بعجزهم ويعلموا أن السكال الآن محال . ولعله لا يفونهم في مستقبل القرون والاجيال .

السلام على هذه العاصمة التي أحسنت الى الشرق فيما مضى فعلمته حتى استمد منها النور . فان فلنا معاشر الشرقيين ولا سيما سكان الشرق الاقرب أنا نأخذ عن المدنية الغربية ، فانما نعى المدنية الفرنسية . وبعبارة أصح المدنية التي تنبعث أشعتها من باريز ، ومن طريقها وبلغتها وأسلوبها تيسر لنا ان نستطلع طلع سائر مدنيات الأرض .

سلام عليك علمت وعلمت فما أحسن العلم والعمل اذا اجتمعا . وما أحلى الاخلاص والشعور بالواجب .

سلام عليك سننت للغرب سنة التضامن والتكافل ، من العطف على البائسين والمساكين ، والرفق بالضعفاء والعاجزين ، والأخذ بأيدي المقهورين والمعثرين ، والانتصار للمظلومين من الآدميين ، خصوصاً اذا كانوا من طينة أوربية

سلام عليك أنت العاصمة التي تركت القصور الفخمة التي عمرت بدماء الامة
مباحة للناس يدخلونها ، وكانت بثورة المظالم والمغارم ، ومنبعث الشهوات
والاهواء . ولطالما جأرت جوانبها بالدعاء ، الى السماء ، من حيف الكبراء أيام
كان يوقع أحد ملوكها وهو على سرير نومه توقيماً واحداً يترك من الغد مئة
ألف أسرة في هذه البلاد تبیت جائعة عريانة ، ليعمر بما يجمع قصرأ له . أو يدفعه
لمحبوبته صبرة واحدة . فلما أضناك الظلم والاعت ، قتت تجعلين من تلك القصور
الفاسقة ، متاحف عامة ، ومن دور الظلم والظلمات ، مجالس عدل وعلم ونور .
سلام عليك حدثت أعمال من خلفوا لك هذه المدنية ، وأقتت تماثيلهم
ونصبهم موقع الاحترام والاعظام . وتوفرت على تكرير أسمائهم على المسامع كل
يوم ألوف الألوف من المرات . لتجعلهم مهمازا لمن يأتي بعدهم من الاناء
والاحفاد .

سلام عليك يا بلد ديكارت وكونت وفولتير وديدرو وسيمون وهو تنسكيو
وهوغو وباسكال ورنان وراثات أضراهم ممن بذلوا حياتهم في حسن خدمتك .
فلم تنس افضالهم عليك بعد مماتهم .
أنت ان خجلت من ذكرى الحروب الصليبية ، وديوان المفتيش الديني .
ومذبحة القديس برتلهماوس . ومقتل الفياسوف فيفاني ، وجنون نابليون وغير
ذلك من الاعمال البربرية في عصور الظامة . فان سكانك يفاخرون . وحق لهم
الفخر ، بأنهم احفاد ثورة سنة ١٧٨٩ قاموا من الاعمال المشكورة في عصور
النور . مايفسى الماضي الا أقله . ان الحسنات يذهبن السيئات .

السلام عليك باريز أجمل عواصم العالم . وأغنى البلاد ببدايعها الطبيعية
والصناعية ، وأجمعها لمرافق الراحة والرفاهية . لست أنت اليوم عاصمة مئة
مليون من البشر : أربعون في أرضك وسترون في المستعمرات بل أنت بما فيك
من المزايا عاصمة معظم الخافقين ، لاسباب هنالك وصفائك . ونعيمك ونعمائك .
وتفردك من بين العواصم بسلامة الذوق ، وسلامة الأبداع . ووفرة العلماء

والباحثين . والكاتبين والشاعرين والقصاصين فكل شيء في باريز مبذول حتى
لمعافاة النفوس من أقصى ما يتصور الفكر من القسوة الى آخر ما يجول في خاطر
أو يحوم حوله خيال

فباريز ولا مرء جنة أرضية جمع فيها موحدها — أستغفر الله — مالا عين
رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

باريز بعد الغروب

١٠

ان فاخرت باريز بمعارضها التي أقامتها في أوقات مختلفة لناقت البها الأقطار .
وتسفيد الفخار والنضار . فان لها كل ليلة معارض لا تختلف عن السابقة الا في
كون البقعة التي تقوم عليها هذه أوسع مجالا . وأكثر جمالا .

يصرف الباريزيون أو معظمهم نهارهم في الاستعداد لليلهم . وكثيرون
لا يعملون الا في الليل ويصرفون النهار في جمع قواهم ، وادخار أحسن ما عندهم
لما بعد النفق . فهم لا يجعلون الليل لباساً والنهار معاشاً كما هي عادة معظم الأمم .
بل ان الحركة عندهم تبدأ قبيل الظهر بطيئة . ولا تزال تنمو حتى تغيب الشمس .
وتطلع بدلا شمس واقمار .

تري المدينة في النهار عابسة مظامة على كثرة جاداتها الكبرى وشوارعها
المغروسة على جانبيها بالأشجار غالبا ودارقها وأزقتها وساحاتها العامة . وفي هذه
الأماكن تشهد مجالى الحسن والاحسان . وما تقننت في ابداعه العوامل ،
وتلطفت في روائه الأفكار والانايل .

على تلك الأرضة تناجى النفس رب النجوى قائلة : اللهم هل خلقت باريز من
معدن اللطف والظرف . لتكون مثالا من جنة أرضية خصصت أهلها بالاستمتاع

بنعمة الجمال . حتى لكأنك شطرت شطرين شطر وقفته على الباريزات ، وشطر وزعته على سائر بنات حواء .

ان امتاز الفرنسيين بالابداع في الصناعات فقد امتازوا أيضا بنضرة الوجوه . والى باريز تحمل هذه الامة ولا سيما في فصل الشتاء أفضل ما عندها من مجالى الكمال والجمال . أيام نكون أم هذه القرى مقسد السائحين والمتجرين . والطلاب والعالمين والسياسيين والخطابين وتغص دواوينها واداراتها وتلثم مجالسها العلمية والسياسية والاجتماعية .

ويزيد الوجوه بهجة في باريز نفن القوم في الازياء ، وتغاليهم في التبرج والزينة . تغاليا مهما تقدم عند غيرهم لايزاون مصدره ومورده . وأساتذته وسدنته . ومظاهر الازياء تجلى في باريز بعد الغروب على الجادات والشوارع والطرق والساحات ، وفي المركبات والسيارات وحوافل الخيل والكهرباء والسكك الحديدية فوق الارض وتحتها . وفي دور التمثيل ومسارح اللهو والطرب ومحال الفرج . والحانات والقهوات والمطاعم والمنادق . ويزيدها فتنة للناظرين ما اعتاده الباريزات الا من عصم ربي . من ابداء زينتهن لغير المحارم أكثر من ابدائها لبعولتهن وذوى قرباهن ، ورنين أصواتهن في الكلام رنيناً تحسبه من مزامير داود . وتسقط به أكثر من نغريد العندايب . وهناك الفتنة بعينها ، والفتنة أشد من القتل . ونعوذ به تعالى من فتنة القلب وفتنة العين

ولعل هذه المجالى في الحرية المفرطة . حملت الكثير من الغرباء على نزول باريز ، ليشهدوا فيها مالا يشهدونه في غيرها . وترى منهم الليرات بالملايين والكرات . عملاً بما قاله أحد ملوك بروسيا وقد قيل له : ليس من اللائق ان تضرب ضريبة على محال الاطمئنان في الشوارع فقال : « الربح لارائحة له » وأرسلها مثلاً ولذلك يقول الافرنج أيضاً « الغاية تبرر الوسطة » فادامت الغاية الكسب . فلا بأس من الاحتيال لنيله . ومن أجل هذا تظهر باريز بعد الغروب أقصى الفضيلة وأقصى الرذيلة ، والناس معها وما يختارون بعد الغروب تعم في باريز اندية الخطابة والمحاضرة والعلم ، وتلقى فيها من

الفوائد ما يبلغ الاذهان عفواً صفواً ، ويفيض معين البيان ، وببدو حذق يد الانسان ، ويسعى العالم الى تعليم الجاهل . في ساعة ماتعب في احضاره الايام والأعوام فائدة الخطب والمحاضرات معروضة . ودروس الفضائل عامة مورودة بعد الغروب يعمل معظم الكاتين كتبهم . والشاعرين اشعارهم ، والمؤلفين مؤلفاتهم ، والمخترعين اختراعاتهم . والصانعين صناعاتهم . كأن الافكار لا تنطاق من عقالها . والأيدى لا تحذق أعمالها . الا عند ما ترفد عيون البشر . أو كأن الزهرة ربة الجمال . لا تحب أن تملى على من هم أحوج الناس الى ظلمتها ، الامن الليل ككوكب الزهرة لا يبدو في مطلع الافلاك الا مع الدجى . ولذا يحرص أهل باريز أن يجعلوها بعد غروب الشمس . مجمع الالس وريحانة النفس .

وكأن الباريزيين ، وهم العارفون بنقسيم الاعمال ، عز عليهم أن تمضى ساعة في بلدهم ينقطع فيها العاملون عن أعمالهم . نخصوا النهار ببعض الصناعات والتجار . والعملة والعاملات . والليل بالمفكرين والمفكرات . والمؤسسين والمؤسسات . والمغنيين والمغنيات . والممثلين والممثلات . حتى لا تنقطع حركته . ولا ينفذ دولاب عمل . وكان بذلك الحظ الاوفر للغرباء . فلا بدخل على الغريب مالى من تغير المشاهد ، ولا يفتأ من المعجز الى الفجر . ان أحب يستمتع بالمشاهد العجيبة ويتعلم ويأنس ويتنزه .

يقول الباريزيون : ان بلدهم مبارك على الغريب أكثر منه عليهم ، وانهم مضطرون أن يواصلوا السير بالسرى . ويكدحوا اليل والنهار . ولكن هذا قول من ملك شيئاً فزهد فيه ، والروح ترتاح الى المنقل ، أما الشرقي الذى يرى أهل باريز ويغبطهم على أكثر ما دبروه لراحتهم ورفاهيتهم ، فانه يعجب لمن يساكنهم زمناً ، كيف ترضى نفسه أن يختار عن باريز بلداً . كما يعجب لاهلها كيف لا يأسفون على مفارقة الحياة أضعاف أضعاف ما يأسف غيرهم عليها . ومن قال بأن دواعى الراحة تطيل حبال الآجال ، يستعظم على أهل باريز لم لم يعمرُوا أكثر من عامة الخلق ، وعندهم النعيم المقيم ، والخير العميم .

تاريخ عمران باريز

١١

لعل باريز كانت في الاصل احدى تلك الصياع التي كان الغاليون يستثمونها في جزر الانهار الكبرى أيام كان سهل عايمهم أن ينشؤا جسورا يتخذونها مجارا الى طرق مهمة وأول ذكر ورد لها واسكانها في التاريخ كان سنة ٥٣ ق . م فدعا القيصر ساكنها باريزيا كما دعا المدينة لوتينباوصم اليها سنة ٥٣ نواب الامم الخاصة .

مضى زمن لم يمتد فيه عمران المدينة خارج الجزيرة الاصلية . ثم استفاض عمرانها على الشاطئ الشمالي على عهد الامبراطور كونستانس كلود الذي أنشأ فيها قصراً نسمى بقاياها اليوم بقصر الترم وسكن فيه حوالي لما نادى به جنده قبصرا وكانت الجزيرة محاطة بمناريس وفيها قصر تفصل فيه الامور البلدية ومذبح على اسم جوبيتر امامه الملاحون الذين كانوا يغدون ويروحون في نجارة نهر السين وفي سنة ٢٥٠ غدت لوتيس مركز اسقفية وعلى ذلك العهد أطلق عليها اسم باريزي وهو اسم الشعب الذي يسكنها وكانت عاصمة بلاده .

ففتحت باريز أبوابها للفرنك سنة ٤٩٧ فدخل قصر الترم كاوفيس ثم ماتت القديسة جنيفاف حامية باريز ووقف العمران على عهد الاسرة السكارولنجيين بل تراجع فنقل الامبراطور شارلمان عاصمة ملكه الى اكس لاشبل . وما كان يقيم في باريز الا نادرا .

وكانت القرى في شمالي المدينة وجنوبها تؤسس تحت حماية الاديار وكثيرا ما كانت تخرب بأيدي أشقياء من السكان أو بغارات النور مانديين ، وفي سنتي ٨٨٥ — ٨٨٦ جاء النور مانديون وعددهم ثلاثون ألفا وعسكروا أمام جزيرة

المدينة وحاصروها ثلاثة عشر شهرا ، وبهذا الحصار افتنحت باريز أيام سعادتها وأصبحت كما قالوا رأس فرنسا وقلبها .

وفي القرن الحادى عشر والثانى عشر امتد عمران هذه القاعدة وأنشئت فيها أديار وبيع ومستشفيات ومدارس وأقيم لها فى أيام لويس السادس عمدة ينظر فى شؤونها وأمور ضبطها وربطها وبدأ فيها العمران المادى . وعلى عهد فيليب أغسطس وهو أهم دور من أدوار عمران هذه العاصمة كثرت الكنائس الكبرى وأسست الأديار والمدارس ودور المرضى والأسواق والمجارى وأحواض المياه والفساق والمرافى وفى سنة ١١٨٥ أخذوا يباطون شوارع المدينة للمرة الاولى وفى سنة ١٢٠٤ أشيى قصر اللوفر وبعد ذلك جمعت مدارس باريز وكان عدد طلبتها عشرين ألفا وجعلت منها مدرسة جامعة أطلق عليه اسم الابنة الكبرى للملوك (اللوربون) وأخذ سكان المدينة ينمون حتى بلغ عددهم سنة ١٣٢٣ — ٢٧٥ ألفا وصرفت العناية منذ زمن شارل الخامس الى لويس الثالث عشر . فى تزيين مدينة باريز ونظهيرها وأنشئت فيها فنادق جميلة

ولقد كانت القرون الوسطى على باريز كما كانت على فرنسا قرون مصائب واضطراب فاستباح الانكليز سنة ١٤٢٠ حتى باريز وحاولت الفتاة جان دارك على غير طائل أن تطردهم عنها فذهب سعيها عبثا ومضى سنة ١٤٠٨ الى ١٤٢٠ أكثر الارمنيا كيون والبورغونيون من ذبح سكان باريز التى احنلها الانكليز من سنة ١٤٢٠ الى ١٤٣٦ وجاء طاعون جارف على الأثر أهلك الكثير من سكانها . ومع هذا لا تزداد عروس الغرب الا عمرا نا .

وفى سنة ١٥٢٣ وصع الحجر الأول فى أساس دائرة المجلس البلدى الذى هو مفخر من مفاخر البناء فى هذه العاصمة كما أسس قصر التويلرى المشهور على أيام شارل التاسع وعادت باريز فأصبحت ميدانا لقتل من دانوا بالمذهب البرتستانى من أهلها وانتشرت الفتن الدينية زمنا ، وأصبح القول الفصل فيها للمتعصبين والجامدين .

وفي خلال ذلك اشتد فيها القحط فأهلك من سكانها ثلاثة عشر ألفاً وكثرت
الفتن على الملك وقتل بعض ملوكها وبدأ عهد لويس الثالث عشر بالارتقاء المادى
والعقلى فجعلت باريز سنة ١٦٢٢ مقر رئيس أساقفة وكانت أسقفية صغرى وفى
سنة ١٦٢٠ أنشئت مطبعة الأمة وسنة ١٦٢٦ أنشئت حديقة النباتات وسنة
١٦٣٥ أسس الجمع العلمى وأنشئت بعض الشوارع والساحات وغرست بالاشجار
وكثرت الحارات والاحياء الجديدة واتصل العمران بالقرى المجاورة حتى تضاعفت
مساحة المدينة وعلى عهد لويس الرابع عشر أخذوا يضيئون الشوارع بمصابيح
يجعلون فيها شموعا وذلك فى الليالى غير القمرء .

ولقد نشط هذا الملك البحث فى التاريخ والصناعات والعلوم بإنشاء الجامع
الأثرية والصناعات النفيسة والعلوم وبتخصيصه للناس أن يختلفوا الى المكتبة
وكانت من قبل خاصة بالملوك فقط . وكان عهد الوزير كولبر عهد عمران هذه
العاصمة الذى لم يسبق له نظير وزاد سكانها حتى بلغوا نحو ٥٦٠ ألفا وعلى عهد
لويس الخامس عشر ، تبنعوا أسماء الشوارع على صفائح من توتياء . وجمعواها
فى رأس كل شارع . واستعاضوا عن مصابيح الشموع القديمة بمصابيح
الزيوت .

ولما جاءت ثورة سنة ١٧٨٩ كثر عمران باريز اذ أعقبت تخليص الاراضى
من الكنائس والبيع لتنشأ فيها الشوارع والجادات وكثرت الابنية العامة والخاصة
والمعاهد العامة والصناعية والحدائق العامة والمدارس الكبرى ولئن كان من
الثورات التى حدثت بعد ولا سيما فتنة سنة ١٨٤٨ ما نشأ عنه بعض الاضرار
على العمران الا أن الهمم كانت أعظم للتعمير منها للتخريب وقد جاء عشرون ألفا
من الألمان واحتلوا سنة ١٨٧١ بعض أحياء المدينة عقيب الحرب التى فشل فيها
الفرنسيس فى موقعة سدان وعاد الألمان من حيث أتوا بعد ثلاثة أيام .

وكان عهد عصابات الكومون بعد ذلك من أشأم أيام الخراب على عمران
باريز فتقوض بها ٢٣٨ داراً خاصة وعامة وقتل سبعة آلاف جندى وقتل وجرح

خمسائة ضابط وقدرت الخسائر بثمانمائة وستين مليوناً من الفرنكات وكثر بعد ذلك العمران باستتباب أسباب الراحة وكان من المعارض الخمسة التي أقامتها باريس ولا سيما معرض سنة ١٨٨٩ الذي أقيم تذكّاراً لمرور مئة سنة على الثورة الفرنسية الأولى أعظم مظهر من مظاهر الصناعة عند الفرنسيين وأول دليل على ارتفاعهم التدريجي الذي لم يقف قط عن الجرى .

المحاليات في عمارة باريس

١٢

باريز واقعة في الدرجة ٤٨°٥٠'٤٩ من العرض يشقها نهر السين الى قسمين غير متساويين من الشرق والجنوب الشرقي ويتحللها في وسطها عدة آكام وجبال مهندنها حتى غدت كأنها بعض أجزاءها منها ما يبلغ ارتفاعه ١٠١ متر ومنها ١٢٨ ومنها ١٣٦ ومنها أقل من ذلك . وتبلغ مساحتها ٧٨٠٢ هكتار ومحيطها ٣٦ كيلو مترا .

وطولها من الشرق الى الغرب نحو ١٢ كيلو مترا . وعرضها من الشمال الى الجنوب نحو تسعة كيلو مترات وطول طرقها العامة ٨٨٨٠٠٠ متر فيكون مجموع مساحتها السطحية ١٥٣٢ هكتاراً ولها ٧٠ باباً او منفذاً منها ٥٧ باباً و ٩ طرق للسكة الحديدية وطريقان لمجرى السين وطريقان لترعة سان ديني واورك وعدد سكانها بحسب الاحصاء الاخير ٢٧٦٣٣٩٣ وباريز بالنسبة لحجمها أكثر المدن ازدحاماً اذا قيست بالمدين الاوربية ومعدل الزواج فيها كل سنة ٢٥ ألفاً والولادات ٦٥٠٠٠ والوفيات ٥٠٠٠٠

وتقسم من حيث أمورها الادارية الى عشرين قسماً لكل واحد منها عمدة وثلاثة أو خمسة مساعدون ولباريز ٢٣٤٥ زقاقاً و ٨٢ جادة كبرى و ١١٥ شارعاً

و ١٦٦ ساحة و ٤٠٦ طرق غير نافذة و ٤٦٨ ممشى و ١٥٤ قرية و ٤٩ مصيفاً و ٧١ مجرى عاماً و ٤٢ رصيفاً و ٣١ جسراً و ٤٨٠٠٠ بيت و تمتد الطرق المغروسة بالأشجار وفيها ٨٧٠٠٠ شجرة على طول ٢٧٠٣٦٣ متراً وفيها ٨١٠٣ مقاعد لجلوس الناس في الطرق والشوارع والساحات والحدائق .

أضاء باريز في الليل بنحو ٥٢٣١٣ ضوء غاز و ١٥٧٥ مصباحاً كهربائياً وقوة القوى الكهربائية فيها للشركات الخاصة والعامة في باريز ٢١٣٠٠٠٠٠٠ مصباح كل واحد ذو عشر شمعات . ويجرى ماء الشفة الى مدينة باريز في قساطل من عدة ينابيع صافية نافعة خلافاً لما يدعيه بعض المتجرين بالحمور من أن ماءها مضر بالصحة حتى ينفقوا خمورهم ومعدل مايجرى منه اليها ٣١٠٠٠٠٠ متر مكعب يأتي الى ٨٤ ألف محل من البيوت الخاصة و ٧٤٣٣ مضخة للحريق و ١١١٦٩٥ محلاً لشرب المارة ويجرى اليها ماء الاستعمال غير صالح للشرب وهو للصاعات وغيرها يجري في ٦٤٦٠٠ آلة عامة

في باريز ١٦٠٠٠ عربة بالخيول وأكثرها بحصان واحد والمركبة ذات الحصانين هي في الاكثر عربات خاصة بالاعيان وأرباب الفنادق وفيها ١٣٠٠٠ أوتومبيل كبير تنقل زهاء ٣٠ مليوناً من الناس في السنة و ١١٩ خطلاً من خطوط الحوافل (أومنيبوس) والترامواي وفيها ٢٥٠ عجلة أومنيبوس و ١٩٠٠ مركبة كهربائية تنقل في السنة ما لا يقل عن ٣٠٠ مليون راكب وعشرة آلاف مركبة خاصة و ١٢٠٠٠ سيارة (أوتومبيل) وفد كان في فرنسا في السنة الماضية ٤٤٧٦٧ أوتومبيلاً و ٤٠٠٠٠ مركبة ثقل ولا تدخل فيها الكمبونات وفي باريز ١٦٠ ألفاً من الدراجات و ١٠٦ صراكب نهريّة تحمل نحو ٢٣ مليون راكب في السنة وسككها الحديدية المحدقة بها تحمل ٣١ مليوناً وبركب من الست محطات الكبرى فيها زهاء ٧٧ مليون راكب ومثلهم يأتون اليها

ويلزم لباريز في السنة ٢٩٢ مليون كيلو من الخبز و ١٥٩ مليون كيلو من اللحم و ٣٦ مليون كيلو من السمك و ٦٦٩ مليون بيضة و ٣١ مليون كيلو من الطير

والصيد ٦ ملايين هكتولتر من الحبوب و ٦٩٢٠٠٠ من الجمعة و ١٢٠٠٠٠ هكتولتر من سائر المشروبات الروحية

وفيه ٣٠ ألف فندق وحانة وقهوة ومطعم يعيش منها مئة ألف نسمة ولتجارة الأطلعمة ٢٤٥٠٠ محل يعيش منها ٩٠ ألف شخص وانجارة الفرس والانب ٣٢٠٠ محل وعدد البيوت والمخازن التي تباع الامنة والثياب والازياء ٩٥٠٠ محل فيها ٧٢ ألف عامل وعاملة وعدد محال الاطعمة ومعاملها ٧٥ ألفاً فيها ٤٣ ألف مستخدم وحمائة ألف عامل وعاملة فيكون مجموع من يعيشون من هذه المحال نحو مليون نسمة

وأكبر وسائل النقل وأسرعها في مدينة باريز السكة الحديدية الكهربية تحت الارض التي يسمونها المتروبولينين وهي تدل على عظمة العقل وآخر ما وصل اليه الانسان من التفنن وابس لهذا الخط نظير في سمته وجدته في برلين ولا في لندرا افنح الخط الاول منه سنة ١٩٠٠ وله الآن سنة خطوط منها ما طوله عشرة كيلومترات ومنها أكثر وأقل الى السبعة عشر كيلومتراً ربط أجراء المدينة بعضها ببعض وينقل الراكب ان أحب من فرع الى فرع آخر بدون زيادة أجرة وقد تم الخط الرابع منه هذه الآونة وهو يسير تحت نهر السين ويكلف كل كيلومتر من هذا الخط ثلاثة ملايين فرنك وهو سريع نظيف رخيص يدفع الراكب في الدرجة الاولى ٢٥ سنتياً وفي الدرجة الثانية ١٥ وقد نقلت هذه السكة الحديدية سنة ١٩٠٩ : ٢٥٤٤٥٩٩٢٠ راكباً وكان عدد من أقاتهم في السنة التي قبلها ٢٢٩٠٧٠٠٠٠٥١٩ وكانت أرباحها سنة ١٩٠٨ نحو أربعين مليار فرنك فأصبحت في السنة التالية زهاء أربعة وأربعين ملياراً وهم يعملون أبداً على تهوينه على طريقة لانتخلبه من الهواء النقي ويذرون فيه المواد المضادة للمعفن وقد يناذى بالركوب فيه بعض صغار المزاج ولكن ذلك من كثرة الازدحام فيه لا من شيء آخر

علم المشرقيات

١٣

لا يتأتى لغريب عن أمة أن يعرفها حق المعرفة الا اذا درس لغتها وتاريخها وآدابها . واللغة مفتاح باب كل معرفة ومقدمة بين يدي كل عمل . ولذلك كان من الراغبين في درس أحوال الشرق من أهل أوروبا أن يدرسوا لغاته ليحيطوا خبراً بأهله وكان للغة العربية المقام الاول بين تلك اللغات لأنها لغة أمة ذات حضارة باهرة ودين دان به أهل الاقطار المعتدلة من صميم الشرق . فتوفروا على أحكام العربية وتنافسوا في تعلمها حتى نبغ منهم أناس لم يقلوا في فهم أسرارها عن خلص أبنائها الذين نشؤوا في حجرها وأحكموا ملكة نظمها ونثرها وكان لفرنسا من بين ممالك الغرب يد طولى في هذا المصارع . وكل مملكة من ممالك أوروبا وأميركا لا تخلو من أفراد من أهلها أنفسهم يعانون حل معضلات لغة العرب وينسلون الى تلقفها من كل حذب

ولقد دعوا تعلم هذه اللغات وما ينبغي لها علم المشرقيات أو الاستشراق والمشتغلين بها علماء المشرقيات أو المستشرقين وقديماً كان العارفون من أهل هذا الشأن من الفرنسيين أكثر من غيرهم وقد أصبحوا اليوم وأكثرهم من الألمان . والألمان أمهر الغربيين في النطق باللسان العربي وأكثرهم نبوغاً فيه وعند الألمان من علماء المشرقيات بقدر ما عند الفرنسيين والنمسيين والمجريين واليطاليين والهولانديين والانكليز والروس والاسبانيين والبرتغاليين والأميركيين والبلجيكيين كثرة عدد وحسن معرفة ولا عجب فالألمان نبغوا في كل شأن من شؤون الحياة والعلم والصناعة ودرس العربية كان له النصيب الاوفر من عنايتهم اشتهرت في فرنسا الجمعية الآسيوية ومدرسة اللغات الشرقية الحية وقد درست احوالها وزرعتها غير مامرة وهاءنذا الخص للقارىء ما عرفته عن الجمعية

الآسياوية بواسطة صديق المسيو لوسين بونفا أحد الاعضاء العاملين العالمين في الجمعية المشار اليها فقد كتب الي مائعريه : ان فكر تأسيس جمعية علمية تعنى بدراسة الشرق قد جرى البحث فيه منذ أواسط القرن الثامن عشر ولكنه لم يتم الا بعد زمن طويل . فقد أنشئت الجمعيات الاولى للباحثين في المشرقيات خارج أوروبا مثل جمعية العلوم والفنون في باتافيا (١٧٧٨) والجمعية الآسياوية في البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية في بومباي (١٨٠٥) ومنذ ذلك العهد أنشئت في أوروبا وأميركا عدة جمعيات لمستشرقين ولكن أقدمها هذا الجمعية الآسياوية في باريز أسست سنة ١٨٢٢

وعلى ذلك العهد رأى جماعة من مستشرقى الفرنسيين ان الحاجة ماسة الى أن يجتمعوا أو يجمعوا مواد الدروس المختلفة الضرورية لهم وان يصدروا مجلة تكون لسان حالهم وقائمة أعمالهم . وكان المسيو دي لاسي أنشط هؤلاء العلماء وبفضله أسست الجمعية الآسباوية التي ناب في رئاستها ما يقرب من ثلاثين سنة ، وكان الرئيس اذذاك سلفستردى ساسي أحد أعضاء المجمع العلمى وأستاذ مدرسة فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية وهو أعظم من خدم اللغة العربية في فرنسا وربما كان أعظم مستشرق نبغ ونفع من الفرنسيين وكان من مؤسسى الجمعية أيضا كوسان دى برسفال وكارسين دى فاسى ورموسا .

فبدأت الجمعية أعمالها لأول تأسيسها بنشر المجلة الآسياوية التي اختصت بالبحث في لغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره ولا تزال الى اليوم نموذج العلم الراقى وسيدة المجلات الاختصاصية في فرنسا .

وأنشأت الجمعية خزانة كتب جمعت فيها كل ما وصلت يدها اليه من الكتب والمخطوطات والرسوم وغيرها مما يفيد العلماء من أعضائها وجمعت أيضا مجموعات من النقود القديمة والتحف البديعة . ونشرت مصنفات في تاريخ الشرق وأصول لغاته وفلسفته وأديانه وطبعت على نفقتها عدة مصنفات وساعدت كثيرين مساعدات أدبية ومادية على نشر الكتب النافعة وكان نشر المخطوطات وترجمتها من أهم

الاعمال التي تعنى بها ، وخصت جلساتها في سماع المراسلات والمناقشات العلمية النافعة كما عنت بمراعاة العلماء الأجانب على الدوام والانتفاع بآرائهم وأعمالهم .

واذ قد ظهرت منافع الجمعية الآسيوية سنة ١٨٢٨ عادت بعد ان ضعف أمرها بضع سنين الى مكانتها الأولى ولم تلبث ان فويت عن ذى قبل وانتشرت كلماتها فرأسها امثال سلفستر دى ساسى ثم جوبروريمو وموهل وكارسان دى ناسى ورنيه ورتان وباربيه دى مينار وسيمار . ومن جملة رؤسائها النابويين كوسين دى برسفال وبارتافى سان هيلير ودفرنى وبوريه دى كورتيل وماسيرو وربنس دو فال وبين أمناء سرها اييل ريمورا وجايس ودار مستثير وشافان

تنقلت الجمعية منذ تأسيسها في عدة أماكن ومنذ سنة ١٨٨٣ اتخذت لها مقراً في بناء ملاصق للمجمع العلمى وذلك بفضل رئيسها اذ ذاك رنان الفيلسوف المعروف ونالت من الحكومة الفرنسية عدة معونات رسمية ومنحت الجمعية مكتبة الأمانة الكبرى عدة كتب ومخطوطات وغيرها من المفائس . ولا سيما المخطوطات التي أتت بها من الهند والمجموعة التبتية وكتب الديانة البوذية .

وماعدا المجلة الآسيوية التي تصدرها الجمعية في نحو مائتى صفحة كل شهرين وينألف منها مجلدان كل سنة فقد نشرت على نفقتها ٢١ مصنفاً تنألف من نحو ٤٠ مجلداً وبعض هذه المصنفات طويالة الذيل مثل مروج الذهب للمسعودى نشرت بنصه العربى وترجمته الى الفرنسية وهو في تسع مجلدات ، ونشرت رحلة ابن بطوطة في أربع مجلدات وكتاب الماهافاستوفى ثلاث مجلدات

وهذه الجمعية تمنح كل سنة ٥٠ معونات لبعض المؤلفين في الموضوعات العلمية واعضاؤها اليوم ٢٥٠ عضواً منهم ٢٦ من الأجانب وهى تبعت بمجلتها الى نحو مئة جمعية علمية ومدرسة جامعة او مجلة دورية والى ثمانين مكتبة من مكاتب العالم على يد نظارة المعارف الفرنسية والمجلة ١٣٠ مشتركاً ليسوا من الداخلين في الجمعية ، وقد بلغت وارداتها سنة ١٩٠٨ : ٢٥٦٣١ فرنكاً و ٦٦ سنتيماً . وفي

مكتبتها نحو اثني عشر ألف مجلد من الكتب و ١٥٠٠ صفحة و ٢٠٠ كتاب مخطوط
وفيهما مجموعة من النقود القديمة اهـ

هذا اجمال حال الجمعية الآسيوية وفيها من الاعضاء من لا فائدة منهم ولا
رابطة بينهم وبين الغرض الذي رعى اليه الا انهم يؤدون الراتب السنوي المضروب
عليهم ويتناولون المجلة مقابل ذلك وكثير منهم لا يعرفون من احوال الشرق
ولغاته واصول سكانه اكثر مما نعرف نحن عن الصين والتبت

أما مدرسة اللغات الشرقية الحية وهي التي تقرأ مبادئ اللغات الشرقية
وهي مخرج لاعضاء هذه الجمعية وغيرهم ممن يتولون القنصليات والترجمة
والسفارة عن حكومتهم في بلاد الشرق فاسمها فيما أرى أكثر من نفعها ومادامت
فرنسا تراعى الخواطر في توسيد وظائف التدريس لغير الأكفاء فان تعليم اللغات
الشرقية يبقى صوريا لا حقيقيا . وهيئات ان ينشأ لفرنسا وهي على هذه الحال
أمنال المستشرقين الاول من أبنائها الذين باهت بهم الامم مادامت سوق الشفاعات
رائجة عندها .

درس من سلا نيك

١٤

بينما كنت مأخوذا بما أشاعده من مظاهر عظمة الأمة الفرنسية واقراً
مثالا مجسما من الارتقاء الغربي ولا أفرغ ليلي ولا نهاري من زيارة المعاهد العلمية
وحضور الدروس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأغوص في مكاتب باريز
ولا سيما مكتبة الأمة ومكتبة السوربون وبينما تكاثرت علي المواد وأنا لا أعرف
بأى لسان أعبر ولا بأي قلم أحبر وبينما أنا أفكر في بلادى وما يجب علي أن
أكتب لها مما تأثرت به عواطفى وأخذ بمجامع قلبى حمل الي البريد من سلا نيك

كراسة باللغة الافرنسية من قلم صموئيل سام أفندى لىفى رئيس محرير جريدة
سلانيك الفرنسوية وهى محاضرة ألقاها فى نادى الاتحاد الرياضى فى ذاك الشجر
أواخر الشهر الماضى عقيب عودته مع جماعة العثمانيين الذين ذهبوا لزيارة بلاد
النمسا والمجر منذ مدة فرأيت أن أخلصها للقراء ليعلموا أن تأثر العثمانيين واحداً
عند زيارتهم الديار الاوربية وان ابن سورية اذا أقامه ماشاهده فى غربى أوربا
وأقعه بما فيها من آثار العمل والجهد فان ابن مكدونى لا ينقص عنه تأثراً فى
ماشاهده من أواسط أوربا وشعور أبناء الوطن واحد . قال الكاتب السلانيكى
فى ستة وعشرين يوماً ساح مائتان وخمسون رجلاً من أهالى الاستانة
وسلانيك وأزمير وغيرها من مدن الداخلية سياحة كبرى قطعوا فيها ٤٥٠٠
كبلو متر فى السكك الحديدية و ١٥٠٠ فى البواخر والمجلات والسيارات وعلى
الارجل فوقفنا فى خمس وعشرين مدينة كبرى وصغرى وزرنا نحو ١٥٠ داراً
صناعية ومعهداً علمياً أو مدرسياً وفنياً وادارياً ومتحفاً وغيره وحضرنا مئة
دعوة وغيرها اقامتها لنا ١٥ جمعية و ٢٥ غرفة تجارة وحكومة النمسا والمجر فلم يبق
من تلك الرحلة التى تذكرنا السائحين جول فرن وما بن ريدالا أن نذكر شيئاً من
ذلك الحلم الذى مر علينا فى رحلتنا ونثبت من تلك الاشباح لنحسن الانفعال
بها فى مادياتنا وتكون لنا عاملاً ودرساً نافعاً ولقد كانت غايتنا من رحلتنا اقتصادية
لندرس دور الصناعات والامور التجارية والمدرسية والادارية عن أهم ولكن
المسائل الاقتصادية والاجتماعية كما قال البارون هلموتسكى فيما خطبنا به لها
مساس كلّى بالمسائل السياسية وبينها روابط ولوازم ولا سبيل الى البحث فى
الاولى مع اغفال الثانية .

ولقد كنا نقضى بالمعجب من كل مايقع نظرنا عليه حتى كنا نتساءل عما
اذا كان ما تقع عليه أنظارنا من مدهش الاعمال هو من صنع أيدي البشر وهم
الذين قاموا بهذه المعجائب وبحق ما قاله النائب الدكتور رضا توفيق رئيس جماعتنا
السائحين عند ما غادر النمسا ان أغنى اللغات عاجزة عن بيان الشعور الذى تتأثر به

كلنا كما ينبغي لما لقيناه من الحفاوة الخارقة للعادة مدة مقامنا في بلد بلغ هذه الدرجة من الرقي . نعم لقد تجلت لنا بلاد النمسا والمجر مملكة دخل اليها التجديد من كل أطرافها وتناول كل فرع من فروع أعمالها الخاصة والعامة . وكثيراً ما اتفق لنا ان زرتا معهدين أو ثلاثة في فرع من فروع الصناعة وفي أقاليم مختلفة فكنا نجد في كل منها ماعداً أساليب العمل التي يقضى بوجودها العلم أعمالاً كمالية تابعة وتحسينات خاصة ومحلية تدل على الاقدام الذاتية وقوة ارادة شخصية وحب في البحث وكلها ظواهر محسوسة لعمل عام ونشوء متواصل كنا نشهد ذلك في كل الفروع الصناعية والفنية والمدرسية والانسانية . ولكثرة عنايتنا بالسؤال عن معاهد الاحسان ومعونة العملة تراءى لنا ان النمسا في مقدمة الأمم في هذا الباب ومن ذلك ان ٤٢٠٠ من العملة العاجزين يعيشون في لاينز بالقرب من فينالا على قدر الكفاية فقط بل يعيشون كما يعيش الملوك وما ننس لا ننس ملجأ المرضى المصبيين في شنهوف وفيه ٣٦٠٠ عامل يعاملون كما لو كانوا في قصور ملكية وهم موزعون على ٦٤ بناية في مسافة من الأرض تتجاوز مساحة مدينة سلانيك وقد صرفت عليها حكومة النمسا السفلى ستين مليون كورون فقط لا غير .

وبينا كان رفقاءى في رحلتى يدهشون من زيارة المعامل والمصانع ودور الصناعات على اختلاف أنواعها في بلاد المجر والنمسا ومورافيا وبوهيميا وستيريا وغيرها كان يلفت نظرى خاصة منظر اتفاقوا على تسميته باسم مملكة هابسبورغ فان هذه المملكة هي في الحقيقة رقعة شطرنج فيها غرائب الفسيفساء من العناصر المختلفة والوطنيات غير المتجانسة ولكن هذه الجماعات على اختلاف أصولها ، قد اجتمعت ليكون مجموعها مثال جمال ولطف وتنوع وما كانت وحدة هذا المزيج الا نتيجة نظام الحكومة المركزية وحسن مآلاتها وبعد نظرها فرأت أن تترك لكل قوم استقلالاً ادارياً كان غاية الغايات في ابداعه ، وبذلك توقت

الصدمات الهائلة ولم يحدث حتى الآن ما يكدر صفو الراحة . وهذا الرأي في توسيع سلطة الاقاليم لم يكن منه الوحدة الجوهرية فقط لما فيه من احترام القوميات بل نتج منه ارتقاء خارق للعادة في جميع فروع العمل . وذلك ان كل قطر له من نفسه غنى طبيعي غزير ، ورجال نوابغ أذكاء هم خيرة رجاله ، فاستطاعوا الارتفاع بما حوت بقاعهم وكان من ذلك ان استمتع كل جماعة بما لهم من الحقوق فنشأت المنافسة بين العناصر المختلفة وأخذت كل واحدة منها تضاعف عنايتها وتكثر من جهادها ، فأوجدوا بذلك مجموعة من بدائع الاعمال متنوعة الاساليب تمت في عامة فروع الجهاد الانساني . وكان ذلك من أهم المشاهد وأجلها التي وقع نظرنا عليها في رحلتنا وأحسن معلم لما معاشر العثمانيين

نألفت مملكة هابسبورغ من زواج أمراء بعضهم من بعض على حين كانت الانقسامات الداخلية سبباً لضعف تلك المملكة ولطالما طحنتها . نظام جيرانها ، واعنداؤهم . ولكن لما عازمت الحكومة ان تمنح العناصر المختلفة التي يتكون منها جسم المملكة دسندراً دائماً على المبادئ الحرة في مراعاة الحق العام الحديث بدأ نهوضها وارتقاؤها الى الامام .

فعلى نواب العثمانيين في مجلسنا النيابي أن ينظروا في أمر العناصر العثمانية . وبحلوها كما حلها النمسا والمجر التي كانت في حالة أشبه بحالتنا اليوم منذ نصف قرن فاحسنت حلها على ما يجب فهي سابقتنا في هذا الباب وما علينا الا أن نأخذ عنها وبذلك نأمن العثرات ولا نسير على غير هدى .

وهنا ألتفت الى رفاقي في الرحلة الذين دخل عليهم اليأس من ارتقائنا مما شاهدوه من الشوط البعيد الذي قطعه جيراننا فأقول لهم ان ما شاهدناه عندهم ليس الا ثمرة عمل عظيم وجهاد منظم وارادة قوية وأساس راسخ واذا أحببنا أن نبليغ بآمتنا . بآمتهم فما علينا الا أن نمد نحن يد مساعدتنا للدستور ونستخدم جميع القوى الحية في الامة وأن تعمل الحكومة عملاً فعالاً لما فيه انهاء الشعب كما على الشعب أن يعمل لمعاودة الحكومة الصالحة ، وبالجملة أن يعمل كلاهما بل

يعمل الكل للواحد والواحد للكل ويعرف كل الواجب عليه ونكران النفس والمفاداة .

نهوض العثمانيين موقوف على التعليم ولا تنجح الا اذا حذونا على الاقل حذو البلاد التي كانت تابعة لنا بالامس كمالك البلقان مثلاً وأرسلنا من شباننا من يتعلمون العلوم الكاملة في كليات الغرب ، فمن أعظم نجاح تلك الامارات انها ما زالت منذ زهاء ربع قرن تزال بشبانها الى كليات العلم حتى لا تكاد تدخل كلية في أوروبا الا وتجد منهم كثيرين وهؤلاء هم الذين استلموا زمام الاعمال في بلادهم وتفخؤوا فيها من أرواحهم ولسنا نضطر الى الاجانب لتعليم أولادنا في بلادهم بل يجب ان نجلب رجال الصناعات والعلم منهم يؤسسون في بلادنا مدارس ودور صناعات كما نحن في حاجة الى رؤوس أموال الاجانب لاستخدامها في أعمالنا ومشاريعنا وأن نكون في سياستنا الاقتصادية كما قال ارنست لا فيس المؤرخ الفرنسي في تعريف السياسة انها علم خديعة غيرك من الناس ، وأنت تظهر بأنك تحملهم على الاعتقاد بأننا لم ندرك بأنهم خدعونا أو انهم يحاولون خداعنا .

دار معونة العلماء

١٥

هي الدار التي أنشأتها الآنسة دوسن شقيقة العقيلة تير امرأة تير العالم المؤرخ أول رئيس للجمهورية الثالثة فقد نفع هذا الرجل فرنسا بحياته فأجبت امرأته ان تخلد ذكره بعد مماته فأوصت بمال يصرف على تأسيس دار تؤوي خمسة عشر رجلاً من شبان العدااء يكفون فيها مؤونة الحياة المادية ويتفرغون للبحث والدرس ليكونوا صلة بين الكليات التي تخرجوا فيها والمجامع العلمية التي

يراد اجلاسهم في قاعاتها . ماتت العقيلة تير على حين فجأة فنفذت وصيتها شقيقتها ووقفت مالا يبلغ ريعه مئة وخمسين الف فرنك

إن من يزور هذه الدار المباركة ويطلع على أعمالها ورجالها يوقن كل الايقان بالمثل الا فرنجي القائل بأن « فرنسا تبتكر وألمانيا تعمل » الفرنسيس يبتكرون في كل شيء ، وهذه الدار هي من مبتكراتهم وما أظن لها مثيلا عند الألمان والانكليز والاميركان سادة العالم في العلم وقادة الابداع والاختراع

زرت هذه الدار مرتين وتشرفت بالتعرف الى مديرها أحد كبار فلاسفة فرنسا وعلمائهم المعاصرين المسيو اميل بوترو - ومشاهير الفلاسفة المعاصرين من الفرنسيس اليوم هم بوترو وفوليه وريبو وبرجسون . ولم أتمن في حياتي ان أكون فرنسوى الاصل والجنس الا لما رأيت هذه الدار وعلمت انها لا تقبل في حجرها الا الفرنسيين ، تمنيت أن أعيش فيها المدة المحددة لكل طالب اتفرغ لدرس ابحاث تجول في الصدر ويعوق الزمان والمكان الآن عن اتمامها

هذه الدار سميت باسم تير La Fondation Chiers والأولى ان تسمى دار معونة العلماء لانها ليست مدرسة كالمدارس ولا كلية كالكلليات ولا مدرسة اكليريكية كالمدارس الدينية بل هي دار يقبل فيها كل سنة خمسة ^(١) من شبان العلماء من نابغى الكلليات يحملون شهادة « اليسانس » أو « الدكتورا » في الآداب أو العلوم أو ممن نالوا جائزة من جوائز المجمع العلمى في الابحاث التى تجرى فيها المسابقة بين ارباب الافكار والاقلام تحت نظارة المجمع العلمى الخمسة في باريز فيقضون ثلاث سنين في هذا المعهد ينصرفون فيها الى الفن الذى يريدون الاختصاص فيه فيبحثون بأنفسهم لا تقسمهم تحت رعاية مدير المعهد فيلسوف فرنسا المسيو اميل بوترو الذى يعيش واياهم في المعهد كما يعيش الأب مع بنيه ويمدهم بأرائه ويهديهم الى اقرب الطرق للانتفاع بمعارفهم ، ووضع مؤلف او مؤلفات نافعة في الفنون التى هى احب من غيرها الى قلوبهم ولا ينشرونها الا اذا نظر هو

(١) اعتدنا في هذه المقالة على ما كتبه المسيو اميل بوترو بشأن معهد تير العلمى في مجلة الافكار الحديثة والحلة الدولية الالمانية وغيرهما من الفهارس والقوائم .

فيها واقربهم عليها ، وای عالم لا يحب ان ينتفع في عمله برأى عالم كالمسيو بوترو
بلغ السبعين او كاد من عمره وهو ينفي ليايله واياه في العلم والفلسفة
يشترط فيما يدخل دار معونة العلماء ان يكون ممتازاً بعقله واخلاقه ويفضل
من يرتضي اساتذته اخلاقه ونبوغه . ويشهدون فيه شهادة حسنة . وان
يكون دون السادسة والعشرين من عمره غير متزوج . وقد قضى الخدمة
العسكرية ، ويعطيه المعهد ستين ليرة في السنة لنفقته الخاصة . وثلاثين ليرة
ليسمح بها سياحة علمية وتعطيه غرفتين فسيحتين فيهما أسباب الراحة والرفاهية
احداها للنومه والثانية لعمله بحيث يكون الشبان العلماء الخمسة عشر وهو عدد الموجود
منهم في المعهد أبداً موسعاً عليهم لا يطلب منهم الا أن يؤلفوا ويبحثوا ابحاثاً
علمية تنفعهم وتنفع أمتهم وبلادهم ويقسم عدد من كانوا فيها سنة ١٩٠٨
١٩٠٩ من شبان العلماء الى رياضيين ومؤرخين ومتشرع في السياسة والاجتماع
وعالم في اليونانيات وحقوقيين وفلاسوفين ومؤرخ وموسيقار وعالمين في
الجرمانيات ومؤرخ في الآداب الفرنسية وجغرافي وقد انشئ هذا المعهد في
سنة ١٨٩٣ فيكون عدد من اعانته على الاختصاص في العلم حتى الآن ٨٠ عالماً
وكلمهم وضعوا المؤلفات الممتعة النافعة للعلم عامة ولبلادهم خاصة وقد بلغت
واردات هذا المعهد مئة وخمسين ألف فرنك في السنة يتناول منها المدير عشرة
آلاف فرنك .

قام معهد تير العلمى في أجمل حى من أحياء باريز في حى الأشراف والنبلاء
بالقرب من غابة بولونيا الغناء غربى مدينة باريز في الحى الذى تؤجر الدار فيه
اليوم بثلاثمائة ألف فرنك مسانحة وسط حديقة أنيقة تحيط بها الحدائق فى مكان
يجمع الى السكون المطلوب للعلماء والمؤلفين ولا يبعد عن سائر أحياء العاصمة
وما يلزم لهم من المواد المفرقة فى مكاتب باريز المختلفة ودور العلم والمستودعات
والمجامع والمتاحف وغيرها بحيث هم بعيدون قريون عن الحركة العلمية والسياسية
والاجتماعية وليس فى المعهد مكتبة كبرى لانها على اتساع مساحتها لا يتسع

صدرها لكل ما يلزم المؤلفين فيها من المواد بل فيها فقط كتب الفهارس والمعاجم والمراجعة والامهات التي لا غنية لكل عالم عنها وما عدا ذلك فمكتاب باريز وعلماؤها ودور سجلاتها ومتاحفها على قيد غلوة من سكان هذه الرحبة الشريفة يأخذون منها مراقبهم كل ساعة .

وليست هذه الوسائط هي كل ما في معهد تير من المعونات لعلمائها بل ان لهم بفضل الشيخ الرئيس مديرهم الحكيم الكبير أهم الاسباب التي تربطهم بعلماء العالم ومجامعه وكلياته فهم كسكان الجنان توفرت لهم كل الوسائط فلم يبق عليهم الا أن يقطفوا من ثمار يحبونها كل قريب ودان

يعيش هؤلاء العلماء عيشة مشتركة فيتناولون طعامهم معا ويلعبون ويتنزهون معا ويبحثون عن العلوم التي يمتنون بها معا ويظلون هكذا يعيشون عيشة الاتراب العاملين على ما علموا في طفوليتهم في المدارس والكليات ويسنقيد بعضهم من بعض في العلوم المختلفة ويماون بعضهم بعضاً معاونة الاخوان وترفهون رفاهية لا يتمتع بها الا عقلاء الاغنياء

قام هذا المعهد المفيد تحت رعاية العلماء من أهل المجمع العلمي وحققت فيه مؤسسته العقيلة تير وشقيقتها مارسمه النظار على ذلك المعهد أمثال جول سيمون ومنيه وبارتلمى سان هيلير فكان تير الذي عد من نوابغ القرن التاسع عشر الذين خدوا بلادهم خدمة تذكر على الدهر فتشكر نافعاً لامته في حياته بعقله وفي مماته بما له فتى يصل الشرق ياترى الى هذه الدرجة في العقل والاحسان ومتى يكون علماؤه من أهل السعة واليسار الى هذا الحد ليحسنوا الانتفاع بأهوالهم كما أحسنوها بعلومهم

ان شبان العلماء في هذه الدار بعد ان تعلموا ورأوا العلماء كيف يعملون محتاجون لهضم ما تعلموه أن يمانوا لينشأ منهم أفراد متفردون في العلم فيتحولون بهذه الوساطة من تلامذة الى أساتذة اكفاء أن يكفوا أنفسهم وأن يوجدوا ويخترعوا وهذا موقوف على أن يستجمعوا قواهم ويتمتعوا بحريتهم وأوقاتهم على

ما يشاءون فالعمل كما قال أميل بوترو هو السرور على شرط أن لا يكون صاحبه مستعبداً فيه لاحد ولا لمؤثر بل يقوم به مدفوعاً فقط بعامل نتائج الطبيعة وهي الابداع والابداع ، وما التربية الا أن تخرج كل انسان على ما ينفع فيه . ويتيسر له النبوغ في فروع - التربية هي تخرج المرء أولاً في مجموع المادى العامة التي هي وقف خلفه لنا أسلافنا بجاريهم وسموا ذلك العقل ثم تخرج ثانياً في ان يكون مخلصاً متفرداً في علم واحد يكون فيه على بصيرة على نحو ما ينطلب ذلك العلم الحاضر والمجتمع الحديث ثم ينشأ ثالثاً ممن دخل في هدين الطورين في التربية فيلسوف يدرك قيم الأمور ويعرف الصلات المتبادلة فيما ينصرف اليه العالمون على اختلاف معارفهم ويبحث في ان يوفق توفيقاً حسناً بين الحياة الخاصة والحياة العامة وكل هذا لا يفهم مغزاه شرقنا التمس الآن .

تأخى الغربيين

١٦

كل فكر ومذهب في الوجود نتيجة الدعوة اليه وتحبيبه الى النفوس . عرف الغربيون هذه القاعدة فخرروا عليها في كثير من اعمالهم وكان من ثمرات الدعوات السياسية والدينية تأليف الوحدة السويسرية والالمانية والأميركية وتوحيد كلمة الجزائر البريطانية وانتشار المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والفوضوية وكثرة من يدينون بالمذاهب البرنسائنية والفاسفية .

وقد قام هذا الشهر في فرنسا جماعة ممن يفكرون خيرا رأوا ان بلادهم تنتفع كثيراً من تحسين صلاتها مع اميركا فألفوا جمعية دعوها « جمعية فرنسا اميركا » مؤلفة من علماء وسياسيين وقواد واجتماعيين ومعلمين وفي رأسها المسيو جبرائيل هانوتو أحد أعضاء المجمع العلمي وصاحب التأليف الكثيرة في التاريخ

والسياسة ووزير خارجية فرنسا الأسبق : وقد أنشأوا لبث هذه الدعوة مجلة شهرية باسم جمعيتهم تدعو الى هذا الغرض استفتحتها رئيس الجمعية بمقالة في الغرض الذي يرمون اليه وكتب في المجلة الأسبوعية مقالة طويلة الدليل في هذا الشأن فرأيت ان اخلص للمشاركة لباب هاتين المقالتين دلالة على ما يأتيه المغاربة من الأعمال النافعة لمستقبلهم لننمى على أنفسنا نومنا عن النظر في مستقبلنا .

قال هانوتو — ان النجاح معقود بناصية من يعمل في الوقت اللازم ، ولو وجهنا وجهتنا منذ سنة ١٨٦٠ الى أميركا الشمالية والجنوبية لما احتجنا اليوم الى دعوة أمتنا لتعريفها بما نعرفها به . هبت علينا الزعازع السياسية والاقتصادية منذ ذلك الحين واذ قد سكنت الآن وجب علينا ان نعمل عملاً يحمل في مطاويه احسن الفوائد

تبدلت الارض غير الارض في خمسين سنة حتى صح ان تقول ان قارتي آسيا وافريقية كانهما اكتشفتا حديثاً فكثرت مواصلاتهما وحملت اليهما المدنية والحضارة وجرى تعليمهما واستعمارهما وكان لفرنسا من هذا التحول الغريب حصة موفورة : فقد غير دلبس بفتحه ترعة السويس شكل الارض كما ان جول فري بموافقته على السياسة الاستعمارية قد حاز لنا قسماً كافياً من قسمة الاراضى الجديدة .

وبينا كان الشرق يستدعينا غدا الغرب ينكرنا ، ويستغنى عنا ، فان مسألة باناما المشعومة . التي جاءت بعد مسألة المكسيك قد اثرت في علاقاتنا مع أميركا الشمالية والجنوبية واستغرقت التدابير الاوربية الكبرى التي اضطررنا الى مجاراتها فكرنا وقوتنا المادية . وانحطت بحريتنا التجارية فضعفت بضعفها أسبابنا في العمل واحتفظنا بأساليبنا القديمة التجارية فسبقتنا شعوب أكثر منا فتاء وأكثر مضاء وأقل مطالب

نعم تقدمنا وتأثلنا ولكننا لم نبرح كما كنا في قوتنا على عهد نابليون على حين كانت أميركا بثروتها وقوتها وعظمتها تتقدم تقدماً لا يوصف فقد كان سكان

الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ - ٣٦ مليوناً أى ما يقرب من سكان فرنسا على التقريب فأصبحوا سنة ١٨٩٠ - ٦٣ مليوناً وهامهم يتجاوزون اليوم الثمانين مليوناً . وفى كندا اليوم زهاء ٦ ملايين من السكان وفى الجمهوريات الوسطى والمكسيك ٢٢ مليوناً وأصبحت أميركا الجنوبية ٤٥ مليوناً وكان فيها سنة ١٨٩٠ - ٣٥ مليوناً

وكان مجموع تجارة الولايات المتحدة سنة ١٨٧٠ خمسة مليارات ونصف فرنك فأصبحت اليوم زهاء ١٦ ملياراً وكان مجموع تجارة كندا سنة ١٨٧٨ - ٧٥٠٧٩ مليوناً فأصبحت سنة ١٩٠٥ - ١٩٠٦ مليارين ونصفاً . ومجموع تجارة أميركا الوسطى والمكسيك مليارين ونصف وجمهوريات الجنوب أكثر من أربعة مليارات منها ملياران ونصف للبرازيل ومليار للجمهورية الفضية .

وعلى الجملة فقد بلغ مجموع ما هناك من نفوس ١٦٠ مليوناً من البشر ومجموع التجارة أكثر من ٢٥ مليار فرنك وأحدثت أميركا حركة كبرى فى العالم بدخولها مضمار الاتجار فأثرت فى فرنسا تأثيراً غير قليل وكانت هذه الى ذاك التاريخ قريبة بتجاريتها من انكلترا أى لها المقام الثانى فى التجارة فأصبحت اليوم فى الدرجة الرابعة بعد انكلترا والولايات المتحدة والمانيا . أى اننا فقدنا ما كان لنا من المكانة قديماً فنحن اليوم نريد أن نستعيد منزلتنا الاولى أو ان نغتنم الوقت الضائع فالمسألة ليست متعذرة ولكن تقتضى لها الارادة والتفكر والعمل على طريقة منظمة والعودة الى تقاليدنا والانتفاع من اسبابنا

أما الولايات المتحدة بما لها من المركز الذى أحاط بطرفى البحرين المحيطين فهي المهيمنة على أعمال العالم فان عدلت الحالة بين اليابان وروسيا فلا يبعد ان يجيئ زمن تتداخل فيه فى السياسة الاوروبية وان الفرنسيين فى كندا ليلغزون مليونين ونصفاً ومثل هذا العدد من الفرنسيين منتشرة فى جمهوريات الولايات المتحدة ولا سيما فى الجنوب واللغة الفرنسية فى هايتى هى اللغة الرسمية فاذا حسبنا المستعمرات الفرنسية فى كويان وجزائر الانتيل يصبح عدد الفرنسيين ومن

يتكلمون باللغة الفرنسية من الاميركان ليس بقليل
وان مالنا من الايادى فى أميركا ولا سيما وقد قرن فيها اسم لا فاييت الفرنسى
باسم واشنطون الاميركى الذين ساعدوا على استقلال الولايات المتحدة وما وضعناه
فيها من أموالنا وقننا به فى جمهوريات الجنوب من البعثات العلمية والعسكرية
والمشايخ الاقتصادية والمالية كل ذلك يدعونا بلسان الحال الى أن نصل الحاضر
بالغابر وان لم تكن سلسلة الصلات قد قطعت كل القطع

والناس مهما تقلبت بهم الحال لا يزالون يذكرون لفرنسا بيض أيادها على
المدنية واذا نسوها فانهم لا ينسون باريز التى تنشر أنوارها على العالم واليهما يحج
الألوف من الاميركيين كل سنة للتنزه والارتياض والاستفادة وكلما كثرت
الرفاهية فى ديارهم تدعوهم الدواعى الى نزول باريز وما فى أراضى فرنسا من
المصايف والضواحي ككوت دازور فان مجموع الاميركيين الذين يختلفون كل
سنة الى ديارنا لا يقلون عن مليون سائح . فعقد الصلابة بين فرنسا وأميركا فيها
كل ما نحتاجه من الاسباب القوية فان كانت أميركا الشمالية تدعونا اليها بما فيها من
القوة والعظمة فاميركا الجنوبية تناديننا اليها القرابة لان عناصرها لاتينية وترتبطها
لاتينية فمن كندا الى مصيق ماجلان مارين بالمكسيك والجمهوريات الوسطى ترى
الدم اللاتينى ممزوجا فى شرايين العناصر الجديدة وعلى أميركا الجنوبية يصح اطلاق
المثل القائل « هذا دم لاماء »

ومثل هذه الجمعيات نفعتنا فى القارات والاقطار الأخرى فقد كانت جمعية
« أفريقية فرنسوية » أعظم معاون للحكومة فى أعمالها الاستعمارية وجمعية
« آسيا الفرنسية » أخذت على طاقها مثل هذه المهمة « جمعية سراكش »
تعمل على نشر الافكار الفرنسية فى الغرب الاقصى فنحن بجمعيتنا هذه لا نأخذ
الى أميركا من معارفنا بقدر ما نأخذ عنها . فلا نرمى الى الدخول فيها ونشر كلمتنا
بين أبنائها بل نود أن نعاونها ونحالفها نريد أن نتعلم عليها ونحن أبناء المدنية
القديمة درساً فى النشاط والمضاء فان كان لمدننا القديمة كنائسها وبيعتها فامدن

الحديثة معاملها ومصانعها فنحن نقنع بامتصاص التاريخ أما هم فينشقون ارج المستقبل

قام في واشنطنون مثل عملنا هذا يرمى الى التقرب بين جميع العناصر في العالم الجديد سموه مكتب الجمهوريات الاميركية انشأته الولايات المتحدة بمعونة الحكومات الاخرى ومنحه المستر كارنجي مبالغاً جسيماً من المال وهو يفتح قاعات لالقاء المحاضرات والاجتماع ومكاتب لاختذ المواد والتعليمات وخزانه كتب ومجلات كبرى وينشر مجلة للدعوة الى هذا الغرض وذلك على صورة رسمية كما أن اسبانيا أنشأت مثل ذلك للتوفيق بين اسبانيا وأميركا وبمثل ذلك قامت البرتغال للتوفيق بينها وبين البرازيل . وفي ألمانيا اتحدت الكليات وأعمال الرجال على جلب أبناء الاميركان وتلقينهم التربية الجرمانية أما شعار جمعيتنا فهو أن نحجب فرنسا الى تقوس أميركا ونعرفهم بها ونحجب أميركا الى تقوس الفرنسيين ونعرفهم بها

ولا بأس هنا بذكر شيء من تلك العظمة الاميركية التي أدهشت العالمين المدني والوحشى . فان مدائن نيويورك وشيكاغو وسان لوي وسان فرانسيسكو قد امتارت بغناها في زراعتها ومعادنها وصناعاتها وأعمالها التجارية الخارقة للعادة فقد كان في الثمانى والاربعين ولاية ومقاطعة كولومبيا والارض الهندية والاسكا وجزائر هافاى ومنها تتألف الولايات المتحدة ٥٧٣٩٦٨٧ مزرعة سنة ١٩٠٠ ومعدل سعة كل واحدة منها ١٤٦ فداناً (آكر) وثمنها ٢٠ ملياراً ونصف مليار دولار أى ١٠٦ مليارات من الفرنكات وكان مجموع محاصيل هذه المزارع سنة ١٩٠٨ — ٨ مليارات دولار منها ٢٦٦٨ مليون مكىال من الذرة و٦٦٤ من الحنطة و٨٠٧ من القرطمان و٣١ من الجاودار و١٦٦ مليوناً من الشعير و١٣ مليون بالة قطن و٧٠ مليون طن من العلف و٧١٨ مليون ليبرة من التبغ و٢٧٨ مليون مكىال من البطاطا و١٣٥ مليون ليبرة من الصوف النقي

وكانت مساحة الغابات الاهلية ١٦٨ مليون فدان تغل كل سنة ٦٦٦ مليون

دولار دع عنك الصيد في بحار أميركا وأنهارها وهو يباع بعشرات الملايين من الدولارات .

وبلغ سنة ١٩٠٥ مجموع ما في الولايات المتحدة من المعامل ٢١٦ ألف معمل رأس مالها ١٢٦٨٦ مليون دولار يعمل فيها ٥٤٧٠٠٠٠ يتقاضون أجوراً يبلغ مقدارها ٢٦١١ مليون ريال وتبتاع بثمانية مليارات ونصف من المواد الأولية وتبيع بما قيمته خمسة عشر ملياراً . وفي سنة ١٩٠٨ أعطت الحكومة ١٦٣ ألف رخصة لإنشاء محال وأما كن قيمتها ٥٤٦ مليون ريال

وبلغ طول الخطوط الحديدية في هذه الولايات سنة ١٩٠٧ = ٢٣٧ ألف ميل أي ٣٨١ ألف كيلومتر لها ٥٥٠٣٨٨ قاطرة و ٢٠١٢٦٠٠ مركبة فيها من المستخدمين ١٦٧٢٠٠٠ يقبضون ١٠٧٢ مليون دولار مشاهرات وبلغ عدد من نقلتهم تلك الخطوط من الركاب ٨٧٤ مليوناً وثقل البضائع ١٧٩٦ مليون طن وثقل الطنات الالفية (الالف ١٦٠٨ أمتار) ٢٣٦ ملياراً ورأس مال شركات السكك الحديدية ١٦ ملياراً دولار وصافي ريعها أربعة في المئة . وفيها ما عدا هذه السكك الحديدية ٣٨٨١٢ ميلاً من الخطوط الكهربائية . وبلغت صادرات الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨ = ١١٩٤ مليون دولار والواردات ١٨٦٠ ومجموع تجارة أميركا الخارجية ٣٣١٥ مليوناً

وكل هذه القوة الاقتصادية ليست بشيء لولم تكن الاخلاق أساس عظمتها الاقتصادية وقد أخذ مقام المفكرين والعالمين يعظم في أميركا كما عظمت منزلة رجال المال والاعمال والصناعة والتجارة . وكثير من سكان المدن يعنون بالموضوعات الأدبية والفنية والعلمية وأصبحت بعض المدن مثل بوسطن التي هي مقر الحركة العقلية منذ زمن طويل ميدان الآداب والعلوم . وان كثيراً من الاسر لينزلون مدينة واشنطن عاصمة الولايات المتحدة في سياستها ويعيشون فيها بعيدين عن اضطرابات نيويورك وسان لوي وشيكاغو . وليس للاميركان مثل فرنسا بلاد يفترون منها مادة علم ولا يجدون بلداً مثل فرنسا تلقاهم بقبول

حسن وتوفير الارادات على حبهم . وفرنسا تتعلم كذلك من نشاط رجالهم فكما أن طلابهم يجدون في بلادنا مايتعلمونه كذلك أولادنا يستفيدون من تعلمهم في كليات أميركا فينشأون بين شبان يشعرون منذ صغرهم باستقلال الفكر وأنهم حاملون تبعة أعمالهم ان خيراً نغير وان شراً فشر .

لما وصل النقل الى هذا الحد وقف القلم فذكرت شيئاً من حال الشرق . ذكرت حال العثمانيين والایرانیين وأنهم وان كانوا من أمم مختلفة لجامعتهم الكبرى وهي الاسلام لا تقول بحنس ولاعنصر فلو كنا وكانوا على شيء من العلم الحقيقي اما كننا ندعو الى انشاء جمعية عثمانية ايرانية كما ينشئ هانوتو اليوم جمعية فرنسوية أميركية

ولكن ضعف عقول رجالنا ورجالهم وتعصبنا وتعصبهم وجهلنا وجهلهم لا تلبث أن تنفجر برا كينها اذ ذاك ويتذرع بعضهم بالسياسة يتوكأون على عكازها لينافروا بين القلوب ويفرقوا بين أبناء الاب الواحد وهناك تدخل الدول ذوات الشأن والغايات في البلادين وينفخن في أبواق الشقاق مستعينات ببعضنا على البعض الآخر . وان العاقل ليربط على قلبه بيده عند ما يفكر في عاقبة سعي الجهلاء لابقاء سوء التفاهم بين العثماني والعثماني فكيف يتعمى هذه الأمنية البعيدة اليوم من ربط العثماني بالایراني . فاللهم علمنا علماً نحسن به التفاهم حتى يتآخى الشرقيون كما يتآخى الغربيون

محاضرتنا في نهضة العربية

١٧

في باريز ثلاث جمعيات شرقية الأولى جمعية شبان الاتراك العثمانيين والثانية جمعية الجامعة الاسلامية والثالثة جمعية الاخاء المصرية . اتخذت كل جمعية لها ناديا وأخذت تعمل على ما فيه غايتها وقد كافتتنا جمعية الاخاء المصرية ان نلقى عليها

محاضرة في نهضة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرة فألقينا عليهم المحاضرة الآتية في ناديهم في قهوة فولتير أمام دار تمثيل الاوديون :

سادتي الاخوان

سألتوني سمعت بكم أوطانكم ان أحدثكم بطرف من تاريخ نهضة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرة وما منكم الا من أستفيد منه وأتشفر بالأخذ عنه . أنتم من أهل الفئة الفاضلة في وطنكم يتوقع منكم أن تنيروا آفاق جهله بأنوار معارفكم وان تعمروا أكناف معالمة ومجاهله بما ثقفتموه في هذه العاصمة السعيدة من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صحيح وآداب رافعة . فاني لى وأنا نارل بينكم متعلماً لامعاً ان أفوه في حضرته بكم بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مصاقع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعملاء وما حالى وحالك لو أنصفتكم وأنصفت نفسى الا حال من يحمل التمر الى هجر أو المسك الى أرض الترك أستغفر الله بل ان حال من يلقي محاضرة على جمعية الاخاء المصرية في باريز أعجب وأعرب اخوانى : نعمون قرت بكم عيون مصر أنه أتت على اللغة العربية أدوار وأطوار وعرض لها ما يعرض لكل كائن فى الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلة وان اتعس أيام ضعفها كانت فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة وهو عهد الفتور فى جسم الامة الاسلامية عامة والامة العربية خاصة . ثلاثة قرون بل أكثر مضت فى مرض مستحکم كانت تكفى لموت هذه اللغة الشريفة التى تعقد اليوم على أمثالكم خناصرها وترجو بمساعيدكم أن يكون مستقبلها خيراً من حاضرها وغابرها بيد ان لغة يفرض على زهاء مائتى مليون من المساهين أن يتعالموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال مادام فى الأرض مسلم يوحد الله .

لابد لكل حركة من سبب . وسبب ما عرا العربية من الضعف فى تلك القرون انقطاع الملوك عن الأخذ بيدها فأصبحت الأمور العامية صورية ينظر فيها الى الاشكال لا الى الحقائق واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد

وعدوا ماعداها من العلوم فضولا لاغناء فيه وساعد على انتشار هذا الرأى
السخيف ما أصاب البلاد من ضعف الاحكام وفساد النظام ولا علم حيث يفقد
الامن وفي النادر أن يهتم جاهل بتعليم أو يربى من لم يترب
وكأن قدرة المولى تعلقت بأن هذه اللغة التى نشأ لها الضعف من أبنائها ان
تأتيها الصحة على أيدي غيرهم . وربما يعجب بعضهم الآن اذا قلنا له ان مبدأ
نهوض اللغة العربية كان فى مصر أيام محمد على وقد صحت عزيمته على خدمتها
مسوقاً بنابل من سلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من أهل العلم من القرنيس
فكان من أعماله الجليلة ما خلد له الفجر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة
والعلم لامن حيث منازعه السياسية من أعاجيب الحكم فى الشرق . والشرق
أبو المعجزات والكرامات .

ليس من يجهل أن محمد على كان امياً أو يقرب من درجة الامية . مات ولم
يحس التكلم بالعربية العامية لأنه كان أرنأودياً ولم يخط سطرأ واحداً لأنه تعلم
فى الكهولة مبادئ طفيفه من حس الخط والقراءة فقط . ومع هذا فقد عنى
بما لم يعن به أحد من الملوك المتأخرين وشرع منذ استقام له امر مصر يختار
الاذكياء من أبنائها ممن قروا الدروس الوسطى فيبعث بهم على ثقة الحكومة
إلى أوربا ليخسوا فى العلوم التى أولعوا بها حتى اذا عاد أحدهم وأتم تحصيله
يحبسه عنده فى قلعة الجبل ويخرج له كتاباً بالافرنجية فى الفن الذى أتقنه ويوعز
إليه بأن لا يخرج من القلعة قبل أن يترجمه بالعربية ويأمر له بأسباب الراحة
والمعينات على الترجمة والتأليف فاذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على أمير
البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس أو إلى لجنة كانت معروفة إذ ذاك
بلجنة الامتحان فبعد ان تنظر فيه ترخص بطبعه فى المطبعة الاميرية وينفق
الامير على المترجم أنواع الهبات ويشرع فى ترقية فى المراتب ان كان ممن استعدوا
للادارة أو الجندية أو البحرية وإذا كان من الاساتذة يوسد اليه التدريس فى بيوت
العلم موسعاً عليه فى الرزق ليتخرج به ابناء مصر . وهو عمل يذكرنا بما كان

يأتيه المأمون العباسي من الانعام على المترجمين ولكن ما يصدر عن المأمون وهو أعلم خليفة في الاسلام لا يستكثر منه وعصره عصر شباب هذه الامة بقدر ما يستكثر ماتم على يد محمد على الامي الالباني وعصره عصر شيخوخة الاسلام والمسلمين .

قال لي صديقي الدكتور عثمان باشا غالب أحد حسنة مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي اختطها محمد علي لمن يجي بعده وشاهد تلك الحركة العلمية في ابائها ثم شاهدها في انحطاطها وهو يشهدا الآن في تجدها . لقد ظلت نهضتنا العلمية سائرة أحسن سير الى سنة ١٨٨٢ فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة ١٨٨٧ وقد قام بعدها رجل من أبناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد سيء منه لاحلال اللغة الانكليزية محل اللغة العربية في المدارس الاميرية زاعماً بأن الواجب على المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لا يتأتى الا اذا اتقن المصريون لغة البريطانيين فبدأت نظارة المعارف في أيامه وبعدها تسلب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لاء انكلترا وقطعت الارساليات العلمية الى أوربا حتى لم يكديبقى اليوم من أولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل اذا عادوا الى منابر التعليم لا يسدون حاجة مصر وأخذت المعارف في عهد المبارك تطهر المدارس بأمثال دنلوب وارتن من كل ما ينفع اللغة أو كان من آثار النهضة الأولى حتى لقد كانت تطرح الكتب المترجمة كداسا في مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجل المعارف على من عقوا لغتهم وأمهم كما عق اخوة يوسف ابن أبيهم على حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التأليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرها من مصنفاته

قال غالب باشا كان أكثر أساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضتها الأولى من الفرنسيين المستعربين يكتب الاستاذ درسه بالفرنسية والمترجم معه ينقله الى العربية فيلقى على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة ١٨٣٠

الى سنة ١٨٥٤ وقد كتب فيها الاستاذ بروجر بك الفرنسي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية الى خديوي مصر في عهده يقول له في تقريره السنوي أن الوقت قد حان لأن تكون وظائف المدرس كلها بيد المصريين إذ قد أصبح فيهم الكفاة الآن وان مهمة فرنسا في تربية أبناء مصر في هذه المروع العلمية قد انتهت أو كادت .

نعم في ذلك العهد تم للعربية ما تريد من العرب المصنفات العلمية والأدبية على اختلاف أنواعها وعادت فاضحت لغة علم بعد أن انقطع سد العلوم منها قرونا وأحيا أولئك المصريون أمثال الطهطاوي والرشيدى والتباسبى والهياوى والمحراوى وحماة وبيجات والملكى وندى والبراوى والبقلى ألفاظاً من لغتنا كانت في حكم الدارس هجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون عن عهد الدولة العباسية في بغداد والاموية في قرطبة والقلاطمية في مصر وأضافوا الى تلك الألفاظ ما حدث بعد عهد الحسرة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعربوها على الطريقة التى سلك عليها أحدادنا العربون غالباً حتى أن الأتراك والفرس لما شرعوا يعلمون العلوم فى البلاد العثمانية والى رانية بالافين التركية والمارسية لم يجدوا أمامهم كنزاً حاضراً ينفع به فى الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة فى الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها فنقلوا المصطلحات العربية برمها وأدجوها فى تصاعيف لغتهم

كان الطلبة الذين أرسلهم محمد على الى النجرج فى أوروبا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حملة لواء العلم لافى القطر المصرى فقط بل فى البلاد العربية كافة وأصبحت مصر يبيض أباديهم من هذه البلاد بمثابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتهز أعصابها للارتقاء حتى بلغت الكتب التى ترجمت فى فنون مختلفة من الافرنجية زهاء ألفى مجلد . والأثر الاكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوى شيخ من ألف وترجم فى عهده بما خلفه من قلمه أو عرب فى قلم الترجمة

برئاسته وما بثه من المبادئ في مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس . وكلها أعمال مهمة تدل على نفس طويل وفضل جزيل . خل عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الاثناء ومنها جريدة وادي النيل لابن السعود ومجلة يعسوب الطب لكلوت بك .

ورب معترض يقول أى علاقة لتعلم العلوم الجديدة ونقلها الى العربية بحياة اللغة التي يراد منها آدابها المنتورة والمنظومة ليس الا . والجواب انه لا أدب لمن خلت لغته من أمثال هذه المعارف فكما أن للعلوم ارتباطاً كلياً بعضها ببعض هكذا لغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها بل ان لغة مهما حوت من أنواع البديع والمعاني والبيان لا تعد من اللغات الحجة ان لم تكن لغة علم قبل كل شيء .

وهنا مسألة مهمة لا أحب أن أمر بها وأنا منطلق لان لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الادبية وهي انا اذا تدبرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لا نأبث أن نشبهه من ملوك الافرنج بالامبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية . وشارلمان كما لا يعزب عن علمكم كان من أعظم ملوك دهره وله صله بملوك المساهين وهو الذي أُنقذ اليه الرشيد العباسي رسولا من قبله سنة ٨٠١م يحمل اليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهذا الذي كان يحمى الملتجئين اليه من أمراء المساهين الهاريين من الخلفاء في قرطبة . كان شارلمان لأول أمره أمياً تعلم الكتابة البسيطة على كبر مثل محمد علي الا أن تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروساً فيه بالفطرة فجعل قصره معهد المستنيرين والمتعلمين الذين كان يستعين بهم على نشر المعارف بما أنشأه من المدارس بإشارة الكوين المشهور أستاذة وأمين سره وبأذن الجرائيم الأولى من المعارف في هذه الارض الفرنسية وبمساعيه أنشئت المدارس في اكس لاشبل عاصمة البلاد اذ ذاك وتور واورليان وليون واستنسخت الكتب الوافرة لينتفع بها الطلاب ومن العجيب أنه حدث لهضة شارلمان ما حدث لهضة محمد علي حذو القذة

بالقذرة وذلك أنه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت رنجها حلة واحدة لان من خلفوه على سرير الامبراطورية لم يكونوا على قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه ولان الاعمال العظيمة في البلاد المنحطة قد تقوم بالفرد أكثر من قيامها بالافراد وعلى العكس منها في البلاد الراقية أتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم أو كاد ولم تدب روح التجديد فيها الا بانتباه عقول الامة وعلى يد أناس من أبنائها كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تجدد حياة آدابها بيدها بعد محمد علي بنحو خمسين سنة متكدة في مهمتها على نفسها لاعلى الحكومة وبذلك جار لنا الاستنباط بان كل اصلاح يقوم بالامة في هذا الوجود يكون الامل في بقائه أكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الاستبدادية التي تجد فيها تمييزاً بين الامة والحكومة . والحكومات قد تعرض لها عوارض تنسى معها الترغيب في العلم ومنها الى اليوم من يفضل الجهل على العلم . ولهذا المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الامة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى في برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لا يرجع الى عقل ولا الى نقل .

كان الادب العربي قبل دور النهضة الاخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهان طول بلا طول ولا طائل وجلل باردة سمجة وشعر ركيك أكثره في الاماديج والاهاجي وان ارتقى الشاعر اتفق لسانه في وصف الخلد والخال وذات النطاق والخلخال من ربات الحجال أو الذكران من الرجال وما أظنكم أعز الله بكم دولة الادب الا قد وقع لكم شيء كثير من أمثال هذه الركاكات والسخافات فضر بتم بها عرض الحائط وحمدتم الله على أن خلقكم في زمن قام فيه من الكتاب أمثال^(١) محمد عبده وعشرات غيرهم لا تحضرني الا آن أسأؤهم من شيوخنا وكهولنا

(١) حذفنا في هذه الطبعة ما كنا ننتهز من أسماء الكتاب والشعراء والخطباء في الطبعة الاولى

وشباننا . وقام من الشعراء محمود سامي وغيرهم ممن هم عمدة العربية في نهضتها الاخيرة عملوا خيرا في مصر والشام والعراق وتونس أعمالا وخاف أكثرهم من مآثر فضله ما يطرس المأدبون عليه وينسحون على منواله .

وبينا كانت اللغة العربية تزهر في مصر في الامارة العلوية عز على الشام أن تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الافراد والجمعيات وذلك في أواسط القرن الماضي وكانت مدينة بيروت وهي نجر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها أنار من مرسلي الفريسيس والاميركان وأنشأوا فيها مدارس جعلوا لغتها الاولى اللغة العربية وأتقنها كثيرون من أهل لبنان فخدم مسعاهم وكانت البد الطولى في تنشيط لغة قرين للدكتورين كرنيليوس فانديك ويوحنا وربات وهما من أعظم مؤسسى الكلية الاميركية الانجيلية في بيروت تعنا العربية وأتقناها وألفا بها التآليف العلمية المافعة والاول اميركى والثانى أرمنى ودرسا بها مع أفرانها العلوم الطبيعية والرياضية والطبية ومن غيرتهما عليها أن عمدة المدرسة لما عمدت أن تجعل لغة التعليم في الكلية اللغة الانكليزية بدل العربية فاوما ماوسعتهم المقاومة ولما أخفقا استقالا من وظيفتيهما لأنهما أبت مروعتهم الا أن يحصسا النصح لابلاد ولاغتها . والدكتور كرنيليوس فانديك لاميركانى في سورية بفصله على اللغة العربية وما عرب لها من كتب العلم أشبه بالشيخ رفاعه الطهطاوى في مصر ووجه العجب في فانديك أعظم لأنه أميركى الجنس والمنشاء غار على لغة العرب أكثر من أهلها ومن الغضاضة على مصر والشام أنهم لم تعرفا لها حقهما على ما يجب وكان على القطرين أن يرفعا لها تمناين كما رفعت باريز لهوغو وروسو أو كما رفعت مصر لمحمد على وابراهيم . والعلماء ان لم يكونوا أحق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا أقل من أن يكونوا على مستواهم .

ولقد كان من أعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت على ذاك الدور

أيضاً بطرس البستاني وأسرتة بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من أصول العلم وفروعه وكذلك يوسف الاسير وابراهيم الاحدب وناصيف اليازجي وأسرتة وغيرهم فهؤلاء كلهم توفروا على التعليم وتخرج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في أقطار الشام ومصر وأميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء . ولم تحرم الاستانة - والعواصم مرزوقة منذ خالقها الله - من نزول عالم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبخنه وأعنى به أحمد فارس الشدياق الذي اقترح علي صديقي سيد أفندي كامل من رجال الجامعة المصرية أن أتوسع في الكلام عليه .

أصل هذا الرجل من لبنان من أسرة مشيحية خرج من بلاده مغاضباً فقضى زمناً طويلاً في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وراكتر وتعلم في خلال ذلك الانكليزية والافرنسية ثم دان بالاسلام وألف بعض الكتب ومنها اللغيف في كل معنى طريف طبع في مالطة سنة ١٨٣٩ ومن كتبه في أوروبا كتاب الساق على الساق في ماهو الفارياق أو ايام وشهور واعوام في عجم العرب والاعجم طبعه في هذه العاصمة سنة ١٢٧٠ هـ . وضمنه ترجمة حياته وشؤوننا وشجوننا على اسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر ان تعدده من الاشياء المعروف عند الافرنج بالامورستيك (الجد في الهزل) أو الريالبست (الحقيقي) الذي حدث في عهد فلور او الناتوراليست (الطبيعي) الذي تم على يد رولا وانك لندھش من قدرته فيه على التعبير ورشاقتة في التصوير ومتانته في التحرير والتجوير فكان اللغة التي كان من جملة محووظات احمد فارس فيها قاموس الفيرورابادي الذي ألف كتاباً مهما في نقده وسماه الجاسوس على القاموس - كانت نصب عينه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء ويستحضر في دقيقة ما يصعب الاتيان به في ساعة وينقن ما شاء بيانه وتبيانه . ولفظ الفارياق مقتطع من أول اسمه « فارس » وآخر اسم أسرته « الشدياق » وقد حمل في كنيابه على رؤساء الدين حملة منكرة لأن بعضهم قتلوا أخاه ظالماً وانعصباً

جعلوه في بناء لهم وبنوا فوقه لأنه دان بالمذهب البرتستانتي^(١)
هبط أحمد فارس مدينة الاستانة بعد ان خبر حال اوربا خيرة زائدة وانشأ
جريدة الجوائب التي طار صيتها في الآفاق ورزق الحظوة بعلمه فكان ملوك
الاطراف يهادونه ويمنحونه المنايح ومن كان يساعده خديوى مصر وبابى تونس
وملك بهوبال في الهند حسن صديق خان الذى طبعت له مطبعة الجوائب معظم
تأليفه العربية وكان هذا الملك أعلم الملوك المناخرين بل أشبه بابى القضاء صاحب
حماة في جمعه حكم الناس الى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة المعجم والعرب
في فهم اسرار الكتاب والسنة

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الانشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا
التي اسست بعدها على نسقها وقل ان نشأت لنا جريدة في صحتها وديباجتها العربية
الهم الا أن تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الافغانى ومحمد
عبده ومصباح الشرق لابراهيم بك المويلحى والبرهان للشيخ حمزة فتح الله
وذلك لان جريدته كانت كهاته اسبوعية وله فيها مساعدون في الاقطار كان
يهاديهم ويهادى علماء عصره حتى كثر أحابيه من العلماء في شمالى أفريقية وغربي
آسيا ووسطها وهو الذى يتولى النظر في كل ما ينشر فينمقه ويزوقه وناهيك
بكلام تصقله الانامل المارسية فاحمد فارس هذا لو انصفنا هو واضع اساس
الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلفه من آثاره . ومن اراد
أن يطلع على شىء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع الى كنز الرغائب في منتخبات
الجوائب وهو مطبوع متداول وان أحب الاطلاع على الجوائب برمتها في حجمها
ووضعها فليرجع اليها في خزائن الكتب في أوربا ومصر والاستانة

ولم يقف عمل أحمد فارس عند حد نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب سر
الليال ورحلة له الى أوربا جديده محضه وكتاب نحو اللغة الانكليزية وديوان شعره
وغيرها بل نشر طائفة من كتب الأدب واللغة والشعر ككتب الثعالبى والتوحيدى

(١) هذا قريب مما وجدت من شعر أحمد فارس وشعره من كتابه العارياي

والطفرائي والبديع وغيرهم من أئمة الأدب نشرها على أحسن اسلوب راق في طول البلاد وعرضها بأثمان بخسة فعمت بها الفائدة وأنشأ طلاب الآداب يتحدثونها في اسلويا . وما برحت مطبوعات الجوائب الى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدخرها غلاة الكسب لينتفع بها الاحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون .

ابتلي أحمد فارس بناس حسدوه وأى عالم خلا من حساد وطفقوا يشنعون عليه ويزيفون شعره وينقدون جريدته وكتبه ولكن تلك المناقشات اللغوية الادبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم يزد فارسنا الاجرأة على الجرى في مضماره وقبولا بين العالمين بمصنفاته وآثاره فكان بنقده بعض كتاب العربية أشبه بسانت بوف في نقده كتاب عصره من الفرنسيين فاستفاد أرباب الاقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد مما دار بين النقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق وبذلك أخذ من يعانون صناعة القلم يتأثون قايلا فيما يكتبونه وأخذت تخف اعلاط الكتاتين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلما نقل الناقلون عن اللغات الافرنجية ونحا المؤلفون مناحى قدماء الكتاب في ترك النكلف والتعسف حتى صبح لنا أن نقول اليوم أن أسلوب الكتابة العربية لا ينقص عن اللغات الافرنجية الراقية بإيجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصرين وأفكارهم .

نعم عادت للغة العربية ولا سيما في الثلاثين سنة الاخيرة فضرتها الاولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذاك السجع المنكلف الذي آتانا به العماد الكاتب الاصفهاني من فارس — وفارس مورد بدع كثيرة في الاسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب — ونقله الى العربية فاجاد في أكثره الا أن من جاءوا بعده قد أفسدوا به علينا لغتنا لأنهم لم يتقنوه

واني لأزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعي بالادب

من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليميني للمعتبي ومقامات الرعشري ومقامات الاصفهاني وقلائد العقيان وذيله مطمح الانفس للفتح بن خاقان وخطب ابن نباتة وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الادب لابن حجة والريحانة للاخفاجي وغيرها من الكنب التي كنت اطرب لتلاوتها ولا أكاد أفارقتها في خلوتي وجلوتي . ولما كتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسية والتركية واشأت أبحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وأبي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب الاصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المفسرين غدوت أعجب من نفسي كيف أضاعت وقتها في تلفف تلك الاسفار المسحفة وفي اللغة مثل نهج البلاغة والبيان والنبين والذريعة والاحياء وغيرها مما لا يتسع المجال لتعدادها وهو في الحقيقة ونفس الامر مادة أدب كما هو مادة علم لا تبلى على الدهر جذتها ولا تخلق ديباجتها كما كنت أعجب من أقبالي أيام الطالب على نلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والعسي الحلي وابن ممجك وابن مليك والجندی من شعراء المأخرين وعند العرب من أهل هذا الشأن أمثال أبي تمام وأبي الطيب وأبي عبادة وأبي نواس والشريف الرضي وابن حمديس الصقلي وأبي فراس الحمداني .

يرجع الفضل الاكبر في انتشار دواوين الأدب والتاريخ والافقه من كتبنا لعلماء المشاركة من الغربيين أمثال دوزي ودساي ووستنفيلد وعشرات غيرهم من أهل أوربا ولبعض ما نشره اليسوعيون في مطبعتهم المنفصة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي ألفت في أوقات مختلفة في مصر لاحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التي طبعت لنا المخصص لابن سيده أحسن كتاب عني بطبعه في شرقنا ولما طبعته المطبعة الاميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس . كل هذه الاعمال أعانت العربية

على تحسين آدابها وترقيتها . ولا نفسى غيرة أولئك الذين نسجوا فى منظومهم
ومنشورهم على مناحى الاوربيين من حيث فلة السكفة ومجاراة الطبع ومحاكاة
الطبيعة ووصف عواطف النفس بايجاز واعجاز وأولئك الذين وقفوا أنفسهم
منذ عشرات من السنين يعربون لنا كل يوم فى جرائدهم ومجلاتهم أفكار
الغربيين فى سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكونوا مجتمعنا الادبى على ما ترونه
وجددوا لغة شبابها بحيث أمنا بفضلهم علمها من العفاء وأصبحنا نرجو لها دوام
النماء والارتقاء .

أنا لا أقدم لكم مثالا من أمثلة ارتقاء لغتنا أكثر من أن أحبلكم على
مراجعة مجموعة من حرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة فى سورية
والفلاح والمحروسة فى مصر وان ترجعوا إلى كتابة الدواوين فى مصر فى منتصف
القرن الماضى مثلا وترجعوا إليها اليوم وان كانت الى الآن عشيقة الركافة
بعض الشيء . فابلوا المشورات التى تصدر اليوم فى الوقائع الرسمية فى مصر وما
كان يصدر من أمثالها منذ مئة سنة مما أورد الجبرى فى تاريخه فوجدنا
صالحا منه بنصه وقصه . عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به ألسن
المحاميين وأعلامهم فى مصر من التنفن فى أساليب الدفاع والتأثير الخطابى وبين
ما كان للغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب المحاماة طرفاً صالحاً منه بتجلى
لكم كيف ارتقت لغة القضاء . استمعوا للاخطباء اليوم ممن درسوا الدروس
المظامية وتشبعوا بالعلوم العصرية وقالوها باكثر ما يحفظه خطباء الجوامع
أو يقرأونه من السجعات فى دواوين الخطب القديمة . تدبروا لغة التمثيل اليوم
وان كنا فيه دون سائر فروع الآداب نأخرا وأسألوا كيف كانت منذ البدء
حايقة الصعف والسماجة اورأوا المحاصرات الى تنلى اليوم فى نادي المدارس
العلية ونادى دار العلوم فى مصر الحالية من النعقيد والغلط الحالية بالرشافة
والبيان وقالوها بالخطب التى كانت تتلى زمن الثورة العرابية ولعدها مثلاً
تدركون كيف وفقنا الله إلى قيام بناء آدابنا على هذا الاسلوب الرائق والابداع
فى الاداء والالقاء .

أليس مما يعد من نهوض اللغة ما نراه من أحكام ملكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة احداثا تخرجوا من دار العلوم فكانوا والله أعرف بالعربية وفنونها من أكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الاخير على غير حق اما من تمحض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفاخر العربية في هذا العصر استحکمت فيهم ملكة البيان استحکامها من العرب العرباء وأحاطوا بعلوم الوقت احاطة بنهاء الغربيين .

واليكم أيضاً مثلاً صغيراً اذكره لكم دليلاً على ما أتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة فقد شاهدت في وادي النيل بعض العمدة ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقط فيها على روح البيان والتلطف في التعبير مما لا تتلوه في عسلطات المحشين والمهمشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين وما ذلك إلا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد على مسامع الناس وأنظارهم كل يوم من فصيح العربية وشواردها وتتفنن فيه من أساليب التعليم . نعم ان مطالعة الجرائد والمجلات أعانت على

١٠٠ الآداب وادخلت الغيرة على التمام في نشر ارباب الاسعداد

ولذا رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الاصول الحديثة ولم يولع أهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم مازال أهلها إلى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة ومن هذه البلاد مراکش فان مدينة فاس منذ القديم ماخلت من أفراد يعانون الآداب على الأصول القديمة ولكمهم في الجملة خير من أهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فرداً يعد في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت وما ذلك الا لأن اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الادوار سوق نافقة ولا ن حكومتها تحاول منذ القديم أن تجعل أهلها فرنسيسا في لغتهم وأفكارهم ومنازعهم

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثها فيها خير الدين باشا التونسي وأشياعه فان الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لا تقباه التوانسة

الاذكياء من الخلدونيين وغيرهم . أما طرابلس الغرب وبرقة والصحراء والسودان فهي من أخوات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلة الجرائد فيها بل عدمها ولكن هناك في صحراء مراکش بلد غريب في تلقف ملكة العربية وأعنى به شنقيط بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطى الحافظ المشهور في عصرنا . وطريقة أهلها طريقة الأقدمين في التلقى والاستظهار وقد شوهدت في شنقيط بعض البنات الشنقيطيات الى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم وأظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الأزهر .

أما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في أحياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الأخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضر موت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق الا أن ذلك لم يحل دون نبوغ بعض أفراد شاركو أتم المشاركة في حياة العربية واعنى بهم بعض أولئك العراقيين انوابغ الذين ألفوا وكتبوا ولم يعقهم الحجر على الافكار الذى داء في البلاد العثمانية الى يوم ٢٣ تموز ١٩٠٨ ولذلك لانغالي اذا قلنا أن ثلاثة أرباع ماتم للعربية من الارنقاء في القرن الاخير يرجع الفضل فيه لمصر والرابع الآخر يوزع على سورية والعراق وتونس . ومن الاسف أنما لا تزال ترى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدر بالافتين التركية والعربية ولكن القسم العربى منها يكاد يكون أشبه بالمالطية والكرونية منه بالعربية الحجازية فتسقط فيها من الاغلاط في التركيب والتأليف والالفاظ والوضع ما تسأل الله معه السلامة وأقل من ذلك غلطاً تلك الجرائد التى صدرت مؤخراً في طرابلس الغرب وبعض مدن سورية الصغرى وبغداد والبصرة والموصل وأحسن منها جرائد مهاجرى سورية في أميركا الشمالية والجنوبية وهى لا تقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيد الرقيق . ومع هذا فان الآمال قويت بأن لا ينتصف هذا القرن الرابع عشر للهجرة الا وتكون ملكة الآداب عمت البلاد التى ينطق فيها بالضاد بل بالضاد والحاء والحاء والعين والعين والنين والثاء والذال

والفلاء ورقيت لغتنا بمساعي المنورين من أبنائها أمثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث أنوارها وأريد بها الحجاز واليمن ونجداً فإن فيها بقايا من أرباب الذكاء النادر إلى الآن من لو تمرنوا على العمل إذا تهيأت لهم الأسباب لآتى على أيديهم خير كثير للأمة ولا يرجى ذلك إلا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الاقطار وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم لينفرغوا أو أفراد منهم للدرس والاستنارة

هذا ما حضرني في موضوع نهضة العربية الاخيرة ألقينه في هذه المحاضرة وربما خرجت من البحث بعض الشيء وساحة عفوكم تسعني وانتم تعلمون اني على أوفاز استودعكم الله والسلام عليكم

كلية باريز

١٨

كلية باريز من أقدم كليات العالم في التاريخ ان لم تكن أول كلية أنشئت وبعد كانت في القرون الوسطى بلا مرء أشهر كلية وأكثرها إيواء للطلبة فكان علماء الوقت كما قال أحد الفضلاء ينظرون إليها بانها صاحبة الحق في استخراج كنوز العلوم ملكت ارثاً شرعياً صحيحاً وكانت أول كلية أنشئت في العالم كلية بابل أسسها نينوس مؤسس بينوى والمملكة الأشورية الأولى وحاقها كلية منفيس المصرية وخلفت كلية منفيس كلية آثينا وبعد هذه أنشئت كلية رومية وبعدها قامت كلية باريز واشهرت كلية بولونيا في تعليم الحقوق كما سبقت، كلية باريز غيرها في الآداب المقدسة والعالمية وكان في جوارها عشر مدارس تحيط بها كأنها أم القرى وتلك من أعمالها مثل مدرسة الانكليز ومدرسة الايكوسيين والالمانيين واللومبارديين واليونانيين ولطالما بعث الملوك إليها

بأولادهم ليتخرجوا في المنطق ويتعمدوا رقة الجانب وحسن الادب والعشرة .
ظلت هذه السكلية منذ القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر تربى معظم
الرجال الذين يختلفون الى التعلم فيها وفيهم الشعراء والعلماء والفلاسفة . ومن
مشاهير من تخرجوا فيها غليوم اوكام ورايمون لول وتوما دا كين وبنوا داناوي
وبونيفاس الثامن وبرونوتو لاتيني ودانتى وتوما موروس وايراسم وغيرهم
وجميع طلابها على اختلاف أصقاعهم كانوا يرتاحون في حماها وكان منفتح
أنظارهم حب الحقيقة وهي القاعدة الاصلية فيها وكل منهم يتمتع بحقوقه وافد
جاء زمن كانت الحياة العقلية محصورة في جدران المدارس إلا أن كلية باريز
أعظم منبعث لبث الدعوة إلى الافكار الفرنسية وكانت وحدها تكفي لانارة
العالم إلا قليلا وكان رجال تلك الازمان ينسبون العلوم إلى مواطنها ويرجعون
الامور الى مصادرها فيقولون ان رومية مقر البابوية والمانيا مقر السلطة وباريز
مهد العلم

وكانت الافكار الفرنسية - كما قال أحدهم في المجلة الباريزية - هي
أكبر معيز في القرون الوسطى عصدت إلى النهاية الصليبيين في نشاطهم وهيأت
أسباب الحماسة الدينية وفتحت لامم المغرب ونشاطهم طرقا جديدة في العمل ومن
الافكار الفرنسية نشأت بعد نزاع قديم فكرة الوطنية متجالية في صورة
مؤثرة ذات بأس ومضاء بحيث خضعت السياسة لسلطانها ووصعت أسس الوحدة
الوطنية . والافكار الفرنسية هي التي طهرت رياح الاصلاح والنهضة وقادت
الافكار القديمة الى التجديد وأثارت العالم بقبس أنوارها . والافكار الفرنسية
هي التي حملت الى العالم في عهد فولتير ومونتسكيو أفكار التسامح الديني
والعدل الاجتماعي والحق والانسانية . والفكر الفرنسي هو الذي سن المبادئ
الخالدة في دساتير الامم المتمدنة بأسرها . فمن فرنسا نشأت حرية البلجيك
وحرية اليونان وحرية ايطاليا وحرية العثمانية ، وفرنسا مهد الادب تنشر أنواره
فتتناوله الاجانب وتتقبله بقبول حسن وهي البلاد التي اشتهرت بعلمائها وصناعها

ومن كلية باريز اخترع أمبير اختراعاته التي لولاها لما اخترع التلفزيون
واللاسلكي والسلكي والتلفون ولم تتم عجائب الكهرباء الصناعية . وفي كلية
باريز أحدث باستور انقلابه العظيم في علم الحياة الذي جعله المحسن الى الانسانية
في العالم أجمع . وفي كلية باريز حقق برتلو الطريقة الصناعية في المواد العضوية
فنشأت منها الكيمياء الحديثة . وفي كلية باريز اخترع كوري وقرينته الراديوم
واهتزت في أيديها ذراته . وفي معامل كلية باريز أوقد موسان للمرة الاولى
التنور الكهربائي كما اخترع غيره التصوير الشمسي بالالوان

كانت هذه الكلية كما قلنا أعظم كليات القرون الوسطى فجعلوها
سنة ١٨٩٦ كلية تليق بعظمتها الماضية بحيث لم تفقد مكانتها العامة وفيها
اليوم زهاء ثلاثمائة أسناذ يقيصون كما أفاض أسلافهم على العالم من علومهم
ولا سيما على أميركا الجنوبية وبوهيميا والبلاد المصرية والعثمانية وكانت هذه الدار
رسول السلام بين الأنام ومعاملة الناس كيف يكون التجانس الروحي والاخاء
العام . ولكم كان أساتذتها يسبحون في بث ما علمهم الله في البلاد الى يقل فيها
العالمون ولكم أنشئت في حجر هذه الدار جمعيات تريد التقريب بين الشعوب
وتعليم الجاهل منهم ولكم رنت في غرفها وقاعاتها أصوات الخطباء من علماء
الأرض أتوها يحملون اليها نتائج أبحاثهم ودروسهم . فان كانت كلية باريز أم
كليات براغ والاسطوانة ومصر وغيرها من كليات البلاد اللاتينية وأميركا اللاتينية
فهي تفاخر بأنها أم كليات انكلترا وايكوسيا .

ويؤخذ من احصاء سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ انه كان في هذه الكلية ١٧٣٠٣
طلاب منهم ٣٣٦١ من الاجانب فتيان وفتيات . ومن هؤلاء ٩٢٦ يدرسون
الحقوق و ٥٢٠ يدرسون الطب و ٧٧٣ العلوم و ١٠٦٢ الآداب .

ولم تقصر كليات الولايات . وعددها اثنان وعشرون كلية في بث روح
التكافل الاخلاقي والعقلي فأنشأت كلية تولوز جمعية اجتماع الطلاب الفرنسيين
في اسبانيا وأنشأت كلية بوردو مدرسة الدروس الاسبانية العالية في مدريد

وانشأت كلية كرنوبل المجمع العلمي في فلورنسة وكلية نانسي وهى على الحدود
الامانية تعلم قاصديها احترام فرنسا وخدمتها للعلم ، وهكذا الحال في كلية
مونبليه وليل وليون فكليات فرنسا تعلم في السنة سبعة آلاف طالب وهو عدد
ليس بقليل يدل على تفردھا في هذا الشأن من بين أكثر الممالك الراقية
هذه شذرة صغيرة في وصف كلية باريس التي ما زالت الحكومة الفرنسية
تنفق عليها النفقات الطائلة والمحسنون لا ينفكون عن اعطائها المنائح الكبيرة
فقد وهبها كارنيجي المحسن الاميركي كثيراً كما ان بعض الروسين منحوها مالا
جزبلا والمرئيس يعطونها عن سعة . حيا الله يوما تقام لكل قطر من أقطار
الملاذ العربية كلية مثل هذه ندرس أبنائها علوم البشر بلغتهم وتكون مجتمعا
بالوطنية الصحيحة كما تكونها كليات الممالك الصغرى في الغرب . كالبلجيكا
وهولاندة والدانيمرك والسويد وتروج وسويسرا والمجر وبولونيا وفنلندا
والبرتغال .

مرائى باريز ومناظرها

١٩

يطول بنا نفس الكلام اذا أردنا الافاضة في كل فرع من فروع العمران بباريز
وكلها مما يحتاج الى صفحات كبيرة وربما مل القارئ قبل أن يمل الكاتب . ولقد
عنيت مدة مقامى في هذه العاصمة أن لا أضيع ساعة من وقتى الا في البحث عن
جمعية أو انسان وزيارة معهد فيه نموذج من ارتقاء العقول ووفرة العلم وحذق
الايدي وبسطة العيش وفضل الرفاهية ومما جعلته لاوقات الفراغ غشيان الحقائق
والمتاحف ودور التمثيل والسماع
في باريز حقائق كثيرة عامة ومنها الصغير الخاص بحى أوشارع صغير

ويسمونها « سكار » وهي كلمة انكليزية معناها ساحة مربعة أو حديقة يحيط بها حاجز من قضبان حديد وتكون في ميدان عام وعددها ٣٦ حديقة تتمنى كل حاضرة من حواضر البلاد العثمانية أن يكون لها من نوعها واحدة فقط بانتظامها وحسن تعييدها أما الحدائق الكبرى فعددها تسع تصرف في كل واحدة الساعات وأنت تسرح طرفك فيما خصنها به يد الصانع وأيدي البشر من بحالى الظرف والجمال .

زرت منها حديقة الحيوانات وحديقة كلونى وحديقة لو كسمبورغ وعجبت لمن يزور هذه الحدائق مرات لم لا يكون عارفا بالنبات والحيوان وتاريخ مشاهير فرنسا أحسن معرفة فمثل هذه الحدائق التى يتنزه فيها المتزهون هى في الحقيقة مدارس عملية يدرس فيها المتنزه كسيرا كان أو صغيراً ما يدنى له من هذه العلوم درساً عملياً لا يحتاج فيه الا الى انتباه فكر قليل حتى اذا أسعده الحفظ ونظر في المدرسة أو خارجها في كتب هذه العلوم يصبح وهو مطبق العلم على العمل .

واقدر رأيت في حديقتى الحيوان والنبات أشياء كنت أقرأها ولا أعرف أعيانها لما وقع النظر عليها تيمت فصل عرضها وأن العلم النظري اذا لم يشفعه علم عملي يبقى كالسيف فى غمده أو البندقة فى معملها أو الكهربية فى توليدها وليس فى البلاد العثمانية أو المصرية ما يشبه هذه الحدائق اللهم الا أن تكون حديقة الجزيرة والقناطر الخيرية فى مصر وحديقة الامة وغيرها فى الاستانة ولكن أين الثريا من يد المتناول وما ينظمه الباريريون لا تقسمهم وينظمه الانكابر أو الطليان والمساويون لدا . وما حك جسمك مثل ظفرك .

وانك لترى فى بعض الحدائق العامة تماثيل مشاهير رجال فرنسا فى السياسة والعلم مجسمة من رخام مجزع أو حديد مصنع كأن ساحات باريز وشوارعها العظمى لم تستوعب وحدها كبار رجالهم حتى هرعوا الى الحدائق يضعون فيها التماثيل والنصب لمن أحسنوا للأمة أو سادوها زمناً وأصبح لهم فى تاريخها ذكر يردد ، فى ساحات باريز وشوارعها ٦٨ شهيدا Monument لمشاهير علماءهم

ورجال سياستهم ومنهم أوغست كونت والفرددى موسى وشاركو وكورنيل ودانتون وغامبتاوكى دى موباسان وجول سيمون ولافايت وواشنطن ولافواريه وباستور وفيكتور هوغو وغيرهم وفيها ٦٨ تمثالا انان منها لاسكندر دumas الابن والاب وواحد لبالزاك وبوفون وبرانجيه وشارلمان وكلود برنار وكوندورسه ودانتى وديدرو وغاربالدى وحورج ساند وجان جاك روسو . وجان دارك ولامارتين ومارات وموليير وباسكال وشاكسبير وفولنير وتمثال الحرية والقانون والجمهورية .

هذا داخل العاصمة أما خارجها فإياها من غامى فسين وبولونيا أعظم فسحة وزهرة وغابة فسين فى شرقى نارتز على اصعده كيلو مترات من بقطه دائرتها ومساحتها ٩٢٧ هكتارا وفيها من أنواع الراحة وتنوع المناظر المفيدة ما هو العجب العجاب وأعجب منها غابة بولونيا فى غربى باريز ومساحتها ٨٧٣ هكتارا زرتها ثلاث مرات وان كانت فى السماء ليست مدها فى الصنف على انها ما خات من الأابس والجليس وكان أحد تلك الأيام يوم عيد رأس السنة والسماء مصحبة والشمس طالعة مريضة صحبحة والعيون المرائى الضحاح حرحت من كسبها تستشق الهواء النقي . وهناك ممر من بحيرات بولونيا وثرقتها لا أدري كيف يصوره الشاعر اذا كان الموت ربيعا أو صيفا أو خريفيا . ولو كنت شاعرا لخرت فى وصفه القصيد وان زرتها فى الفصل الميت كما يقول الفرنسيين

أما المناحف الباريزية فهي أيضا قصور زهرة وحدائق صفاء وعددها ٣١ متحفاً يحتوى كل منها على أقصى ما يتصوره العقل من إرنفاء البشرى فى الصناعات والفنون على اختلاف الاعصار زرت بعضها وقصيت أوفاتا طويلة فى متحف اللوفر العظيم بالقرب من نهر السين ومتحف فرسال على ثلاثة أرباع الساعة من باريز . أما متحف اللوفر فهو من أجل قصور العالم وأوسعها عرف سنة ١٢٠٤ على عهد فيليب أغسطس وما زالت أيدي الملوك تتعاوره بالاصلاح أو التدمير

حتى اذا كان عهد فرنسيس الاول أصبح اللوفر متحفاً يقسم اليوم الى سبعة متاحف في متحف بحسب أصول آثارها وزمنها وطبيعتها وهي متحف التصوير ومتحف الرسوم ومتحف النقش ومتحف النحت القديم ومتحف النحت في القرون الوسطى وعلى عهد النهضة ومتحف النحت الحديث ومتحف العاديات الآسيوية ومتحف العاديات المصرية ومتحف العاديات الافريقية ومتحف العاديات النصرانية ومتحف الفخار والاولانى الخزفية القديمة ومتحف الفلز والحلى والرخام القديم ومتحف عاديات القرون الوسطى والنهضة والقرون الحديثة ، ومتحف تير ومتحف البحرية ومتحف الشرق الاقصى .

وكل متحف تصرف فيه الساعات الطويلة ولا تستوفى النظر ، فتأخذك الدهشة من رؤية المسكان ورؤية المكين وتقضى بالمعجب من كل ما يقع عليه بصرك اذ تتمثل لك عظمة الانسان وتقننه فيما تصنعه يده وعينه وذوقه .

أما متحف فرسال فهو في مدينة فرسال . وكانت في القرن الحادى عشر لهيلاد قرية فاصبحت بعناية لويز الثالث عشر مدينة صغرى لانه أقام فيها قصراً للراحة أثناء الصيد وأراد لويز الرابع عشر أن يجعل فرسال مركز حكومة فرنسا فأنشأ فيها ابنية ومصانع عظيمة وكذلك فعل لويز الخامس عشر حتى أصبح عدد سكانها ثمانين ألفاً على عهد الثورة ، وهكذا اذا أراد الملوك أن يعمروا بلداً أحيوه واذا شاءوا أن يخربوه أماتوه . واشتغل في اقامة قصر فرسال الذى جعل المتحف فيه اليوم ثلاثون ألف رجل وستة آلاف دابة في اليوم مدة سنين طويلة وقد فتحت أبواب المتحف سنة ١٨٣٧ وفيه اليوم ٥٦٠٠ أثر تاريخى .

أما مجموعة الصور البديعة التى فيه فعددها ٢٤٠٠ صورة ليس لها نظير فى العالم ومن يعمن النظر فيها كثيراً يخرج من المتحف وقد درس تاريخ فرنسا ووقائعها الحربية بالعمل والنظر

ومن جملة ما حواه أسلحة بيوت الشرف التى اشترك فرد أو أفراد منها

في الحروب الصليبية . ومنها أبواب مستشفى فرسان رودس الذي أهداه السلطان محمود العثماني سنة ١٨٣٦ الى لويز فيليب صاحب فرنسا . وفيه صور كثير من مشاهير الشرق كأنك تراهم عياناً وفيه صورة تمثل القائد كبر الفرنسي وسليمان الحلبي يقتله في حديقته في القاهرة زمن الاحتلال الفرنسي في مصر

أطالت الروية في كل هذا وانعمت النظر في النفقات الطائلة التي أتقنت على هذه القصور المزخرفة والمصانع العظيمة فأعطيت بعدها الحق لمن قاموا بالثورات الفرنسية يريدون ازالة الملوك عن عروشهم وفصم عرى السلطة الفردية لتنقل الى أيدي الامة . نعم ان أقل نظرة الى هذه القصور يستغرب معها المرء كيف لم تحدث تلك الثورات قبل حدوثها بزمن طويل ولكن الحوادث كالحبال لا تلد الا بعد اتمام مدة الحمل أو كالتمر لا ينضج قبل ابانة

ولم أتمكن يوم زيارتي لفرسالة من رؤية كل حدائقها ومرافقها لنزول الحاج بكثرة ولكني على الجملة أخذت منها صورة اجمالية كافية . شأني في كل ماررته من المعاهد ورأيت من المشاهد فلم ينيسر لي أن ألقى عليه سوى نظرة واحدة لضيق الوقت وكثرة ما يجب أن يدرس من آثار هذه الحضارة الغربية الغربية وبعد كل هذا صرت أرى الاشتراكيين على حق فيما يطالبون به المجتمعات الحديثة في الغرب وهم يرون مئات الفدادين من الارض تجعل حدائق قد لا يختلف اليها الا أفراد في حين يهلك مئات الالوف من المحاويج والفقراء ولا من يرحم ضعفهم المادي والصحي أو يرثي لبسائهم وتُسبَلُ على النظر هذه التحف والعاديات التي لا تقدر بثمن وحكومة الجمهورية تقترض مئات الملايين من الفرنكات لسد العجز في ميزانيتها . وهكذا نظام المجتمع الغربي ولعل عقول أهله المفكرة تحرر في الاجيال المقبلة الفقير من فقره أو تقوى على الاقل على تعديل هذا النظام الجائر الذي يسلب من كثيرين السبد واللبد ليعمر به قصر البلد ويلعب في حدائقه وساحاته الوالد والوالدة والولد

مطاب باريز ومكتباتها

٢٠

لولم يكن في باريز الا مكتبة الامة التي حوت في قصرها الفخيم زهاء ثلاثة ملايين كتاب مطبوع ومئة ألف كتاب مخطوط ومليونين ونصف مليون صورة مخطومة وألوفاً من الايقونات والانواط القديمة وغير ذلك من التحف والآثار ومجاميع الصحف والمجلات لكفاها جالباً للسائحين ولافتاً لانظار أهل العالمين من العالمين .

مكتبة أسست منذ نحو ستة قرون وملوك فرنسا وعلماؤها وأشرافها يتبارون في أن يجعلوا في كل فرع من فروع العلم واللغات صنوف المخطوطات والمطبوعات حتى اذا جاء القرن العشرون أصبحت مكتبة الامة أكبر مكاتب العالم وأهمها بندرة كتبها ومخطوطاتها ففيها من نواذر المخطوطات والمطبوعات العربية ألوف

اختلفت اليها غير ما مرة ولم أتمكن من مطالعة كل ما أريد لضيق الوقت وضخامة الفهارس وكثرة المؤلفين والناقلين في قاعات المطالعة . وبلغني أن الكتب التي اهديت الى مكتبة الامة في العهد الاخير لم يتيسر ادخالها في قوائم الكتب على كثرة موظفي المكتبة وكادت مطبعة الامة الاميرية تعجز عن طبع فهارس هذه الخزائن ولا غرو فان ما رأيته منها مطبوعاً الى عهد ليس ببعيد يبلغ وحده مكتبة برأسها ويقضى فيه المرء الساعات ولا يستطيع أن يستوفي النظر الاجمالي

ولو صرف طالب العلم عمره كله يبحث في مخطوطات مكتبة الامة ويستعين بمطبوعاتها لما تيسر له أن يأتي الا على قسم ضئيل جداً مما حوته في بطنها من معارف البشر ولا تعد المكتبة الخديوية في مصر ومكاتب الاستانة التي تتجاوز

الاربعين مكتبة ومكتبة المجلس البلدى فى الاسكندرية ومكاتب دمشق وبيروت وحلب وبغداد والمدينة ومكة وغيرها من بلاد الشرق الادنى اذا جمعت كلها فى صعيد واحد وجمعت لها فهارس وقوائم منظمة الا جزءاً صغيراً من ذلك الجسم الكبير . وعلى تلك النسبة قس المطالعين والمراجعين فى مكتبة الامة بالنسبة لامثالهم فى البلاد العثمانية والمصرية فتراهم عند الساعة الرابعة بعد الظهر يخرجون رجالا ونساء شيوخاً وعجائز شباناً وشابات كالقطيع الكبير لا يقل عددهم عن خمسمائة وربما جاوز الالف أحياناً وتجدهم الغرباء من أمم أوروبا وآسيا وأميركا وأفريقية ممن تجمع بينهم كلمة العلم الجامعة وكلهم يتنافسون فى البحث والدرس ويستخرجون من ركاز تلك الكنوز ما يصوغونه عقوداً ثمينة وتعاويز محلاة تقي البشر شر الجهل والخرافة

ولعله يخطر ببال بعضهم ان هذه المكتبة هى كل ما فى فرنسا من خزائن كتب صرف الفرنسيين فيها قواهم وجمعوا لها من أقطار الارض كل غال ونفيس على عادة الافرنج فى التغالى بفخامة مصالحتهم وضم شتى متفرقهم وحرصهم على الاجتماع للارتفاع ولكن فى باريز وحدها من المكاتب العامة ما لو جمع أيضاً لكان منه مكتبة كمكتبة الامة بكثرة أسفارها الا أن هذه تفوقها بالنوادير من المخطوطات

ولباريز عشر مكاتب أخرى فى كل واحدة منها عشرات الألوف من المخطوطات والمطبوعات دع خزائن كتب الجمعيات والمدارس والكتليات والجامع فان لكل واحدة منها ما يقتضى للمطالع من أسفار المراجعة وغيرها . أما خزائن كتب الافراد فهذه لا يحيط بها الا علام الغيوب أو من يدعى أنه يعرف ما حوت باريز من علم وأدب وذهب ونشب

ويقول العارفون أن قواعد بلاد الانكليز السكسونيين كالمانيا وانكلترا والولايات المتحدة تحسن استخدام أسفارها أكثر من الجنس التوتونى اللاتينى كالفرنسيين والاطليان والاسبان وغيرهم اذ ثبت أن تلك الامم العظمى الراقية

أكثر احساناً للانتفاع من قواها الطبيعية والصناعية على أسلوب حديث لم يخطر ببال الفرنسيين الذين جروا في أوضاعهم وترتيب مصانعهم وتنظيم شؤونهم على تقاليد لهم قديمة وإن عرف عنهم أنهم أسبق الأمم إلى التجديد ولكن تجديدهم في أمور دون أخرى .

والانتفاع من الكتب أيضاً لم يخرج عن هذا النظام حتى قالوا إن تقاليد المخطوطات والمطبوعات الموجودة في مكتبة الأمة في عاصمة الفرنسيين أو نقلت إلى ليبسيك أو مونيخ أو برلين أو فيينا أو أكسفورد أو مانشستر أو لندرا أو نيويورك أو شيكاغو لا تنتفع بها وتيسر سبيل الوصول إليها لأنها تكون هناك فهرسة مبنية على طريقة فيها روح القرون الوسطى وقد جعلت هنا على أسلوب قريب المأخذ سهل التناول خال من القيود التي تقيد المطالع والمراجع . فان كانت فرنسا في مقدمة شعوب الأرض من وجوه كثيرة ولا سيما في الأمور الدوقية وبدائع الصناعات والاصلاحات الدستورية والانسانية فقد فاقها غيرها من الممالك المجاورة من حيث الفنون والاقتصاد والاجتماع فعرفوا كيف يطبقون أنفسهم على الذوق العصري

مثال ذلك صناعة الوراقة أو بيع الكتب فانا نجد المانيا أرقى من فرنسا فيها مع كثرة تفنن الفرنسيين فيما يدل على سلامة الذوق حتى أن ليبسيك في ألمانيا تباع وحدها من الكتب قدر ما تصدر فرنسا كلها ومن الغريب أن المكتبة الألمانية في نفس باريس تجدهم أمهر في تصريف كتبهم فيبيعون كمية أوفر من كتبية الباريزيين

جاء في كتاب « المانيا الحديثة » أن المانيا أعظم البلاد اصداراً للكتب فقد كانت أوائل القرن الماضي لا تخرج في السنة سوى ٣٩٠٠ كتاب فاصدرت سنة ١٩٠٥ - ٢٨٨٨٦ كتاباً في حين أن فرنسا التي هي في الدرجة الثانية بكتبها لم تصدر سنة ١٩٠٤ سوى ١٢١٣٩ كتاباً فاذا قدر انه يطبع في كل كتاب في ألمانيا ألف نسخة فيصيب كل شخص فيها على أقل تعديل مجلد

واحد فصناعة الكتب في المازيا رابحة جدا . وقد كان عدد المحال التي تتعاطى تجارتها سنة ١٩٠٥—٧١٥٢ محلا تصدر الى الخارج فقط ما قيمته ٢٩٠ مليون مارك

زرت في مجلة الكتبية الذين زرتهم أو ابتعت منهم بعض الكتب مكتبة هاشيت المشهورة في جادة سان جرمان وهي ثلاثة طوابق وفيها نحو ألف وخمسة مائة موظف ومستخدم وتطبع فيها بضع جرائد ومجلات كما تطبع الكتب المدرسية والادبية والتقاويم السنوية المشهورة في العالم وهي مؤسسة منذ نحو ثلاثة أرباع قرن ويعد هاشيت من أعظم كتبية العالم ان لم يكن أعظمهم ومع هذا يقول العارفون أن مكتبته على حالتها الحاضرة لو كانت لجماعة من الالمان أو الاميركان لادهشوا العالم بنظامهم وأرباحهم . فكان دم الفرنسي الذي غلى زمناً قد برد اليوم وأصبح الدم الجديد غيره الآن يغلى فيدهش بحرارته . ومن مكاتب باريز المشهورة مكتبة فلاماريون ولمكتبته فروع كثيرة في مدينة باريز وبلاد فرنسا وهذه المكتبة فيما رأيت أقرب الى التجديد منها الى الجمود على القديم

مجامع باريز العلمية

٢١ .

على الشاطئ الايسر من نهر السين مقابل قصر اللوفر الفخم قام قصر عظيم عمر في النصف الثاني من القرن السابع عشر بمال أوصى به السياسي مازارين الذي جمع بطمعه وجشعه ثروة لا تقل عن خمسين مليون فرنك على عادة عظماء القرون الوسطى . وأراد أن تنفق بعده في الخيرات وحسن الاثر ومن جملة خيراته هذا القصر الذي أوصى له بمليون فرنك فضة وخمسة وأربعين ألف ليرة دخلاً سنوياً ليكون منه مدرسة عالية يتعلم فيها ستون طالباً من أبناء الولايات الاربع التي

أضيفت الى فرنسا بموجب معاهدة البيرنيه وروسيايلون

وهذا القصر هو الذي نقل اليه مجمع فرنسا العلمى سنة ١٨٠٦ ذاك المجمع الذي أسس سنة ١٧٩٥ فكان منفخراً من مفاخر الفرنسيين وحق لهم ان يفاخروا به وهو مجلس أو ديوان مؤلف من خمسة مجامع فالأول المجمع العلمى الفرنسي المعروف بالاكاديمى أسسه ريشليو سنة ١٦٣٥ وهو يشتغل خاصة بتأليف معجم اللغة الفرنسية وادخال المفردات الجديدة ونبد القديمة أو اصلاحها وأعضاؤه أربعون رجلاً ويقال لهم المخلدون على سبيل الدعابة لأنهم اذا خلا موضع واحد بالموت ينتخب سائر الأعضاء فى الحال من يخلفه والمجمع الثانى يجمع الصناعات النفيسة أسسه مازارين سنة ١٦٤٨ باسم مجمع التصوير والنقش والمجمع الثالث يجمع الخطوط والآداب أنشأه الوزير كوابر سنة ١٦٦٤ وجمع العلوم أسسه كولبر أيضاً سنة ١٦٦٦ وجمع العلوم الاخلاقية والسياسية أنشئ سنة ١٨٣٢ وجميع هذه المجامع ينتخب أعضاؤها بعضهم بعضاً مدى العمر وينظرون فى العلوم الآنف بيانها ويعطون جوائز للمحسنين من المؤلفين والعاملين وبعضها لا يستهان به . وفى باريز مجامع علمية كثيرة غير هذه منها مجمع باستور العلمى مكتشف الميكروب والمجمع السكياوى ومجمع فتيان العميان ومجمع الزراعة ومجمع البحار ومجمع العيون ومجمع الصم البكم ولكل منها أنظمة وقوانين وأعمال يطول شرحها واكتفى فقط بوصف جاسة عامة حضرتها^(١) من جلسات مجمع العلوم الاخلاقية والسياسية

فى اليوم الرابع من كانون الأول سنة ١٩٠٩ عقد هذا المجمع جلسته السنوية تحت قبة المجمع وهى القبة التى تجتمع فيها المجامع الخمسة المعددة فيما تقدم اجتماعها

(١) هنا أرى من الواجب على أن أشكر اصدقاء العالم المسيو الفرد لسانليه استناد علم الاجتماع الاسلامى فى كوايخ دى مراس ومدير مجلة العالم الاسلامى ومجلة السجلات المراكسية ومجلة الافكار الحديثة . انتفضله بتعربى الى كثير من اصدقائه من رجال العلم والادب والسياسة فى باريز وبهم تيسرلى ان اطلع من مدينة هذه الامة فى شهرين ما يتعذر على غبرى ان يراه الا فى شهور واشكر خاصة امين سره الكاتب المسيو لوسين مورى الناقد الادنى فى المجلة الرقواء واحد كتاب هذه العاصمة المجيدى الذي تفضل واضاع من وقته كثيراً ليقدمنى الى معارفه ومعارف المسيو لسانليه المشار اليه

السنوى وقدر الجمع بأربعمائة نسمة رجال ونساء . جلسوا على مقاعد من المخمل على ترتيب بديع بحيث يسمع كل واحد منهم ويرى وكان أكثر أعضاء هذا المجمع بلباسهم الرسمي يجلس على كرسى الرئاسة المسيورى ستورم وتلا كما هي عادة هذا المجمع منذ القديم أو منذ انشائه قائمة بأعمال المجمع منذ اثني عشر شهراً وصنف الحضور لمن نالوا جوائز على كتب ألوهها ، وأعمال قاموا بها لخدمة الانسانية وتعليم البائسات واطعام الجائعات واليتامى والعمى وبين من نالوا الجوائز أربع عقائل عدا من اثني الرئيس على أياديهم البيضاء كالام ارنستين التي أنشأت معملاً وملجأ في مدينة روان والعقيلة بيكوين التي أنشأت في باريز ملجأ سمته معمل الجهاز والآنسة دى رشمون التي أنشأت في مدينة كرنيل منذ أربع وعشرين سنة ملجأ للبنات تأوى اليه أربعمائة ابنة من بنات العملة وأنفقت ليه ثروتها . ومن المعاهد التي أخذ هذا المجمع النظر فيه معهد كارنو وهو الذى منحناه العقيلة كارنو امرأة أحد رؤساء الجمهورية رأس مال يأتى بثمانية عشر ألف فرنك دخلاً سنوياً وقضت بأن تقسم الى ٩٠ اعانة كل واحدة بمائتى فرنك توزع كل سنة يوم ٢٤ حزيران وهو يوم مقتل كارنو على تسعين امرأة من نساء العملة ممن لهن أولاد ، ومن جملة الجوائز التي منحها المجمع للمؤلفين جائزة الاجادة لمن ألف كتاب « افريقية للاوربيين » وكتاب « أوروبا والمملكة العثمانية » .

ثم قرأ المسيو دى نوفيل أمين سر المجمع الجديد ترجمة حياة صديقه وسافه في هذه الوظيفة جورج بيكوكاثر في السامعين وأبكاهم ، وتقسن ما شاء وشاء البيان في وصف حسنات المتوفى واقتداره . وكانت الخطب يتلوها أولئك الشيوخ في الورق بنقمة تأخذ بمجامع القلوب ويطرب لها العاملون العاملون طربهم بنغيات الاونار وتفريد الاطيار في الاسحار .

وهكذا انصرف القوم ونصفهم من النساء يرددون محامد أعضاء المجمع أما أنا فتمثلت لى أرواح أولئك العلماء العاملين الذين سنوا لمعاصرينا اخلافهم سنين

الارتقاء وخدمة العلم والحق والفضيلة والآداب والفنون ، وحديثي النفس
ببلادنا الشرقية وقلت هل يكتب لها في المستقبل تأليف مثل هذه المجامع فنعمل
فرادى ومجتمعين كالفريين أو نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين ونكتفى
بالتفاخر بأجدادنا نجعله عدتنا في شدتنا ومثالنا في نهضتنا ، ونحن عن اقتصاص
آثارهم غافلون .

كنائس باريز ومعايرها

٢٢

من المعاهد التي يقضى على من يزور باريز أن يختلف إليها ولو مرة بيعها
وكنائسها فانها من الاماكن التي يقرأ فيها انموذجا من انموذجات البناء في القرون
الوسطى ، ويطلع فيها على فلسفة الفرنسيين الروحية خصوصا والمأثور عنهم
في الشرق أنهم أمة لا تقيم لغير العقل وزناً تجردت من العواطف الدينية حتى لم
يبق فيها سوى العجائز من النساء يختلفن الى المعابد للانابة الى الله وتقديس يسوع
وأمه عليهما السلام .

بيد أن من تعمق في البحث عن حال الفرنسيين الروحية يتجلى له أن جمهوراً
عظيماً لم يبرح متشبثاً بدينه متشبهاً بصحة يقينه ، ولا سيما في القرى والبلدان
الصغرى فأغلب الخاصة والطبقة العليا عندهم نزعوا كل نحلة حتى لم يعودوا
يعرفون غير المادة ديناً وأغلب الطبقة الوسطى يغلب عليها التدين ، أما العامة
في المدن فكالساعة لا تعرف غير الاكل والشرب واللهو واللذائذ وأكثر أهل
طبقتهم في القرى متعصبون لدينهم والسواد الأعظم من النساء متدينات .
وتساوى متدينهم والمنحل من كل دين منهم أو الخاصة والعامة بالتظاهر في مراعاة
الشعائر الدينية ولا تختل هذه القاعدة قليلاً إلا في المدن والحوضر ، ولا أثر

للتعليم الدينى فى المدارس الاميرية وهو على أشده فى مدارس الرهبانات وغيرها من المدارس الخاصة على ان نزع التعصب التى عرفت بها فرنسا منذ صيأت عن الوثنية لانتحل النصرانية فى القرن الثالث للمسيح ما برحت لها فى نفوس أبنائها حتى فى هذا القرن العشرين آثار راسخة وان عبثت حكومتهم بقانون الحرية الشخصية غير مامرة ودمرت بيوت الرهبان والنسك وجردت الكنائس والبيع والمدارس الاكليركية من كل ما يدخل فى حوزتها

يحتفل الفرنسيس يوم ١٤ تموز بعيد الجمهورية احتفالاً يقدسونه ويمجدونه وفى ذاك اليوم تشهد فى كل أرض فيها بضعة منهم أو رفع لهم فيها علم نموذجاً من وطنيتهم وكيف يرى جمهورهم بالجمهورية حياته ولكن احتفال هذه الأمة بأعيادها الدينية لا يقل عن احتفالها ذاك اليوم . وأعيادها كثيرة هى صورة من صورتها فى القرون الوسطى بل فى القرون الحديثة قبل أن تنادى فرنسا بتأليه العقل وتعلن الحكومة عائناً نزعها رتبة الدين .

نعم ان زائر كنائس باريز تتجلى له فلسفة القوم النفسية . ومما زرته من كنائس باريز كنيسة نوتردام والمادلين وعدد الكنائس الباريزية سبعون كنيسة أسقفية للكاتوليك ماعدا بيع الروم والبرتستانت ومعابد اليهود الأربعة وما عدا المصليات والبيع الصغرى ونوتردام هى من أعظم الكنائس . وهى أجمل انموذجات البنايات القديمة تجيء بمكانتها بعد كنيسة مدن شارتر ورعىس وأمين وبورج وتفوقها بآثارها التاريخية وكفى بأنها أنشئت فى أوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشر ولم تزل تتعاورها الأيدى بالنقش والزين والترخيم والتعريق حتى يوم الناس هذا وفيها من بدائع ما صنعت الأيدى وتفننت فيه العقول ما يدهش ويههر .

زرتها قبيل صلاة المساء مع صديقى عثمان غالب باشا . ووقفنا نستمتع لوعظ الواعظ على جمهور المصلين وأكثرهم من النساء ، يعظهن واصفاً لهن غرور الحياة الدنيا بالقياس مع الآخرة ومنهن من تغرورق عينها بالدموع أو تجهش بالبكاء

خصوصاً عند ما يذم بلسان بليغ غرور أهل باريز . فهو داخل الكنيسة يقوم بالواجب ليدعو الناس الى الزهادة ويحجب اليهم العبادة ووراء سور الكنيسة تجري كل ساعة شؤون وأعمال دنيوية هائلة كلها ما كانت تقوم لو عمل الناس بمثل هذه المواعظ وآثروا الباقية على الفانية .

ان ما رأيته من انتظام البيع الباريزية ، وتقن البازين في ابداعها وتفانيهم في توفير قسطها من الجمال دلني بلسان حاله على ان مدنية القرون الوسطى قامت باسم الدين ولذلك جاءت المعابد أجمل مصانع تلك القرون ، وكان أكثرها الى الزوال لو لم تتدارك في القرون الحديثة بيلسم من انارة العقول بالفلسفة والعلم المادي أما مدنية هذا العصر فلا أدل عليها الا بما ينفع الناس في دنياهم كالكسك الحديدية والبوارج والبواخر والمرافىء والمعامل والشكن والمستشفيات والمدارس والكلليات ودور البائسين والحقول الانموزجية والمتاحف وحير الوحوش والمكاتب ودور التمثيل

فهل يأتي على البشر عصر ياترى يكون فيه ما ينم عن مدنيته غير ما ذكرنا قديماً في الدين واليوم في الدنيا ويخف تكاليفهم على مظاهر هذا العالم وينسون بتاتاً تعظيم ما خلفته عصور التدين من المصانع والعبادات . التي انتقلت الى أكثرهم بالعادة أو يمزجون القديم بالحديث فيكون شأنهم غير شأنهم الآن في تصور ماضيهم وحاضرهم ، هذه أسئلة ليس غير الزمان كفيلاً بالاجابة عنها والله أعلم بمصير عباده .

قصور باريز وسرايها

٢٣

من القصور العامة وأملاك الحكومة في هذه الحاضرة : مصرف فرنسا قصر الاليزه حيث يقيم رئيس الجمهورية وقصر الاتقاليد والتويلرى وقصر

العديلية وقصر ساحة المريخ وقصر التروكاڤيرو والقصر الملكي ، وفيه دائرة شورى الدولة ومحكمة التجارة والبانتيون مدفن العظماء وقصر مجلس النواب وقصر مجلس الشيوخ وقصر المجلس البلدى .

ونتكلم هنا على القصور الثلاثة الاخيرة فقد كتبت لى زيارة مجلس نواب الامة الفرنسية ومجلس أعيانها خلال انعقاد المجاسين ، فلم أسر بمشهد أجمل ولا أنعم وقاما تمثل لى معنى النيابة عن الأمة الا ذاك اليوم ، ومجلسا النواب والاعيان هما فخر من مفاخر هذه الامة ونموذج تقدمها ودليل أخلاقها السياسية ففى مجلس الامة الحركة والمضاء وفى مجلس الشيوخ التؤدة والروية فالاول يقيم فى قصر البوربون والثاني فى قصر اللوكسمبورغ وكلا القصرين من أجمل قصور الحكومة فى هذه العاصمة العظيمة . وعدد النواب خمسمائة تغلب عليهم هممة الشباب وعدد الاعيان ثلثمائة تقرأ فى وجوههم المفضنة وشعورهم البيضاء سعة العقل والتجارب الكثيرة

وما أنس لا أنس يوم كانت المناقشة فى مجلس النواب فى وضع ضريبة على العملة وقد تدفقت أقوال بلايل المجلس على المنبر وما فيهم الا الاجتماعى والاقتصادى والاخلاقى والسياسى والاداري

وان ماتلى فى تلك الجلسة فقط من الخطب وجرى الحوار فيه بين الاعضاء لو جمع فى كنان برأسه لجاء منه أحسن كتاب اجتماعى اقتصادى عن فرنسا ومن أراد أن يعرف ماهو البيان الحقيقى والعلم الذى تشربته أجزاء النفس فليزر مجلس النواب الفرنسوى فى فصل اجتماعه يشهد ارتقاء الغرب ويدرك سر الشورى . أما المجلس البلدى فهو معيار العمران ويده أسعاد باريز وأشقاؤها يزار كما تزار أكثر المعاهد الكبرى فى باريز بطلب من الزائر يقدمه الى أمين سر المعهد فيرسل هذا اليه ورقة يعين له فيها الميعاد الذى يأتى فيه .

يدخل الزائر هذا القصر المدهش فيتجسم فى نظره الذوق الفرنسوى وعظمة هذه الامة لكثرة مايقع عليه نظره من الردهات والقاعات والغرف وكلها مزدانة

بنقوش وصور ورسوم من أجل ماخطته أنامل النقاشين والمصورين وتدل كلها على الذوق والمعاني اللطيفة والاشارات الحسنة .

فن رسم يمثل الغناء والعشرة وآخر يمثل الزهور والثمار وغيره يصور أغاني شواطئ السين وآخر يمثل التجارة والصناعة فالأشهر الجمهورية ومناظر كثيرة لأجل قصور باريز ومعاهدها وأصقاعها وهناك صور رسمت على الحيطان والسقوف في القاعات التي تستقبل بها مدينة باريز في العادة من يزورها من ملوك الأرض وأمرائها ومنها ما يمثل أفراح الحياة وآخر يمثل العمل ومغيب الشمس والرقاد والحلم وغيرها يريك الطبيعة الملهمة المربية فالرياضات الطبيعية فالرياضات العقلية وآخر يمثل الطبيعة والكيمياء والفلسفة والنجوم وفيها ما يمثل المساء في باريز والخيال والولادة فيها والجهاد والنهضة والشعر والفلسفة والتاريخ والعلم والفنون والسلام واليقظة وذكرى عيد وطني وعيد الخلاء في ضاحية باريز . وبعضها يمثل أبولون وعرائس الشعر والتصوير والأدب والموسيقى والنقش والهندسة ومنها رمز القصائد الغنائية والانعام والكدر والتأمل ومن التماثيل ما يرسم التمثيل بالأيام والقصص الهزلية والموسيقى والرقص والالعب ومنها ما يصور الحصاد وقطف العنب والغناء والصيد وتعاطى الشراب ومنها الموسيقى على اختلاف العصور والطبوب والعطور ومدينة باريز تدعو العالم الى أفراحها والزهور والرقص في كل عصر من أعصار التاريخ وصور تمثل أهم أقاليم فرنسا مثل الفلاندر وبيكارديا والجزائر وليون ولانكدوك وغاسكونيا والبروفانس وكوسين وبري وشامبانيا وبرتانيا وبورغونيا ووافرن والاورين ونورمانديا وكونتية نيس . ومن صورها ما يمثل الصيف ومنها الشتاء ومنها ما يمثل آسيا وأوروبا وأميركا وأفريقية ومنها ما يصور تأليه العلوم وهو رمز لعلم الاحداث الجوية والكهربائية وتعليم العلم وتمجيد العلم وأربع أيقونات تمثل علم الطبيعة والنبات في شخص أراغو وامبر وكوفيه ولافوازيه . ومنها رمز الى ساعات الليل والنهار ومشاهد الافراح والاعياد

وفي ردهة الاداب صور ترسم لك عرائس الشعر والالهام والتفكر وتاريخ
الكتابة وأعظم الاعمال الادبية وأربع أيقونات لاربعة أدباء وهم مولير وديكارت
وفيكاتور هوغو وميشله ثم صور الفلسفة والشعر والفصاحة والتاريخ وهناك
رمز بديع يشير الى أن التاريخ يجمع دروس الماضي والفلسفة تحرر الافكار
من قيودها وعلى مقربة من ذلك رسمان اثنان ناعمان وهما يمثلان الادب

وفي سقف ردهة الفنون صور كثيرة منها ما يمثل تغلب الفنون وخيال
الكمال والحقيقة والرقص والفنون والنقش والموسيقى والهندسة والرسم وغير
ذلك من رسوم الوقائع الكبرى التاريخية والصور والتماثيل التي تشير كل واحدة
منها الى معنى من المعاني وفائدة من الفوائد وكلها من حفر أو رسم أو نقش
أعظم رجال هذا الشأن في العالم ولا سيما من أهل فرنسا جعلت هناك نموذجاً مما
خصوصا به من المزايا وسعة العلم وبعد النظر وحسن الذوق

وعلى الجملة فإن الشرق الذي يزور قصر المجلس البلدي في باريز تصغر
بلاده في عينه ويكاد ييأس من ارتقائها ونهضة أبنائها
أما أعمال هذا المجلس الذي تبلغ ميزانيته مئات الملايين فلا أقول فيها
الا انها عظيمة جدا ويكفي أن المجلس طلب من الحكومة هذه الايام ان تسمح
له بعقد قرض قدره تسعمائة مايون فرنك ليظهر بعض أحياء باريز فاذنت لانه
ثبت أن بعض الامراض تكثر في حي دون آخر فالواجب العناية بها حتى لا تسطو
يد الفناء عليها أما أنا فلم أر على كثرة تجوالي راكباً وماشياً في شوارع باريز
وأحيائها موضعاً تجد تلك النفس انه محتاج للاصلاح بعد لكثرة ما ترى كل شيء
في مكانه وأن مدينة باريز تنفق على أضواء الكهرباء والغاز الذي تنير به
شوارع هذه المدينة السعيدة كل ليلة ما يبلغ مقدار ميزانية بلدية دمشق طول
السنة فتأمل

تاريخ الحضارة الفرنسية

٢٤

بسطنا القول في الفصول السالفة في كل ما يهم عن معرفة باريز وهانحن أولاء نتوخي في هذا الفصل أن نلم بطرف من عمران فرنسا بأسرها وأثرها في الحضارة منذ قامت للعلم والعمل سوق رائجة معتمدين فيما ننقل على معجم لاروس الجديد وما هذه النبذة الا احتذاء لما ورد في الفصل الفرنسي بتصرف كثير وزيادات فرنسا مملكة عظمى في أوربا الغربية يحدها المحيط الاطلانطيقي وبحر الشمال أو المانش من الغرب ومن الجنوب جبال البيرنيه والبحر المتوسط ومن الشرق جبال الالب والجورا والفوج ويفصل بينها وبين البلجييك والمانيا خط اتفق عليه من الشمال الشرقي والشمال ومجموع مساحتها ٥٣٦،٤٠٨ كيلو مترات مربعة وسكانها نحو أربعين مليوناً أي نحو أربعة أضعاف ونصف مساحة سورية ومساحة سورية ١١٥،٠٠٠ كيلو متر مربع والفرنسيين كجميع سكان أوربا اخلاط من العناصر مزجتهم بودقة واحدة فجاء منهم شعب ذو قوة عقلية حقبكية واختلقت صناتهم وميولهم لمذاهب المعاش وأن فرنسا لغنية بزراعتها أكثر من غناها بمناجها ومع هذا فهي آتمد من أغنى البلاد وزراعتها أرقى زراعة في الارض ويندر في أرضها الذهب والفضة والزئبق والنحاس والزنك والرصاص والقصدير والزرنيخ والنيكل والانتيموان والكبريت ولكن عندها مايلزمها من الحديد والفحم الحجري .

وانك لتدهش اذا عرفت أن جزئين من ثلاثة عشر جزءاً من أرضها تزرع وتشجر وفيها نحو عشرة ملايين هكتار من الغابات والعوسج ولها في تربية المواشى والحيوانات يد طول وتجد المعامل الكبرى قائمة في الضواحي الغنية بالفحم الحجري والحديد والمحاصيل الزراعية القابلة للتحويل وقد امتاز كل إقليم

بصناعة وباريز هي ملكة المدن الصناعية في فرنسا لانها محط الخطوط الحديدية ومنتهى المواصلات

امتازت الجنوب بصناعاتها لكثرة الفحم الحجري وكثرة السكان وفيها صناعات اشتهرت شهرة الشمس والقمر كما امتاز اقليم الآردن بالجوخ واعمال الحديد والالواح الحجرية وامتاز اقليم شامبانيا ونورمانديا بالجوخ واعمال الحياكة والنسيج واقليم فرانك كونتيه بعمل الساعات وليون وسان اتيان بالمنسوجات الحريرية وامتازت المقاطعات المجاورة لها بتربية الحرير والغزل وامتازت البلاد الوسطى بالفخار والخزف والصيني والكاشاني وفي ضواحي انكولم على الينابيع ذات المياه الشفافة معامل الورق ولمرسيليا الميزة بصابونها ولاقليم البروفانس بزهوره العطرية التي تستعمل في الطيب وعلى الجملة فان صناعات فرنسا من انفس ماتصنع صنع الايدي في العالم ولا سيما في منسوجاتها الحريرية وصناعة الجوهريه والبلور والاولوان الصينية الدقيقة وكلها مما جعل فرنسا في مقدمة ممالك أوروبا .

تقسم فرنسا من حيث امورها الادارية الى ٨٧ ايلة وهذه تقسم الى ٣٦٢ ولاية و ٢٨٩٩ كورة و ٣٦١٧ مديرية ولها مجالس نواب ومجلس شيوخ ينتخب أعضاء الاول كل اربع سنين وأعضاء الثاني كل تسع وهذا المجالسان هما اللذان ينتخبان رئيس الجمهورية لسبع سنين والقوة الاجرائية بيد الوزارة وهي المسؤلة أمام القوة التشريعية وتقسم هذه البلاد من حيث المعارف والاديان والبحرية والبرية الى مناطق كثيرة تخالف ترتيب الايلات وكلها لسان واحد وتربية تكاد تكون واحدة ونظامها واحد

ومن نظر الى تاريخ فرنسا السياسي والاجتماعي يتجلى له انها هي بلاد غاليا المستقلة وهي عبارة عن ولاية رومانية على عهد ملكة الرومان افتتح الرومانيون منذ سنة ١٢٥ قبل المسيح البلاد الواقعة على شواطئ البحر المتوسط ثم افتتح قيصر البقية سنة ٥٨ - ٥١ ق . م ولم تكن اذ ذاك الا خليطاً من العناصر

والقبائل لاوحدة بينها ولاجامعة تجمعها في الشمال قبائل جرمانية وفي الوسط سلتية وفي الجنوب الغربي ايرية وفي الجنوب الشرقي ليكورية وفي الولايات الرومانية مدن يونانية ومستعمرات ايطالية يتكلمون بنحو عشر لغات مختلفة ولم تكن لهم وحدة سياسية ولا رئيس اعلى بل كانوا عبارة عن نحو مئة من الشعوب لهم اوصاع مختلفة ويحكم على معظمهم مجلس شيوخ ومن هذه الشعوب من يعيش على حال انفراد ومنها متحدة بينها على التساوى ومنها من يشترك مع غيره ويترك الزعامة لمن يراه احق بها

وكانت المدن قليلة جداً في بلاد غاليا وغاية ماكان فيها ملاجىء لاوقات الغارات وهى مراكز الاسواق والزيارات فبلاد غاليا كانت بلاداً زراعية وسكانها ثلاث طبقات الاشراف والمحاربون ومنهم ينتخب اعضاء مجلس الشيوخ والملوك والفرسان وعامة الشعب كانوا فدادين تقرب حالهم من العبودية ولم يكن يملك الاراضى احد ثم أصبحت ملكاً للامرات الشريفة أما الحرثون فهم من توابع الارض ويحجى بعدهم العبيد ويعمل من حال الاشراف طبقة الدرويد وهم الكهنة والاطباء والمنجمون والقضاة ولاسيا في أواسط البلاد

ولما استقام أمر الرومانيين اقاموا زعيماً عاماً على البلاد ممتعاً بالسلطة المطلقة متصرفاً بالقوة الحربية والمدنية والدينية ونفى به الامبراطور وهو زعيم الحرب والمشرع المطلق والقانون الحى والرئيس الروحى والرب ثم امتزجت البلاد بالعادات الرومانية واللغة الرومانية بما أتاها من جيوش الرومان وتحرفت لغة الفاتحين فأصبحت اللغة اللاتينية الحقاية وغدت كل أمة غالية مقاطعة برأسها يرأسها زعيم واخذت التجارة والصناعة ترتقى ولولا انه كان من حق المالك أن يبيع الارض بفلاحها وهو الحاكم المتحكم في حياتهم ومماتهم لركن الفلاحون الى الفرار

ولما أخذت النصرانية بالانتشار كانت قاصرة على المدن ولم تتعدّها الى الارياك الا بعد زمن وكان من فوائد انتشارها انها اعلنت بان الاحرار والعبيد

سواء أمام الله ، هذه هي الفائدة الاخلاقية أما الفائدة السياسية والاجتماعية فقد نشأ منها تأليف طبقة رجال الدين بنظامهم الذي اخذوه عن نظام الحكومة ولم يمتص الا زمن قليل حتى اصبحت الكنيسة حكومة وسط حكومة تجبى اموالامن الناس ويفدق المؤمنون واحياناً الامبراطرة عليها من المال ماتكونت منه ثروة طائلة وتمنى املاكهم من الخراج كما يعنى خدمتها من المحاكمة مع الشعب بل كثيراً ما يحاكم الشعب نفسه فى الكنيسة ولطالما كان الاسقف فى ابرشيته خصماً للحاكم السياسى ورقبياً عتيداً عليه .

ولما سقطت المملكة الرومانية تجزأت غالبا الى عدة ممالك بربرية كالفرنك والبورغونند والفيزغوت وعادت كلمة البلاد الى الانتشار بعد الاجتماع ولم يكن ملوك الفرنك يدركون معنى الوحدة كسائر الملوك البرابرة ولا يقيمون للحكومة وزناً ولئن كانوا يلبسون الثياب الارجوانية ويضعون التيجان على رؤوسهم كامبراطور الرومان الا انهم لم يكن لهم جيش دائم وليست لهم طريقة منظمة فى الجباية كما أن اللغات فى البلاد تعددت وكلها لهجات من أصل رومانى تمازجها لهجات بربرية وعادت سلطة الاشراف وسلطة رجال الدين تقوى حتى لم يعد يعترف السواد الاعظم من الناس بالزعامة عليه الا لهم ومنهم يطلبون الانصاف ولهم يدفعون الجزية والخراج وخربت المدن وهاجر رؤساء الجيش والاديار الى الحقول وضعفت الصناعة والتجارة باختلال الامن فى البلاد وكاد الفلاح يكون عبداً لسيده كما فى سابق الاعصار وفى اليمين الذى أقسم سنة ٨٤٢ فى ستراسبورغ ظهرت لأول مرة لغة اشتقت من اللاتينية المستعملة عند الفلاحين ومنها نشأت اللغة الافرنسية وفى معاهدة فردون سنة ٨٤٣ اعترف بوجود مملكة فرنسا وعاصمتها باريز

وما زالت الملوك تتوالى عليها وتختلف فى المبادئ والاطوار حتى قبيل نهاية القرن الثامن وقد حسنت فيه حال الفلاح الفرنسى وزاد عدد المالكين من ابناء القرى زيادة مهمة وارتقت الصناعة والتجارة على ما كان يقف فى سبيلها من القيود الكثيرة والانظمة المنوعة وارتقت الادبيات وتحررت من قيودها

القديمة واخذت الفلسفة تبحث في التسامح الدينى والحرية السياسية واصلاح القوانين الجنائية وتمايز الطبقات الاجتماعية وعارض مونتسكيو نظرية ان الملك ملهم من الله وحقه الهى على سكان الارض بنظرية الحكم الملكى النيابى ووضع روسو نظرية العهد الاجتماعى

نهت مجالس الدواب فى مكافحتها سيطرة الملوك (سنة ١٧٨٨) افكار وكلاء الشعب فبدأت الامة ترفع صوتها وكان الملوك يخفونهم ولا يرون لها حقاً فى مطالبها بحق واتفق ان وقعت البلاد فى عسر مالى فاجتمع وكلاء الامة ينظرون فى حل ما اصابهم فنشأت بعد حين الثورة الاولى (١٧٨٩) واعلن لويز الرابع ان الامة كلها للملك ولكن جاء فى قانون حقوق الانسان والوطنى ان مبدأ كل سلطة ينبعث من الامة بجوهره فما من جماعة ولا من شخص يستطيع ان يحكم حكماً لا يكون صادراً عنها بالفعل وهكذا مات حق الملوك الالهى المزعوم واثت الثورة على اعشار رجال الدين والافطاعات والسخرات والاحكام التى يحكمها ارباب الاقطاع وساوت بين الناس فى الواجبات والضرائب وقضت على قليل الكفاءة من ارباب الغنى أن توسد اليه الوظائف الكنائسية والحرية بدون استحقاق وحرمت الحرية الشخصية وحرية الضمير وحرية التكلم والكتابة وحرية المسكن وتساوى كل وطنى من أكبر كبير الى أصغر صغير فى الخدمة العسكرية ودفع الضرائب كل بحسب طاقته وثروته

هذا موجز الاساس الذى قام عليه بناء النظام الجمهورى ثم عراه قليل من التعديل بتقلب انواع الحكومات وقيام بعض الادعاء بالملك الى عهد الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين مع المانيا وعندها استقرت الحال على ما تراها الى اليوم أما نشأة الآداب والعلوم فلكل منها تاريخ ويقال على الجملة أن اللغة الفرنسية هى بنت اللغة اللاتينية تكونت على صورة غريبة الى أن وصلت فى عشرين قرناً الى حالتها الحاضرة وكانت ادبياتهم دينية لاول أمرها وبعضها شعري وثرى واكثرها خرافى ولم تخالص اللغة من القيود العائقة الا فى القرن

السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر . وتاريخ العلم ونشؤه فيها ملوئيل كتاريخ
الادب ويقال على الجملة فيه ان كانت مدة قرون منبعث العلم الوحيد
في بلاد غاليا واشتهرت مدرستها كما اشتهرت كليات آئينا وكلية الاسكندرية وكان
بيتياس احد ابنائها الذي ولد نحو سنة ٨٣٠ قبل المسيح لا يقل عن أعظم الفلكيين
في القديم وكانت بيوت العلم تفتح على العهد الروماني في البلاد المهمة والتعليم
فيها عبارة عن مبادئ عممية من الحساب والمساحة والبناء ثم جاء دور الانحطاط
التام فأصيب الغرب بغارات البربر ولم تخرج فرنسا من ظلماتها الفكرية الا بعد
ثمانية قرون بفضل العرب وبينما كان التمدن الاسلامي بالغاً أوجه كانت العلوم
منحطة كل انحطاط في أرض فرنسا . ولم ينتشر الطب والصيدلة في فرنسا الا
بمساعي اطباء اليهود الذين طردهم المسلمون من آسيا الصغرى في القرن الحادي
عشر فاعتصموا باسبانيا أولا ثم باقليم لانكدوك حيث أسسوا عدة مدارس
ومن جعلتها مدرسة مونبليه وهذا كان مبدأ انتشار العلم في هذه الارض . فعن
العرب أخذ القرن نيس فيما مضى حضارهم ونحن العرب اليوم نأخذ عنها وندهش
بحضارتهم فسبحان المعز المذل التقابض الباسط

الصحافة الباريزية

٢٥

نشأت الصحافة هنا في مبدأ امرها بنشر اخبار الملوك والوزارات والموظفين
والحروب والدول ثم ارتقت بارتقاء المدارك الى ان صارت تلم بمعظم الموضوعات
التي تهتم القراء وتعلمهم وعلى عهد الثورة اشتد ولوع الناس بالاطلاع على الحديث
والآراء السياسية والى هذا العهد ظل الصحفي وراء منضدته يكتب لينقذ مثل
الاستاذ على منبره والواعظ في معبده لا يقصد الا تثقيف عقل وتربية نفس
ولما تكالبت النفوس على المال واتسع للصحافة المجال بكثرة المواصلات

والبرقيات وأخذت التجارة ترقى دخلت الصحافة في طور جديد فبعد أن كانت هي خادمة للتجارة أصبحت هي بنفسها تجارة لا يقصد منها إلا الربح وأول من أنزل أجور اشتراكها أميل جيراردين مؤسس جريدة لا بريس سنة ١٨٣٦ من ٨٠ أو ٦٦ فرنكا قيمة الاشتراك بالجرائد الكبرى إلى ٤٠ فرنكا وهي قيمة زهيدة لا تعادل النفقات انزلها ليكثر قراءها وإذا كثرت قراء جريدة أقبل الناس عليها باعلاناتهم ومنشوراتهم فاستطاعت بعض الصحف أن تعيش مستقلة عن معونة الافراد والحكومة والاحزاب

ولكن هذا الاستقلال وان لم يكتب لها كلها إلا أن سعيها وراء الاعلانات وخدمة الشركات والبيوت المالية قيدها أكثر من قبل بل أخرجهما عن المقصد منها حتى صارت العشرون الجريدة الكبرى الباريزية اليوم عبارة عن سمسار لا يهمه إلا أن يقبض العمالة من البائع والشارى وغدت الجريدة من مقالاتها الافتتاحية إلى أنبائها البرقية فرفرف قصصها وتقارير الكتب والحوادث الداخلية والخارجية والانباء المتنوعة والمقالات الادبية والاقتصادية والسياسية والاعلانات والمنشورات وغير ذلك مما تخوض الصحف عبابه مثل أخبار دور التمثيل والرياضات البدنية والسباق لا ينشر منها اسم ولا سطر إلا قبل أن يذهب صاحبه الذي يهمه وينتقد أمين صندوق الجريدة مبلغاً معلوماً عنه وعند ذلك ينشر له من الافكار والمحامد ما يشاء وتشاء الاهواء

فان كتبياً أو طابعاً لا يقدر أن ينشر كتاباً طبعه إلا إذا انتقده كاتب أو عالم كبير وهذا اذا فرض انه رضى بان يخدمه بالمجان يسأله مدير الجريدة عن ربح الادارة من ذلك . فقالة في تقرير كتاب قد تكلف الطابع التي فرنك يأخذ نصفها كاتبها الموقعة باسمه والنصف الآخر مدير الجريدة ومثل ذلك يتناولون من المصورين^(١) والموسيقيين والممثلين والراقصات والعقيلات والآلات

(١) اعتمدنا في معظم هذه المقالة على ما جاء في كتاب « كيف تقرأ الجرائد » الذي صدر حديثاً في باريس لمؤلفه جورج فونسكريف George Fonsegrive : Comment lire les journaux

والاعاظم والاصاغر لاتدون اسماءهم بالطبع قبل أن يرشوا ادارة الجريدة بمال ترتضيه وكل ما تراه من أخبار الدعوات والرياضات والمآدب ووصف الازياء مع بائعات الزهور والجوهرين والخيانات والخياطين يدفعه أرباب المأدبة وتجار هذه الاصناف بل ان أخبار الاعراس والافراح وأخبار المناعي والاموات لاتكتب إلا لمن تؤخذ منه أجرتها والاعمال الادبية مهما بلغ من مكانتها لاتذكر بكلمة قبل أن يدفع صاحبها جمالة اداء ذكر اسمه

وهناك المليون وأرباب التجارة يريدون أن يعبتوا بحالة الاسواق ويعرفون أن السياسة تؤثر كثيراً في أعمالهم فيعمدون الى ابتياع الجرائد لتكتب في السياسة على هواهم فيرفعون الاسعار يوم يريدون الرفع ويخفضونها كذلك بمالهم بواسطة هذه الجريدة من التأثير في الافكار العامة ومنهم من ينساع من الجرائد كلامها كما يبتاع منها سكوتها فدار اللعب في أمانة موناكو تدفع مشاهرات الى جميع الصحف الكبرى لتسكت عما يحدث فيها من ضروب الانتحار والخراب والفجائع التي تنشأ من المقامرة كما تدفع مبالغ جسيمة أيضاً في أوقات معينة لتأخذ الصحف في حمد مرافق مونتيكارلو ونزولها ودور تمثيلها وسواحلها وصفاء العيش فيها

وان أعظم علماء الاقتصاد لاتنشر له مقالة في موضوع مالي قبل أن يوافق عليها المصرف الذي ابتاع من الجريدة روحها المالية ليصرفها كما يشاء وبعد حادثة بناما التي ظهرت فيها رشاوى الصحف الافرنسية لم يعد يقدر الانسان أن يقرأ سطوراً في شأن مالي في جرائدهم إلا ويشك فيه

وهكذا أصبحت الصحافة الباريزية متعيدة في صورة حرة مطابقة في وسعها أن تضرب في كل ما تريد وتنزع كل أساس وتهاجم كل موضوع وتفتاب كل امرئ وتتم عن كل عمل وتفتات على كل فرد ولا يحظر عليها الا شيء واحد وهو أن تكشف الغطاء عن الاسرار المالية فاذا فعلت يحكم على الكاتب والناشر والجريدة بأشد عقوبات العطل والضرر وكذلك إذا دلت على الطرق الاحتيالية التي يعيش بها المحل المالاني منذ سنين

وعلى ذلك فالجرائد هنا يجب أن لا تقرأ إلا بحذر شديد حتى مقالات الكيمياء أو التاريخ فأنها لا تنشرها الا ولها منها ما أرب تظهر بعد أعمدة من نفس العدد أو في عدد تال ، وخف كل الخوف من الصحف التي تخدم الاحزاب حهاراً فان هذه تقاب الحقائق الناصعة وتجسم الحوادث أو تضعفها بحسب هواها وتستعمل من السفسة ما يضحك ويبيكى

فكان الصحافة الباريزية جعلت لقلب الحقائق لا تقدر أن تسقط فيها على حقيقة خالصة من الشوائب فهي تزيد الى ضعف البشر الطبيعى وغلطهم وخطأهم أموراً تأتيا بذاتها بالقصد لتحريف الحق وتشويهه فنها ما يخضع للحكومة في كل ما يكتب ومنها ما يخضع للاحزاب وكلهم خاضعون لزيهم وكثير منهم يقولون كل ما يريدون على شرط أن يحسن المرء دفع المطلوب منه . فقد قيل أن الرياء تكريم الرذيلة للفضيلة والصحف الفرنسية تكرم الحقيقة من هذا النوع أى أنها هي الرذيلة .

هذا ما اقتبسته من فكر الكاتب الفرنسي في هذا الباب وصاحب الدار أدري بالذى فيه وقد أجمع العقلاء الذين لقيتهم من أهل العلم والمطبوعات وغيرهم على أن الصحافة الفرنسية كلها ترشى وتلفق في أحاديثها وتكذب في رواياتها ما عدا جريدة «الامانيتيه» أى الانسانية وهى لجوريس أحد زعماء الاشتراكيين تعيش من وارداتها الشرعية ولا تسف لتناول رشوة من أحد وان الصحافة الانكليزية أشرف غاية وأنبل قصداً وأكثر مادة وأوسع مصادر أما أنا فعلت هذا التصريح من أصدقائى الفرنسيين بأن انكادرا هى أرقى الامم بأخلاقها والاخلاق هى معيار الامم والجرائد مرآتها

ومن الصحف الباريزية ما يصدر صباحاً وأكثرها جرائد لا تهتم بالمسائل السياسية بل بالامور المالية والحركة الادبية كدور التمثيل والخطب وغيرها أما جرائد المساء فأكثرها يهتم بالسياسة فالطان والديبا من الجرائد المسائية والجورنال والماتين والبتى باريزين والبتى جورنال من الجرائد الصباحية والجرائد طبقتان قسم لعامة القراء وهى التى ينادى عليها المنادون فى الشوارع

بأعلى أصواتهم وتباع في كل مكان فيقرأها البواب والحوذي والمساح والكساح
وسائق الاتوموبيل والشرطي والمرزوق وبعض التجار وذلك كأكثر الجرائد
الصباحية وقسم للطبقة العالية وأبحاثها لهم بالطبع مثل الطان والديبا والغولوا
والفيغارو وهذه لا ينادى عليها وتباع بثمن أغلى فالطان يبتاع عددها بثلاثة
فلوس أو خمسة عشر سانتيا في حين تباع تلك الجرائد العامة بفلس واحد وهي
أكبر حجماً وأوسع مادة من هذه ولكن شتان بين مادة ومادة وحجم وحجم .
وجريدة الطان هي الجريدة الوحيدة التي تعني كثيراً بأخبار هذا الشرق
الادنى خاصة والسياسة الشرقية عامة وهي جريدة وزارية تقدر كل وزارة
تأتي وهذه بالطبع تعطى أخباراً وربما أمدتها بمعمونة مالية وهي لاتذيل المقالات
السياسية والإخبارية باسماء كتابها على عادة معظم الجرائد السياسية وبذلك قد
يقع لها أن تؤيد اليوم في مقالاتها الاولى فكراً مخصوصاً ثم يجيء كاتب آخر
من القدر في نفس ذلك المكان من الجريدة فيضعف ذاك الرأي بعينه وينتقده
واعرف الجرائد بالشرق على التحقيق هي هذه وربما كانت حريدة الايكودي بارى
من جرائد الصباح أكثر منها مادة برقية اخبارية بدون تعليق على الحوادث
ومقالات الطان عن السياسة الشرقية نتناقل لأنها أقرب الى الثقة والنقل من
غيرها ومع هذا تؤخذ بكل حذر شأننا مع عامة الصحف الافرنجية التي تقول
الحق ولكن إذا صادف هوى لها وهيئات أن تقوله بدون عوض . ولقد كنت
أظن جريدة الديبا وحدها ترشى من السلطان عبد الحميد المخلوع ولكن عدت
هنا أن الطان أيضاً على ما فيها من الغمز واللمز بالدولة كانت لاتستنكف من
قبض الخمسة آلاف ليرة من أموالان ذاك السلطان لتكتب على هواه يوماً لعلم
المخلوع بمكانة أقوالها في الاندية السياسية

وأأنواع الجرائد هنا كثيرة ومنها اليومى الذى لا يكتب إلا فى موضوع
واحد مثل جريدة « كوميديا » وهى تبحث فى دور التمثيل والقصص التمثيلية
والفاجعات وغيرها ومنها جرائد للسباق مثل جريدة « الاوتو » وهى لنشر

أخبار سباق الحوافل « الاتومويل » وغيرها من أنواع السباق ومن حرابهم ماهو خاص بتأجير الاملاك والعقارات ومنها الخاص بطلاب الزواج وطلباته ومنها للازياء وأخرى للمطور والطوب ومنها للاخبار الخلاقية ولكنها مقصورة على طبقة خاصة تطبع سرأ وتوزع كذلك واذا رآها الشرطة صادروها وأنزلوا العقوبة الشديدة بكاتبها وبائعها ومشتريها

أما تنظيم ادارات الجرائد الكبرى فهو الغاية ولا سيما الامهات منها مثل « الماتين » وهى فى أعظم جادة وبنائيتها أجمل بناية وآلاتها الطابعة أحسن الآلات فيها اثنتا عشرة تطبع الواحدة مئة ألف نسخة فى الساعة زرتها مع زهاء سبعين رجلا وامرأة رأيتهم سبقونى الى زيارتها فما رأيته نظاماً أتم ولا استعداداً استوفى من الكمال أوفى القسم ومن أحسن ما قرأته مما كتب فوق غرف المحررين « خلق المحرر ليكتب فلا تشغله فيما لا يعنيه » وزرت أيضاً إدارة البتي باريزين وهى دونها فى الاستعداد وإن لم تكن دونها فى الانتشار والنفاذ

الطبعة الباريزية

٢٦

المعنامرات فى الفصول السالفة إلى تفنن الباريزيين فى الامور الذوقية والطباعة من جملة فنون الذوق وان كانت تتوقف على علم وفضل وتجربة ، وأجور الطبع هنا عالية لغلاء الاسعار وأجور الدور والمنازل فالعامل الجيد لا يرزق أقل من نصف ليرة وأقل عامل لا يرزق أقل من أربعة فرنكات فى يومه ولذلك ترى بعض أرباب المجلات وغيرهم من المؤلفين والطابعين يطبعون مجلاتهم وكتبهم فى مطابع الولايات لخص أجورها وجودة طبعها الذى لا يخلف عن المطابع الباريزية فى شئ

ومن جملة المطابع العظمى التى زرتها مطبعة الامة أى مطبعة الحكومة التى أسسها لويز الثالث عشر سنة ١٦٤٠ ثم نقلت الى قصر الكردينال روهان من أجل القصور الباريزية القديمة المعروف ببيت اساقفة ستراسبورغ وقد أنشئت لها بناية هائلة فى شارع الكنفاسيون لضيق هذا المكان على سعته البالغ سطحها عشرة آلاف متر مربع

تدخل من الباب فرى فى فناء الدار تمثال غوتنبرغ مخترع الطباعة والمتفضل على الانسانية . معمولا من البرونز فلا تما لك من الدعاء له وذكر بيض ايديه على العالم ثم يأخذك الدليل فى الوقت الذى تعينه لك ادارة المطبعة ويطوف بك قاعات مسابك الحروف وفيها حروف فى ثمانين لغة واللغة العربية فى مقدمة لغات الشرق رأيناهم فى بعض الغرف كتبوا بيتاً من الشعر العربى ليرن الاستاذ العملة على تعلم هذه اللغة فيحسنوا تنفيذ حروفها بفهم

ثم طاف بنا الدليل قاعات التنضيد والتجليد والطبع والطى فرأينا كل شىء قد جعل فى مكانه اللائق به والعملة والعاملات يعملون فى مكان واحد كتنقأ الى كتف وقد يتولى الاعمال الشاقة الرجال من دون النساء . وعدد العاملين والعاملات فى المطبعة يناهز الالف والخمسمائة وفيها مايربوعلى ستين آلة طباعة على آخر طرز منها خمس آلات من المعروف بالروتاتيف وعلى مثلها تطبع جميع الجرائد الكبرى فى الغرب اليوم . وتنفق الحكومة على هذه المطبعة نحو تسعة ملايين فرنك مساهمة وفيها تطبع الجريدة الرسمية ومطبوعات الحكومة والنظارات ومناشيرها وفهارسها وأوامرها فالاستعداد فيها تام لكل ما تطلب الحكومة طبعه وليس فى وقتها متسع لطبع مطبوعات الافراد وناهيك بمطبعة حوت من الادوات مايلزمها من سبك الحروف حتى التجليد وناهيك بكثرة أشغال حكومة الجمهورية التى تقع ميزانيتها وحدها فى ثلاثة آلاف صفحة كبيرة يطلب طبعها فى وقت قصير وهذا لا يتيسر الا بمطبعة متقنة جداً

ولهذه المطبعة معامل للتصوير الشمسى وطبع الصور والطبع المحفور المجوف

والحفر على الخشب والحفر على النقش والحفر النائي على النحاس والزنك والطبع الملون وطبع الحجر والتصفيح والطبع المنحس وغير ذلك من التفنن في الطباعة . وتسمح المطبعة باعارة الطابعين بعض الحروف الغريبة من اللغات الاجنبية ولا تطبع من الكتب الا ما كان بلغة غريبة لا يوجد من حروفها في كل مطبعة وذلك لمحض خدمة المعارف والفنون

هذه جملة ما يقال في مطبعة الامة ولو جمعت مطابع مصر كلها مادانتها بالمكانة وكذلك لو جمعت مطابع الاستانة واضفت اليها مطابع الولايات العثمانية برمتها والمطبعة التي تنفق عليها الحكومة نحو أربع مائة وخمسين الف ليرة في السنة يستحيل على حكومة كالخكومة العثمانية والمصرية ان تقوم بمثلها وهي لا تنفق على المعارف كلها نحو هذا القدر من المال أو أكثر منه بقليل فدأمل

مدرسة فرنسا

٢٧

من المعاهد التي استغرقت شطراً كبيراً من وقتي في باريز دروس مدرسة فرنسا (كولييج دى فرانس) لسهولة التاقى فيها في كل علم يخطر في البال ولأن هذه المدرسة ذكرتني بمدارس الاسلام أيام حضارتنا ، وقد جعلوا العلم مباحاً لكل طالب يلتقونه اياه بلا عوض

في شارع المدارس بالقرب من كلية السوربون قام بناء عظيم أسسه فرنسيس الاول ملك فرنسا حوالى سنة ١٥٣٠ وجعل فيه درسين الأول لتعلم اللغة الرومية والثاني للعبرانية وسمى المدرسة مدرسة الملك فرأت الكلية اذ ذاك ان قد استهين بها فأوعزت الى مدرسة اللاهوت ان تهتم مدرسى مدرسة الملك بأنهما يدعوان الى الزندقة فحال الملك دون صدور الحكم عليهما وأضاف الى المدرسة

درساً في الفصاحة اللاتينية ليخاص وجماعته من تهمة الالحاد ، وما زال عدد الدروس يزيد على عهد كل الملوك حتى أضاف إليها هنري الثالث درس العربية ونابوليون الأول درس التركية ولم يبرح بناؤها ودروسها عرضة للقلب والابدال حتى على عهد الجمهورية الثالثة

ولقد أصبحت هذه السنة الدروس التي تلتقى على الناس مجاناً ٤٩ درساً يصح أن يقال فيها انها مجموع علوم البشر يتولى تدريسها أعظم أساتذة هذه البلاد وعلمائها ممن اشتهروا بفن أو علم أو لغة وصرفوا في البحث فيه شطراً مهماً من حياتهم ولم أر في هذه المدرسة أستاذاً تقل سنه عن ستين الا بعض المعاوين ممن يتجاوزون الأربعين ، وينخبهم المجمع العلمي أو المجمع العلمية الخمسة ، وأساتذة المدرسة ويقبض الأستاذ عشرة آلاف فرنك في السنة ولا تتجاوز مدة الدروس ستة أشهر ينلو في خلالها درسين في كل أسبوع فقط

أما العلوم التي تلتقى على جمهور المستمعين فهي (١) علم الأتقال التحليلي والسماوى (٢) العلوم الرياضية (٣) علم الطبيعة والرياضة (٤) الطبيعة العامة والتجريبية (٥) الكيمياء المعدنية (٦) الكيمياء العضوية (٧) الطب (٨) علم الحياة العامة (٩) تاريخ الأجسام الغير العضوية الطبيعي (١٠) علم تكوين الجنين (١١) التشريح العام (١٢) علم النفس التجريبي (١٣) تاريخ العلوم العام (١٤) تاريخ تشريع المقابلة (١٥) الاقتصاد السياسي (١٦) الجغرافيا والتاريخ والاحصاء الاقتصادي (١٧) تاريخ العمل (١٨) جغرافية فرنسا التاريخية (١٩) تاريخ الأديان (٢٠) الفلسفة الاجتماعية (٢١) علم الاجتماع الاسلامي (٢٢) علم الجمال وتاريخ الفنون (٢٣) علم الكتابات والعاديات الرومانية (٢٤) الكتابات والعاديات اليونانية (٢٥) الكتابات والعاديات السامية (٢٦) الآثار المصرية وأصول لغاتها (٢٧) الآثار الاشورية وأصول لغاتها (٢٨) الآداب العبرانية والكلدانية والسريانية وأصول لغاتها (٢٩) الآداب العربية واللغة العربية (٣٠) النقود القديمة ونقود القرون الوسطى (٣١) آداب اللغات الصينية والتتية والمنشوية

ولغاتها (٣٢) آداب اللغة السنسكريتية (٣٣) آداب اللغة اليونانية (٣٤) فقه اللغة اليونانية (٣٥) تاريخ آداب اللاتينية (٣٦) التاريخ الوطنى والعاديات الوطنية (٣٧) الفلسفة الحديثة (٣٨) اللغة الفرنسية وآدابها فى القرون الوسطى (٣٩) اللغة الفرنسية الحديثة وآدابها (٤٠) أصول اللغات الجرمانية وآدابها (٤١) لغات أوروبا الجنوبية وآدابها (٤٢) اللغات والآداب السلتيّة (٤٣) اللغة السلافية وآدابها (٤٤) علم النحو المقابل (٤٥) العادات الأميركية (٤٦) الرياضات (٤٧) تاريخ فن الموسيقى (٤٨) التاريخ العام والطريقة التاريخية (٤٩) أصول اللغات الهندية والصينية وتاريخها .

هذه العلوم التى تدرس فى مدرسة فرنسا ولا يستغرق الدرس منها ساعة يتلو فى خلالها الأستاذ زبدة علمه وبجته ولا يكثر المستمعون الا فى بعض الدروس التى رزق أساتذتها فضل بيان وطلاقة لسان وأكثر الحضور غرباء أى غير فرنسيين وفيهم كثير من الفتيات طالبات العلم ممن قصدن فرنسا من ألمانيا وانكلترا وروسيا والنمسا وإيطاليا وبلغاريا ورومانيا والصرب والسويد واسبانيا وأميركا ليغترفن من مدارس باريز ويحكمن لغتها الجميلة . فكان أهل هذه العاصمة زهدن فى حضور هذه الدروس المجانية وأزهد الناس فى الرجل أهله وجيرانه ، وان دروساً يعد من جملة أساتذتها لفاسور وبول لوروا وبوليو الاقتصاديين وماسبرو وغانو الاثريين وجوليان ومونو المؤرخين وبرجسون وريبو الفيلسوفين وغيرهم من الأئمة الأعلام لحرية بأن يستفيد منها كل طالب ويغترف من درر بحورها عاشق العلم

وأن هذا المعهد ليولي فرنسا شرفاً ليس وراءه غاية ويدل على تقايتها فى نشر المعارف والأخذ بأيدي القائمين عليها وينادى بلسان الحال والمقال على توالى العصور والأجيال ان فرنسا اذا هرمت فى سياستها وأخلاقها فهى على الدهر فتية فى جمال علمها وجدة حكمتها .

التجارة الباريزية

٢٨

لم يكتف الفرنسيون بل الغربيون بما بلغوه من أسباب الراحة والرفاهية بل تراهم يعملون ليلهم ونهارهم لئلا يسبق بلد بلداً آخر أو مملكة مملكة أخرى كأن المنافسة التي هي من أعظم عوامل الارتقاء قد تجسدت في صدر الكبير والصغير من الافرنج فكان من آثارها ما يبهشنا من تلك الحضارة الراقية والسعادة الشاملة

رأيت روح الاجتماع مستحكمة في أعمال الاوربيين فلا يكاد يأتي زمن قليل حتى تصبح جميع مشاريعهم وأعمالهم شركات وجمعيات ليخفى عمل الفرد ويظهر عمل الجماعة ويتراجع ضعف الواحد أمام قوة المجموع فتمت ظهرت لتلك الامم نتائج الاشتراك جماعة ظهوراً لا ينكره الا من يكابر حسه ويفش نفسه فانشأمن كانوا الى الافراد في متاجرهم ينضمون بعضهم إلى بعض ومن عاشوا بالوحدة يربحون ويخسرون فلا يدري بهم أحد عدلوا عن سالف طريقةهم واقتدى المتأخر بالمتقدم أو العناصر اللاتينية والسلافية بالعناصر الانكليزية السكسونية مثال ذلك مدينة باريز مهد الحضارة اللاتينية فانك تجد معظم مشاريعها ومتاجرها ومصانعها لشركات ومشاريع الافراد ومتاجرهم ضعيفة ضئيلة لا تكاد تحيا حتى تموت وكلها آيلة طوعاً أو كرها إلى الاندماج في سلك الاشتراك مع الجماعة ، دخلت كثيراً من مخازن باريز فكنت أشهد على قلة الماي بفن التجارة روح الجماعة مرفرفة عليها وتعمد القوى زائدة في نماها وحسن الذوق وسلامة الابداع تتخلل أرجاءها وتزيد بهاءها .

باريز أعظم بلد تصرف فيه السوق المالية والتجارية والصناعية من فرنسا ورؤوس أموالها مقدمة جميع متاجرها ولا تفوقها في ذلك إلا لندرا ، وقد

بلغ عدد مافى باريز من البيوت المالية والمصارف وشركات الضمان فقط زهاء
التي محل توشك أن تكون كلها لشركات وأعظم متاجر باريز بل فرنسا تجارة
الاطعمة المحضرة والامتعة والثياب والازياء وكلها مهمة جداً لا بكثرة عددها
بل بمكانتها وخامتها وانتظام أعمالها

زرت بعض هذه المخازن من مثل لا بل جاردنيير والبرنتان والبون مارشه
واللوفر ولافايت ودوفايل وكل واحد منها يبتاع بما حوى قطراً واسعاً من
أقطار الشرق ويحتاج وصفه إلى الكلام ساعات على شرط أن يكون المتكلم
عارفاً بالتجارة وما يتصرف أو يتوقف عليها وتتوقف عليه وكل مخزن يمد
مستخدميه وموظفيه بالمئات فى مخزن دوفايل وهو لفرش الدور والقصور
وما يلزم لها من الاثاث والخرشي والرياش والاواني والسرر والصناديق والمقاعد
والمنسكات والكراسى وأدوات الطبخ وكل ما يتصرف تحت أنواع الزينة والتبرج
والبذخ والرفاهية ما يأخذ بمجامع القلب ويعد من أغرب غرائب الغرب . ولا
يقدر المرء أن يطوف هذا المخزن فى أقل من ثلاث ساعات إذا أحب أن يلقى
نظرة واحدة على ما فيه من التحف والأمتعة الثمينة وهو قصر نخيم جداً لم
أر أجمل من نقوشه البديعة وبنائه العظيم سوى متحف اللوفر ومتحف فرسال
ودار المجلس البلدى الباريزى وفى مخزن دوفايل محل للتمثيل ومحل للموسيقى
ومحل لالعاب السينماوغراف يختلف إليها الزائرون باجور معتدلة جداً والغرض
منها أن يعمروا ببعض مخازن ذاك المحل الكبير فيكون مرورهم بها والقاء أنظارهم
عليها بمثابة اعلان عما فيها من الاعلاق النفيسة وببركة الاعلان يشتري من لم يكن
تحدثه نفسه بالشراء

ومن الغريب أن هذا المكان الذى لا يشبهه فى الفخامة الا أرقى قصور
الملوك والامم كما قلنا آخذ الآن فى توسعة مخازنه لانها ضاقت به على سعتها
وما أدري ما هو رأس ماله ولا مقدار أرباحه وعدد مستخدميه وغاية ما رأيت
أن مصرفه أشبه بمصرف كبير بل هو فى سعته وكثرة مستخدميه أشبه بمصرف

الكريدى ليونيه في القاهرة لافى باريز فانه هناك العجب العجيب بعينه
وقرأت في احصاء أخير ان مخزن لافايت أحب أن يزيد رأس ماله فقرر
مساهموه أن يزيدوه اثنين وعشرين مايوناً ونصف مليون من الفرنكات ، فاذا
كان مخزن واحد زاد رأس ماله فى جلسة نحو مليون ليرة عثمانية فكم يكون
أصل رأس المال .

ومما هو حرى بالنظر فى المسائل الاقتصادية ان أهل باريز على شدة كرههم
للألمان يبتاعون فى بلدهم البضائع الألمانية لخص أسعارها والتفنن فى ابداعها
حتى كادت بضائع الألمان تأتى على بضائع فرنسا مع جودة هذه ومتانتها وأصبحت
بذلك معظم البيوت التجارية لأناس أو لشركات من الألمان وغيرهم ومثل ذلك
قل على ما قرأته فى إحدى المجلات عن تجارة لندرا أو تجارة نيويورك فان القسم
المهم منها بيد الألمان يصرفون على الانكليز والألميركان سلعهم وحكومة انكلترا
وألميركا مع شدة حرصهما على مصلحة قومهما التجارية لم تستطعا بالتعاريف
الجزرية ولا بغيرها أن تقيا سداً منيعاً دون تسرب البضائع الألمانية اليهم .
ولكن ألمانيا أو العنصر الجرمانى ومن لف لفة تحارب هذه الحرب التجارية
بسيوف العلم والمعارف وسدود الدول لا تقوى على صد هجماتها المعقولة .

ذكر الاحصائيون أن مدارس ألمانيا تخرج كل سنة أربعين ألف طالب
وييدهم الشهادات التجارية فأين يذهب هؤلاء الرجال بعد ؟ وهل لهم الا أن
يصرفوا متاجرهم فى مشرق الشمس ومطلعها بالطرق الاقتصادية المدهشة ، فكم
رجل تخرج من البلاد المصرية العثمانية يا ترى حتى الآن فى المعارف التجارية
وكم طالب أتقن اللغة الألمانية منا حتى أصبح يكتب فيها ويترجم منها واليها كما
يكتب الفرنسية أو الانكليزية ويترجم بها ومنها .

قال لى أحد علماء الألمان أتدرى بأى شئ غلبنا الفرنسيين فى حرب السبعين
قلت لا أعلم قال غلبناهم لأننا كنا طرفين بما عندهم أما هم فلم يكونوا يعرفون

ما عندنا وأنا أقول ان اقتصارنا معاشر العثمانيين والمصريين والسوريين خاصة على تعلم اللغة الفرنسية في الأثر هو من الاحتكار الضار فيجب أن نعرف أو بعضنا لغة أمة كبرى تريد أن تحارب العالم حزبا اقتصادية حتى لا يكون مثلنا مثل الفرنسيين مع جيرانهم الألمان قبل حرب السبعين جهلوا ما عندهم فحسروا في ماديّاتهم ومعنويّاتهم .

نعم نتوفر على الأخذ من أوروبا كل ما تمتاز به مملكة من ممالكها فنحول وجهتنا بعد الآن الى جرمانيا لتتعلم علومها واقتصادها ومتاجرها وبريتها ونأخذ عن فرنسا الزراعة والحقوق وعن انكلترا السياسة والعلوم والبحرية وعن ايطاليا الصنائع النفيسة ونجعل للغة الالمانية والايطالية حظاً من عنايتنا حتى لا نكون حكرة مضرة لحكومة خاصة من حكومات الغرب فنحن كما نريد في السياسة أن نعامل الدول كلهن بوثام يجب أن نأخذ عن كل دولة راقية أحسن ما عندها حتى لا نكون من الجامدين على أمة بعينها والجامدون في مسائل الدين كالجامدين في مسائل الدنيا لا يخلو حالهم من ضرر على المجتمع .

الاعطارة أساس التجارة

٢٩

تقدم في الفصل السالف أن البيوت التجارية في باريز تباع ما تباع ببركة الاعلان عن نفسها وهنا مجال لان أفصل ذاك الكلام المجمل فأقول : كل من زار مدينة أوربية أو أميركية من أبناء هذا الشرق الاقرب يأخذ العجب من وفرة الاعلانات وتقنيهم في نشرها والفرنسيين في الاعلانات مقلدون لا يجتهدون قلدوا الأميركيين والانكليز وهؤلاء ينفقون عليها نفقات لا تكاد تصدق فقد ذكروا أن معمل الموازين ^(١) فيربانك وشركاؤه الذي كان ينفق

على الاعلانات نحو ثلاثة آلاف فرنك مساهمة أخذ اليوم ينفق نحو ثلاثة ملايين ونصف فرنك وقد كان خصص أحد معامل الصابون ثلاثين ألف ريال للاعلان عن مصنوعاته وهو اليوم يصرف ألف ريال في اليوم وتخصص المعامل الكبرى التي تباع بالمفرق في مدينة نيويورك وحدها زهاء أربعة ملايين ريال في السنة لنشر اعلاناتها في الصحف وفي مدينة شيكاغو يستخدمون البريد لنقل قوائم باعلاناتهم وقد اتفق أحد أصحاب المخازن لارسال طبعة واحدة من الاعلانات بطريق البريد ٦٤٠ ألف ريال وليس من محل في أميركا الا يصرف خمسة في المئة من أرباحه على الاعلانات وقد اتفق أحدهم ٧٥٠ ألف ريال للاعلان عن موسى له فباع ستة ملايين موسى وكذلك فعل توما بيشام بحبوبة فصرف للاعلان عنها مليوني جنيه

فاشتهر اسم المعمل أو صاحبه من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى وترداده في أفواه أرقى الامم وأوحشها موقوف على كثرة التفنن في الاعلان عنه والبذل في هذا السبيل عن سعة حتى قال كارنجي أعظم أغنياء الاميركان : اذا أردت أن تباع قبعة بريال فانك تستطيع أن تباعها بريالين إذا وضعت اسمك عليها وذلك لانك تفهم الناس بان لأسمك بعض القيمة

وذكروا (١) أن شركة ولن سى الاميركية وهى شركة معامل أصواف مؤلفة من ٢٧ معملا رأس مالها ٦٩٠ مليون ريال وكانت مجموع أرباحها سنة ١٩٠٢ ١٨٧٥٠٠٠٠٠٠ على حين بلغ مجموع المنسوجات الصوفية المصنوعة في الولايات المتحدة كلها ملياراً و ٤٨٥ مليون ريال فبيدها جزء من ثمانية أجزاء من عمل الصوف ذكروا انها توصلت بفضل التفنن في الاعلان عن نفسها إلى أن كادت تلتهم جزءاً عظيماً آخر من أرباح الشركات الاخرى ان لم تكن التهمت حتى الآن

والطرق إلى ذلك مختلفة فمن ضروب الاعلانات الاعلان في الجرائد والمجلات على اختلاف أنواعها ووضع صفائح منحسة في الصفحة السابعة أو الثامنة اى

(١) كتاب الاعلان الرابع المقول لارين

الآخيرة واعلانات في شبك ودس الاعلانات في أخبار الجرائد وبين أخبار الرياضات والسباق ودور التمثيل والازياء وادماجها في المقالات وتعايقها على حيطان الدور وفي شوارع المدن والقرى وعلى طول السكك الحديدية وفي أما كن التزهة والمناظر التي يسرح فيها النظر وفي عجلات الحوافل والترامواي والسكك الحديدية تحت الارض وفوق الارض وستور دور التمثيل والفصول وجميع الاماكن العمومية حتى المراحيض وترسم الاعلانات على القرطاس الذي يضعه الكاتب تحت يده وعلى المقطع والسكاكين وعلبة عيدان الكبريت والدواة والبارومتر وكتب التقاويم وورق النشاف وبطاقات البريد وتجعل من الورق الملون والمقوى والزجاج والخزف والخشب والمعدن وغيرها . وتبدو في المساء بالوان مختلفة مقطعة بادية بالكهرباء وغيرها مما يطول ذكره

ومن غريب تفننهم في الاعلانات أن مخزن أدوات نحاسية وحديدية في ليفربول أخذ يمان في جرائدها بأنه يقدم مفتاحاً بلائمن لكل من يضع مفتاح بابهُ أو خزائنه فهذه الوسطة كان يأتيه المضيع فينصح له المحل بأن يبتاع قفلاً كاملاً ويغير القفل القديم حتى لا يقع المفتاح في يد لص وربما هانت عليه السرقة فبعض الناس يبتاعون وبعضهم يكتفون بأخذ مفتاح بلائمن ولكن النصح يفعل في أكثرهم . واخترع أحد البدالين من بائعي الماء كولات المحضرة في لندرا طريقة للاعلان عن محله بأن اغتم فرصة حضور جوق تمثيل فابتاع مئات من الكراسي لمستخدمي محله أدخلهم على نفقته فتحدث القوم بذلك وذكرته الجرائد فحصل المقصود للمحل بالاعلان عن نفسه . ومن غريب تفننهم أن أحد مخازن القبعات في بلتيمور في أميركا أعلن في الجرائد أنه يريد أن يعرف أحد النساء المحكوم عليهن بالقتل فاهتدى اليها وأعطاهها مئة ريال على أن تقول قبل ضرب عنقها هذه الجملة : « كل ما أستطيع أن أقوله الآن هو أن محل المستر بلانك . يعمل أحسن القبعات بريالين » ثم قطع عنقها واغتنى صاحب المعمل . والامثلة على ذلك كثيرة ويكفي القاء النظر على أي حائط أو مجلة أو جريدة

لتعرف مبلغ تفنن الغربيين في الاعلان والاساليب في الكتابة التي يختارونها والصور المتنوعة ومنها المضحك وغيرها الجدى وبعضها لطيف وآخر بشع ومنها السياسى والادبي والعلمى وقد جعل الانكليز السكسونيون للاعلانات قواعد حتى صارت علما من العلوم لا يبرز فيه إلا من حسن ذوقه وعرف النقش والرسم والتصوير والطباعة وكان ملماً بالاقتصاد السياسى وعلم النفس ومحيطا بعالم المالية والصناعة والتجارة والجرائد والمجلات وكان ذاهبة بالتفنن والادب والخطابة حاسباً كاتباً مقنماً يعرف التفنن في المسائل الحاضرة أو يحسن علم الحال

ولا تعيش معظم الجرائد والمجلات الكبرى إلا بأجور اعلاناتها حتى أن أجرة صفحة واحدة مرة واحدة في جريدة « لادى هوم جورنال » بلغت ألف جنيه ويؤخذ من احصاء صدر سنة ١٩٠٠ أن في الولايات المتحدة ١٨٢٢٦ جريدة ومجلة بلغ مجموع ما يطبع من اعدادها من كل نسخة ١١٤ر٢٩٩ر٣٣٤ ومجموع ما تطبعه في السنة ٨ر١٦٨ر١٤٨ر٧٤٩ وبلغ مجموع ايرادات تلك السنة ٨٧٨:٩٤٨.٢٥٠ فرنكا منها ٤٧٩.٣٠٥ فرنكا من اجرة الاعلانات أى ٥٤.٥ في المئة من مجموع دخلها وتطبع بعض الجرائد نسخاً خاصة بنشر الاعلانات فقط وتوزعها على مشتركيها ومن الجرائد ما يطبع غير الاعلانات وتوزع مجاناً : ويصرف أحد بيوت الثياب في فيلادلفيا نصف مليون فرنك في السنة أجرة صفحة واحدة من احدى الجرائد الكبرى في تلك المدينة اسمها لوكورد ويصرف مخزن آخر يريد منافسته مليون فرنك على أربع جرائد . ومن كتاب الاعلانات من يرزق ألف ليرة في السنة

ومن الاعلان الغريب أن بعض التجار ليس لهم بيوت ولا مخازن بل هم يطبعون اعلانات وينشرونها في قوائم خاصة وعلى صفحات الصحف والكتب والرسائل فيرسل الطالبون بالبريد يطلبون منهم ما يشاؤون من بضائع ومأكولات وهم يرسلونها إليهم بالبريد أيضاً وهذه الطريقة اخترعت في الولايات المتحدة لان ثلاثة أرباع سكانها يعيشون في القرى والمزارع بعيدين عن مراكز التجارة

وأشغالهم لا تسمح لهم بالاختلاف إلى المدن لا بتبائع ما يشاؤون وبهذه الوسطة يوفرون عليهم عناء التعب والمساومة ويصلهم ما يشتهون وهم في أعمالهم وناهيك بما في هذه الطريقة من تبادل الثقة بين التاجر والشارى وفي شيكاغو وحدها تباع مثل هذه المحال التجارية في السنة بما قيمته ملياران وخمسمائة مليون فرنك وأن ثلاثة محال منها لتأخذ وحدها كل يوم خمسة وعشرين ألف رسالة في طلب ما يلزم أصحابها . وقد حسبوا أن عشرة ملايين أي ثمن أهالى الولايات المتحدة يتعاونون حاجياتهم على هذه الكيفية

وان لأحد هذه المحال التجارية في شيكاغو زبناً يبالغون مليوني نسمة يتناول منهم في السنة أربعة ملايين رسالة وهذه الرسائل لا تفتح واحدة واحدة بل تجعل كل ستين منها في آلة تفتح كلها بلحظة ثم ترسل الى مئات من البنات تجعل كل قسم مع قسمه وكل طاب مع ما يضارعه وتجعل في لواب كهربائية لا تقل عن خمسة عشر ألف لوب وترسل في أسرع ما يمكن الى البيوت التي تقدم للمحل طلباته وهي لا تقل عن ٧٧ ألف نوع فتأتى كلها على جناح البرق بحيث يكون العمل ما أمكن مستغنياً عن الايدى الكثيرة على أن محلاً واحداً من هذه المحال التجارية التي تباع بالمراسلة عنده من المستخدمين ٦٢٠٠ مستخدم ولم يكن صاحبه قبل ربع قرن يملك ليرة واحدة وثروته تعد اليوم بملايين الليرات والناس يطلبون الى محله والى غيره من المحال التي على شاكلته كل ما يخطر ببالهم ومنهم من يطلبون أو يطلبن الزواج بواسطته

وعلى الجملة فانك لا ترى في ديار الغرب محلاً تجارياً أو معملاً أو مشتغلاً بالفنون الجميلة بل ولا عالماً ولا كاتباً ولا صانعاً إلا وينفق جزءاً من ماله على الاعلانات ليربح المئتين مئتين والاعلان يد طولى في عامة الاعمال الصناعية والزراعية والعلمية ولولاه ما رأينا المخازن الكبرى والمعامل الكبرى والجرائد الكبرى فعسى أن يقتدي الشرق بأخيه الغرب في هذا السبيل فيعلن خصوصاً عن أصقاعه الجميلة لجذب السياح اليها ويربح منهم مئات الألوف من الليرات كما فعلت سويسرا

واغتنت بعد فقرها بكثرة تشويق العالم الى زيارة ربوعها وكما فعلت فرنسا وايطاليا والمانيا وغيرها من أصقاع أوربا وأميركا مثل مدينة دالاس في ولاية التكساس في الولايات المتحدة فان أهلها كانوا سنة ١٨٨٠ عشرة آلاف نسمة فازمع بعضهم أن يؤسسوا نادياً سموه نادي المئة والخمسين ألفاً أى مدينتهم ستكون سنة ١٩١٠ مئة وخمسين ألف نسمة وما برحوا يتذرعون إلى ذلك بكل حيلة حتى بلغ عددهم سنة ١٩٠٤ ٨٣ ألفاً وتوصلوا الى أن قال الرئيس روزفلت في خطاب له أن شمالى التكساس هو حديقة الرب ومدينة دالاس تطالب وبحق لها ذلك أن تكون نقطة دائرة هذه الحديقة

نعم إن الاعلان أساس من أسس الثروة اليوم بل هو سبب من الاسباب المعقولة المشروعة وآثره في الاعلان عن الاشخاص ظاهر وكما من نابه اشتهر بتحدث الناس في أمره ومن آخر خمل ذكره لانه لم يعرف كيف يتوصل إلى الشهرة فعاش ومات ولم يدربه أحد فاللهم اجعل الشرقيين من النابهين بحق لا الخاملين المجهولين

دور التمثيل والانسى والاجتماع في باريس

٣٠

ان ما شهدته من التمثيل العربي المنحط جداً في الديار المصرية والشامية زهدنى في التمثيل على أنواعه فصرت لا أختلف الى دار تمثيل الا متكارها وذلك في المدة الطويلة لقلة غنائها وانقطاع الرغبة فيه وأعلل ذلك بأن التمثيل لم يعمه العرب أيام حضارتهم بل لم يكن لهم ما يشبهه في قرطبة ولا في بغداد ولا في دمشق ولا في القاهرة أيام عزتها ولذلك قلما مال أبناء العرب اليه ميل الغربيين له وقدروا مزاياء حق قدرها .

ولما حلت باريز كان من أوائل المسائل التي توخيت دراستها حالة التمثيل في الغرب والسفر في توفراً أهله عليه وخدمتهم له كما يخدم الشعر والموسيقى والخطابة بل جعلوا هذه الفنون خادمة للتمثيل ، وأصبح عندهم من ضروريات الحياة كالطعام والشراب لا حياة بدونهما وكذلك التمثيل لا حياة روحية بدون الاختلاف الى دوره ولو مرة في الشهر ان لم يكن مرة أو مرتين في الأسبوع .

والتمثيل في باريز من أعظم ملاهيها وقل ان تجتمع لعاصمة ما اجتمع لها من ضروبه ولشدة عناية الحكومة به تنفق من مالها كل سنة أربعة دور تمثيل مبالغاً تستعين به على تحسين حالها فتمنح الاوبرا ثمانمائة ألف فرنك والتياترو والفرنسوية ٢٤٠ ألف فرنك مع الدار وتعطى الاوبرا كوميك ٣٠٠ ألف وناطلي الاوديون ١٠٠ ألف فرنك وفي باريز ٥٣ دار تمثيل كبرى ذهبت الى أشهرها مثل الاوبرا والتياترو والفرنسوية والاوديون والشاتليه وساره برنارد والفودفيل وغيرها

وكنت كلما ألفت اصطلاحاتهم في أحاديثهم وحركاتهم وسكناتهم ومظاهرهم ورقصهم وغناهم يتبين لي سر تغالى الغربيين بالتمثيل وانه حقيقة مدرسة تهذيب وفضيلة عملية ودار سلوى وارتياح أرواح فلا عجب اذا عدوه من أكبر العوامل في نهوضهم ونشقيف مجتمعاتهم . وشغفوا بفضوله ولا شغف الشرق بفضوله وحرص الفرد منهم على ساعاته حرصه على عزيز أوقاته

أما دور التمثيل فهي قصور نخمة هندسوها على ضخامتها بحيث لا يحرم الحضور على اختلاف درجاتهم من سماع ما يقال على مسارحها ورؤية ما يمرض فيها من المشاهد والمناظر . وكفى بأن دار الاوبرا كلف بناؤها ثلاثين مليون فرنك وذرعها أحد عشر ألف متر ، وأقل دار تمثيل تساوى عشرات الألوف وبعضها مئات الألوف من الليرات وان مما يبهج جوق الموسيقى في الاوبرا وقد حزرته بمائتي شخص وجوق الممثلات والراقصات والممثلين على المسرح وما أظن جهرته تقل عن خمسمائة .

واذا عرفت أن الاوبرا تدفع لأحد ممثليها ٢٢٠٠ فرنك كل ليلة أى ١٢٨

ألفاً عن ٦٤ ليلة في السنة وتدفع لغيره من الممثلين رواتب تختلف بين ٨٥ ألفاً الى ٣٠ ألفاً ، وعن كل ليلة يعنى فيها كاروزو عشرة آلاف فرنك وتتناول بعض الممثلات أربعة آلاف فرنك في الشهر جاز لنا أن نستقل اعانة الحكومة للاوبرا ونحكم على كثرة دخلها وخرجها

ولقد كنت أتمثل تقسى في حضرة أعظم فصحاء الأرض وعلماء الاجتماع والنفس ساعة تنتهي الى مسمعى أصوات الممثلين والممثلات . وتنفتق ألسنتهم بكلمات الحكمة والادب . ويشخصون الفضيلة في أبهى مظاهرها كأنك تراها فلا أتمالك من توقيير الممثلين والممثلات واكبار فائدة التمثيل المدارس لنشئة الصغار في وقت معين من السن ودور التمثيل مدارس دائمة للصغار والكبار تلقنهم من أيسر السبل حكمة وآدابا وتلقنهم عبرة مفيدة وفكاهة رشيدة

حضرت رواية « مثل الاوراق » في الاوديون ورواية « الباريكاد » لبول بورجه في النودفيل ورواية « جان دارك » في تياترو ساره برنارد . ورواية الجندي الصغير في الشاتليه فكان يحيل لي وأنا أسمع وأرى أن الامر واقعي . وأن هذه المشاهد حدث الآن وقد اجتمع جمال الصوت الى جمال الوجوه الى جمال الكلام الى جمال الهدام الى جمال المكان الى جمال المظار . وأقل هذا مما يستهوي النفس فلا تدري أي شيء يرى ولا أي فائدة نهي

وما أظن أكبر متنطع لو حضر التمثيل في مثل هذه الدور العظمي يستطيع أن يعيب شيئاً مما يشهد . وأي عين لا تقع على ساره برنارد أشهر ممثلة فرسوية وهي في الخامسة والسنين من عمرها تمثل دور جان دارك وهي في التاسعة عشرة فتظهر كأنها هي بصوتها وحركتها ونضرة وجهها ولا ترتاح وتعجب وأي أذن تسمع الحكمة في رواية الباريكاد يقولها أحد الممثلين بصوت رخيم « ان الطابقات الاجتماعية كالامم يضيع حقها في حفظ ما لم تقو على الدفاع عنه » ولا يفكر طويلا .

ولقد رأيت في دور التمثيل حتى ما يوصم منها بأن فيه شيئاً من الخلاعة مثل

« مولن روج » أن الأدب يغلب على السامعين والناظرين . وأن قاعات الاسراحة بين الفصول ليسير فيها الخرد العين كاسيات عاريات معطرات متبرجات ولا ترى الا من يفض الطرف حياء وأدبا . والغالب أن النساء يلبسن لليالى التمثيل أجمل نياهن وازيائهن كأنهن فى بيوتهن وبين صويحباتهن وأصحابهن ، وقلمنا تراهن فى الشوارع الا مكتسيات من اللباس بما خف محمله وقل ثمنه

أما سائر أماكن الطرب كحبال السماع والموسيقى والمراقص العامة . فكثيرة جدا فى باريز وأحسنها ما كان على جوانب الجواد العظمى أو بالقرب منها ويكون فيها المرء بحسب مبلغه من التهذيب ، وموسيقى الاقرنج وعزفهم وزفهم يستحسنها الشرقى مع طول الالفة لها والالسة بها . ومن لم يعرف عندهم ولو أحد هذه الأنواع الثلاثة استغربوا أمره وعدوه محروما من لذائذ الدنيا ساقطاً من رسوم الهيئة الاجتماعية ، ولكل قوم عاداته وأخلاقه يحرص عليها كثيراً ولا يرى فيها حرجا ولا تنكيراً سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

من باريز الى الاستانة

٣١

قضيت شهرين اثنين فى هذه العاصمة طقت المعاهد ورأيت المشاهد وعرفت العامل الجاهد وتبينت العالم المجاهد وطعمت الجشب والشهى من الطعام ووصلت السير بالسرى وعمل الاليل بعمل النهار ، ورأيت العملة فى حاناتهم ومطاعمهم وواكلت الاغنياء فى مقاصفهم وشاركتهم فى نعيمهم واختلطت بطبقاتهم أسمع عباراتهم ولم أستنكف من غشيان كل مكان أرجع منه بفائدة مستظلماً طلع خلق جاريا من الاختبار فيه على عرق فكانت عيني تمل النظر وأذنى تسام السماع

وذهني يتأفف من التفكير وقاى يتخوف كثرة الوعى . ومع ما صرفته من الوقت والقوة خرجت من هذه المدينة وفي النفس منها أشياء لم أتمكن من درس معالمها ومجاهلها ولا سيما أماكن الرياضات البدنية واللعب على اختلاف ضروبه وزيارة مجارى العاصمة تحت الأرض وسراديبها والاعتبار بقبورها ومدافنها وهى مزينة كقصور الاحياء ومقطعة الى طرق ومناطق .

وفي يوم بدأ نهر السين بفيضانه المتثوم الذى طغى على السدود والسكرور فدكها وبثقها وأودى بالاموال الجسيمة من ناطق وصامت ركبت القطار وقت الظهر الى الحدود الالمانية فكان نهر الموز والمارن هائجين حتى طغت مياههما على السهول والاوودية ولم يصل القطار الى نانسى على الحدود . ويبلغ ستاسبورغ فى أرض الألمان وقاعدة الالزاس الا وقد انقابت تلك الأمطار ثلوجا وذاك الهدير سكوناً . ولون تلك المياه الكدرة بلون الثلج الأبيض الناصع وبلغنا مونبخ عاصمة مملكة بافيرا الالمانية صباح الغد : فوقف القطار زهاء ساعتين فرأيت أن لأضيع الفرصة فأخذت أطوف المدينة ولكن كانت الثلوج غمرتها فلم أر منها الا واجهات الابنية ورؤوسها وهنا تمثل لى النقص وأحسست بالعجز وشعرت بالغربة وأنا التفت عن يمينى وشمالى فلا أسمع الا الالمانية التى لا أعرف منها أكثر مما أعرف من الكردية وقد تركت بعض رفاق لى فى القطار ومنهم بولونيون يتكلمون بالفرنسية تعليب نفسي بمحادثتهم ومفاكهتهم حتى اذا عدت آخذ مكانى من القطار اجتاز بنا بعد قليل فى أرض النمسا وهكذا حتى وصلنا مساء اليوم الثانى الى فيينا عاصمة النمسا .

وعلى ذكر اللغة لا بأس بأن أقول أننى يوم دخلت فرنسا لم أشهد وحشة ولم أشعر بغربة لمعرفتى بلسان أهلها واطلاعى على تاريخهم وعاداتهم فكنت كأنى داخل ولاية من الولايات العثمانية التركية أو قطراً من الاقطار العربية فى غربى آسيا أو شمالى أفريقية ولما انتقلت من ستراسبورغ شعرت بتغير العادات واللهجات وأيقنت بأن الغريب الذى يزور بلداً لا يعرف لغة أهله كالاصم والاعمى وهذا

ماعافى فى الاكثر عن زيارة انكلترا والمانيا خلال هذه الرحلة مع شغفى بحضارة هاتين الامتين لانى استصعب أن أرى غيرى بعيون غير عيني وآذان غير أذنى قضيت فى فينا يومين استرحت فيهما من وعشاء السفر واطلعت على بعض معاهدها الا أن الثلوج التى بلغت نحو ذراع عاقنى عن اتمام الزيارة فركبت ثالث يوم بعد الظهر القطار قاصداً بلاد المجر فاجتزنا عاصمتها بودابست فى الليل ووقف القطار فيها ساعة لم أتمكن فى خلالها حتى ولا من رؤية المحطة وعدنا الى قطارنا حتى نخطينا من الغد أرض الامبراطورية الى أرض البلقان ولم يكد القطار يجتاز نهر الطونة حتى تمثل أمام خيالى تاريخ هذه البلاد ، وبيننا كنت أذكر وقائع العثمانيين فى سلسترا والبروج المعروفة ببرج العرب ، وأذكر تلك الدماء العريزة التى أهرقت على ضفاف الطونة لفتح هذه البلاد ركبت معنا من أول محطة فى بلاد الصرب فتنازل صربيتان فى الخامسة عشرة من عمرهما عليهما سياء الحشمة والأدب فسألت الرفيعة رفيقها أن تغنى شيئاً فالتفتت اليها . وكان معنا رفيق بلغارى يعرف التركية فاسنأذن فى ذلك فقلت له لا بأس فاندفعت الفناة تغنى نغمة على ايقاع غريب فاصت له نفسى بالدموع خصوصاً وقد جاءها الغناء وهى تفكر فيما أصابها فى هذه الديار من الشقاء . فعجب رفيقى البلغارى وقال لعلك فهمت هذا النشيد الوطنى الصربى فلت لم أفهم ، وانما تأثرت من النغمة ومن أمور أخرى فسألنى ما هى فلم يسعنى الا أن بحث له بذات نفسى . ولما ذكرت له كيف تقدموا هم وتأخرنا من بلاد هواؤها عثمانى وسماؤها عثمانى . وأكثر عاداتها عثمانية عذرنى على شعورى بما فيه من فضل أدب .

ووقف القطار ساعتين فى باغراد عاصمة الصرب فاغتذمت الوقت لزيارتها وهى نظيفة لطيفة صغيرة حرة بأن تكون قاعدة لتلك المملكة التى يقطعها القطار طولا بأقل من عشر ساعات وزرت من الغد صوفيا عاصمة بلغاريا وهى أجمل وأضخم منظمة على مثال المدن الاوربية ويغلب الادب أهلها وكثير منهم يعرفون التركية . وقد وقفنا عليها نحو ست ساعات تمكنت أثناءها من درس معالمها

وحداتها ومتنزهاتها وبعض قصورها وهي أقرب الى أن تكون مدينة شرقية منها الى أن تكون مدينة غربية ويقال انها ترقى سنة عن سنة ارتقاء يحسدها عليه حتى الاوريون الراقون وعجبت لما سمعت بعض الالفاظ التركية يستعملونها مع اللغة البلغارية حتى الآن كأنهم تركوها عضوا أثريا يذكرهم بأيام حكم الأتراك عليهم .

وعند الظهر سار بنا القطار يقطع بلاد البلغار ووصلنا إلى جسر مصطفى باشا في ولاية أدرنه أول النخوم العثمانية عند العشاء وهناك جاءنا رجال شرطتنا يدمدمون ويبرقون ويرعدون يحكمون على هذا بالجزاء المقدى ويعفون عن ذلك ويطلبون من هذا جوازا ومن الثانى أن نبشوا صوانه وهميانه ومن الثالث أن يفتشوا صندوقه ويراقبوا كتبه والخلاصة تغيرت معنا الحال من الاعلى إلى الادنى حتى بلغنا بلادنا فرأينا الانحطاط بادنا عاينا في كل شىء وادارتها هي تلك الادارة الاستبدادية بعينها لم يعدل الدستور من شدتها ومازلنا على ذلك حتى بلغنا صباح الغد الاسنانة عاصمة سلطنتنا العثمانية

عاصمة السلطنة العثمانية

٣٣

صقع جميل . وسواحل بدیعة . ومناظر رائعة ، وسماء صافية ، ورفاهية مفرطة . وأنس دائم ، فمن المضيق الى الخليج ، الى جزر البحر . الى متنزهات منقطعة القرين : الى غابات ملتفة ، وجبال مكسوة . وعيون خراطة . وكل ذلك بهجة النفس والخطار وهذه هي الاستانة وأحيائها وضاحتها
أما عمرانها فصورة مكبرة من عمران الولايات لانظام ولا شوارع منظمة ولا طرق معبدة ولا راحة للراكب والساير ولا للمقيم والنازل وغاية ما فيها

من مصانع وآثار قصور السلاطين والجوامع الكبيرة الزاهية التي أنشأوها منذ عهد محمد الفاتح إلى يومنا هذا وبعض ثكن ومدارس عالية حديثة لا شأن لها من حيث فن البناء

والاستانة من حيث قوتها المادية ضعيفة ضئيلة ، نصف أهلها أتراك يبلغون نحو ستمائة ألف والنصف الآخر أروام وأرمن وأكراد وأرناؤد وعرب وغيرهم من العناصر العثمانية ويغلب على الأتراك الاتكال لانهم مازالوا حتى بعد الحرية يعتقدون من أنفسهم الغناء والسؤدد . أكثر من بقية العناصر ويتوهمون أنهم العنصر الحاكم ولذلك قلما ترى بينهم تاجرا معتبرا أو زارعا كبيرا أو ماليا دراكة يعيشون كلهم إلا المرتزقة والباعة عالة على الامة لا يعرفون غير تقلد الوظائف الادارية والعامية والقامية والمسكرية

فالاستانة من هذه الوجهة مدينة الاتكال الجسم يعيش أهلها كالخامة الطفيلية على عنق الولايات ، ولكم خربت ولاية أو لواء أو قضاء ليعمر بها احدهم مصيفا له على ضفاف الخليج أو في جزيرة الامراء ويقتنى من الجوارى والسرارى والعبيد بقدر ما تطيب له نفسه .

ولا اهل الاستانة فضل أدب ولين جانب عرفوا به منذ القديم فترى الواحد منهم يعاملناك باقصى اللطف والظرف حتى يرضيك وفي باطنه على الاغلب يسر لك غير ذلك وهذا الخلق عام في عمال النظارات والادارات الكبرى ولولا ذلك ما انصرفت وجوه أرباب الاشغال من سكان الولايات الى الاستانة يقصدونها لكشف ظلامه ونيل رتبة ومرتبة وراتب .

صرفت في هذه العاصمة عشرين يوما قابلت في خلالها كثيرا من أهل العلم والسياسة وكنت اتكأه في الاختلاف إلى المعاهد والناس إذ سئمت نفسي كل ذلك بعد باريز التي رأيت فيها من كل شيء أحسنه ومن العالم أرقاهم ولطالما اسودت عاصمة بلادى في عيني ووددت على الاقل لو كتب لى ان ازورها قبل الرحيل الى الغرب وامتناع النظر والحواس بحضارته البهجة حتى لا ارى

الانحطاط بعد الرقى ولا الظلام بعد النور .

ومن جملة المعاهد التي هي جملة مقصدي وغاية مناي من زيارة الاستانة مجلسنا النيابي زرتة خمس مرات وأعضاؤه نحو مائتين وخمسين نائباً من جميع عناصر الدولة وأصقاعها تجدد فيهم ذا العمامة البيضاء والخضراء كما تشهد فيهم لابس الكوفية والعقال وثلاثة أرباعهم من لابسى الطرابيش ولقد سمعت من أرباب العمام مناقشات راقية لم أكد أسمعها الا من النواب الذين صرفوا شطراً من أعمارهم في أوربا يتعلمون ويتمرنون ويدير حركة المجلس من النواب اليوم نحو عشر أعضائه شأن مجالس العالم كلها فان أرباب العقول الراقية والمضاء الكبير قلائل في كل طائفة . خصوصاً ومجلسنا مابرح طفلاً ويرجى أن يكون في الانتخابات المقبلة أرقى مما هو الآن

رأيت النظام قليلاً في المجلس يبدأ قبل الظهر بالمظن في قانون كذا وبعد الظهر يتناقش في غيره قبل أن يكمله ومن الغد يتناقش في مسألة أخرى وينسى القانون أو اللائحة الاولى وذلك لانهم وسدوا رئاسته لرئيس اشهر بخدمته الحرية والشهرة قد تكذب . وكم وسدوا النظارات في هذا العهد الدستوري الجديد الى أناس اشتهروا بعلومهم وعقلهم في الدور السالف حتى اذا جاء الآن دور العمل ابانوا عن ضعف في المدارك وخور في العزائم وبضاعة مزجاة من العلم والعمل ونفس شريرة تعد قتل عنصر من العناصر قتلاً معنوياً لغاية بعيدة الحصول أسهل من تناول الكاس أو السلام على الناس

وكل أولياء الامر اذا حدثتهم في نقصنا والسعى لاصلاحنا شاركونك في حديثك وربما تظاهروا باكثر من غيرتك وحملوا أشد من حملتك فاذا أتت نوبتهم ليعملوا تراهم يقرون القديم على قدمه ان لم نقل يزيدون الحال أعضالا واشكالا . فهم فلاسفة قول لاعملة عمل وجريذتهم في أساليب لهم يتقنونها لا في ظلامه يرفعونها وولاية يرقونها واصلاح يدخلونه .

ولا اغالى اذا قلت ان عمال الاستانة الآن صورة من صور العهد الحميدى

الا انهم يدعون الحرية وهم مضطرون الى الاسراع بمصالح العباد باقل مراوغة ومطاولة مما كانوا عليه في العهد الماضي أما الاصلاح الحقيقي فافلن من سيقومون به لهذه البلاد العزيزة لم يخلقوا بعد ونحن نكتفى من الحاليين أن يحتفظوا فقط بالحالة الحاضرة ريثما يتخرج جيل جديد يربى على أدب النفس وأدب الدرس وينشأ بعيداً عن أخلاق الحكومة الاستبدادية المطلقة التي غرست مبادئها الساقطة في القلب والاعم والدم والعظم

المتحف السلطاني^(١)

٣٣

دخلنا هذه الدائرة الفخمة من بابها الغربي الكائن بجوار نظارة العدلية ومررنا أمام دار الضرب العامرة وبعدها دخلنا من باب آخر ينتهي إلى ساحة كبيرة بنى على أطرافها رواق ذو قباب أشبه بينيان السكاياء ثم دخلنا من باب ثالث فاستقبلنا بهو كبير يسمونه غرفة العرض كان يجلس فيه الوزراء والامراء للمذاكرة والمشاورة وفي صدره مصطبة كبيرة يصعد إليها من درجة واحدة كان يجلس فيها السلطان متوارياً عن الاعين

ثم خرجنا من هذه الغرفة وصعدنا الى قصر شامخ يصعد إليه بسلم من رخام جدرانها مزينة بالفيشاني بناء السلطان مراد الرابع بعد رجوعه من بغداد على طرز قصر هرون الرشيد وسماه (قصر بغداد) وهو قصر مبني على الطرز الشرقي بشكل مئمن منتظم تحيط به من الخارج ردهة ضخمة ذات منافذ تطل على الخنادق والبحيرات وتشرف على بحر مرمرية وقسم من البوسفور وأحياء

(١) لم تيسر لنا زيارة هذا المتحف فمهدنا الى صديقنا شاكرك بك المتبلى أن يرويه عنا فكتب لنا هذا الفصل في وصفه فعل وأما أشكره لفضله وعنايته .

القسطنطينية وضواحيها وبجانب هذا القصر دائرة (الخرقه الشريفة) وفيها الرداء النبوى وبقية المخلفات والآثار النبوية

وخرجنا بعدئذ من هذا القصر ودخلنا قصر آخر فيه غرفة كبيرة طولها نحو عشرين ذراعاً وعرضها نحو ثلاثة عشر ذراعاً يقال انها من بناء السلطان مصطفى الرابع ، وفي الجهة القبالية من هذا القصر قصر آخر بناه السلطان عبد المجيد . ويسمونه (سلطان مجيد كوشكى) مبنى على الطرز الايطالى وهذا القصر أجمل قصر رأيناه هناك ومما يجدر بالذكر فى هذا القصر صفاء بلور النوافذ حتى أنك تظن النافذة مفتوحة لابلور فيها لشدة صفائه وعلى جانب هذا القصر حجرة صغيرة بناها السلطان عبد المجيد لتبديل لباسه قبل دخوله دائرة الخرقه الشريفة ثم انتهينا إلى دائرة المتحف السلطاني وهي بيت القصيد فى هذه الزيارة وهنا لا يمالك الانسان من الدهشة عند ما يشاهد تلك الآثار النفيسة والمصنوعات الثمينة المادرة التى لا تقدر لها قيمة لقيمتها التاريخية دخلنا هذه الدائرة وهي مؤلفة من ثلاث غرف تحتية وثلاث أخرى فوقية وأول شيء وقع نظرنا عليه تحت كسرى الذى غنمه السلطان سايم الاول من الشاه اسماعيل الصفوى فى حرب (جالديران) الشهيرة وقد نصب فى وسط المتحف يوحى إلى الرأى بعظمة الدولة العثمانية ومجدها السالف ويصور للناظر السلطان سايم الاول بمنطياً جواده مستلاً سيفه يقود جيشه الباسل إلى بلاد الاكاسرة ويشتبك مع صاحب العجم فى حرب عوان فيهزم جيشه ويستولى على عرشه وخزائنه

هذا التخت على هيئة مستديرة قائم على أربعة أعمدة يصعد إليه بدرجة واحدة وكله مرصع بالياقوت والزمرد مما يبهى الناظر

شاهدنا فى هذا المتحف سيف قسطنطين بالثوغوس آخر قياصرة الروم وهو سيف مرصع بالماس أخذ من جملة الغنائم يوم فتح القسطنطينية . وشاهدنا مهد السلطان محمود الثانى وهو على شكل السرر التى تصنع فى دمشق من الخشب

مرصعة بالصدف وهذا مرصع بالاحجار الكريمة . وفي المتحف ثلاث قطع من الزمرد الاولى بقدر جوزة الهند وزنها ثمانمائة درهم والثانية على شكل مستطيل وزنها ستمائة درهم والثالثة بينهما في القطع والوزن وهناك أوان من النجف بعضها مرصع وبدون ترصيع وساعات وأوان من العاج وبواطى من الصينى ودروع وطبرات ومنافى وبنادق قديمة مرصعة مما لا يكاد يحصى وخواتم من الماس بعضها فضة بقدر الجوزة . وإلى جانبها دُويّ قديمة ذهبية وقاقم ومحاريب وسبحات ومراوح مرصعة وفي جملة هذه المراوح ثلاث تعد من نوادر المصنوعات الواحدة قبضتها مرصعة بالماس والاخرى مرصعة بالياقوت والماس فى وسطها ياقوتة بقدر الجوزة والثالثة مرصعة بالاحجار الكريمة وعليها رسم الكرة الارضية

ومما امتعنا به النظر صورة شخص طوله عشرة سنتيمترات صدره وبطنه لؤلؤة واحدة ورجلاه فيروزتان وبالقرب منه صندوق وعليه فيل من الذهب مرصع بالاحجار الثمينة ، رأينا أغطية مناضد من الاطلس والديباج بعضها مرصع باللؤلؤ فقط والبعض الآخر مرصع باللؤلؤ والزمرد والياقوت بنقش بديع يأخذ بالعقول وهنا قلب من الماس حجرته الوسطى بقدر البيضة ويقال ان هذه الحجرة هى رابع حجرة فى الدنيا من حيث الحجم والوزن وقد امتعنا الطرف برسم السلطان عبدالعزيز مجسما معمولا من النحاس الاصفر ممتطيا جواده بقطعة كبيرة طبيعية وآخرين صغيرين ورأينا رسم اسكندر الثاني قيصر الروس ورسم غليوم الاول عاهل الالمان ومما رأيناه ثلاث آلات للمنظومة الشمسية مصنوعة من النحاس الاصفر تدور فيها الارض والسيارات حول الشمس بحركة دولا ب يدار باليد كل ذلك بل أكثره موضوع فى خزائن من البلور لا تمسه الايدى رأينا مسميات لانعرف أسماءها مما يحار لها العقل ويدهش لها الفكر وانى لنا باين المعتر يقف فى هذه الخزينة ويصف ما فيها من الحلى والحلل والجواهر الثمينة والمصنوعات الفاخرة النادرة بمنظومات تحكي ترصيع الجواهر المكنوزة فى هذا الكنز الكبير ليس شئ أصعب على الكاتب من أن يرى أشياء لم يألّف مشاهدتها ولا يعرف لها

اسماً فهو اذا أراد وصفها عصته الالفاظ وضافت به التعابير . رأينا في هذا المتحف شيئاً كثيراً كله من النادر الغريب الذي لا يوجد الا في خزائن الملوك ولو أردنا أن نصف كل ما رأيناه لطلال بنا البحث واحتجنا الى سفر كبير ولكن نكتفي بذكر الآثار التاريخية الثمينة بالنظر لما لها من المسكنة العلمية والقيمة الادبية .

فن ذلك درع مرصعة بالماس والياقوت مع سيف مرصع أيضاً مكتوب عليهما هذه العبارة « هذه الدرع غنمها السلطان مراد الرابع لما فتح بغداد في اليوم الثامن عشر لسنة ألف وثمانى وأربعين هجرية » وتحت معمول من الباغا مرصع بالفيروز والزمرد وهو تحت السلطان أحمد الثالث كان يجلس عليه يوم عرفة وفي وسطه فراش من الاطلس . مرصع باللاتى بنقوش لطيفة يصعد اليه بثلاث درجات صغيرة وخزانة من الكهرباء الملون المعرق اهدتها فيكتوريا ملكة الانكليز للسلطان عبد العزيز ومكتب (قمصل) كبير مرصع بالماس والياقوت وسائر الاحجار الكريمة اهدتها كاترينة قيصرية الروس للوزير الاعظم محمد باشا البلطه في يوم وقعة (بيروت) الشهيرة وهذا المكتب من أثمن ما شاهدناه في هذه الخزانة لما فيه من الاحجار الكريمة وحلل ملوك بني عثمان وعمائمهم موضوعة كلها على قوالب مخصوصة على شكل انسان بالهيئة التي كانت عليها ومكتوب على كل منها اسم صاحبها وسيف السلطان الغوري عزيز مصر وخاتم السلطان عبد العزيز الذي نزع من أصبعه يوم استشهادة ، ووسامات مختلفة أهداها ملوك أوروبا للسلطين العثمانيين وغير ذلك من الآثار البديعة التاريخية .

وفي الجملة فان هذه الخزانة هي أعظم خزانة على وجه الأرض لانها جمعت بين خزائن الأكاسرة وخزائن القياصرة وملوك الاسلام وكانت في الدور القديم تجمع فيها الأموال الزائدة عن نفقات الدولة وتدخر لاوقات الحروب ، وتسمى (أيج خزانة) أى الخزانة الداخلية يروى أن السلطان مصطفى الثالث كان جمع فيها مبالغ طائلة صرفها كلها في الحرب الروسية ويقدر ما صرفه في ذلك الوقت

بأثنى عشر مليون ليرة على حساب هذا الزمان .
أما بناء الدائرة فليس من الابنية الفخمة المزينة بل هو بسيط جداً على
طرز التكايا وليس فيه ما يستحق الذكر سوى ما ذكرناه آنفاً من القصور الحديثة
التي بناها ملوك بني عثمان بعد الفتح وإنما هي تمتاز بجمال موقعها وحسن مناظرها
ومكانتها التاريخية فالواقف في فنائها أو في أحد قصورها يمتع طرفه بتلك المناظر
البهيجة ويسرح فكره في غابرها وحاضرها ويهتز طرباً وتتجلى له عظمة آل عثمان
وسلطانهم ، ويرى الفاتح يسوق أسطوله على اليابسة على صورة لم يسبق لها
نظير ، ويفتح القسطنطينية ويملك قصر القياصرة وخزائنها كما افتتح أجداده
بلاد الأكرسرة وقوضوا عروشهم ويكون نعم الأمير الذي امتدحه الرسول
وجيشه نعم الجيش .

وفي الحقيقة أن هذا البناء اللطيف من أجل ما يتصوره الفكر ، وألطف
ما تشعر به النفوس فهو يحتاج الى قريحة شاعر مطبوع أو قلم كاتب مجيد يصف
ما تشعر به النفس من المعاني الشعرية في جانب هذه المناظر البهيجة والآثار
التاريخية ، هذا ولا يسعى هنا إلا أن أثني الثناء الطيب على ناظر المتحف حافظ
محمد رفيق بك لما أبداه من المجاملة والملاطفة في زيارتنا هذه ، كما أتى أشكر
للأستاذ الزهراوي وعبد العزيز افندي قولهم لي عنايتهم في هذه الزيارة التي هي
من أتمن الزيارات التاريخية .

المتحف العثماني^(١)

٣٤

ليس بين معاهد الاستانة وقصورها معهد توفرت فيه شروط التجديد ،

(١) اعتمدنا على كتاب « موزة هليون عثماني به مخصوص منها أثر وحيد »

ودخلته الروح الغربية مثل المتحف العثماني فهو المعهد الوحيد الذي قلدنا فيه الأوربيين وأحسننا التقليد يستفيد به زائره تاريخ الصناعة ، ولا غرو فقد ضم عادات الأم القديمة كالرومانيين واليونانيين والفينيقيين والأشوريين والبابليين والمصريين والحثيين والبيزنطيين المتأخرين من نواويس وتمثيل واوان وآثار حجرية وخزفية وبلورية ، وكلها شاهدة على الدهر بما كانت عليه حضارات الشعوب التي انقرضت فأصبحت بلادها من جملة ولايات هذه السلطنة العثمانية أيد الله أركانها .

ومن أجل ما يشاهد فيه مسلتان عثروا على الأولى في صا.سون والأخرى في ازنيق واسد وجد في هاليكارناس (قصبة بودروم) ويرد تاريخه الى أربعة قرون ق . م وبجانبه ناووس روماني استخرج من دراج في ولاية إشقودرة ومن ألطف عادات هذه الدار النواويس التي عثر عليها في صيداء وهي عبارة عن ستة وعشرين ناووساً ادعى بعضهم أن أحدها هو ناووس اسكندر المقدوني لأن الاسكندر توفي في العراق وجيء به الى سورية على ان روايات المؤرخين مختلفة في مدفنه . ومن النواويس ناووس دفن فيه تابنيت ابن اشمونازار ملك صيداء وعليه كتابة بالخط الفينيقي ، وناووس الاسكندر من أغرب ما نقش النقاشون تحسداً عليه وعلى كثير من الآثار الموضوعات في قاعات متحفنا أهل العادات والآثار ويبدلون لنا لو أردنا في الحصول عليها مئات الألوف من النصار ونواويس المتحف البريطاني واللوفر ليست بأعظم منها .

ومن عادات المتحف ناووس معروف باسم « صدراب » أحد ولاية فارس فيه رسوم الصيد والقنص والحرب واللعب والسباق ووضيمة جنازة . ومنه يستدل على ما وصلت اليه هذه الصناعة من تلوين الرخام في ايونيا في الساحل الغربي من بلاد الاناضول من الارتقاء في القرن الخامس ق . م وهناك تمثال عماني عشرة امرأة من أعجب ما نقش النقاشون جعلن على أشكال متنوعة بعضهن قائمات وبعضهن قاعدات وهن يذرفن دموع الحزن واللهفة ، وبالقرب منهن ١٩

قطعة من نواويس رومانية عثر عليها في جبل لبنان وحمص وبيروت .
ومن النواويس البديعة ناووس اسمه ناووس ليكيا أى البلاد المعروفة اليوم
بسواحل اضاالية من أعمال قونية وهو رومى الصنعة محلى الأسلوب ، وعلى
مقربة منه تمثالان من الخزف المنقوش لأبى الهول عثر عليهما في مدينة اورله
أو ميناء قلازوم من أزمير

قلنا ان الناووس المعروف بناووس الاسكندر هو من أبدع ما صنعت
الأبدى ، ولذلك زاره ألوف من علماء أوربا وأميركا يعجبون بصنعه : وفيه
كثير من الرسوم والخطوط النفيسة الملونة ومن الصور المزبورة ، عابها وقائع
الاسكندر المشهورة ، ومن كتاباته ما كتب بالخط الهيروغليفى المصرى : ومنها
بالخط الفينيقى .

ومن الرسوم الموجودة في ناحية قريبة ما يرجح انه رسم الحرب التى نشبت
بين الاسكندر فى ايسوس أو اربيل وبين دارا ملك الفرس سنة ٣٣٣ ق.م
ومما يقع نظرك عليه فى القاعة الرابعة بعض عاديات حيثية مثل اسود وجدت
في زنجيرلى وقصورها وتمثال يمثل أحد ملوك الحيثيين وقاعدة تمثالين لأبى الهول
وتمثال من الحجر الاسود اسمه « أسد مرعش » كتبت عليه كتابات حيثية وهو
أشهر أثر عثر عليه من آثار هذه الأمة حتى الآن

والحيثيون أمم مختلفة كانت فى القرن الخامس عشر قبل المسيح تنزل فى جبال
الأكراد فى سورية وقبادوكيا وقسم عظيم من بلاد الأناضول حتى مجرى نهر
قزل ايرمق وكديز وأصولهم كثيرة متباينة بل ان البلاد التى كانوا مستولين عليها
هى كما يقول المحققون فى شمالى سورية أى فى المنطقة الممتدة من فرع الفرات
الأكبر الى جبال طوروس ، وقد أنشأوا على الفرات قلعة قارغاميش المعروفة
الآن بجرابلس وأخذوا يهددون مدينة نينوى القديمة (الموصل) الى أواخر
القرن الثامن ق . م وبلغوا منتهى مجدهم بين القرن العاشر والثامن ق . م وقد
استولى على هذه القلعة صاراغون ملك اشور سنة ٧١٢ وباستيلائه عليها عي

اسم الحِيثيين من عالم الوجود على أن تاريخ هذه الأمة مع ما بلغت من الحضارة بين الأمم القديمة لم يؤثر عنها بالذات شئ يدل على عظمتها لأن خطها لم ينحل حتى الآن ويرجى أن يكتشف كما اكتشف الخط المصري القديم بواسطة حجر وجد في رشيد كتب بالخط المصري مترجماً الى اليونانية

ومن العاديات المهمة في المتحف الاوانى الزجاجية والخزفية وأحسن الزجاج ماجاء من سورية وقد كتب على كل قطعة منها اسم البلد الذى عثر فيه عليها . ومعلوم أن تاريخ وجود الزجاج قديم يتعذر معرفته وهناك قطع من الفسيفساء عثروا عليها فى استانكوى أو جزيرة كوس من جزائر البحر الرومى ويرد تاريخها الى الدور اليونانى وآثار معبد اشمرن فى صيداء من آثار الفينيقيين الخزفية وآثار سوكة وآياتلوغ ونامورد من أعمال أزمير وغيرها من بلاد الاناضول وأكثرها يونانى . وفي قاعة أخرى أوان وجدت بالقرب من صور وويج فى ولاية مناستر فى بعض المدافن وأوان فى ليندوس (رودس) وغيرها يرد تاريخها إلى أدوار مختلفة يونانية ورومانية ومنها ما عثر عليه فى لابسكى من أعمال كليبولى

ومن الآثار المهمة فى القاعة الحادية عشرة عاديات أرض فلسطين ومنها ما عثروا عليه فى جوار القدس ويرجع تاريخه إلى القرن الثامن ق م وما عثر عليه فى بحيرة حمص فى الجزيرة التى حفر فيها من القدور والاسرجة وقد اعتبروا القسم الاعظم منها من عهد الزمن النحاسى . وفيه قطعتان من المرمر وجدتاهما بالقرب من المسجد الاقصى وعليهما كتابات بالرومية تحظر على الغرباء أن يتخطوا معبد سليمان والا فيعاقبون بالموت . وهناك حجر كلسى عثروا عليه فى القدس مكتوب عليه كتابة فينيقية وفيه ذكر جر الماء تحت الارض فى قناة حفرت فى الصخور من نبع جيحون الى سور القدس حتى تصل إلى نبع عين سلوان وينسبونه الى الملك حزقيا أحد من ورد ذكرهم فى سفر الملوك من التوراة وليست العاديات المصرية كثيرة فى المتحف ومنها صور أبي الهول وفى

ثلاث قاعات الآثار الكلدانية والبابلية والاشورية وأكثرها ألواح وأوان وأكواب وعظام كتبت بالخط المسماري .

ومنها ناووس من الخزف يرد إلى عهد بابل أي إلى نحو ٦٠٠ سنة ق . م ومنها مسلة من الحجر من مخلفات نابونيد ملك بابل كسرها سنخريب في وقائعه مع السيتيين . ومن العاديات ما وقع في خرابة نيفر في الشمال الشرقي من الديوانية من أعمال بغداد ومنها ما وجد في تلو من أعمال البصرة ومنها ما عثروا عليه في سبارا أو ابى الحبة من أعمال الجزيرة

وقد خصوا القاعة السابعة عشرة بالآثار التدمرية والحيرية ومن الآثار التدمرية ما يستدل منه على أن صنعها من بدائع صنائعهم وإن كانت تشبه الصناعات اليونانية لأن مملكة تدمر وإن كانت يهودية لم يبق فيها أثر لهم لأن الاشوريين قرضوا عمرانها ثم ارتقت على عهد أورليانوس أوائل ظهور النصرانية ودخلت في حوزة المملكة اليونانية على عهد الاسكندر واستعملت اللغة الرومية ولا سيما في الرسميات وإن كانت لغتها الارامية أو السريانية ؛ أما الآثار الحيرية فهي آثار أهل سبأ ومعين في الجوف وعاصمة سبأ مأرب وأهل معين كانوا نازلين في قصبة العلى في جوار مدائن صالح ومملكة حمير اليمنية انما نشأت بعد هلاك مدينة سبأ ومعين واستدلوا من ذلك على أن الخط الحيرى يشبه الفينيقي ولكن دخله قلب وابدال كثير

ومن العاديات آثار قبرص منها تمثالان للمعبودين هر كول وآفرو ديت وأوان خزفية ونذور ، ومنها حلى اشورية وفينيقية وحلى وجواهر واقراط وأساور وقلائد وجدت في مدينة ترواده أي في محل اسمه الآن حصارلق من أعمال لواء بيغا شمالي جون أدرميد وكان اسمه في القديم ايدا وهو بين جبل قار وهلسبون أي بين جناق قلعة وبحر الارخبيل وكانت هذه عاصمة قديمة مشهورة ومنها ما وجدوه في ترال من أزمير وليبة من طرابلس الغرب وبرقة وغيرها في طرسوس وآخر في برغمة وفي نابلس

هذه جملة أشرنا بها الى ما حواه المتحف وله قسم آخر اسلامي جعلوه في قصر الصيفي أمام البناء الجديد كما قسمت مصر عادياتها إلى متحفين متحف الآثار المصرية واليونانية القديمة والمتحف العربي . وقصر الصيبي هذا مما أمر بإنشائه السلطان محمد الفاتح ولكن لم يبق عليه من آثار ايامه الا أثر ضئيل جداً مثل الآثار التي يحويها وبعض عاديات وأكثرها من قرون الانحطاط أي القرون الخمسة الأخيرة ومنها بعض الصيبي الذي كان يعمل في دمشق ورووس وأزنيق وكوتاهية وبعض الكاشاني المكتب بالكوفي ومنها ما عثر عليه في مصر وقونية ودمشق وبورصة وكان يعمل فيها كما نعمل الطنافس البديعة في معامل دمشق وتوقاد واصفهان وغيرها

ومن عاديات قصر الصيبي درفنان من صنع قره مان وقونية ومنها دكات وقائم وطنافس ومصاييح وخطوط صدرت عن بعض الملوك العثمانيين ومنبر من صنع الزها (أورفة) وأوان خزفية وجدت في الرقة من أعمال حلب وجلود كتب من صنع مهرة المجلدين من العرب والفرس والترك واصوثة وخزائن وبعض آثار حجرية يقال أنها أموية عثر عليها في القدس وبعض نفوش حيوانات رسمت على الزجاج من الادوار التركمانية والارتقية وملوك بني آرتق من ممالك ملكشاه ابن ألب ارسلان السلجوقي حكموا جهات ماردين وديار بكر وحلب الى سنة ٨١١ هـ وانقرضت دولتهم بعد حكم ٣٣٤ سنة الى غير ذلك من العاديات والآثار ومما عرضه عود طرب أو طنبورة وهي من صنع عصور الظلمة أيضاً

وبالجملة فان العاديات القديمة التي جعلت في البناء الجديد كلها حسنة ومفيدة لو لم يكن الكسر والاحتطيم يغاب عاينها لما قاسنه من أهوا بل الدهر أما العاديات التركية والعربية الأخيرة فتأفة على الأكثر . وفي الاستانة محل قرب جامع السلطان أحمد عرضه فيه صور الانكشارية مجسمة من الجبس صنع النساء وهم يلبسون البستهم المعروفة وجالسون على مراتبهم وعاداتهم لا بأس بزيارتها لما فيها من الفائدة التاريخية

خطابنا^(١) في التربية الاوربية

٣٥

سادتي الاخوان الاعزة :

أوعز الى أعضاء هذا المنتدى الكريم أن أحدثكم بما رأيتم في رحلتى الاخيرة إلى أوربا فلم تسعنى مخالفتهم لان الطلاب أعزة وتبادل الافكار معهم من أشرف المطالب ولكن الموضوع كبير لا يتسع وقتى الآن للاحاطة باطرافه كله ولا أوقات الحضور الكرام إلى وعيه وسماعه ولذلك اقتصر منه في هذه الليلة على الاشارة إلى طرف مما تأثرت به نفسى في درس معالم الحضارة الاوربية في أماكنها واستطلاع طلعتها بالعمل بعد الاشتغال بدراستها بالنظر مدة . ولذا استميج عفوكم اذا لحظتم في أقوالى شيئاً مما لم يعتد بكم سماعه فأنا أقص عليكم شعورى ولا حرج على الشاعرين كما لا حرج على الشعراء

أول ما يقع عليه نظر الداخل الى أرض أوربية ذاك الانتظام الغريب فى مرافق الحياة ومظاهر القوة فيسقط لاول وهلة على نموذج صالح من استبحار العمران هناك بل يتجسم فى عينه وذهنه ما سمعت اليه ولا تزال تسعى تلك الامم الراقية من الاخذ بأسباب الراحة والبسطة من طريق التكامل العلمى والنشوء الاجتماعى والعملى

ولا يزال هذا النموذج من العمران يعظم فى نظر السائح كلما طاف المعاهد وزار المشاهد وجال فى القرى والديساكر والخواضر والقواعد . وكل فرع من فروع هذا الارتقاء العجيب يحتاج الناظر فى وصفه إلى مجلد برأسه حتى يتجلى للسامع بعض التجلى وما راء كمن سمعا

(١) القيناء فى المنتدى الادبى فى الاستانة وهو مجمع الناشئة العربية من طلاب المدارس العالية

ماذا أذكر لكم أيها الاخوان من حال أوروبا ومدنية الغرب الراقية التي بلغها بقوة العقل وتطبيق العلم على العمل ؟ أحدثكم بصناعاتها التي تبهر النفس ؟ أو باتساع متاجرها التي لا يحصيها العد ؟ أو بارتقاء زراعتها التي تنادى بلسان حالها ومقالها بأنه لم يبق بعد ما بلغته غاية : أم اذكر لكم حال المجامع العلمية والسياسية والجمعيات الاجتماعية والنقابات التجارية والصناعية أم المدارس الجامعة والكلية والثانوية والابتدائية أم المتاحف والمعارض والمكاتب والمجالس والمصارف ودور التمثيل ومحال الطرب والانس ؟

كل هذه المشاهد كنت اختلف إليها في أوقاتها واجتمع برجال العلم والادب والسياسة منذ الصباح الى ما بعد منتصف الليل وتقسى تتأثر بتغير المشاهد بحيث تملك على مشاعري فلا استطيع التفريق في الحسنات كأني ابتليت بداء الاستحسان لا تقع عيني على شيء ولا تسمع أذني بشيء ولا يتصور ذهني أقل شيء الا واخذ به جملة وتفرق النفس في استحسانه وتحار في وصفه ولقد كنت عازمة ان ادون في مفكرتي ما يعرض لي من المظاهر والمناظر ويتردد في صدري من الافكار والخواطر واحضره من المحاضرات والخطب والدروس النوادر ولما كثرت على الموضوعات كل القلم من التقييد وقلت إنك يا هذا تكتفي متى عدت لتحدث قومك بما رأيته من تسجيل ما يعلق في ذهنك وبعضه مما فيه الغناء والكفاية

نعم تركت التقييد على خلاف عادتي فصديق في قول الشاعر

تكاثر الطباء على خرائض فما يدري خرائض ما يصيد

لولا أن اليأس من أعظم الامراض في الافراد والجماعات لطاوعت النفس وقنطت من نهضة هذا الشرق لمجاعة الغرب ولولا انني اعتقد بأن النجاح مقدور لكل مخلوق يعمل وأن الاجسام تتكون من الذرات وان من الجزئيات تنشأ الكليات لسجلت بأن قيام الشرق العثماني وهو على نهضته المتشاقلة البطيئة التي نشهدها أمر متعذر الا بعد قرون ان كتبت له الحياة

ولكن امامى مثال الدولة اليابانية مماكة الشمس المشرقة رأيتها جارت أكبر الدول الأوربية في ثلاثين سنة وفاقت من كانت تعمل منذ ثلثمائة سنة من الدول الغربية فبلغت درجة عالية من الحضارة .

نعم أن اليأس يجب أن لا يتطرق إلينا : وان كنا ويا للأسف تحت وصاية الغرب اليوم في كل شأن من شؤون حياتنا السياسية والاجتماعية والعلمية والتجارية يصرفون علينا كل ما يريدون من ضروب المعارف ويربحون بعقولهم منا أنواع الأرباح والمكاسب ويستثمرون شرقنا بكل ما لديهم من ذرائع العلوم والفنون ونحن معهم باهتون شاخصون شأن عبد مع سيده أوجاهل مع عالم

حضرت دروساً كثيرة في الكوليج دى فرانس وهي المدرسة العظمى التي تضم في صدرها زهاء أربعين عالماً من كبار علماء فرنسا يقرأ كل واحد منهم درسين اثنين في كل أسبوع في العلم الذي أخصى فيه وتقرده به طول عمره وتكون دروسهم عامة يحضرها كل من أراد فتدل على كرم الفرنسيين في العلم وحضرت دروساً في مدارس أخرى ووفقت الى سماع خطب ومحاضرات كثيرة فلم أر في أكثرها الا تعصباً على الشرق وغمطاً لحقوقه .

أذكر لكم على سبيل المثال محاضرتين دعيت إليهما لتعاموا منهما مقدار ما يعده الغرب للشرق وبلغ حكم أبنائه عليا ولكم بعدها أن تقيسوا حاضرهم بحاضرنا وغابرهم بغابرنا واتضحكون بعدها أو تبكون .

فالمحاضرة الأولى كانت في قاعة السوربون الكبرى أي كلية باريز . وهي المكان الذي جرت العادة أن يكون معهد العاملين للعلم من الفرنسيين فأقامت جمعية آسيا الفرنسية والجمعية الجغرافية حفلة للاحتفاء بأعضاء بعثة بليو الى التركستان الصينية وكنشو بحضور جماعة من أعضاء المجمع الفرنسي ولم يكن الحضور أقل من ألف وخمسمائة مستمع ومستمعة والمسيو بايو هو في الثامنة والعشرين من عمره طلق اللسان آية في البيان وهو أستاذ اللغة الصينية في المدرسة الفرنسية في الشرق الأقصى ، شرح في محاضرتة ملاقاه في رحلته التي بدأت

في ١٥ حزيران سنة ١٩٠٦ وانتهت في الصيف الماضي وأتى على ما وفق اليه من الاكتشافات الأثرية والكتابية وغيرها في آسيا الوسطى مما حفظ لفرنسا شهرتها القديمة في البحث عن الآثار وقال ان التعصب انتشر هناك بانتشار الاسلام في القرن الحادى عشر للمسيح فكان من ذلك التعصب ان آتى على الآثار بجملتها وقد قرع الشرقيين عامة والمسلمين منهم خاصة أنواع التقرير ، أما رحلته فهي كسائر الرحلات العامة التي يرحلها الغربيون الى آسيا وأفريقية فيكونون مقدمة الفتح والاستعمار وقديما كان الشاعر يقول « السيف أصدق انباء من الكتب » فاذا أرادت أمة أن تفتح بلد أخرى ترسل اليها السيوف والبنادق ثم تمهد البلاد بالمعارف أما اليوم فيرسل الغرب رجال العلم يرتادون البلاد أولا . ثم يرسلون مدافعهم وبنادقهم وآلات تدميرهم والأمثلة على ذلك كثيرة .

وقد ادعى بليو صاحب البعثة . والغالب انه على حق فيما ادعاه أن ما وفق الى جلبه من الآثار قد أغنى مكتبة الأمة في باريس بألوف من المخطوطات الصينية ومنها شيء في تاريخ الصين كما أغنى متحف الاوفر الشهير بتماثيل ورسوم ونقوش فأصبحت باريس بذلك عاصمة الدروس الصينية في أوروبا ويحق لها أن تفاخر بأن مجموعة ما عندها الآن من الآثار الصينية ليس لها مثيل في الغرب حتى ولا في الصين نفسها قال وغاية البعثة في التركستان الصينية : ولا سيما في مقاطعات . قاشار وارومشى البحث عن بقايا التمدن البوذي الذي سبق التمدن الاسلامى الى هناك ، وانه رأى جميع أهل التركستان من أهل الاسلام ، واذ كان دينهم يحرم التماثيل والصور لم يظفر بكثير منها في الأماكن المطروقة اذ كانت تعبت بها أيدي المتعصبين منهم .

وقال انه رأى لسوء الحظ أن قد سبقه الى ارتياد تلك الأصقاع أناس من الألمان والانكليز واليابان والروس للغاية نفسها ولكنه وفق الى أن اكتشف بين قاشار وكوتشار في نصف الطريق في طومشونك تمثالاً بوذياً صغيراً بين الصناعة اليونانية والبوذية حرى بأن يكون صلة بين الصناعة الشرقية القديمة

والغربية وظفر في قاشار تحت أنقاض أحد المعابد في طبقة كثيفة بمخطوطات هندية فأحرز ثلثها بواسطة راهب انقطع في تلك المغاور ووصف تلك البقاع ؛ لا شجر فيها ولا عشب مع انك تمشى فيها ألوفاً من السكيلومترات اللهم الا في بعض الواحات ، وأكثر تلك الاصقاع جبال شامخة ومنحدرات كثيرة ورمال محرقة فكانت الحرارة في الصيف تصل الى الأربعين درجة ، وفي الشتاء الى الخمس والثلاثين تحت الصفر حتى كان الخبر يجمد في أبدى أعضاء البعثة متى أرادوا أن يقيدوا آثار بعثتهم وقد أخذ أحد أعضاء البعثة صورة طوبوغرافية من خط هذه الرحلة وفوائد فلكية في عدة نقاط وآب بمجموعة من الحشرات والحيوانات تغنى المتحف الطبيعي وبصور كثيرة عرضت بالفانوس السحري على الحضور تلك الليلة حتى لكانهم ذهبوا بأنفسهم الى تلك الأصقاع النائية

هذه المحاضرة الأولى التي تكهرب بها جسمي وتأثرت عواطفى وسمعت بها مهانة أمتى بأذنى . والمحاضرة الثانية ألقاها المسيو تارديو من كبار السياسيين الفرنسيين وصاحب المقالات الافتتاحية في جريدة الطان في الدولة العثمانية فهو أول اخصائي في سياسة الشرق ، ولا سيما دولتنا يقلب القلم بين أصبعه كما تشاء حكومته . حضرت خطبة له في مدرسة اللغات الشرقية الحية : ألقاها على طلبة تلك المدرسة العالية ممن يتخرجون الآن ليذهبوا الى الشرق فيما بعد لخدمة حكومتهم ويكون منهم التراجمة والقناصل والسفراء ببيان لم أسمع من العرب ولا من العجم أبلغ منه لم يتمم ولم يعطس ولم يكرر ، وقلما رأيت انساناً درس موضوعه وأعد له المواد التاريخية والمستندات أكثر من ذلك ولكن سياسة المصالح والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال كلام الخطيب فكان عجبى بتحامله على هذه الدولة أكثر من عجبى بذلاقة لسانه ، فقد تكلم على علاقة فرنسا بالشرق ولا سيما بالدولة العلية منذ القديم فقال ان فرنسا صاحبة الفكر الاول في الحروب الصليبية قد أنف علىها زمن حلفت فيه الدولة العلية ايام قوتها لتستخدمها لاغراضها وقد جنى الفرنسي ثمار هذا الوفاق ثم لما مضت سنون والدولة لم ترخيراً لها

من تلك المحالفة نزع يدها من يد حليفها ثم عادت فرنسا فبعثت بأبنائها الى القريم ليحاربوا مع الانكليز والعثمانيين جيوش الروس ، لأن مصلحتها اقتضت ذلك اذ ذاك وأفاض في نشأة الامتيازات الأجنبية في البلاد المصرية والعثمانية ، وقال ان فرنسا في كل دور من أدوارها استخدمت الدولة العلية لمقاصدها وأن لها اليد الطولى في المسألة الشرقية أى استقلال بلاد البلقان واليونان . وانها لا تقصر كل حين في بتر عضو من اعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفتى فيا اخوانى وياسادنى اسمع عثمانى هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تذوب كمدأ وحسرة وتسود الدنيا في عينيه ؟

هذا بعض ما يعده الغرب للشرق فماذا يعد الشرق للغرب ؟
نحن يا قوم لا نحفظ كيانتنا ولا نحفظ بلغتنا وديننا وآدابنا الا اذا قاتلنا من يريدون قتلنا بالسيف الذى يقاتلوننا به ، وأعنى به سيف العلم ، نحن يقضى علينا ان نأخذ من تلك المدينة الغريبة التى تدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا نأخذ عن رجال العلم منهم ونحتك بهم زمناً لاستفيد ونعرف الطرق التى يجب علينا سلوكها .

رأيت الدولة بعد انقلابنا الأخير بعثت بزمرة من الطلبة العثمانيين ليدرسوا في مدارس أوروبا ولا سيما في مدارس باريز فقدرت عددهم قليلا جدا بالنسبة لمجموع هذه الامة . وانى لا خجل ان أقول لكم أن عدد الطلبة البلغاريين في روسيا والمانيا والنمسا وفرنسا والبلجيك وانكلترا أكثر من عدد الطلبة العثمانيين واياكم أن نظنوا ان جميع طلبة الاجانب تبعث بهم حكوماتهم ليدرسوا على نفقتها بل ان لهم الافراد شأناً عظيماً في هذا الباب وكثيراً ما ينفق الطالب من مال أبيه عن سعة حتى لا يتم دروسه الا وقد أتى على آخر فلس مما عنده وهو مغتبط بما صنع لانه أحرز رأس مال كبير لا يقدر بالملايين والككرات وعاد وهو يعرف كيف يخدم أمتة وبلاده

نحن مقصرون كل القصور في ارسال ابنائنا إلى ديار الغرب يلتقطون درر

العلوم من بحار كليانها ومدارسها والعرب في هذا المعنى أكثر العثمانيين قصورا
ولقد أحصيت جميع من يدرسون من أبناء سورية في أوروبا على نفقة الحكومة
أو على نفقاتهم فلم أقدر أن أوصلهم إلى ثلاثين مائلاً أكثرهم يدرسون على نفقاتهم
فليت شعري أليس هذا العدد بقليل على قطر يناهز سكانه الثلاثة ملايين هذا
من سورية أرى البلاد العربية وما أضل أحداً من أبناء العراق والحيرة
والحجاز واليمن وشراس وبقرة وغيرها من الأقاليم العربية يدرس في مدارس
أوروبا ويكون هؤلاء ثلاثون مائلاً خمسة عشر مائلاً من العرب العثمانيين يصيب
كل مليون نسمة مائتان وما أعظم ذلك من قصور وتفكير

نعم هو قصور ليس وراءه وراء وحمودهم كاد يصدق به علينا حكم الغريب
وانى لأرجو أن لا نكون اقوالنا أكثر من أفعالنا فان الكلام لا أثر له بقدر
الفعل ، نريد معاشر العرب أن نجارى الأمم الراقية بل سائر العناصر من اخواننا
العثمانيين ولا نجاربهم على الأقل في مضمار التعلم ؛

نتناهى بالوطنية ونسب حفظ اللغة العربية ونحن أبناءها الذين نعقها ولا
نتعلمها . أليس مما يزعج أن يخاطب العربي أباه وامه واحاه وصديقه بغير لغته
الأصلية ؛ يعمل ذلك ليعلم أن على توقف غير لغته بل لأنه لا يعرف أن يتكلم
ويكتب بلسان أبيه وامه وقد يكون في الأكثر ممن يفرض عليهم فرض عين
تعلمها ليفهم بها كتابه وشريعته

انا ان كنت عربياً واحب العرب واريد نهوضهم ايتيسر لي كل ما اريد
اذا لم احاط بهم واخطبهم واكتب لهم بلغتهم التى يفهمونها ، انا ان كنت اريد
الاطلاع على مجد آبائى واجدادى أتمكن من ذلك بدون دراسة ما خلفوه من
آثارهم وهل يتيسر لى هذا الا بالغة التى كتبوا بها ؛ اقول هذا وانا آسف كل
الاسف على قصور العرب عن تعلم لغتهم قصوراً لا أبالى اذا قلت ان فيه
العار والشنار

يزهد سلالة العرب الا كرم في لغتهم ويتعلمها المستشرقون اكثر من

علماء العرب أنفسهم ؟ ايزهد العربي ان العشرين في العربية ويتعلمها رجل اعجمي في الستين من عمره . واعنى به الكنت دى سارديج الفرنسوى ، هذا الرجل من اهل الطبقة العالية فى غناه كان والده سفيرا فى طهران عن الملك لويز فيليب ملك فرنسا وقد كان هو موظفاً فى السفارات وآخر وظيفة له رئاسة تراجمة سفارة فرنسا فى مدريد ثم اسنقال وهو يسكن فى العيف فى قصر له فى لوزان فى سويسرا وفى الشاء فى باريز وقد قام فى ذهنه منذ اشهر ان يدرس اللغة العربية للاطلاع على حضارة العرب ومدنياتهم الباهرة فاتخذ له استاذاً صديقنا ووطنينا ميشيل افندى ييطار وانتأ يتخرج به فقطع شوطاً فى التعلم واذ كانت الدواعى تعطره الى المقام فى قصره فى سويسرا اكثر من باريز وكان استاذاه لا يستطيع ان يلحق به الى سويسرا كتب اليه يلتمس منه التماس التلميذ من استاذاه ان يبعث اليه بدروس عشرين يوماً حتى لا يضيع وقته مدة مقامه فى سويسرا ويحرم من الاستفادة والتحصيل وذا آب الى العاصمة يعاود ما بدأ به

هذا الرجل على أبواب الشيخوخة وهو فى هذه السن يحاول أن يتعلم لغة شرقية لاعهد له بمعرفتها . أو أن يتعلم لغة القرآن ليدرس بها مدينة أهله وشبان العرب أنفسهم يترفعون عن أن يقصوا ولو بعض أوقات فراغهم فى إحكام لغتهم . هذا هو مثال صغير من أمثلة الهمم فى الشرق وأمثلتها فى الغرب فهل فيكم يا شباب المسنقبل وقرة عيون الإنسانية العربية من يمشى على أفدام الشيخ الفرنسوى حتى لا يجيئ عابنا وقت يضطر فيه أن نأخذ لغتنا بل ديننا عن أوروبا ونكون تحت وصايتها حتى فى أمس الامور بنا وأعلقها بقلوبنا ؟

كل ما نراه من همم الغربيين ومنااتهم هو محصول الكتاب والمدرسة فاتهم وأمثالكم شباب هذه الامة فى أيدي اقتداركم أن تجددوا لها شبابها إذا وضع كل منكم نصب عينه الذهاب الى الغرب وقضاء سنين فى الدرس والبحث ليرى بعينه ويحكم بنفسه على قصورنا عن الغربيين وفقرنا وغناهم وشقائنا

وسعادتهم ليعلم اننى لا اعالى فيما اوردته لكم بل اننى عاجز عن الوصف والتعريف ولا يقمن في اذهانكم ان الذهاب الى اوربا بعيد المنال وانه لا يتيسر الا لكبار الاغنياء . فالعيش في معظم البلاد الاوربية ارخص من الاستانة ومصر ودمشق وبيروت والمدارس رخيصة اجورها او لا يكاد يكون لها اجور . ومنها ما اجرة الطالب فيه مع الأكل والنوم والدرس ستون فرنكا في الشهر ومثل هذا القدر من المال لا يصعب على أحد فيما أحسب ان يعده او يستلفه على المستقبل مهما بلغ من ضيق ذات يده .

يا أبناء قومي ويا زهرات أمتي ! أليس من العار أن تكون بلادنا التي لا تعيش الا بالزراعة ولا تحيا الا بالزراعة ، خالية من عارفين بها على الأصول الحديثة فلا يكون الذين يتعلمون منا هذا الفن في أوربا سوى طالبين اثنين . احدهما في المدرسة الزراعية في لوفان من أعمال البلجيك وهو رفيق بك ييصون من بيروت والآخر في كرنيون من أعمال باريز في مدرسة كرنبون الزراعية واسمه مصطفى افندي الكيلاني من حماة . كلاهما من أبناء الاعيان . ولهما ارض ومزارع فنعمنا عملا بالاخصاص بهذا الفن الشريف المفيد ولكن أليس في ابناء سورية بل البلاد العربية أحد من ابناء الاعيان بملك اراضي وقرى غير هذين الشابين ؟ بلى ان المالكين كتار ولكن محبي الدرس قلائل ! هذا في فن الزراعة فمتى يقوم منا أناس لتعلم الكهرباء ومد الخطوط الحديدية والهندسة العملية والصناعات الحديدية واليدوية والتجارة ، وغير ذلك مما نحن فيه عيال على الأوربيين .

زرت مدرسة كرنيون الزراعية ، وهي على مسافة ساعة من باريز ، فرأيت شعارها مكتوبا بقلم غليظ في مكتبتها بما معناه : « الأرض هي الوطن ومن توفر على تحسينها يخدم وطنه » ولكن قومي غفر الله لي ولهم يحتقرون هذا الفن فيما أرى . فان كنا نختلف في البديهييات فمتى نتفق في غيرها ؟

زرت كرنيون ورأيت بها أن عبد القادر الكيلاني يلبس مشلح الزراع

ويدرس كما يدرس أبناء الاعيان في فرنسا ويجاريهم في ذكائه وأطلعني على مافي مدرسته من مناحف ومعارض واصطلاحات وحظائر لتربية الماشية . وحدائق لغرس النبات والبقول ، وغابات للزهوة والانفعا . وأدوات للعمل وحرث الأرض وكرثها .

رأيت كل هذا وأكبرته وقلت في نفسي لو حذا السوريون في الزراعة وتربية الماشية حذو الفرنسيين فيها وتربتهم تلائم تربتنا وأقاليمهم أشبه بأقاليمنا لا غتينا غنى يغنيانا عن الهجرة وتطلب الوظائف الاتكالية . فقد ذكروا لي أن خروفاً علفته ادارة المدرسة سنتين على الطريقة العامة فبيع في أحد المعارض بسبعين ليرة . فأين خرفاننا التي يباع الواحد منها بسبع ليرات مهما علفناها بجهدنا وبساطتنا وأطعمناها السمسم المقشر أو الشيح والقيصوم والعرار والعرعر .

ولكن الآمال معقودة بأن نعلف خرفاننا على طريقتهم ونستثمر تربتنا على أصولهم ونربي عقولنا على مناحيهم ونطبع دوايبنا وماشيتنا بحسب سنتهم فيكون اذ ذاك أبناء عبد القادر في التوفر على زكاء التربة في نفعهم لهذه الامة على مستوى جدهم الذي زكى النفوس في عصره ، وزكبة التربة لا تقل عن نزكية التربية والمال واحد .

مدرسة كرنيون الزراعية هي التي أوصي أبناء الاعيان وغيرهم الى التخرج فيها لتخصب بهم تربتنا بعد اجدايبها وتعلأ جوبنا بعد فراغها والمال مبدأ كل عمل و فاتحة كل ارتقاء مادي وأدبي

نحن لا نرقى الرقي المطلوب الا اذا تعلمنا العلم العملي وزهدنا قليلا في شغشة الألسن والمظريات المجردة . ومن جملة المدارس التي زرتها في فرنسا وتأثرت أيضاً بنظامها مدرسة جزيرة فرنسا في مقاطعة الواز ، زرتها بدعوة من صديقي مرسى افندي محمود أحد كتاب مصر فكانت زيارتها وزبارة مدرسة كرنيون من أسعد الايام التي قضيتها في أرض الفرنسيين واني أحب ان اقص عليكم قصة هذه المدرسة لنعرفوا الغرض منها فاقول : قام منذ عشر سنين في فرنسا رجل من رجال الصحافة اسمه اديمون ديمولانس ودرس طرق الحضارة والتعليم والتربية عند

الالمان والانكليز والاميركان وقابل بين طرائقهم واخلاقهم وعاداتهم وبين ما عند الفرنسيين منها ووضع لذلك الكتب وكتب المقالات وانشأ مجلة العلم الاجتماعى التى تدور على هذا الغرض ومن جملة كتبه سر تقدم الانكليز السكسونيين الذى نقل الى العربية فعمت فائدته العرب كما عممت الافرنج

وقد وفق ديمولانس صاحب تلك الدعوة بان النف حوله أنار من أرباب الغيرة على ارنقاء بلادهم والاهتمام بمستقبلها فكانوا يعطونه بالمئات لقيام الغرض الذى حاول بلوغه وتربية أبناء الفرنسيين على الطريقة الانكليز سكسونية العملية فأسست لذلك ثلاث مدارس كبرى عقب دعوته الاولى مدرسة روش أسست سنة ١٨٩٩ باسم جماعة من المساهمين وأخرى فى إقليم نور مانديا لجماعة من كبار الصناع منها وأخرى فى ليانكور أسست سنة ١٩٠١ وهى التى أريد أن أحدثكم عنها

ليانكور قرية سكانها نحو ثلاثة آلاف وستمئة وهى على نحو ساعة من باريز الى الشمال فى مقاطعة الواز وفيها مافى سائر بلاد فرنسا من أنواع المرافق والرفاهية والمعامل الكبرى الصناعية والزراعة الراقية الفنية بل فيها من دور التمثيل فقط ثلاث دور وفى قصر الدوك دى لاروشفوكولد فى أرض مساحتها مائتا هكتار أى نحو ثمانمائة فدان لم يبق منها إلا دائرة حشمه أما دائرة قصره فقد أنى عليها رجال التورة الاخيرة فدكوها وجعلوها عاليها سافلها وقد جعلت المدرسة فرسعت كل صفوفها ومرافقها ومما ملها .

فى هذه البقعة الجميلة الواسعة بل المزرعة الكبيرة والخانات الفخمة التى حوت الغابات والمروج والحدائق والغدران والآكام والسهول يتربى رجال المستقبل على الطريقة الانكليزية وفيهم الفرنسيون وأكثرهم من أبناء الباريزيين وعدد قليل من الاميركان والانكليز والبرتغاليين والاميركيين والمصريين . يعيشون فى هذا البيت كأنهم فى أسرة لافى مدرسة وقد رفعت عنهم أكثر القيود التى تقيد طلبة المدارس الداخلية واختصر منها على ما يحفظ به النظام والآداب من مثل الحظر على أحدهم أن يركض ويرفع صوته فى المدرسة أو فى

حجر الدروس وأن يلعب في الاماكن التي هي ممر لاختوانه وان لا يخرج من المدرسة ولا يركب في قارب الغدير بدون رخصة أولاً وأن لا يبتاع أى شى كان من المدينة بدون استئذان وان لا يدخل جرائد ولا كتباً إلا اذا وقع عليها المدير ولا يدخن وان يلبس ثياب اللعب عند ما يخرج من غرفة المائدة وقت الظهر ولا يركب دراجته الا يومى الخميس والاحد وأن لا يعبت بمباحوت حديقة المدرسة ومكبتها وان لا يتكلم بعد أن يطفأ النور في غرف النوم مساء ولا قبل أن يستيقظ رفاقه صباحاً وما عدا ذلك فهو حر أن يلعب اللعب الذي يختاره في الاوقات التي خصصت لذلك منذ الظاهر الى حوالى الساعة الرابعة بعده .

وكل هذه القيود لا تكبر على التلميذ لانه يعرف أنه لا بد منها لكل عائلة كبرى وما هذه المدرسة الا كذلك والمدرسة تقسم الى ثمانية صفوف أسسها الاستاذان الانكليزيان هوكنسن وسكوت ومديرها اليوم المسيو بللا وهو فرنسوى لان قانون فرنسا يحظر على الاجانب انشاء مدارس باسمائهم في البلاد ، وفي المدرسة نحو عشرين معلماً ومعلمة وناظرة ورئيسة المدرسة الآنسة بارى من اقرباء ادعمون ديمولانس صاحب الدعوة الى الاخذ بطريقة الانكليز السكسونيين فى التربية ومن أولئك المعلمين معلمان انكليزيان واتنان ألمانيان

ويقسم تلامذتها بحسب أسنانهم واستعدادهم ولا يخلط الكبار بالصغار الا فى بعض اوقات ساعات النهار وهذه المدرسة تعد التلامذة لنيل شهادة البكلوريا أو العالمية ولكن على غير الطريقة التي يحشى بها رأس التلميذ بالمواد النظرية وهو عن العلم العمل بمزلة . فالمدرسة تربي الارادة والعين والذوق واليد والجسم أكثر مما تربي الذهن والذاكرة

وأسماء الصفوف كصفوف سائر المدارس ويشترك جميع المعلمين فى التعليم ويلاحظون الدروس أيضاً ولا يراجعون التلامذة فيما تعلموه خارج الصفوف النظامية لان النهار يكفى لذلك ويتولى الاولاد بأنفسهم أمور لعبهم وحفظ النظام العام وسائر شؤون الحياة وربما لا تروق أكثر الاولاد هذه الطريقة خصوصاً

وأكثر من فيها من أبناء الاغنياء والامراء اعتادوا أن يخلقوا وحواليهم الخدم والحشم يتولون من أمورهم ما يتقاعسون هم عن عمله ويصعرون خادهم كبراً من القيام به .

ويقسم التلامذة بعد الصفوف والورق الى بيوت مختلفة وكل بيت يديره استاذ ويعهد الى النساء بالادارة البيتية والعناية بالمرضى وتعليم الموسيقى وتعليم الاحداث من الطابة وهن يعشن في المدرسة نفسها ، وعلى الطلبة أن يحضروا ثلاث جلسات في الاسبوع لتعلم لعب الكوكي والكريكة بنظارة أساتذة في هذه الالعاب . وفي المدرسة دار للتمثيل كما فيها ميدان للعب السيف ، ومحل لتعلم الرقص والموسيقى ومحال دروسهم أشبه بمكتب رجل منه بقمطر تلميذ لكل واحد منضدة عليها دواة وورق نشاف يتصرف فيها كما يشاء ويرى فيها الدروس التي يدرسها بطريقة عملية أكثر منها نظرية

فيتعلم مع العلم صناعة من الصناعات التي هي أحب الى قلبه كالزراعة والنجارة والحدادة والنصوير والتجليد وصنع المفوى والفخار والجلد وغيرها ، وذلك بنظارة أساتذة هذا الشأن يدلونه على الطرق التي يسلكها ولا يعملون معه بل يدلونه على عيوب عمله ويده وعينه هما اللتان تعملان ليعتمد بذلك على نفسه ، فإذا عاد الى أهله يستطيع أن يصنع بذاته عملاً من منزل ذلك ، فلا يكون فرق بين ما عمله في المدرسة ويعمله بعد الخروج منها ويتولى أكثر شؤونته كما فلنا بنفسه حتى يسهل عليه كل جهاد في حياته فان الرياضات التي يقومون بها في البستان والحقول والرحلات في الخلاء سواء كانوا مشاة أم ركباناً على الدراجات تزيد في قواهم وقابليتهم لرياضات البدنية ولا يقل النوم عندهم عن عشر ساعات للصغار الى تسع للكبار ليستريحوا من اتعب النهار

ونمتاز هذه المدرسة بأن يرحل تلامذتها بمراقبة اساتذتهم أو بمصهم الى البلاد المجاورة كالبايجيك وهولاندة أو غيرها من مقاطعات فرنسا البعيدة ليعنادوا الاستغناء عن الرفاهية ويحسنوا التخلص عند الحاجة من مشاكل

الاحوال التي كثيراً ما تصادف الانسان في حياته وذلك أيضاً ليحتملوا بسبب
وحسن خلق معاكسات الوقت ونكد الأيام وتوثق عرى المحبة بينهم ففي عيد
الفصح تنقسم المدرسة الى ثلاث فرق بحسب سن اللامذة المؤلفة منهم فتذهب
كل واحدة في وجهة خمسة أيام وكل من حسنت أخلاقه ودروسه يرحل به أيضاً
كل ثلاثة أشهر مرة أو مرتين يوماً أو بعض يوم الى مكان بعيد ، وللمدرسة
في الصيف شهران أيضاً عطلة فتكون عطلتها السنوية من حيث المجموع ثمانين
يوماً وتستوفي المدرسة أجرة من كل طالب الى سن الحادية عشرة ٢٥٠٠ فرنك
فاذا تجاوز هذه السن تأخذ منه ثلاثة آلاف يدخل في ذلك أكثر حاجاته ماعدا
بعض الدروس كالرقص والموسيقى والرسم فانه يدفع أجرتها على حدة ، وهو مبلغ
كثير بالنسبة لأهل بلادنا . ولكنه لا يستكثر في مدرسة مثل هذه تنفق
النفقات الطائلة على الاساتذة والعيشة والرحلات ويطبق فيها العلم على العمل وتربي
الحواس بالعمل أكثر من تربية الذاكرة

حدثني أحد أساتذة المدرسة قال كان فكر مؤسسها ديمولاس أن تكون
على الطريقة الانكليزية المحضة ولكن لم تمض مدة حتى انقابت أوضاع الدروس
والرياضات الى ما يشبه الاوضاع الفرنسية لان ما توهمه ديمولاس من انه يمكن
تطبيقه في بلاده قد غالى فيه كثيراً ولو كان حياً — مات منذ نحو سنتين —
لرجع عن كثير مما اعاه على قومه وعد عدمه نقصاً في تربيتها وسبباً في ضعفها ،
وهو قول حق سديد ، لان ما يوافق أمة لا يطبق بالحرف على أخرى وللعادة
والمحيط والتقاليد دخل كبير في أوضاع الامة على ان هذه النعمة قد أفادت فرنسا
وغيرها بلا شك واطلعت الشرق على ان التربية الفرنسية مع ما هي عليه من
الحسن هي في رقيها دون التربية الانكليزية السكسونية من وجوه . وان كانت
هذه دونها من وجوه ولعل بلادنا تسفيد من كل ذلك عبرة .

تقدم ان نلامذة مدرسة ليانكور هم من الفرنسيين وخليط من البرتغاليين
والاميركان والانكليز والمصريين وهكذا شأن معظم المدارس في فرنسا ولا سيما

كلياتها الجامعة فلا يتعلم فيها الطلبة من الذكور فقط بل يتعلم فيها الطالبات من الاناث واني لا أذكر اني حضرت خطبة أو درساً أو مجلساً علمياً . ولا زرت متحفاً ولا مطبعة ولا ادارة جريدة الا ورأيت الفتيات سبقنني الى تلك الامكنة ومعظمهن روسيات وانكليزيات وألمانيات وبلقانيات وبولونيات والبولونيات^(١) أكثر الفتيات الاجنبيات في فرنسا واكثرهن عناية بتعلم اللغات الاجنبية حتى ان الواحدة منهن لتكلمك فلا تحسبها لا فرنسوية لكثرة اتقانها للغة الفرنسية واجادتها النطق بها مما لا يكاد يتيسر مثله لغربية ولا لغريب عن اللغة وهن مع هذا أكثر النساء الاوربيات تفانياً في احكام ملكة لفهن وحرصاً على آدابها وتلقيها .

ولقد كانت المرأة البولونية تعلم أولادها لغتهم في الغابات والحقول عند ما كانت الحكومة الروسية تحظر عليهم الى قبل بضع سنين تعلم لغتهم لنجعلهم روساً مع الزمن فلما دالت دولة الجهل ونال البولونيون كسائر العناصر السلافية بعض حريتهم عقيب انشاء مجلس النواب كان من البولونيين ان فتحوا في شهر واحد في البلاد التي وقعت منذ قرن ونصف تحت سلطة الروس زهاء أربعة

(١) شارك النساء الرجال في أوروبا في كل عمل من أعمال الحياة وفي فرنسا شاركن الرجال في الامور الدهنية أيضاً وثلاث ما ينشر في فرنسا من الكتب هو من أقلام الكاتبات والشاعرات وكثيرات منهن يكتبن ويحددن كالرجال مثل مارسل تيار مؤلفة كتاب دار الحطيشة والكونس دي نوايل والعقيلة دي ريه امرأة الشاعر المشهور وهي شاعرة مثله ومريم هاري صاحبة كتاب فتح البيت المقدس وعشرات أمثالهن من المشهورات . والمنافسة الادبية بين الجنسيتين الشديطة والطيف على آتيا في فرنسا حتى قال لي أحد كتائهم انه سيحيى يوم على فرنسا لا يبق لكاتبها وجه للمعاش الا أن يطيروا في مناطيد الهواء فقط وما عدا ذلك فالدناء يتولينه بدلنا . ولعل من يسبح في أوروبا بعد عشرين سنة يشاهد ما لم نشهده الان من الارتقاء المادي والادبي فقد ساح الشيخ رفاعة الطهطاوي في منتصف القرن الماضي ولم يكن من مرسلينا الى باريس سكة حديدية بل كانت فيها حافلة بالدواب فاغتبط بها رأي وساح احمد زكي باشا في أوائل هذا القرن مركب القطارات في أوروبا جماء . وسجننا نحن اليوم فرأينا ما لم يكن يعهد من السيارات الهوائية والمؤامات في العلوم والصناعات الادبية فماذا يشهد أولادنا وأحفادنا بعد ما ياترى ؟

آلاف مدرسة يعلمون فيها العلوم العالية والدروس المنوعة بلغتهم ولم ينقصهم
أساتذة ولا أعوزهم بالطبع التلامذة

فالمرأة البولونية وان عنت بتعلم اللغات الاجنبية عنها تحتفظ بلغتها
وطنتها احتفاظاً أسأل الله أن يرزقنا نحن بعضه حتى انما اذا تزوجت من أجنبي
لا تلبث أن تصبغ أولادها بصبغها بحيث اضطر بسمر ك أن يسن في عهده قانوناً
يحظر فيه على الضباط الالمان أن يتزوجوا من البولونيات اذ ثبت له أن الوطنية
الالمانية كادت تضعف ويعروها الانحلال في القسم الذي أصاب مملكة بروسيا
من ارث صاحب بولونيا

فياليت شعري متى يكون نساؤنا بل رجالنا في هذه المنزلة من صحة الوطنية
مع الحرص على الجامعة العثمانية التي هي عدتنا في شدتنا وبدون هذه الجامعة
السياسية لا يرجى لنا بقاء بعد الذي رأيناه من تكالب الغرب على الشرق فنحن
ان أنصفنا لا نزع يدنا من الجماعة لان يد الله مع الجماعة ومن رأى كيف كانت
حالة سويسرا وألمانيا والولايات المتحدة قبل الوحدة السويسرية والالمانية
والاميركية يدرك سر الاجتماع والتعاقد ويعرف ان المراكب الكبيرة يستحيل أن
تأقى عليه الانواء بقدر ما تضر بالصغير فقد يغرق هذا أو يستغرق في غيره ولا
من يسمع به

تعلمنا أوربا وأميركا كل يوم معنى من معاني الوطنية والجامعات الجنسية .
فان كان بعض الاجتماعيين يدعون اليوم الى انشاء جامعة أوربية واحدة وبعضهم
الى انشاء جامعة أميركية واحدة وبعضهم الى انشاء جامعة صغرى من اليابان
والصين واحد أفلسنا نحن يا أبناء العثمانية أحرىء بأن نزيد في تكاتفنا وتكافلنا
ونرفع من بيننا سوء التفاهم بسعى العقلاء منا .

طال المقال وبت أخشى عايكم المال فله تأذنون بأن أختمه بجملة واحدة
للمقارنة بين أخلاقنا وأخلاق الغربيين وهي الأخلاق التي كانت من أعظم الوسائل
في ارتقاءهم كما كان تقيضها واسطة في انحطاطنا وذلك اني تبينت بالاختبار ان

الافرنج أكثر تفكراً منا في مصادر الاحوال ومواردها فهم لا يقدمون مثلنا على أمر قبل أن يوقنوا من أنفسهم الغناء فيه ، فالصانع في الغالب لا يتطال الى أن يكون سياسياً والمحامي لا يعمل في الزراعة ، وهكذا اختص أهل كل طبقة بطبقتهم وتفرّد كل عالم بما يعلم ولم يتعمده فالاختصاص أو الاحصاء هو الذي كان واسطة نجاح الغرب ودعوى معرفة كل شئ هي التي كانت واسطة انحطاط الشرق .

الغربي يفتخر بأنه لا يعرف غير ما تعلمه في مدرسته وحصله من حرفته ، ولكنه تعلمه فبرز فيه وأحاط بأطرافه وصبر حتى نضج فتناول ثماره جنية . أما نحن فنسارع في الهبوب كما نسارع الى الرقود فنهب دفعة واحدة كما نحمد كذلك الغربي يهيمه نجاح العمل من حيث هو عمل نافع لامته ولنفسه ولذلك جاءت مصانعهم ومعاهدهم بل وجميع شؤون حضارتهم حمة خالدة وكانت مصانعنا ومعاهدنا وسائر أعمالنا مختلفة معتلة لا تدوم الا بدوام من عمل لها أول مرة فادا ما ذهب تذهب بذهابه .

الغربي استفاد ويستفيد بتجارب غيره لان من عادته ان يحسن الا نفع بكل شئ . ونحن من عادتنا ان نهزأ في الاكثر بكل شئ .

الغربي يدخل الاصلاح الى داره وبيته وأمته بالتدريج بحسب سنة النشوء في عالم الكون والفساد ، ونحن نحب أن نطفر طفرة في اصلاحنا والطفرة محال لان سنن العطرة لا تغالب ولا تعاند . الغربي يحب النظام حتى صار ذلك طبيعة ثانية له ونحن لا يهمننا النظام ولا التنظيم . الغربي معتدل على الاكثر في عامة أحواله ونحن أميل الى الافراط أو التفريط . الغربي عبد الواجب ونحن قلما نقوم بفرض أو واجب فالغربي كما أحسن تقسيم الأعمال والاختصاص فيها أحسن استخدام الوقت احسانه لاستخدام عناصر الطبيعة بحده جد ولكن في أوقات الجد وهزله هزل ولكن في أوقات الهزل ونزهته نزهة ولكن في اوقات النزهة وعمله عمل محض ولكن في زمن العمل والشرقي وبالإللاسف ليس كذلك .

أحسن الطبائع في الغربي خلق الاعتماد على النفس وانكار النفس فهو يعتمد
على كفاءته أولاً ثم على محيطه وأمته وقد يهتم في الأكثر بمصلحة أمته اهتمامه
أو أعظم بمصلحة نفسه ولذلك جاء كل غربي راق أمة برأسه وأمة تتألف من أفراد
هذا حال سوادهم الأعظم يفسط ظل عمرانها ويمند على الأرض سلطاتها ، فالله اسأل
ان يهب هذا الشرق المحبوب نفثة من تلك الروح العالية وهذا لا يرجى لنا الا
بتكثير سواد امثالكم يا طلاب المدارس العالية : فطلاب المدارس العالية هم
ولا جرم اهل المطالب العالية فاعرفوا مقدار أنفسكم ومقدار الآمال التي تعلقها
عليكم امتكم نضر الله وجوهكم وبيض بكم وجوهنا



الرحلة الثانية

دواعي الرحيل ومبرراتنا

٣٦

كل من طاف بلادنا وقابل بين حالها وحال الاقطار الراقية ، يدرك لأول وهلة اننا عيال على الغرب والغربيين في كل شئ - ، وأنهم إذا قطعوا عنا أقل صادراتهم نعود أدر اجنا على النحو الذي كنا عليه منذ بضعة قرون. وهذا مما يصدق علينا في طامة شؤوننا . والعلم هو أول بضاعة يجب علينا أن نستبضعها من الغرب وهو رأس الحاجيات ، وبدونه الممات .

وما كنا نظن بعد أن أحفينا مكاتب مصر والشام لدرس موضوع « خطط الشام » اننا كلما أوغنا في تضاعيفه يتجلى كل التجلي جهلنا ببلادنا . وانما سنحتاج بعد بحث نحو خمس عشرة سنة . إلى أن نقصد الى مكاتب أوروبا نأخذ منها ما فاتنا في أرضنا من المواد التي لم يحوها المطبوع ولا المخطوط . مما كتب لنا الاطلاع عليه في مكاتبنا الخاصة والعامة

أي غضاضة على الشرق أن يرحل باحث في شؤونه حبا باتقان عمله الى غير أهله وبلده ، وأن يتسقط الفوائد من الغريب ، والقريب في معزل . بيد أن يوماً طويلاً أمتدت لياليه السود على هذا الشرق سلبت منا بحكم تنازع البقاء وبقاء الانسب . تراث أجدادنا في هذا الوجود وجردنا من منافعنا ومرافقنا وكتب أسلافنا العرب كانت أول ما رحل عنا غير آسف اذ لم يعرف لها الاخلاف قيمتها الحقيقية ، والاسفار في كل الاعصار . هي مفتاح فتح الامصار ، والعلة الاولى في سعادة البشر ، ونقل المدنيات من النظريات الى العمليات

هاجت الخواطر في النفس خصوصاً عند ما ذكرت أن أميراً واحداً من أمراء إيطاليا وهو البرنس لوني كايثاني مؤلف تاريخ الاسلام الكبير هو الذي جمع بسعيه وتنشيط حكومته مكتبة له منقطعة النظير في الغرب نفسه فيها كل ما يحتاجه باحث في تاريخ الاسلام والعرب وبلادهم فاستنسخ من المكاتب الخاصة والعامة في أوروبا وأميركا وآسيا وأفريقية كل مخطوط عربي فيه شيء من هذا القبيل ومالم يقدر على نقله أخذ له بالتصوير الشمسي فمن زار هذه المكتبة فكأنه زار مكاتب العالم أجمع واطلع على ما فيها من المواد التاريخية والجغرافية في هذا الباب

شبهتني وأنا أشد الرجال قاصداً إلى رومية للبحث في مكتبة الامير الايطالي بطلاب العلم في أوروبا في القرون الوسطى وكان بعضهم من الاسرائيليين يقصدون بلاد الاندلس ليقرأ على علماء العرب علومهم ويرجعوا من كتب المسلمين بلة تروي غلة جهلهم ، فسبحات وحوقات . قائل : ما أغرب تبدل الامم والبلاد . وما أهناً الغرب بما صار اليه من دواعي المنعة وأسباب العلم وما أشقانا بما فعل السفهاء منا .

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواماً بأقوام
وليت شعري أيعود ذلك العهد السعيد بالعلم على العرب ويصبح أبناء اليوم
يفخرون بالقاهرة والقيروان وفاس ودمشق وبيروت وحلب وبغداد والموصل
وصنعاء ومكة كما يفخرون بغرناطة واشبيلية ولشبونة وغيرها من المدن في الاندلس
وصقلية التي استعمرها العرب بالعقل والعلم وأضاعها بعد ذلك جهل ابنائهم وغرورهم
أيظل الشرقي ياترى يعتقد في نفسه الكفاءة والغناء ويقنع عن القول بأن
الغربي يغمطه حقه باستباحته حماه واكتساحه دياره الحين بعد الآخر ؟ أم يهب
باحثاً عن جميع علل هذا الارتقاء عندهم والتدلي عندنا ويتعلم ما جهل مع الشكر
لكل من يعلمه وينعشه من سقطته .

حكوماتنا هي السبب الرئيسي في اظلام العقول واشتغالها بالفضول وأهل

الغرب هم الذين قوموا معوج حكوماتهم فهل ندرلك جيلاً من الناس يقوم اعوجاج
حكومات الشرق وتتمتع على الأقل بمعرفتنا بانفسنا ومن عرف نفسه عرف به .

دار الدعوة والارشاد في القاهرة

٣٧

اغتنمت فرصة مقامى بضعة أيام في القاهرة لفضاء بعض المشاكل أثناء
شخصى إلى إيطاليا لازور دار الدعوة والارشاد التي أنشأها صديق السيد محمد
رشيد رضا منشئ المنار في السنة الماضية وكان ينوى انشاءها في الاسناتة
أولاً لو صادف من القابضين على زمام الامر تنشيطاً على مشروعه وغرضه الاول
من انشائها ايجاد هيئة صالحة بالعمل من رجال الدين يجمعون الى معرفة الدين النقي
وأسراره وحكمه المطابقة لاحوال الزمن معرفة أحوال العصر حتى تحل هذه
الطبقة محل الهيئة القديمة التي كادت الامة تنزع ثقتها منها .

أنشأ هذه المدرسة الصديق الرصيف أو « جماعة الدعوة والارشاد » وهي
جمعية مؤلفة من أهل الفضل والعقل والتدين « لتخريج علماء مرشدين قادرين
على الدعوة الى الاسلام والدفاع عنه والارشاد الصريح وارسالهم الى البلاد
الشديدة الحاجة اليهم » و « يرسل الدعاة الى البلاد الوثنية والكتابية التي فيها
حرية دينية ولا يرسلون الى بلاد الاسلام الا حيث يدعى المسلمون جهراً الى ترك
دينهم والدخول في غيره مع عدم وجود علماء مرشدين يدفعون الشبهات عن
الاسلام ويبينون حقيقته لاهله »

وقد جاء في النظام الاساسى لجماعة الدعوة والارشاد انه « تتكون أموال الجمعية
من الاشتراكات الموقوتة والاعانات والتبرعات والهدايا والوصاية والاقواف
التي توقف عليها أو مائتاله من ريع أوقاف أخرى ومن ريع رأس مالها »

و « يضاف ربع دخل الجمعية السنوى الى رأس المال للاستغلال وهذا ماعدا المبلغ الاحتياطى » وكان تبرع لهذه الجمعية بعض الاجواد من العرب وفي مقدمتهم الشيخ قاسم آل ابراهيم من كرماء جزيرة العرب بألفى جنيه مباشرة ولعله يتبرع بغيرها كل سنة

فى جزيرة الروضة ^(١) المشهورة الآن بالنيل حيث قام فى جنوبها مقياس النيل المبارك بنى جسر (كوبرى) عباس وجسر الملك الصالح أو بين القاهرة المعزية ومديرية الجيزة قامت اليوم دار الدعوة والارشاد فى احد مصايف أبناء شريف باشا الوزير المثرى المشهور وقد ضمت فى حجرها الى الآن صنفين عدد طلبتهما الداخليين ٣٥ والخارجيين يختلف بين ٢٠ الى ٣٠ يعلمهم عشرة معلمين منهم أناس من رجال الدين وآخرون أسانذة علوم صرف وطعام الطابة ونظافتهم ونظامهم فى قيامهم ومنامهم ممالم يعهد طلبة العلوم الدينية اللهم الا أن يكون طالبة مدرسة القضاء الشرعى فى مصر لان مؤسس مدرسة الدعوة والارشاد أفراد ومؤسس مدرسة القضاء الشرعى الحكومة . والحكومة أقدر على البذل من الافراد .

ويستفاد من نظام مدرستنا هذه أنها تدرس العلوم والفنون التى تدرس عادة فى الكليات مع التربية الدينية وزيادة العناية بالعلوم الاسلامية تنشأ أقسامها بالتدريج يبدأ منها بقسم عال لتخريج الدعاة الى الاسلام والمرشدين للمسلمين بالوعظ والتدريس ولسان التدريس فيها اللسان العربى ويتحتم فيها تعلم لغة من لغات العلم الاوربية ويجوز أن تدرس فيها عدة من اللغات الشرقية والغربية ولا سيما لغات الشعوب الكبيرة من المسلمين كالتركية والفارسية والاوردية والملاوية . ومدة صنف المرشدين ثلاث سنين وكذلك صنف الدعاة ويختار

(١) هذه الجزيرة هى التى ورد ذكرها كثيرأفى شعر المصريين منذ القديم وتعلموا بمجاسها والسيوطى كتاب فى تاريخها أسماه « كركب الروضة » من جملة مخطوطات الخزانة التيمورية ومجموعة أحمد تيمور باشا من علماء القاهرة وأعيانها

طلابه من متخرجى صنف المرشدين يكثون ثلاث سنين أيضاً وذلك ماعدا السنة التمهيدية الاولى .

التعليم في قسم الدعاة والمرشدين من المدرسة مجانى والمدرسة تنفق على الطلاب الداخليين فيه وتكفيهم كل ما يحتاجون اليه فيها وتعطيهم أعانة شهرية بحسب الحاجة والاجتهاد والتهذيب لا تقل عن ريال مصرى فى الشهر وأما الطلاب الخارجيون فلا تنفق عليهم شيئاً .

ومما يشترط فى قبول الطابة الداخليين أن تثق المدرسة بان طالب الدخول حسن السيرة وتكون سنه بين ٢٠ و ٢٥ وأن يكون حافظاً لطائفة من القرآن الكريم بحيث يسهل عليه اتمام حفظه قبل اتمام دراسة الصنف الاول وأن يكون قد حصل قدراً صالحاً من النحو والصرف والنمق وعرف القواعد الاربع من الحساب على الاقل وان يكون صحيح الاملاء حسن الخط فى الجملة جيد المطالعة فى الكتب العربية ومن أصل قديم فى الاسلام وتتحرى المدرسة أن يكون طلابها من الاقطار المختلفة ونمريهم على القيام بالمرائض والسنن وعلى الرياضة البدنية والتخاطب باللغة الفصحى داخل المدرسة وخارجها

واذا وفقت هذه المدرسة الى تطبيق فصل العلوم والفنون التى تدرس فيها حق التطبيق يحىء ولاشك من متخرجيها طلاب يشبهون دعاة الكشاكسة والارثوذكسية والبرتستانتيه فى عالمهم واستعدادهم خصوصاً ومن غرض المدرسة فى باب تربية الاخلاق ان يعلم الطالب « الفرق بين زماننا وزمان القرون الاولى من المسلمين فى الحاجة إلى سعة الثروة وتوقف حياة الامة عليها الآن وعدم توقفها فى ذلك الزمن وكون الزهد الصحيح والقناعة الفضلى لا ينافيان بتحصيل الثروة وعمارة الدنيا لانهما من صفات القلب وفائدتهما أن يجعل الانسان فصل ماله لنفع أمتة ومجد ملته وأنه لا ينبغي تعمد ترك تحصيل الثروة الا لعمل أنفع للامة والملة . » ويعلمون فى باب انتقال الامم والدول من حال الى حال مثل قوله سبحانه « ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقوله « وتلك الايام نداولها بين الناس »

هذا ما أمكنني التقاطه مما عساه يفيد وأنى لأرجو لرئيس جماعة الدعوة والارشاد محمود بك سالم أحد علماء مصر العاملين وسائر مؤازريه الفضلاء الخير في الدارين لعملهم المبرور وآمل أن يكتب البقاء لهذا العمل العظيم بهمة جامع شمله الاستاذ محمد رشيد رضا ناظر المدرسة ووكيل الجمعية وأن يكون أساسه على صخر متين سداه الماديات ولحمته المعنويات فيكون من مادياته مخرجا الى معنوياته والسلام

في طريق رومية

٣٨

أول ما يلاحظه المسافر من الأرض العثمانية الى الديار الاوربية ان كل ما يقع نظره عليه هو غريب عنه ليس له منه الا النظر . فسبحان من جعلنا في بلادنا وبلاد غيرنا غرباء مساكين .

ركبت هذه المرة القطار من دمشق الى بيروت وهو لشركة فرنساوية ثم أبحرت من ثغر الشام على باخرة ايطالية (تيفرا) حتى اذا بلغت الاسكندرية وارتد الركوب منها الى نابل ميناء رومية ركبت الباخرة « البرنس هنرى » من بواخر شركة نوردتش لويد الالمانية وهكذا كنت عالة في تنقلي على الفرنساوى والاطالى والالماني ولوقصدت وجهة أخرى لكنك في ضيافة الروسى والنمساوى والانكليزى والرومانى !

حالة يأسف لها وأيم الحق كل من ينبض فيه عرق الوطنية لأنها تصغر نفسه في عينه ومن ساء ظننه بنفسه انحطت عن كل عمل . نعم يتألم الفؤاد من هذه الحركة الاقتصادية المباركة لان العثمانيين عامة والسوريين خاصة بعيدون عنها كل البعد ليس لهم علم الغربى يذكرون به ما ينهضهم من كبوتهم ولا مضائوه ليمثلوا به في جهاد الحياة الراقية ولا أسبابه المادية التى تبعثهم على تقليد الناهضين من شعوب العالم المتحضر في هذا العصر

نحن وباللاسف نريد أن نعيش في القرن العشرين عيش ابن القرن العاشر ونرى لسوء حظنا ان مجدنا القديم يكفى تذكره وحده ليحيينا الى الابد حياة طيبة رشيدة ونتطال الى أن نقنع العالم بل أنفسنا بأننا شعب راق بمجرد ايراد الشواهد على أيامنا الفر المحجلة في تاريخ المدنية السعيدة ولكن حضارة الغرب اليوم لا تبقى على ضعيف في قوته ومعرفته ومادته وحكومته . هي تبتلع العالم والشاهد على ذلك استصفاؤها قارة أفريقية وتوشك أن تستغرق قارة آسيا لولا بقايا شعوب مستقلة عظيمة كاليابان والصين .

مدنية أوربا هي التي حملتنا في البحر المتوسط من بيروت الى الاسكندرية في ٣٢ ساعة ومن الاسكندرية الى نابل في ٧٠ ساعة ومن نابل الى رومية في أربع ساعات على السكة الحديدية . والبخار والكهرباء هما صفوة العلم الاوربي بل المثال الحى من هذه المدنية الحية التي سيعم فضلها كل بقعة من بقاع الارض شاء أهلها أم أبوا فتحيها الامم التي تقوم بما قامت به أم الحضارة الحديثة وتموت لامحالة الامم التي لها من حكومتها أو من تقاليدها أو من ضعفها ما يعوقها عن الانبعاث والحركة .

تهتز نفس الشرق وأى اهتزاز عند ما يدوس أرض الغرب وتتوارد الخواطر غايه والتذكارات والمؤلمات وتتنازعه عوامل المنشطات والمثبطات . هكذا كان حالى يوم أزعجنى القدر منذ أربع سنين فنزلت مارسيليا ثغر الفرنسيس وهكذا أنا اليوم وقد وافيت نابل ثغر الطليان . وليس في هذه الفرضة من جديد فان حركة المدن الساحلية والعواصم الغربية واحدة اجمالاً تكاد تتشابه لأنها قائمة بالعمل قوامها انتظام أحوال تلك الحكومات وتناغم سكانها بوطنيتهم وذهابهم بفضل العلم والنشاط وتميزهم بالذوق والالطف

من أجل هذا كانت نابل مثالا مصغراً من حضارة الطليان ورومية وهذه هي العاصمة المثال المسكبر والفرع يدل على أصله والكتاب يقرأ من عنوانه . لم يتسع لى الوقت وقد قضيت يوماً في نابل ان أزور معالمها وكليتها وآثار بومبي

الرومانية خصوصاً وهي على مقربة منها لأننى فى صدد البحث عن تاريخ أجدادى وبلادى لاتهمنى أولاً الا الغاية التى أنا قاصد لها من البحث عن المخطوطات حتى اذا كان فى الزمن متسع أزور من معاهد هذه الديار ومصانعها ما نستفيد منه عبرة لنا ولامتنا وينفعنا فى الاخذ بمذاهب الرقى ان صحت نياتنا عليه .

الى ساعة كتابة هذه السطور لم أتمكن من معرفة شيء من أحوال ايطاليا اللهم الا ما هو معروف فى الازقة والشوارع والساحات ومحال القهوة والمتنزهات وهذا لا يبنى عليه حكم ومع أن الطبقة الراقية تكلمك باللغة الافرنسية وكذلك تتخاطب مع أهل الفنادق والمخازن الكبرى وبعض الأماكن العمومية فانك تجد صعوبة فى التفاهم مع جميع طبقات القوم لجهلك لغتهم الوطنية . هذا مع تقارب اللغتين الافرنسية والايطالية احدهما من الاخرى واللغات اللاتينية أى الافرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية متشابهة لانها من أصل واحد كما أن اللغتين الالمانية والانكليزية متشابهتان لانهما من أصل سكسونى واللغة الروسية والرومانية والبلغارية والصربية متشابهة لانها من أصل سلافى .

ومع أن جليستك تنقبض نفسه منك فى العادة اذا لم تكن لك معه لغة مشتركة لا تجد فيما تسمعه فى المحال العامة ودور التمثيل والمـ ر سيقى هنا ثقلاً على سمعك من لغة الطليان وان كنت لا تفهمها بل تبلغ نبراتهما صماخاً اذ لك كانها أوتار موسيقار تتكلم ألحانها أكثر من ألفاظها . ولا عجب فإيطاليا مهد الصناعات النفيسة بل هى بلاد الموسيقى والشعر والتصوير والبناء عرفت بذلك منذ أوائل عهد الاسلام وباعت من الغرب بل ومن الشرق موسيقاها وشعرها وتصويرها وهندستها وهى بلاد النهضة منها نشأت وانتقلت الى فرنسا وأوروبا كلها وطلليان الجنوب يشبهون السوريين فى كثير من عاداتهم وملامح سحناتهم وكلما تقدمت نحو الشمال تزيد المدنية ويفخم العمران .

وعلى ذكر الجنوب والشمال لا بأس بأن يعرف القارئ ان البلاد الاوربية كلما قربت من سمت الشمال كانت أقرب فى الجملة الى الاخذ بأسباب الرقى والحضارة

وهذا مشاهد محسوس . فانك تجد شمال ايطاليا أرقى وأعمر من جنوبها وكذلك فرنسا بل ان ألمانيا في جنوبها أحط منها في شمالها وهو سر غريب من أسرار هذا الكون ولعل الباحثين في طبائع الاقاليم بحسب القرب والبعد من خط الاستواء لا يعدمون تعليلاً لذلك . أما رومية فهي مجموعة بدائع الطليان ولا جدال لانها معدودة من أواسط ايطاليا على ما سذكركه

الامير طيئة الى

٣٩

كان الاغنياء والأمرء في الغرب قبل أن تتقرر قواعد المدنية الحديثة وترسخ أصولها يدلون على شعوبهم بحكم التغلب وقوة المال وأرجحية القدم . أما الآن فان أمثال هذه الطبقة أدركت أن كل تلك الامتيازات والاعتبارات قد ألغتها القوانين الدستورية في الامم الحرة النياية فلم يبق من أسباب الفخر الا شخصية المرء وعلمه وعمله ولذلك لا تسمع بامثال هؤلاء الناس الا اذا أتوا عملاً ينفع المجتمع ويخدم الحضارة أو يرفيها درجة أخرى

وممن جمع بين فضيلتي المجد القديم والمجد الحديث فعد عصامياً عظامياً الامير ليوني كاي تاني من كبار الأسر القديمة في رومية التي يرد تاريخها الى زهاء ألف سنة ومنها خرج رجال خدموا أمتهم على اختلاف العصور والمنازع فكان منها الباباوات ورؤساء الدين والقواد والحكام ولقد سار سليل هذا البيت على سنة كثير من أمرء الغرب فلم تبطره الزخارف ولم يستهوه المال والمجد القديم وتنكب عن الرفاهية منذ صغره فدرس في كلية رومية الآداب وأتقن من اللغات الايطالية والافرنسية والانكليزية والالمانية واللاتينية والفارسية والعربية ولما أحرز حظاً وافراً من العلم والآداب سمت به عمته وهو قبيل الخامسة

والعشرين أى منذ زهاء عشرين سنة أن يضع لامته كتاباً فى التاريخ الاسلامى باقتها يغنيها عن أكثر الكتب ويرفع كثيراً من المشاكل فى تاريخ العرب الذى أدهش العالم . فجمع لذلك مكتبة ضخمة باللغة العربية وغيرها من اللغات واستنسخ وأخذ بالتصوير الشمسى كل ما عرف من تاريخ العرب من المخطوطات وكان مبعثراً فى مكاتب أوربا وغيرها فجاءت مكتبته خير مكتبة فى الشرق والغرب فى موضوع التاريخ الاسلامى خاصة ومن رآها فكانما زار مكاتب الغرب للبحث عن آثار العرب ومدنيتهم

ولقد نشر حتى الآن من تاريخه ستة مجلدات ضخمة ولم ينجز بها أكثر من عشرين سنة من تاريخ الاسلام وهو يرجو ان يفسح الله فى أجله عشرين سنة أخرى ليكمل القرن الأول للاسلام فيقع فى خمسة وعشرين مجلداً^(١) ولا يطبع من تاريخه أكثر من مائتين وخمسين نسخة يوزعها على المجامع العلمية فى بلاده وفى الغرب وعلى بعض أصحابه من العلماء فقط وقد جعل شعاره فيها قول الشاعر العربى :

كفاف عيش كفافى ذل مسألة وخدمة العلم حتى ينقضى عمرى
يقول كفاف عيش وثروته وثروة أبيه فيما بلغنى تقدر بمئة مليون فرنك دع
ثروة حليلته الأميرة وهى غنية أيضاً ولهم المزارع الواسعة فى ضواحي رومية
إذا استثمرت حق الاستثمار على أحدث الطرق تزيد ثروتهم أضعافاً والأمر مع
هذا تفرغ الى العمل فى مزارعه ويتعهد بها كما يتعهد رياض العلم كل يوم ويصرف
على اتقان عمله الذى صرف شبابه وهاهو يصرف الآن فيه سن الكهولة
وسيصرف فيه أيضاً سن الشيخوخة بحول الله شطراً ليس بقليل من المال فعنده
ثلاثة مترجمين من اللغات المختلفة ينظر فيما يترجمون لكتابته من المواد ما عدا ما ينفقه

(١) عجيب صبر الايطاليين على تأليفهم فان المشرق ميسل امارى قد تعلم اللغة العربية واتقنها خاصة ليكتب كتاباً فى تاريخ صقلية فكتبه طويلاً لم يسبق اليه عند قومه وهو المرجع اليوم فى تاريخ هذه الجزيرة الايطالية التى دانت للعرب قرنين ونصفاً وقد نشر امارى جميع ما كتبه مؤرخو العرب عن هذه الجزيرة باللغة العربية فى كتب ورسائل كثيرة

في الكتب وطبع كتابه ولكن كل ماينفقه في سنة لا يعادل ماينفقه غنى واحد من فساق أغنياء الاميركان أو الروس مثلاً في ليلة واحدة في باريز أو مونت كارلو فسبحان من أودع في كل قلب ماأشغله

طاف الأمير كثيراً من بلاد الشرق ولا سيما الهند وفارس والشام ومصر ودرس أحوالها وطابق بين ماضيها وحاضرها فاذا تكلم في تاريخنا صدر عن علم نظري وعملي . ولقد ذهب منذ ست سنين الى بلاد الشام ليرى بمينه المكان الذي كانت فيه الوقعة الفاصلة بين العرب والروم في اليرموك . وهذا قلما يتيسر الا لمن أوتي همة شماء واستسهل ركوب كل صعب في سبيل تحقيق رغائبه .

وما زال منذ بدأ في التأليف وهو يدأب وراء منضدته في مكتبته كأنه عامل بسيط فانه يبدأ في عمله كل يوم الساعة الخامسة صباحاً على الغالب ولا يزال أكثر النهار يعمل ويطلع لا تعرف همتهم ملل ولا ينظر في سفاسف الأمور . ولقد كان نائباً في الانتخاب الماضي في مجالس النواب فأضاع في النيابة شيئاً من وقته ولكن لم ينتخب هذه المرة فكان ذلك من حظ العلم والآداب لانه توفر بجملته على خدمتهما .

وعدم انتخابه ناشئ من أن خصومه السياسيين اتخذوا من خطة الأمير في مسألة فتح ايطاليا لطرابلس وبرقة حجة أناروا بها الرأي العام حتى لا يعودوا الى انتخابه وذلك ان الأمير أحب أن يتكلم بلسان العالم المنصف ولم يعقه حبه لامته عن أن يقول لها وقت قامت حكومته لفتح تلك البلاد ان هذا العمل منها ضرب من ضروب اللصوصية لا يليق بأمة متمدنة وليس له مسوغ معقول قال هذا بالتلميح في المجلس وكتبه في الصحف الايطالية وغيرها بالتسريح فحق عليه من حنق وأناروا الخواطر من جهته وقد بذل مالا كثيراً للنيابة عن أمته قيل انه عشرون ألف ليرة ولكن خصمه بذل خمسة وثلاثين ألف ليرة ففاز عليه .

والأمير على مارزق من الشهرة العامة لجمعه بين المجد الثالث والطارف رقيق الحاشية يغلب عليه عدم التكلف ولما قابلته لأول مرة حاملاً اليه من صديقه

أحمد زكى باشا العالم المصري كتاب توصية ليقبلنى للبحث فى مكتبته اعتذر عن كونه قابلى بثياب عمله وقال ان عنده شيئاً من المخطوطات العربية أخذت بالتصوير الشمسى ولا يدري ان كان فيها حاجتى على أنه تفضل ودلى على مطاها وما برح اليوم بعد الآخر يشير على بالرجوع الى كتاب كذا ففيه مادة لكتابى وهو يبش ويقول فى الاحايين أنه مسرور لعثورى على شذرات تهمنى كل هذا وهو لا يضيع دقيقة من وقته الثمين وناهيك بارنفاع أسعار الاوقات فى الغرب ولا سيما عند المشتغلين بالعلم والتأليف ومنهم أرباب الصحف والمجلات ومنشؤها مثلاً .

لئن امتازت الخزانة التيمورية فى مصر بانها تحوى أمهات كثيرة من مخطوطات علماء الاسلام فى علوم مختلفة وامتازت الخزانة الزكية بالقاهرة بجمعها أنفس المطبوعات العربية فى العرب فان الخزانة الكايتانية فى رومية تحوى على الغالب أهم كتب التاريخ الاسلامى أو ماله علاقة فيه وذلك باللغات المختلفة ولا سيما العربية مما هو جدير ان يرحل اليه من الصين لامن دمشق .

وقديماً كان أمراء المسلمين وعلماءهم يفتحون خزائهم للباحثين والمؤلفين ينزلونهم على الرحب والسعة كما فتح منصور بن نوح السامانى خزانة كتبه لأبى منصور الثعالبي فألف فقه اللغة وكما فتح على بن يحيى المنجم من أهل القرن الثالث فى قرية له نفيسة بكركر من ضواحي القفص خزانة كتب عظيمة فى قصره الجليل وسماها خزانة الحكمة فأخذ الناس يقصدونها من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبدولة فى ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى وكما وقع من غيرهما كثير أما اليوم فان هذا المعنى كاد يتفرد به علماء الغرب وأمراؤه وأصبح الشرق بلقماً حتى من كتبه وآثاره وانتقل تراثه بحكم الطبيعة الى من أحسن تعهده واستثماره سنة الله فى خلقه .

نساء الافرنج

٤٠

الا انكليز أعجب أمم الحضارة في أخلاقهم وعاداتهم لا يقبلون الجديد الا بشق
الاتفس ولكنهم اذا قبلوه تناغوا فيه وحرصوا عليه وبرزوا على من سبقهم
وسابقهم

والغالب ان كل الحاجيات تمت أو كادت في هذه المدينة الغربية حتى قامت
بعض نساء الأمم وطالبت بأشراكهن في حقوق المدينة فاصبحن ينتخبن نائبات
في المجالس النيابية ويشركن الرجل في أعمال السياسة ومن الفائزات السابقات في
هذا السبيل نساء فنلندا وأستراليا وزيلاندة الجديدة والنرويج .

رأى النساء الرافيات من الانكليزيات ذلك ورأين حقوقهن مهضومة مع
الرجل وغرن - والغيرة من خصائصهن - من اللاتي سبقنهن من بنات جنسهن
وقمن منذ ثلاثين سنة يطالبن حكومة بريطانيا العظمى بحقوق بنات حواء وما
زلن منذ عقدت العقيلتان كوب وميلان احتجاجا في لندرا سنة ١٨٨٤ وهن على
وتيرة واحدة من السعى وراء مقصدهن لم يدخل الملل على نفوسهن

خطبت اذ ذاك العقيلة ميلان وقالت انها أزمعت أن لا تدفع الخراج الذي عليها
للجاني بحيث تضطره الى أن يكسر بابها ويحجز متاعها وهكذا تقاوم الحكومة
وكل سنة تزيد قسوة واملا لا . فضحكت الصحف من هذا القول اذ ذاك ومن
الغد أرسل اليها من جميع أطراف انكلترا ابر للخياطة . اشارة الى أن المرأة هذا
شأنها ولا يليق بها ان تخرج عن هذا الحد

ولكن المطالبات بهذا الحق ظالمن يجمعن قواهن هذا وهن على عهد الملكة
فيكتوريا التي سنت لاملكات دع نساء الطبقات المختلفة من السوق سنة توفرو
النساء على تربية أولادهن وتدير منازلهن والقيام على أسرتهن وبيوتهن حتى

قالت في مفكرتها ان أحسن امرأة هي التي تبدو صالحة لزوجها وأولادها .
ولقد ربت ملكة انكلترا وأميرة طورة الهند بناتها على التربية البيتية الراقية
حتى ان الأميرة أليس دي هيس درامستاد كتبت الى أمها تقول : ها قد صنعت
الفساطين اللازمة لبناتي الصغيرات في الشتاء فعملت منها سبعة ولم أطرزها فقط
بل فصلتها وخطتها وعملت أيضاً رداء من الصوف للطفل الذي ننتظر قدومه وأنا
التي أتولى حسابات الدار ولذلك ترى مستغرقة في العمل . ان أسرتنا الصغيرة
تزداد بسرعة وستقضى علينا الحال بعد بضع سنين أن نعيش باقتصاد زائد .
في مثل هذه الأمة اتى ملكتها وأميراتها على هذا الطرز من حب الانصراف
الى الاعمال البيتية يقوم ربات الحجال في أقصى بلاد الشمال ويعمدن الى القسوة
في المطالبة بحقوقهن السياسية حتى لقد لجأن كما قالت جريدة الماتين من مقالة
افتتاحية الى استعمال القوة في مقاومة رجال الضبط والربط بل ان تلك الأيدي
الاعلى التي يجب أن تكون رباتها ملكية الاخلاق بلطفها ودعتها هي التي تهمها
« التيمس » بأنها تشعل الحريق في بعض بلاد الانكليز لتحمل الحكومة على
اجابة تلك المطالب وانه قد حرق في شهر تشرين الاول الماضي في بريطانيا من
الأملاك ما يقدر بنحو ستة ملايين فرنك ونصف ونبت بالتحقيق أن للمطالبات
بحقوق النساء يداً في نحو عشر حرائق منها وان النساء المتحمسات لهذه الفكرة
يطلبن شيئاً من المال فلا يابث أن يحمل اليهن فقد طلبن مرة مئة ألف جنيه وأخرى
ربع مليون جنيه وكلما طلبن مالا يأتين عفواً ويقدر ما يصرف النساء الانكليزيات
في الشهر بنصف مليون فرنك على تحقيق مطالبهن

هذه هي أعمال النساء الانكليزيات ومعظم البشر لا يوافقونهن على استعمال
القوة في مقاومة القوة ولكن هذا الثبات يدل على روح غريبة لا أثر لها في الشرق
وكيف تكون حال نساءنا مرضية وهن راصيات عن تقهقرهن فرحات بجهلهم .
العقل لا يطلب لنساء الشرق أن يشاركن الرجال كما هن في الغرب فان تقاليدنا
وأدياننا وعاداتنا لا تنطبق مع هذا ولكن كل ما تنقيد به من قديم لا يحول بين

نسائنا وبين التعلم ولت شعري كم مدرسة فتحت لتربية البنات في عهد الدستور في القطر السوري وكم رجل فكر أن يعلم بناته فن تدبير المنزل كما يعلم في الغرب . القشور التي يتلقفها بعض بناتنا في مدارس الاميركان والفرنسيس والالمان ومدارس الحكومة لا ترقى أمة تشكو الليل والنهار من جهلها وجاءتها وتجيئها جميع المصائب من تعشيشه في صدور كبرائها فما بالك بالصغار . ان ما يراه السائح في أوربا من مظاهر تربية المرأة ومضاهاتها الرجال في جلائل الاعمال يبكيه على الشرق ولا سيما الشرق الاسلامي الذي تأتبه العبر عن ايمانه وشمائله ولا يعتبر تسعى ايطاليا اليوم لاعطاء المرأة حقها في التصرف بما لها كما تحب دون أن تكون مقيدة بارادة زوجها أو وليها كما كانت حتى الآن وفي الشمال حاز بنات نوعهن كل هذه الحقوق وهن يطالبن بحقوقهن السياسية ونحن حتى الساعة لم يفكر نساؤنا ورجالنا في شيء لانهاض المرأة من كبوتها فما أبعد الفرق بين الجنوب والشمال في تربية الرجال وربات الحجال



وبعد فانا نشاهد كل آن العجب العجائب في هذه الديار الغربية من مشاركة الرجل للمرأة في أعمال الحياة مشاركة هي على غير الطريقة التي جرى عليها الشرقي الاقرب الذي جعل المرأة في منزلة يصح أن يقال انها أقصى دركات الانحطاط وهيهات ان تنجح أمة نصفها عاطل لا يعمل ولا يفكر ينظر اليه بغير العين التي يجب أن ينظر اليه بها وينزل منازل الجهل والحمول .

قلنا ان العاقل لا يطلب لبلادنا ان تكون المرأة فيها كما هي في الغرب فان هذا أشبه بمريض يحتاج الى جرعة من الدواء قدر درهم فتعطيه رطلا وبذلك تقتله لا محالة . نعم لا نريد لنسائنا الآن أن يكون لهن حق المشاركة في السياسة ولا الاختلاط بالرجال على مثل هذه الحال ولا ان يكن منقطعات الى العلم والآداب فقط بل نريد تعليمهن التعليم الابتدائي الراقى الذي يكون محوره ترقية عواطفهن الدينية والمدنية ليكون من المرأة أم تحسن التوفر على تعهد بنيتها وبيتها وتدخل

السرور على قلب بعلمها ومحارمها وان تقتطع فئة من هؤلاء المتعلمات للتعليم ليتخرج بهن البنات والصبيان على السواء وهن يكن من الدارسات العلوم العالية بالطبع

قرأت الآن في « الجورنال » مقالة افتتاحية لاحد المشتغلين بالتعليم عند الفرنسيس جاء فيها بمناسبة القانون العسكري الجديد وجعل الخدمة ثلاث سنين ان فرنسا استاقت ألفاً وستمئة معلم في سن القرعة للخدمة العسكرية وانها ستستعيض عنهم بالمعلمات يعلمن الصبيان قال الكاتب انه ساح في أوقات مختلفة في عدة بلاد كانت فيها المدرسة الابتدائية تقبل الفتيات كما تقبل الفتيان معاً على نحو ما تقبل المدارس العليا الطالبات مع الطلاب قرأى ان ذلك لا يضر بالآداب بل ينفعها فان الرجال لما كان شأنهم أن يعيشوا مع النساء فمن السخف ان يفصل بعضهم عن بعض عشراً وخمس عشرة سنة وان يعود كل جنس أن يعتبر الجنس الآخر دخيلاً وخطراً فان التعليم المشترك يغرس في الفتيان الشعور بالرجولية وفي الفتيات حياة بدون أن يكشرن عن أنيابهن . فانا نجد في البيوت التي يكون للبنات فيها اخوة وللأخوة اخوات يحرزن صفات ليست أصلاً لغيرهم من الأولاد ونحن لا نريد مدارس مختلطة بل مدارس للصبيان تسلم أزمة التعليم فيها للنساء المرأة تحب الأولاد وتعرف مراميهم فان فطرة الأمومة التي تنبئ في الفتاة تحب اليها الأولاد وتعرفها بهم ويكون الأولاد في الحال على ثقة مع معلمة فتاة كانت أو عجوزاً في حين ان شبان المعلمين لا يتيسر لهم أن يحبوا الأولاد وذلك لأن المتزوج رب الأسرة ربما توسع في حبه أولاده فاحب أولاد غيره على ما يوحى اليه العقل ولكن معلماً في العشرين لم يتزوج لا يحب الاطفال بل يضربهم ولا يبالي بهم لانه يعتقد نفسه بأنه أشبه بالمرضعة وان درجته انحطت فيجب مراعاة لمصلحة التعليم والأولاد معاً ان يوسد أمر التعليم في مدارس الأطفال الى النساء بدون استثناء فان الطفل الذي يبدو شيطانياً امام معلمه يحاول أن يرضى معلمته كما هو الحال في المقاطعات المتوحشة في غربي الولايات المتحدة فيستبدل بمعلمة كل معلم

لا يحسن التصرف مع الأولاد فيعود نظام المدرسة الى أحسن مما كان
قال ان للمرأة أسراراً في اللطف والصبر والثبات المزوج بحب وحسن النظر
يجعلها حتى المعلم الخبير فما بالك بالمتدء بالتعليم . المرأة تعلم وتفهم ألف أمر
لا يستطيع الرجل أن يفهمها ولا يحرزها . أنها رزقت جميع أسباب اللطف التي
ترافق الاحسان .

هذا ماله تعلق بموضوعنا نقلناه فتى تنشأ لنا مدرسة في كل حاضرة من
حواضر بلاد العرب تعلم الفتيات ليكن معلمات للبنات أولاً وان أمكن للصبيان
أيضاً ورثما ثم هذه الامنية يكتفى اليوم بالمتخرجات من مدارس المبشرين أو
المدارس الطائفية ويوسد اليهن تعليم البنات والبنين .

وما أظن الا القليلات من المتعامات في بعض المدن العربية والقليل من
المتعاملين يفكرون في هذا المطاب الجليل الذي هو اهم الادواء القتالة في جسم
مجتمعنا وهيئات أن يحصل على شيء من البرء الا بتعليم البنين والبنات بل انه
بدون العناية أولاً بتعليم البنات لا تستقيم لنا مدنية وتكون تعليمها الأمور
النافعة بحسب ما تقتضى به عاداتنا ومعتقداتنا فينهض المجتمع العربي بانهاض شأن
المرأة وبدون ذلك لا أمل لنا باصلاح بيوتنا .

المرنية لا تسفى

٤١

أحببت أن أخدر أفكارى مؤقتاً عن النظر في اخبار بلادى فأخذت أطلع
بكثرة صحف هذه الديار ولا سيما باريز منها وأعنى عناية خاصة بالحوادث الداخلية
مما لا يتيسر للصحافى الشرقى كل حين فأتلو كل يوم مرات أخبار القتل والانتحار
والاعتداء والفجائع والفظائع بتفاصيلها وكلها تدل على استهانة الغربى بالحياة
جرباً على ماورد في المثل العربى « احرص على الموت توهب لك الحياة »

لا ينكر ان من الحوادث الطارئة هنا ما يسوق اليه اختلال الشعور من الاكثار من الخمر وانحلال العقيدة باليوم الآخر ولكن منها ما يدل على شمم وعزة نفس وتوقع المجد والشهرة . وبيننا نجد ابن البادية عندنا يقتل عابرسبيل ليذهب ببندقيته أو فرسه أو كيسه أو ثوبه ترى الغربى ينتحر هو وزوجه أو ولده تخلصاً من شقاء الحياة أو تفادياً من الوقوع فى فضيحة أو لسائق غضب أو غير ذلك من الاسباب ومنها التافه ولكنها كلها تدور على احتقار الغربيين للحياة .

قرأت الآن فى « البتى جورنال » ان العلماء بدأوا يتحركون لفقد بعض أجناس من الحيوان كادت تضمحل بسوء تدبير الانسان وظلمه وقسوته وان المجمع العلمى الباريزى قد حصر جلسته الأخيرة فى البحث عن أسباب حماية الفيل والكركدن والحوت والطيور التى تكثر فى البلاد الحارة واتصاد بلاشفقة ليتزين نساء الغرب ريشها واذا لم ينظر فى طريقة تحفظ بها انسال هذه الحيوانات تنقرض بعد بضع سنين لاحالة فيكون الناس أشبه حالا بحكاية من قتل الدجاجة اعتقاداً منه ان فى بطنها بيضة ذهب .

قال صاحب المقالة : منذ عرف العالم مارال الانسان يظلم ويطمع فى القضاء على الحيوانات ويسىء استعمال الأسباب التى جعلتها الفطرة أمامه فلاجل تقع معجل بل وربما كان لجلب سرور بربرى يقتل بدون خشية أنواعا من الحيوانات النافعة التى يحدث من فقدانها اختلال فى ميزانية هذا الوجود . هو يقتل الفيل لان العاج ثمين جداً ويذبح كلب البحر لان جلده يباع بثمن غال ويصيد الجوارح والطيور لان ريشها تزدان به رؤس النساء المتبرجات الخ

وبينا أتصفح هذا وأعجب من رقة شعور القائمين بهذا الأمر وعطفهم على الحيوان وخوفهم من انقراضه مخافة أن يحدث منه خلل فى ميزانية عالم الكون والفساد : اذا بى أرى فى الصفحة الثانية أخباراً من فجائع الطيارات وهلاك الطيارين مما يحدث مثله كل بضعة أيام فى الغرب لان مدنيته لا تشفق بل لا تقوم الا ببذل بعضهم أرواحهم فى سبيل اعلاء كلمة العلم

كان بعض رجال الرحلات من الغربيين منذ قرون يهلكون في الصحاري والقفار أو في القطبين وتجشم أخطار البحار أما اليوم فبعد ان اكتشفوا العالم الأرضي أصبحوا يريدون أن يكتشفوا العالم السماوي كانوا بالأمس يعملون في البسيطة وهم اليوم يريدون أن يسخروا الجو وما ندرى غداً ماذا يخبأ العلم والاختراع من بدائع المستحدثات التي تباع في تحقيقها الارواح بيع السماح كنا بالأمس نقول اذا تلونا سياحة أحد أرباب الرحلات من الغربيين ان كاتب الرحلة في حلم على من عالم الخيال ليرى أنه لقي أهوالاً من سفره ويشهر بن جيله وقبيله ونرجح أن معظمها أشبه بقصة السندباد البحري وحكاية ألف ليلة وليلة بيدان ما نقرأه اليوم بل نشاهده عياناً من أخبار الطيارين في طيارات السماء كاد يدعونا الى تحسين الظن بأكثر ما أورده أرباب الرحلات وان هذه المدنية التي نتمتع بها ان هي الاثمرة الاستهانة بالحياة في سبيل الأغراض الشريفة .

مدنية الغرب تقتل الحيوان لفائدة الانسان بل تقتل الانسان لفائدة الانسان وهذه التجارب التي خص الغربي بطول الروح عليها هي التي نشأت منها أكثر الاختراعات والاكتشافات الماثلة حسنها للبشر اليوم منادية بأن الأمم التي قام أبناؤها بشيء من هذه الاعمال حرة بأن تنال ذروة المجد لأن من سخر قوى الطبيعة الصعبة لمنفعته لا يعسر عليه أن يسخر الانسان للانسان .

مدنية الغرب لا ترحم أحداً ومتى رحم من لا يرحم نفسه . والغرب لا يحزن لفقد ألف أو ألوف من أبنائه قذفاً من الجو وهم يطيطون لانه موقن بأن هذه التجارب تنجلى في النتيجة عن خير لهذا المجموع فمتى نرى أناساً من الشرقيين يتهجون هذا المنهج ويقلدون الغرب في صالح أعماله فان مما ينجل الشرق أن يعمل الغرب كل هذه الاعمال المدهشة وهو نائم باهت وأن يقتل الشرقي أخاه في غرض تافه ولا يقتل نفسه في تحقيق عمل مجيد ومجد مؤثّل

وبعض خلائق الأقوام داء كداء البطن ليس له دواء
يريد المرء ان يعطى مناه ويأبى الله الا ما يشاء

وكل شديدة نزلت بقوم سيأتى بعد شدتها رخاء
ولا يعطي الحريص غنى لحرس وقد ينمي على الجود الثراء
وبعض الداء ملتصق شفاء وداء النوك ليس له شفاء

شكرهم الرجال

٤٢

عرف الغربيون حسن الانفعاع من كل شيء فصاروا إلى زمن هم في العالم
كل شيء لا قول إلا قولهم ولا مدنية إلا مدنيهم التي هي خلاصة مدنيات العالم
بأسره فيها اندمجت مدنية رومية واثينة وبابل واشور ومصر وفينيقية والاندلس
وبغداد وفارس

ان هذه المدنية التي تتمثل لما كل يوم في صور شتى قامت بعقول الرجال
وأعمال الابطال ولذلك كان الحري بالتبجيل مصدر هذا الفضل والمعول الذي كان
عليه المعول في نبث المدفون واختراع المعدوم

يكرم الغربيون رجالهم حتى ليخال الشرق انهم على شيء من المبالغة وأكثر
الامم ايفالا في ذلك الفرنسي على ما رأيت فان رجالهم لقوا من التكريم والتنويه
مالا يكاد يراه أمثالهم في الأمم الغربية نفسها . وأن المرء ليعجب كل العجب من
تغنيهم حتى اليوم بجان دارك احدى فتيات القرون الوسطى التي بزت الرجال
بشجاعتها ودافعت عن وطنها أمام جيوش الفاتحين من الانكليز وإلى اليوم هي
المهاز الاعظم لفتيات فرنسا بل لشبانها تقام باسمها المعابد وتسمى الشوارع
وتنصب التماثيل وتؤلف القصص التمثيلية وغيرها في وصف سيرتها .

ولا بدع فان الفرنسي كما قال برزبان — أشهر رجال الصحافة الاميركية —
ورثوا عن اليونان والرومان نبوغاً كانوا به أدلة وموحين بالافكار للعالم منذ

عهد شارلمان فقد كانوا الاولين في الحركة العقلية السابقين في شجاعة القلب وشجاعة الفكر المجلين في فن الحرب وفن الهندسة وفن الجرأة الطبيعية الخارقة في انشاء السيارات والطائرات وفي عامة الاعمال التي تحتاج إلى عقول لا تخاف وتتطلب اقداماً عليها لساعتها .

قرأت أمس في « الماتين » مقالة جاء فيها أن الفرنسيين يتأهبون للاحتفال بعيد مرور مئة سنة على موت بارمانتيه (يوم ١٣ كانون الاول سنة ١٩١٣) وربما يقل في قراء العربية من يعرفون هذا الرجل ويودون الاطلاع على طرف من ترجمة حياته ليدكنوا على الاقل من هو الذي يعاد ذكره بعد أن نصبت له التماثيل وصيغت باسمه الصفائح التذكارية وأنشئت الجواد والشوارع بل أنشئت قرية باسمه في الجزائر .

بارمانتيه هو مخترع البطاطا في فرنسا أو مدخلها اليها على صورة عم استعمالها جميع طبقات الناس نخدمتهم في اقنصادهم وبيوتهم وتغذيتهم مدة القرن الماضي . كان هذا الرجل من أبناء العامة سافر من بلده مونتبيديه إلى باريز ليسابق في وظيفة صيدلي في الجيش فقبل وأرسل مرات الى ساحات القتال ومنذ سنة ١٧٩٣ حتى يوم وفاته كان يتولى أعظم الوظائف الصحية العسكرية مثل عضوفي مجلس الصحة ومفتش عام وصيدلي أول في الجيش الفرنسي وفي خلال حرب السبع سنين أخذ أسيراً وفي أسره تسنى له أن يدرك ما في البطاطا من المواد المغذية وكانت في معظم الاوقات الغذاء الوحيد له ولاصحابه الاسرى .

حملت البطاطا من أميركا إلى أوروبا من سنة ١٥٨٠ إلى ١٥٨٥ نقلها الاسبانيون أولاً ثم الانكليز من فرجينيا وكانت غير معروفة كثيراً في فرنسا وينظر اليها في الجملة نظر ازدراء . وما زال بارمانتيه منذ استقراره في صيدلية « الاتقاليد » بباريز يكرر في منشورات متنوعة فوائدها ويدفع اعتراض المعارضين بشدة لانهم كانوا يحملون عليه حملات منكرة قائلان ان رأى الناس في البطاطا انها غير صالحة لغذاء الانسان ساقط لا يؤبه له وكذلك دعواهم انها تضعف الجسم وتحوى

الاحطار وعلى العكس فهي لذة للاغنياء ومعوان للفقراء وسلوى في الشدائد .
وكان هذا المحسن مدفوعاً إلى ذلك بالعامل الذي وضعه بعضهم بقوله : لا يكفي
من أراد أن يكون نافعاً لا بناءً جنسه أن يقول لهم مرة واحدة مارآه وما عمله وما يجب
أن يعمل بل يجب عليه أن لا يعمل من تكرار دعوته على صور مختلفة وطرق متنوعة
اللهم الا القوة فانها لا تستحب . ولا تنفع العلوم الا اذا عمت الطبقات كلها .
هكذا كان شأن بارمانتيه حتى انتشرت البطاطا بفضل مساعيه المتواصلة واصبحت
تزرع في أرض تبلغ مساحتها مليوناً وستمائة ألف هكتار في وطنه

ولم يقتصر بارمانتيه على الدعوة الى البطاطا وتوجيهها الى الناس بل كان له أثر
محمود في الخبز والخبازة ودرس الاغذية الرئيسة عند هذه الامة وله العمل المهم
في تنظيم المستشفيات الثابتة والنقالة العسكرية والمدنية الى غير ذلك من أعماله
في تنشيط الاشغال العلمية والصحية والزراعية والصناعات الوطنية ونشر التطعيم
وطبخ الاحسية الاقتصادية هذا الى جمعيات البيطرة والاحسان والمآوى التي كان
عضواً فيها أو مديراً لأعمالها مباشرة بحيث كان كما قال فيه أحد واصفيه السابق
الى كل مكان يمكن العمل فيه كثيراً وأن يخدم بدون عوض ويجمع لعمل الخير
ويتأني لمن يدعوهُ أن يكون على ثقة من أنه باسراكه بارمانتيه في العمل يتسلط
على وقته وقلمه وعلى ماله عند الاقتضاء

هذا هو عمل الرجل وربما يتساءل القارئ وكيف وجد من قلبه متسعاً للقيام
بكل هذه الاعمال التي تحتاج الى بضعة رجال والجواب أن بارمانتيه كان يصحو
باكراً ويجلس الى منضدة عمله في الساعة الثالثة بعد نصف الليل صباحاً . قالت
(الماتين) وما أحق مدارسنا الابتدائية أن تتخذ من هذا الولدان الشعب مثالا
يبحث الهم على العمل فانه قد خرج من مسقط رأسه مستخدماً صغيراً في الصيدلية
لا سند له ولا مال بل ولا تعليم الا التافه القليل وتمكن بعمله المتواصل من بلوغ
المناصب العالية وجلس في الصف الاول بين المحسنين الى الانسانية

أبعد هذا نلوم الفرنسيين اذا غالوا بحمد رجالهم ؟ وهل نشأ لنا نحن ياترى
معاشر العرب نصف رجل مثل بارمانتيه منذ بضعة قرون وكان بسيرته وعمله
حريابان نحتفل به ونذكره بكل شفة ولسان ونخلد اسمه فى سجلات الازمان .

صناعة الفنادق

٤٣

لعل بعضهم يعترض على هذا العنوان فيقول وهل أصبحت الفنادق والاقطار
صناعة حتى تحدثنا بها ولكن من رأى الفنادق فى الغرب ولا سيما فى البلاد
التي يكثر اليها اختلاف السياح كفرنسا وايطاليا وسويسرا مثاليهون عليه أن
يتصور معنى الفنادق فيرى قصوراً شاهقة ذات حدائق غناء مجهزة باجهزة قصور
الملوك أو أكثر وفيها من التحف والالطاف وبدائع الصناعات ما يلفت عقل
البلید دع الحساس الذكى

صناعة الفنادق لا تتمثل حق التمثل الا لعين من كثرت سياحاته الى الاقطار
المختلفة وهناك يدرك خطرها كما يدرك قدر الصحف فيرى ادارة كل نزل أشبه
بديوان كبير من دواوين الدول أو مصرف عظيم أو جريدة منتشرة . واتقان تلك
الصناعة متوقف على العلم الحديث فكلما تأصل فى الشرق والغرب وكثر الترف
والنعم زاد رواء واتقاناً

ان ما نراه فى مصر والشام من اتقان بعض الفنادق ان هو الا جزء مما أوجده
العلم فى القارة الأوربية والأميركة وفى مقدمة الأمم التي استفادت من فنادقها
وأحسننت القيام عليها الامة السويسرية حتى سمي بعض الفرنسيين أهل سويسرا
« الفندقيين » تحقيراً لهم مع أن هذه الصناعة كغيرها مما لا يثلم الشرف ولا يعيب
بالمروءة شريفة فى ذاتها ولا يعد التوفر عليها سبة وطاراً . وكفى السويسريين بان

أهم الفنادق في إيطاليا وغيرها بأيديهم يديرونها ولا يفوقهم أحد في هذا الشأن .
ليس الفندق أو النزل الحديث كما يتخيل بعضهم عبارة عن خان من الخانات متقن
بعض الشيء فإنه قد يوجد في الفنادق الحديثة من أسباب الرفاهية والنعيم مالا
يوجد مثله في قصور العظماء . الفندق الحديث هو معهد مؤلف من عدة أمور
تحتاج حسن سيرها الى عناية وملاحظة ، خذ لك فندقاً متوسط الكبر تجد فيه
بحسب طبقته ومساحته أعمال الكهرباء (مراجل ودينامو) وآلات التدفئة
والتهوية وأدوات لاستخراج الجليد وحجراً مبردة وأفراناً للخبز والحلويات وآلات
للتصعيد ومطبعة ومكتباً للبريد والبرق واصطبلات ومحال لحفظ المركبات
والسيارات وعقوداً وقد يساوى ما يحويه الفندق من المواد مئات الألوف من
الفرنكات تكفي النزل الشهرين والثلاثة ومعملاً للتصليح ومحل نجارة وحدادة
الى آخر ما هنالك مما لا مقابل له بالعربية لاتعبير عنه .

والفندق خدام يقومون على غاباته وحدائقه ومتنزهاته وطرقاته وسواق تامة
أدواتهم لنقل الأمتعة والاثقال منه واليه على الخيل أو السيارات . ورجال ادارته
أكثر من رجال وزارة قنهم المستقبلون والقائمون على اعطاء التعليمات لمن يطلبها
ومنهم العارفون بالسكك الحديدية وآخرون للمحاسبة وبعضهم للصحة وغير ذلك
فالفندق مستعمرة صغيرة ينقسم أقساماً قد يختلف عدد القائمين بأعماله من
١٠٠ الى ٣٥٠ شخصاً . ومدير الفندق سواء كان مالكة أو مديره مسؤول عن
كل ما فيه يديره ويعنى به ويمونه ويلاحظه ويسأل عن كل غلط يأتيه رجاله
العاملون بإشارته أو النازلون عنده . والقانون يسأله وحده فقط عن كل ما يحدث
ولذا لا يكون صاحب الفندق في الغرب رجلاً عادياً يكتفى منه أن يكون حسن
البزة طارفاً بالقراءة والكتابة والحساب بشوشاً مؤنساً بل هو رجل متعلم من
الدرجة الأولى يحسن ادراك ألوف من التفاصيل في ادارة تحتوي غرائب معقدة
بحيث يكون أهلاً لأن يتصرف في الحوادث اليومية التي قد تقع اضطراراً في
عمل يحوى في جملته أعمالاً صناعية وتجارية مختلفة وليست الادوات التي يقوم بها

الفندق ميكانيكية بل عقلية قد تتعارض فلا بدع اذا طلب هنا من صاحب الفندق أن يكون مهندساً نقاشاً سياسياً تاجراً بل طبيباً للأرواح والاشباح

عرفت الامم الممدنة مكانة هذه الصناعة فجعلت لها المكان الاول في حياتها الاقتصادية والتجارية والصناعية وفتحت المدارس لنعائها كما فتحت مدارس لتدبير المنزل الذي تتوقف عليه حياة البيوت وسعادتها وغبطتها . ولقد كانت النفس تحدثني وأنا أشهد من لذاذة الحياة في فنادق الغرب ومساكنه (بانسيون) وحداقة طياتها ونظافة خدامها وخداماتها بان يأتي أناس من الطبقة المستنيرة المثيرة من أبناء بلادى ليروا شاهداً عيانياً محسوساً على ترقى الغرب وتدننى الشرق ويفاضلوا اذا رجعوا الى أهلهم بين حالنا وحال غيرنا وينقلوا بعض ما يمكن نقله من أسباب النظافة وحسن تحضير المآكل وتنويعها وجمال السرر وبساطتها والغرف وفرشها والمقاعد والخزائن والمفاسل والحمامات وأما كن الاطمئنان وغير ذلك من أساليب الراحة والنعيم الذى لم يظفر ببعضه أغنى الاغنياء فينا اللهم الا بعض عقلاء الكبراء فى الحواضر الكبرى وخصوصاً فى مصر .

ولكم كنت أشتبهى أن يأتي بضعة شبان ممن سبق لهم الخدمة أو المظرفى فنادق مصر والشام واحتلطوا بالافرنج وعرفوا خصائصهم وتألقهم فى مطعمهم ومنامهم وملبسهم أن يقضوا ولوا شهراً فى الفنادق الكبرى ويحضروا ولو سنة دروس مدرسة الفنادق وتدبير المنزل فى سويسرا وأظن أن من يفتح فندقاً ويحسن النظر فيه بحيث يضاهى به أو يكاد فنادق الغرب المتوسطة ينفع نفسه وأمته فى اقتصادياتها أكثر من ألف موظف فى الحكومة متوسط المعارف لايهمه الا رضا من سبقه فى الدرجة وانتظار آخر الشهر لقبض الراتب .

سورية بمناخها تشبه سويسرا ولكن هذه تأخذ فى السنة من المصطافين والمشتين فيها قناطير مقنطرة من الذهب وذلك لانها عرفت من أين تؤكل الكتف فى خدمة الناس وتوفير أسباب الهناء والصفاء لهم بحيث يتأتى للمرء أن يكون فى الفندق سعيداً كما هو فى بيته وزيادة . وان اتهم بعضهم الدماشقة بالافتكر ون

في غير الاكل والنوم وان هذه العادة غالبية عليهم ولكن يشفع في ذلك حالة الغرب واهتمامه بهذه الشؤون الحيوية أيضاً وان يكن الفرق بيننا وبين غيرنا اننا نكثر التفكير في ذلك وهم يجعلون له وقتاً لا يبحثون فيه بغيره والسلام

رجال الكتلكتة



يجدر بنا ونحن في مهد انتشار الدين المسيحي وكل ساعة يقع نظرننا على قساوسته ورهبانه ونرى ييمه ونسمع أجراسه أن نحدث قومنا بعمل هؤلاء الرجال وتقانيهم في واجبهم

من يمر في شوارع رومية يجد الرهبان والقسوس سائرين زمراً زمراً ويجدهم على الجملة يحلقون شواربهم ولحاهم ويلبسون لباساً أسود في الاكثر على عادتهم في الشرق ويختلف هذا اللباس فالالمان والمجريون منهم يلبسون أردية حمراء فقط والفرنسيس والانكليز يلبسونها سوداً والايكوسييون سوداً مع زناير زرقاء وياقات سوداء والبايجيكيون يلبسون سوداً فيه شيء من الحمرة والبولونيون يكتسون السواد وغياراً أخضر والبوهميون سوداً وغياراً مروجاً بزرقة فاتحة واليوتان والروتنيون يلبسون زرقه وزناير حمراء مبقعة بزرقة وقسوس أميركا الجنوبية يلبسون الاسود مع غيار أزرق وبطانة زرقاء والاميركان يلبسون لباساً أسود واسع الاكمام والاردان وغيارا احمر وأعضاء الدعوة الى الدين يلبسون أردية سوداء مع غيار وبطانة هما الى الحمرة

هذا هو الشكل الظاهر في طلاب المدارس الاكليريكية الذين يأتون من أنحاء العالم الكاثوليكي ليدرسوا ويتخرجوا بآداب دينهم ثم يعودوا الى بلادهم أو غيرها يعملون ويرشدون . وهم قسمان قسم القسوس وهؤلاء يتعلمون في مدارسهم وبعد الدرس يذهبون الى منازلهم وقد يعيش بعضهم بين أهله وذوى قرباه فمن

هؤلاء لا يطلب الا أن يسيروا بموجب القواعد المقررة وهم أحرار فيما عدا ذلك أما الرهبان فدأثرتهم أضيق لانهم يعيشون في مدرسة واحدة مع أقرانهم ويطعمون طعاماً واحداً ويكون في الاكثر طعام تقشف ولا يخرجون الا برخصة أى أن هؤلاء مقيدون كثيراً ولا قيد صغار الطلبة في المدارس الداخلية

والرهبنة أقسام منها الفرنسيسكانيون والدومنيكيون واليسوعيون والعازريون وغيرهم ولهم أنظمة وقوانين مشوا عليها منذ قرون وأفادوا النصرانية بنشرها في البلاد التي لم تدخلها ولا سيما في الصين والهند واليابان وأواسط افريقية وغيرها من البلاد النائية

وكان لليسوعيين يد طويل في هذا الشأن وهم بين الرهبان والقسوس أى أنهم يترفعون ويأكلون ما يشاؤون لكنهم يأوون الى بيت خاص خلافاً للرهبان الذين يأكلون كلاً معيناً وخلافاً للقساوسة الذين يأوون الى بيوتهم واليسوعيون أشبه بجند منظمون على نظام غريب لم يختل على كثرة ما نالهم من اضطهاد الحكومات في الازمان السالفة

قال الامير بورغزه في كتابه « ايطاليا الحديثة » : أن تأسيس طغمة اليسوعيين المشهورة هو من غرائب النظام الحقيقي فتراها جمعية مؤلفة من عناصر مختارة تخضع على الدوام لادارة الرئيس مباشرة والداخل فيها يربى على الطاعة بالتدريج والخروج المطلق عن شخصيته وارادته . ويتراءى للناظر في نظامهم أن واضعه جندي فان كل شيء فيه يشعر بالنظام . وقال أن نظام هذه الرهبة ربما جرى في وضعه اغناس لويولا مؤسس اليسوعية على قواعد بعض الجمعيات الاسلامية التي كانت مشهورة في الالانداس فبنى نظام رهبنته على طاعة لا نهاية لها فتوصل بهذه الصورة أن يؤلف جيشا يتصرف به رؤساؤه تصرفاً مطلقاً وتقنى ارادة صغيرهم في كبيرهم

ولمعظم الرهبان والقسوس أعمال علمية وغيرها يتعاملونها ويرزون فيها فاذا انقطعوا للتدريس تخرج بهم طلاب كانوا صورة صحيحة منهم واذا أخذوا بالتأليف

قد يعدون من كبار المؤلفين ولذا ترى الناس في ايطاليا وفي غيرها كثيراً ما يفضلون أن يربى أولادهم على أيدي القسوس وان كان آباؤهم ملاحدة مارقين من دينهم

ترى الرهبان اذا أخذوا بالزراعة والصناعة ربما سبقوا من تخرجوا فيها أعمارهم والحكومة هنا قد جعلت رواتب لقسوس الطليان كما عينت راتباً للحرير الاعظم منذ يوم أخذت حكومة الوحدة الايطالية أزمة الامر بيدها واستولت على أموال الرهبانات وكنائسهم وأوقفهم سنة ١٨٧٠ لان جميع مرافق البلاد المهمة كانت بأيديهم اذ ذاك فغيرت بعض المعاهد وجعلت بعضها مدارس ومتاحف ودواوين حكومة وثكنات للجند وغير ذلك وحظرت على أى جمعية دينية امتلاك ملك الا أن لرئيس الجمعية أن يملك ما يشاء وقد عادت الملة النصرانية فأخذت تدر المال على رجال الدين بعد الوحدة الجديدة ولذا تراهم يعيشون عيشاً حسناً وأديارهم وكنائسهم منظمة ووارداتهم دارة نامية والفضل في ذلك يرجع الى المتدينين من أغنياء الكاثوليك في العالم

قلنا أن الحكومة الايطالية عينت منذ زهاء أربعين سنة راتباً لامام الاحبار ولكنه لم يقبله بعد أن نزعته منه السلطة الزمنية وكانت بيده هي والسلطة الروحية بيد أن الحكومة وضعت المبلغ تحت أمره في المصارف وفي كل خمس سنين ترفع منه الفائدة فقط وتبقى رأس المال بحاله الذي يزيد كل سنة حتى يبلغ فيما بلغني (١٨٠) مليون فرنك وحضرة البابا لا يريد أن يتناوله وهكذا هو وأسلافه وسيتعفف أخلافه عن أخذ مال ممن يرونهم غاصيين حقهم معتدين على سلطتهم ان انشقاق المانيا وانكلترا وغيرهما عن الكنيسة الكاثوليكية بقيام أمثال جان هوس وكلفن ولوثيروس في أوائل القرون الحديثة وتلك الازمة التي دخل فيها المقام البابوي اذ ذاك لم تؤثر كثيراً في سلطته على الارواح والاشباح وكذلك تغلب الحكومة الزمنية في ايطاليا على جيش البابا لم يؤثر كثيراً فبقى مقام حضرته مقدماً وكذلك الكرادلة والاساقفة والقسس والرهبان وذلك لان عمل هؤلاء

الرجال قائم على أنظمة وقواعد معينة لا تغيرها الطوارئ والزاي ولا هذه السلاسل في مراتب الكهنوت لا يصل إليها المرید الا بالتعلم والتهديب على الاصول المنبئة وكل ما جعلت التربية والتعليم أساسه يثبت ويم أثره ويوفق الناهضون به

ولقد لاحظنا أن الفتن الدينية التي أثارها التعصب الديني في القرون الوسطى كانت في إيطاليا أقل مما هي في فرنسا واسبانيا حتى أن الاسرائيليين في اسبانيا لما ذاقوا العذاب الاليم جلوا عن بلادهم فكان من إيطاليا أن قبلتهم وهذا ناشئ من لين أخلاق الشعب هنا ويرجح أن كل ما وقع من الاضطهادات لم يكن مما وقف الرؤساء على حقيقته

ولو رجعنا الى تراجم أكثر عظماء هذه الملة من بابوات وكرادلة ورؤساء اساقفة لوجدنا كثيرين منهم خدموا المدنية والآداب خدمة تذكر فتشكروا كانوا كذلك يوم كانوا ملوكاً زمنيين وروحيين ويوم أمسوا روحيين فقط فقد حدثنا التاريخ أن الباباليون العاشر في القرن الثالث عشر للميلاد وهو من أسرة ميديسيس المفضلة على العلم قد وسع نطاق الآداب وبث كلمة العلم حتى عد قرنه القرن الذهبي وكان يبسط جناح حمايته للمصورين والنقاشين والمهندسين والادباء ويفضل عليهم وبالطبع أن من يأتي بعده في الدرجة يحاول أن يقلده في محامده . والله أعلم

العرب والطلاب

٤٥

وصل العرب الى بلاد الأمة التي هي واردة الرومان منذ القدم أوائل عهد فتح أفريقية وما برح العرب يطمعون في فتح جزيرة صقلية ^(١) لقربها من الشاطئ

(١) وصف ابن جبير الاندلسي في عودته من الشرق ما قاسوا من البحر قرب مسينة حتى كادوا يفرقون وقال

المقابل لأفريقية حتى تم لاسد ابن الفرات فتحها سنة ٢١٢ هـ قال المؤرخون

أن قد وقعت الصيحة في المدينة فخرج ملك صفلية غليام بنفسه في جملة من رجاله قال ومن المحبان هذا الملك الرومي المذكور أ بهر فراء المسلمين يتغامون من المركب وليس لهم شيء يؤدون في نزولهم لأن أصحاب الرواريق أغلوا الداس في تخليصهم فسأل عنهم فأعلم بقصتهم وأمر لهم بمائة رماح من سكتة يملكون بها وحلص جميع المسلمين عن سلام. ووصف مدينة مسينة فقال أن أسواقها مائة حافلة وأوراقها واسعة وأعداد العيش كميلة لا تزال بها ليلا ونهارا في أمان وإن كنت غريب لوجه واليد واللسان وقال أن مرساها أمين عجيب لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر حتى تسكاد تمسه وتنصف فيها إلى البر خشية يتصرف عليها. ووصف مدينة برة ووصف بلارمة قاعدة جربة صفلية وما في من المسامد وسرقوسة. وقال أن شأن ملك صفلية عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتحاد الفتيان المجاييس وكلامهم أو أكثرهم كاتم لحالته متمسك بشريعة الإسلام وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشماله حتى أن الناطق في مطبخه من المسلمين وله جملة من العميد السود المسلمين وعليهم قائدهم ووزراؤه وحجابه الغنيان وله من جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتمون خاصته وعليهم يلوح رونق مملكتهم لأنهم يتسمون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة وما منهم إلا من له الماشية والخيول والاتباع قل وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوائمه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفجيم أسبه الملك وأطهار زيتته عملوك المسلمين وملكه عظيم جدا وله الأطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى أنه متى ذكر له أن طبيباً ومنحما اجتاز ببلده أمر بأمساكه وأدركه أرزاقه مديته حتى يسليه عن وطنه وسه نحو الثلاثين سنة ومن عجيب شأن المنحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلناه به أحد خدمته المختصين به الحمد لله حق حمده وكانت علامة أبيه الحمد لله شكر الألفه وأما جواربه وحطايه في قصره فسامات كلين . ومن أعجب ما حدث به خديمه المذكور وهو يحيي سقن الطراز وهو يطرز بالذهب في طراز الملك أن الأفرنجية من النصرانيات تقع في مرة فتعود مسلمة تعيدها الخواري المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن في ذلك كله وهن في فعل أخيراً مورعجة وأعلناه أنه كان في هذه الحربة رلازل مرجمة دعرها هذا الملك فكان يتطلع في قصره فلا يسمع إلا إذا كرا لله ولرسوله من نسائه وفتيانها وما خفتهم دهشة عذرويته فكان يقول له ليدكر كل أحد منكم معبوده ومن ندين به تسكيننا لهم وأما فتياه الذين هم عيون دولته وأهل عمالته في ملكهم مسامون ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعاً أو أجراً أو يتصدق تقرباً إلى الله وترلاً ويفتت الأسرى وربى الأصاغر منهم ويروجهم ويحسن إليهم ويفعل الخير ما استطاع .

وذكر مدينة شفلودي وثرمة من حريرة صفلية فقال في ثرمة سرننا في طريق كاتب السوق عمارة وكثرة صادر ووارد وطوائف التصاري يتلقوننا بالسلام علينا ويؤنسونا بأيمان من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة في نفوس أهل الخلل . وكانوا يكلمونه بالعربية وقال أن زى الصرايات في مدينة صفلية زى نساء المسلمين فصريحات اللسن منحنفات متنقيات خرجن والميدوقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحنن الأحف الراقية والتعبن بالنقب الملونة واستعلن الاخفاف المدهية ورزق لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والخصب والتمطرقتدكر ناعلي جهة الدعابة الادبية قول الشاعر
 أن من يدخل الكنيسة يوماً يلق فيها جازراً وظباء

ونموذ بالله من وصف دخل مدخل الانو وؤدى إلى أبا طيل الله ونمودبه من تقييد يؤدي إلى تنفيذ أنه سبحانه هو أهل التقوى وأهل المغفرة اه

كان ابتداء حصار بلرم عاصمة صقلية في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة ومائتين ودام الى شهر رجب سنة عشرين ومائتين وفتحت بالامان وفي سنة خمس وعشرين ومائتين استأمنت قلاع كثيرة من قلاع جزيرة صقلية منها حرصه وقلعة البلوط واللاطنوا وقلعة ماروب ومرنا وغير ذلك

وهذه القلاع مازال بعضها الى اليوم أسماء مدن تبدأ بـ « قلنا » أي قلعة فيقولون قلنا جيرونة وقلنا بلونة وقلنا لستا وكلها من تلك الحصون والقلاع بقيت أسماءها كما بقيت أسماء كثيرة عربية في لغة سكان هذه الجزيرة فيقولون مثلاً « منديللو » للمنديل وغير ذلك مما يشهد بأن العرب حكموا هذه الجزيرة قرنين ونصفاً وأثرت في أهلها مدنياتهم ولسانهم وعاداتهم كما هي عاداتهم في كل ممالكهم

راجت حضارة العرب زمناً في صقلية ومنها تسربت الى البلاد المجاورة فكان يرشح منها شيء كثير الى الأقرب فالأقرب من البلاد ولعل تلك الحضارة راجت أيضاً في جزيرة قورسقة وأهلها يتكلمون بالاطالية أيضاً وهم اليوم تحت حكم فرنسا . وملك العرب جزائر ميورقة ومنورقة المعروفة بجزائر البالايار ويابسة « المقتبس م ٧ ص ٦١٩ » وكانوا ينزولون شطوط اسبانيا وفرنسا ولا عجب بعد ذلك اذا دخلت كلمات عربية كثيرة في لغات الفرنسيين والاطاليين والاسبان والبرتغال

ومن يعلم ان تلك الجزائر مما ارتفع عليه علم الاسلام وان اقريطش (كريت) وقبرص ورودرس ومالطة كان حظها كذلك يعرف أن العرب كانوا رجالاً في البحر كما هم رجال في البر وانه لا سبيل الى الامن من الداخل اذا لم يحفظ الساحل بالجزائر والموانئ والفرض ولطالما كانت الحكومات تمتلك الساحل فلا تلبث أن تبسط سلطانها على الداخل .

كان الادارة حكام تونس هم المتكلمين بغزو جزيرتي سردينيا وصقلية ففتحوا صقلية وكذلك ملوك جزائر الغرب أخذوا على عهدتهم غزو منورقة

وميورقة فاستولوا عليهما وعامل العرب الايطاليين والاسبانيين بالحسنى على نحو ما يأمر به دينهم ولما رأى الايطاليون هذه المعاملة لم يشاؤا أن يغيروا شيئاً من مصطلحاتهم حتى ان الملك رجار الذى عاد فاستولى على صقلية سنة ٤٨٥ كان يتكلم بالعربية وهو الذى أفضل كثيراً على الشريف الادريسى الجغرافى الذى وضع كرة أرضية بالفضة كانت من أعاجيب القرون الوسطى دهشت لها أجيال الافرنج كلهم كما دهشوا للساعة الدقاقة التى أهداها أمير المؤمنين الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا .

قال الادريسى فى رجار هو الملك المعظم رجار المعتر بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وايطالية وانكبردة وقلورية أمام رومية الناصر للعملة الناصرية اذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً

ولقد كان أهل الشرق على صعوبة ركوب البحر فى أيامهم يرحلون الى بلاد ايطاليا كما يرحلون الى الاندلس فيكتبون عليها فى رحلاتهم ماتقع عليه أنظارهم ومن زار بعض ايطاليا الجغرافى ابن حوقل فقد قال ان مدينة ملف « ويقال لها الآن ملفى » تتصل بأرض نابل وهى مدينة صالحة بحال دون ملف فى كثير من الأحوال وأكثر أموال نابل من الكتان وثياب الكتان وقال انه رأى بها ثيابا لم ير فى سائر أقطار الأرض لها شبيهاً ولا يستطيعها صانع فى جميع طرز الأرض وهو ثوب يعمل مائة ذراع فى خمسة عشر الى عشرة ويباع الثوب منها بمائة وخمسين رباعى وزائد وناقص .

ووصف ابن حوقل صقلية فقال ان طولها سبعة أيام فى أربعة أيام والغالب عليها الجبال والقللاع والحصون وجميع أرضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة معروفة غير المدينة المعروفة بيلرم وهى قصبة صقلية على نحر البحر من الشمال وهى خمس جادات محدودة غير متباينة ببعيد مسافة وان كانت حدودها ظاهرة فمنها المدينة الكبرى التى تسمى بلم عليها سور من حجارة مانع شامخ يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الاكبر وكان بيعة للروم وفيه هيكل عظيم

ومدينة تعرف بالخالصة ذات سور أيضاً من حجارة وليس كالسور الأول يسكنها السلطان وأتباعه وفيها دار صناعة البحر والديوان

وبعد أن وصف أسواقها وباعثها استطرد الى كثرة مساجدها وقال ان فيها نيفاً وثلاثمائة مسجد وفي قرية البيضاء مائتا مسجد قال ولم أر مثل هذه العدة في بلد من البلدان الكبار على ضعف مساحتها ولا سمعت به وقد رأى على مقدار رمية السهم نحو عشرة مساجد يدركها البصر ومنها شيء تجاه شيء وبينها طريق قال وسألت عن ذلك فقبل لي ان القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحب كل واحد منهم أن يكون له مسجد مقصور عليه لا يجب أن يشركه فيه غير أهله وحاشيته وربما كان اخوان منهم متلاصقة داراهما متصاقبة الحيطان فعمل كل واحد منهما مسجداً لنفسه ليكون جلوسه فيه وحده وفي جملة هذه العشرة مساجد التي ذكرتها مسجد لولده ابتناه ليتفقه فيه وغرض كل واحد منهم أن يقال مسجد فلان لا غير . قال وبها رباطات كثيرة على ساحل البحر مشحنة بالبطلين والفساق ووصف أبواب بلرمة التسعة وقال ان هذه المدينة مستطيلة ذات سوق قد أخذ من شرقيها الى غربيها يعرف بالسماط مفروش بالحجارة عامر من أوله الى آخره بضروب التجارة .

ووصف الشريف الادريسي جزيرة سردانية فقال انها كبيرة القطر كثيرة الجبال قليلة المياه وطولها مائتان وثمانون ميلا وعرضها من المغرب الى المشرق مائة وثمانون ميلا وطولها ماراً من الجنوب الى الشمال مع قليل تشريق وفيها ثلاث مدن منها الفيطنة وهي مما يلي جنوبها وهي مدينة عامرة ممدنة ومنها مدينة قالمة وهي رأس المجاز الى جزيرة قرسقة ومدينتها الثالثة تسمى قشنالة وأهل جزيرة سردانية في الاصل روم أفارقة متبربرون متوحشون من أجناس الروم وهم أهل نجدة وحرم لا يفارقون السلاح وفي جزيرة سردانية معادن الفضة الجيدة ومنها تخرج الفضة الى كثير من بلاد الروم وبين سردانية وجزيرة قرسقة مجاز طوله عشرون ميلا

ثم وصف جزيرة قرسقة وجزيرة البتة وبانوسة وقبريرة وقبرة وشكلة وبذت
برة ومونسة وبونسة واسترنجوج وجزيرة البركان ووليبر وندندمة وفيكوذة واركوذة
واشتقة وجزيرة الراهب واليابسة وغيرها وقال في وصف مدينة بلرم : وبها حسن
المباني التي سارت الركبان بنشر محاسنها في بناتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها
وهي على قسمين قصر وربع فالقصر هو القصر القديم المشهور نخره في كل بلد
وأقليم وهو في ذاته على ثلاثة أسمطة فالسماط الاول يشتمل على قصور منيفة ومنازل
شايخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت النجار الكبار
والسماطان الباقيان فيهما أيضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية

وذكر القزويني في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات مدينة رومية فقال
انها مدينة رياسة الروم وعلمهم وهي في شمالي غربي انقسطنطينية وبينهما مسيرة
خمسين يوما وهي في يد الفرنج ويقال لملكهم ملك المان وبها يسكن البابا الذي
تطيعه الفرنج وهو عندهم بمنزلة الامام الذي يكون واجب الطاعة ومدينة رومية
من عجائب الدنيا لعظم عمارتها وكثرة خلقها ذكر الوليد بن مسلم الدمشقي ان
استدارة رومية أربعون ميلا في كل ميل منها باب مفتوح فمن دخل من الباب
الأول يرى سوق البيطرة ثم يصعد درجا فيرى سوق الصيارفة والبزازين وذكر
ان بين يدي السوق سوق آخر على أعمدة نحاس كل عمود منها ثلاثون ذراعا وبين
هذه الأعمدة نقير من نحاس في طول السوق من أوله الى آخره فيه لسان من البحر
تجري فيه السفن فتجيء السفينة في هذه النقرة وفيه الامتعة حتى تجتاز على
السوق بين يدي التجار فتقف على تاجر تاجر فتختار منها ما تريد ثم ترجع الى البحر.
وذكر أشياء عجيبة عن كنيسة وقال ان فيها عشرة آلاف دير للرجال والنساء
وبها جامع لمن يلتمس صنوف العلم من الطب والنجوم والحكمة والهندسة وغير
ذلك قالوا انها مائة وعشرون موضعا قال وقد مثل في الكنيسة صورة كل نبي
بعث من وقت آدم الى عيسى عليه السلام وصورة مريم عليها السلام كأن الناظر
اليهم يحسبهم أحياء وحكى أن أهل رومية يخلقون لحاهم ووسط هاماتهم فسلوا

عن ذلك فقالوا لما جاءهم شمعون الصفا والحواريون دعوهم الى النصرانية فكذبوهم وحلقوا لحاهم ورؤوسهم فلما ظهر لهم صدق قولهم ندموا على ما فعلوا وحلقوا لحي أنفسهم ورؤوسهم كفارة لذلك

وممن رحل الى ايطاليا جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضى القضاة بحماة وكان اماماً مبرزاً بالعلوم العقلية عارفاً بالمنطق والهندسة والاصول والفقه والهيئة والتاريخ توفى سنة ٦٩٧ هـ ذهب هذا رسولا الى صاحب صقلية من قبل الملك الظاهر بيبرس الصالحى وذكر أنه أقام عنه وفي مدينة من مدائن البر الطويل المتصل بالاندلس من مدينة أنبولى واجتمع به مراراً ووجده متميزاً ومحباً للعلوم العقلية يحفظ عشر مقالات من كتاب افليدس قال وبالقرب من البلد الذى كنت فيه مدينة تسمى لوحارة أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية يقام فيها الجمعة ويعلمون بشعار الاسلام

وفي هذا القرن كان الايطاليون هم رجال التجارة والاساطيل فى البحر المتوسط وكانت لسكان بيزه وهم من إقليم طوسكانيا تجارات واسعة فى الشام وقال ياقوت أن السعة ظاهرة عليهم وجمهوريات بيزه وجنوة والبندقية هى أكثر البلاد الايطالية فى القديم والحديث اختلاطاً بالشرق ولما كان الطليان يأتون بلاد مصر والشام وسواحل البحر المتوسط منتجعين للرزق والاتجار كانت بقية أمم أوروبا غائصة فى مفاوز الجهالة

نشر المستشرق ميشيل امارى فى مدينة فلورنسة الشروط والعقود السياسية بين ملوك بيشة (بيزه) وفلورنثه (فلورنسة) أو أفلورنسا وبين ملوك المسلمين فى تونس والغرب الاقصى ومنها عقد من الملك قايتباى للفلورنتيين ذكر فى شروط البنادقة أن تجار المسلمين يبتاعون من تجار البنادقة اصنافاً من متاجرهم من جوخ وصوف وغير ذلك وآخر هذه العقود سنة عشر وتسعمائة هجرية وأولها فى منتصف القرن السادس

وهكذا عاد العرب فاستخلصوا بلادهم من الطليان فكان الاختلاط على أتمه بين الامتين ولا سيما عندما تضع الحرب أوزارها وكثيراً ما كان رسل ملوك

الاسلام يأتون ايطاليا فقد ذكروا أن ابن خلدون المؤرخ جاءها رسولا من قبل صاحب تونس وصوره الطليان اذ ذاك على الحجر وجاءها في القرن الحادى عشر الأمير نخر الدين المعنى صاحب لبنان وأقام بها عدة سنين ملتجئاً ووصف عمراتها بالضخامة وتقن أهلها في النقش والرسم والبناء

ولا يتسع المجال هنا الى ذكر كل من زاروا ايطاليا من العرب ومن زاروا من الطليان بلادنا الى هذا العصر . ولقد كانت اللغة الايطالية في مصر والشام معروفة أكثر من الافرنسية والانكليزية الى منتصف القرن الماضى ثم تراجعت وخلفتها هاتان اللغتان

هذا وكان رجال الدين من كاثوليك الشرق يختلفون الى رومية منذ القديم ويتعلمون لغتها ويدرسون الدين فيها وهم أكثر من أن يحصوا وفي مقدمتهم السمعاني اللبناي المشهور واللبنانيون الموارنة على ما يظهر أشد الكاثوليك رغبة في المهاجرة الى رومية وتاريخ رجال الكهنوت عندهم شاهدة بذلك

لذا نذكر القرييين

٤٦

قرأت في الصحف الباريزية أن أمبراطور المانيا منع ضباط مملكته من رقص « التانغو » « وألوان ستب » في الحفلات الرسمية وكذلك فعل ملك الانكليز وهما رقصتان قيل انهما من أصل أميركي في أقصى ما يكون من الخلاعة خلافا للرقص الذي اعتاده الاورييون في حفلاتهم الراقصة خاصة كانت أو عامة ولعل الآن بعضهم يقول وأنت الآن تحدثنا عن الرقص وأمامك محيط أوروبا وكله مما يستملى القرائح معها كانت كلية للكتابة والتأمل . نعم أن البحث في الرقص هو مما يجب البحث فيه أيضا لشرقي يبحث في مدنية الغربيين اننا بحسب عاداتنا واصطلاحنا سكان المدن العربية لا البوادي ننكر الرقص

ونعده حطة ولكن الغربيين يرون غير رأينا فيه . يرونه من الحاجات الطبيعية لبسط النفس ولذلك لا تكاد ترى الكبير والصغير والرجل والمرأة الا ويعتادون الرقص على أنواعه من غير تكير اللهم الا رقص التانغو وألوان ستب فان العقلاء أنكروه لانه باعث الشهوات البهيمية ومخرج للرقص عما وضع له

والرقص ^(١) في الغالب يكون على ايقاع النغمات الموسيقية على لحن متساوق وربما أشفع بغناء . فالرقص والموسيقى والغناء هي من المستحبات وربما تجوزنا وقلنا من الواجبات في بلاد الغرب لا يعد الفتى ولا الفتاة من أهل الظرف بدون الاخذ بحظ وافر منها فكان الغربيين رجعوا في مدينتهم الى الفطرة الاولى وذلك لاننا نرى سكان البوادي في الشرق أيضا يرقصون ويغنون ويضربون بطبل أو ينفخون بمزمار . أمور يأتونها على الفطرة وعلى حالة أولية ولكنها على كل حال تدل على أن سكان غير المدن في شرقنا أقرب الى الفطرة من المتحضرين

كانت الطبقة العالية من رجالنا أيام رقى العرب في الاندلس ومصر والعراق والجزيرة وفارس وغيرها من البلاد التي تأصلت فيها الحضارة لا تستنكف من الضرب بالعود أو غيره من أدوات الطرب أو ترفع أصواتها بالغناء ولا من ينكر عليها ذلك ولطالما كنت ترى بينهم الفقيه والمحدث والطبيب وصاحب الوقار من القضاة والعمال

انحطت الحضارة عندنا والفنون الجميلة آخر ما تستعيد به الامة الناهضة وأول ما تنقده المنحطة وما الغناء والموسيقى الا من الفنون الجميلة فارتقاء صناعة الغناء . الموسيقى في أمة دليل ارتقاها فهما محركان عظيمان لارواح أبنائها ومهما زان فويان لترقية شعورهم وتحسين عواطفهم يهرفون فيهما آونات الفراغ فيدخل بهما السرور على القلوب .

(١) قال طاش كبرى في مفتاح السعادة : علم الرقص وهو علم ناخذ عن كيفية صدور الحركات الموزونة عن الشخص بحيث يوجب الطرب والسرور لمن يشاهدها وهذا من العلوم التي يرغب فيها أصحاب الترفه والاغنياء والامراء ومن يجرى مجرى هؤلاء من أصحاب الملاهي ويعلمونها الغلمان الحسان والجواري المائعات ليلتذ السمع والبصر مما بمشاهدة حسنهن واستماع نغماتهن وغنجهن حتى تكمل اللذة والحبور والفرحة والسرور وأهل الهند ماهرون في أنواع الرقص ولهم فيها يد طولى الا أن هذا العلم محرم في شريعتنا وقد قيل التلذذ بالغناء وضرب الملاهي كفر اه

تصدر هذه العجالة من بلاد هي مهد الرقص والغناء والموسيقى ، من أرض
أين اتجهت في حواضرها وبواديها تجدها تطرب وتتغنى ، من بلد قام فيها من
الموسيقين القدماء أمثال روسيني وبلليني ودونيزيتي ومن المحدثين أمثال فردى
وبوتشيني وماسكانيه وليون كافاللو ومن المغنين في المحدثين بونشى وماركونى
وكاروسو وديلاوكا وباتستيني وغيرهم من المغنيات والموسيقيات ممن أعظمت
الأمة منزلتهم واحلتهم في منزلة علمائها وفلاسفتها ورجال نهضتها

وكل ما نراه من الموسيقى ونسمعه من الغناء يكون على ضرب « النوتة »
بادوار وتقاطيع مخصوصة وهو ما لم يتم حتى الآن عند العرب اللهم الا الموسيقى
الوترية في مصر ولما يعم استعمالها فاذا أصبحت موسيقانا وغنانا ضمن دائرة
القانون يكون قد وضع الحجر الأول في أساس نهضة هذه الفنون الجميلة في
شرقنا العربى على نحو ما جرى عليه سكان الاستانة وأفلحوا فيه من تقليد الاوربيين
في موسيقاهم وغنائهم .

الموسيقى والغناء هما مثل من حالة النفس ومن لا يريد أن تكون نفسه شفافة براقية
حساسة ولكل أمة غناؤها قد تتبرم به الأمة الأخرى وتعدده منكرآ ولكنه
يفيدها ويلذها كما ذكر ابن رندقة الاسكندري من سياح القرون الوسطى في
وصف أهل شلشويق (أى أهل شلزويك هولستين في شمال ألمانيا) وقال ان
لهم نوعا من الغناء يشبه عواء الكلاب ولو فهم معناهم لما حكم هذا الحكم الذى
يقوله اليوم أيضا كل من لا يعرف لغة غيره ولا تأثير موسيقاه وغناؤه ومراميهما
اللذائذ الثلاثها من أول ما تدور عليها الحياة الغربية اليوم ولا تضر بالوقار
بل تعد من أدوات الظرف والكمال ولعل شرقنا يحتذى في الموسيقى والغناء حذو
الغرب مع تعديل تقتضيه طبيعته وعاداته واشتغال البيوت أو الاصحاب آوة
الفراغ بضرب من ضروب الموسيقى والغناء أنقع ألف صرة من لغو الحديث
وانتقاص بعضهم بعضا والخط من اقدار أنفسهم والسلام

نهضة ايطاليا

ايطاليا القديمة

٤٧

كنت أحب أن أسطر قبل الآن ما أعرفه وعرفته عن النهضة الايطالية الا أنني انتظرت ريثما قضيت شهراً في هذه الشبه الجزيرة ورأيتها اجمالا من جنوبها الى شمالها .

وقد اعتمدت فيما أكتب على من وقعت لي معهم صلة تعارف من خاصة الطليان أو مآقراته بأقلام الطليان بالافرنسية أو ما كتبه الفرنسيين عن الطليان وهو وان لم يكن مجموعاً صحيحاً من كل الوجوه لكنه أقرب الى الصحة من كثير من الاحكام التي يصدرها صاحبها غفو القريحة باديء الرأي

وكنت أود لو سمح لي الزمان بتعلم مبادئ من لغة الطليان اريقة لاخاطب العامة كما أخاطب الخاصة بلغتهم نفسها واسمع تصوراتهم وألقى عليهم الأسئلة وأدرس أحوالهم بالنفس ولكن المدة التي قضيتها لا تكفي لأن يتعلم المرء القدر الكافي للتفاهم بهذه اللغة مع قربها جداً من الافرنسية ولولا الخوف من علماء أصول اللغات لقلت أن الايطالية تحريف الافرنسية أو هذه تحريف تلك

ثبت كل الثبوت بعد الرحلة الى ايطاليا ان مسألة اللغة من أهم المعضلات الاجتماعية التي يصعب حلها الا بأن يتعلم المشتغل بالعلم والتجارة عدة لغات من اللغات الحية كما يفعل الغربيون اليوم وان العامة أيضاً لاغنية لهم عن تعلم ولو مبادئ طفيفة من لغة راقية منتشرة وان من كان يبيع منا أفكاره الصائبة بأن الموظف يستطيع أن يحكم في بلد لا يفهم لغة أهله وان التاجر يستطيع بواسطة الترجمان ان ينفق سلعة ويربح ويستفيد من كان كذلك لم تكن أفكاره أرقى من أنه اذ لم يستند فيها الى تجارب ولا الى تاريخ واجتماع .

وها نحن نتكلم على نهضة ايطاليا فنقول : قضى مركز ايطاليا الجغرافى أن تكون فى الأزمنة القديمة مركزاً عظيماً من مراكز المدنية لتوسطها بين الشرق والغرب وكانت رومية نقطة هذا الاتصال وواسطة هذا العقد منذ قام الرومان الاول وأخذوا يدوخون الأمم والشعوب لسلطانهم . ولما وضع الشعب اللاتينى أول جسر على نهر التيبر وهو نهر رومية المقدس ومن أكبر أنهر ايطاليا أصبحت رومية مطمح الانظار وصار هذا الجسر الذى كان بناؤه أقرب الى الفطرة مما يستهوى قلوب شعوب الشمال للاغارة عليه لان منه بخاص المرء الى ساحل البحر المتوسط على أيسر سبيل ولما دفع اللاتينيون عن جسرهم غارات الأتر وسكيين واليونان أصبح مقدساً ومن ملكه كان هو الزعيم بلا مدافع .

تمثلت بالقرب من هذا النهر ثلاثة مطالب أساسية للمرء والمجتمع وهى ضمانة الحياة المادية وموافقة الحياة الأدبية والصعود الى الحياة العقلية بمعنى أن المرء يعيش ويحب ويعرف وأن يكون فى المجتمع قانون ودين وعلم .

قارب الرومان القدماء هذه المظاهر الثلاثة ولكن الحياة المادية كانت أتم عندهم لانهم يحاطون باعداء ان لم يحاربوهم بالمادة يهلكون لا محالة . وكانت الحياة العقلية فى كثير من أدهارهم نامة بالنسبة لتلك الأيام ونظام الأسرة ثابت الدعائم وحب الجندي مغروسا فيهم حتى كان الوالد يقدم ولده للخدمة العسكرية فى السادسة عشرة ليعنى منها فى السادسة والأربعين وعلى قلة عدد السكان اذذاك وهو كما قال المؤرخون (١٥٠) ألف نسمة فى رومية وذلك قبل المسيح بخمسة قرون فى أرض ذرعها ٤٥٠ ميلاً مربعاً كان للرومان جيش مؤلف من ثلاثين الى أربعين ألف نسمة يخرجون به من فتح الى فتح .

وكان الرومان اذا فتحوا بلداً يقبلون فى الحال ما يترأى لهم حسناً من عادات أهلها وصناعاتهم وأسلحتهم وهذا سر وضع القانون الرومانى الذى هو ابن الاوضاع الكثيرة وسليل شعوب عدة ألف فى قرون وتعاورته الايدى بالشرح والنذيل والاتقاص حتى أصبح دليل الحكمة الرومانية بل هو مجلة الحقوق الانسانية التى لا تتغير . وكانت تلك الحروب الرومانية من مجدعات حياتها وحماستها الوطنية حتى

لقد قال ليكورك الخطيب اللاتيني ليس أحسن عاملاً من الحرب في تقوية الشعب لأنها تعلمه احتقار الاخطار والاخلاص لسلامة غيره ولاسرته ووطنه ولما تخلص الرومان من السيزيليين كاد القرطاجنيون أن يهلكوهم فظفر الرومان بهم وورثت رومية مجد قرطاجنة التي سقطت بعد الحروب البونيقية وقضت رومية على أنيبال القرطاجي الذي جاء وهددها في عقر دارها وكان فتح الرومان لمصر وكثير من أقطار آسيا ومنها الشام من أكبر دواعي قوتهم فجلبوا به ثروة وأعلاقاً نفيسة وكان من أكبر المشوقات للعسكر الذي أخذت رومية تستخدمه بالاجرة ان كان يعطى له شيء من الانمال والغنائم لا كما كان في القديم يستأثر بها الزعيم أو رب الأسرة .

ولما جعلت رومية بلاد اليونان ولاية رومانية أخذت عنها الذوق في الفنون الجميلة وكلما كان الرومان يجلبون من كورنت وآتينة أثراً من آثار الهندسة والنقش والجواهر كانت تتربى أذواقهم ولم يكنفوا بالآثار بل جلبوا معها مؤثراتها من مثل الخطباء والسفستائيين من الحكماء فأصبح للخطابة شأن مهم في الحياة العامة وصار ملعب « الفوروم » المشهور الباقية الى اليوم آثاره عكاظ الرومان يخطبون فيه ويتنافشون وأخذوا يبعثون بفتيانهم الى اثينة يتعلمون على حكماء الوقت اذ ذاك ما ينفعهم ثم هاجر كثير من العلماء الاتينيين الى رومية وأنشأوا يعمدون كل طالب وبلغت هذه النهضة أشدها على عهد الامبراطور أغسطوس وسقطت بعده بقليل شأن أكثر مدنيات العصور السالفة كانت من عمل حاكم أو أمير أو بضعة حكام ثم يتناسى الأمر ويذهب فيه .

جاءت أزمان أدخل فيها اليونان على الرومان أموراً أضعفت من سلطة الوالد على أولاده وتركوا الحياة الجندية وأخذت الشبه والشكوك تسرى الى العقول وكثرت الموبقات بكثرة الرفاهية فكان بذلك انهيار ذلك البناء وخراب العالم الروماني فقضى على رومية وذهبت تلك المدنية كما ضعفت في النفوس آثار الوثنية وأخذ الاضطراب يدخل في نظام تلك الحضارة وبيعثرها وكثر الاتجار واليأس من

الحياة ومن لم يحبوا الانتحار يؤثرون العزلة وسرى اليأس في الطبقة الممتازة والاغنياء الى البائسين والخدمة ولما كانت الحال على ذلك والنفوس تضيق من هذه المظاهر جاءت النصرانية على انقاض المدنية الرومانية وكان لها من النساء أكبر عون على الانتشار فرأى فيها من دانوا بها عزاء لهم وسلوى . والدين وازع قوى في الدنيا والآخرة .

اضطهد القائمون بالدعوة الدينية أيضاً وقام أمنال نيرون يظلم ولا يبقى على أحد وبيننا كان يحرق المتنصرين أحياء ليضئ بهم حدائق العاتيك كان كنت ترى أولئك المتنصرين يذهبون الى الحرق باسمين لا عنفادهم بأن في العالم الآخر حياة سامية لا يخيب من فضى في سبيلها . وكلما كانت الشدة تمال أولئك المضطهدين كنت ترى أشباعهم يكثرون .

وكان النزاع بين الامبراطورية الرومانية والدين المسيحي من أعظم مآذكره التاريخ حتى دان الامبراطور قسطنطين بالدين الجديد فكان من انتشار الدين بعد الوثنية منافع اجتماعية مهمة في البلاد خصوصاً والدين أخذ يوافق ميول المندنيين به وحاجاتهم

توطد أمر ايطاليا بعد ذلك وأخذت تقطع أسواطاً في سبيل جمع شملها وتتماسى ما بها في سبيل انتشار النصرانية التي عمت ايطاليا وبيننا الامر على ذلك كان نزارة الشمال يتجمعون ابغزوا ايطاليا للاستفادة من مادياتها وقد أهلكتهم الجوع ولم يكن لرومية طاقة يدعمهم فجاءوا يغشون العالم المتمدن ولكن من أولئك البرابرة من لم يابشوا ان دانوا بالدين الجديد وتطوعوا بالدعوة اليه في الفاصية بيد انهم لنقص فيهم حرفوا ما نافنوه ولم يعملوا بتعاليمه فأثروا مظالم كثيرة حتى اضطر الباباوات أن يجعلوا لهم سلطة مدنية فعمدوا الى القوة علماً منهم بأن سلطان الروح لا يؤثر كثيراً ان لم يكن وراءه سلطان القوة .

وهذا كان مبدأ مزج الدين بالسياسة خصوصاً على عهد شارلمان وليون الثالث وهما الملكان اللذان حاولا هذا المزج وحرصا عليه ثم كثرت البدع والاحاد

وقاومها الباباوات بالشدة وان جاء من هؤلاء أنفسهم من لم تحمد سيرتهم أحياناً ولقد كانت إيطاليا خلال القرون الوسطى ميدان العراك بين الباباوية والامبراطورية فنتج من ذلك تمازج بين العناصر المختلفة في الغرب ثم جاءت الحروب الصليبية على الشرق وكان الدافع اليها دينياً ثم انتهت بالماديات وبعد سنة ألف للمسيح حدثت حوادث غيرت معالم العالم الغربي وكانت الدواعي الى الحماسة الدينية حب الظهور والالتيان بالغرائب ولا سيما في نفوس العامة والزعماء من الاسراء ولكن حرب المسلمين قرنين لاستعادة الارض المقدسة لم ينتج منه الا أن جمهوريات إيطاليا أصبح لها مكاتب تجارية على شواطئ البحر المتوسط وباختلاط إيطاليا بل أوروبا بالمدينة الشرقية البديعة عاد الى الغرب شيء من الحياة أصيبت به الصناعة والآداب وكان أثر الحروب الصليبية في إيطاليا أثر تقاليد اليونان المغلوبين على أمرهم في مدينة رومية .

إيطاليا في القرون الوسطى

٤٨

جاء عهدان على رومية طمحت فيهما الى ان تحكم العالم فالاول على عهد عظمة قياصرة الرومان وقد تم لها ذلك بعض الشيء والثاني على عهد التحمس الديني وبلغ سلطة الباباوات حدها وكان من أثر الحروب الصليبية ورؤية القوم للفنون القديمة البرزنطية والمغربية ان تمت لهم مقدمات النهضة الاولى . ثم ان المقاطعات تحررت من سيطرة من كانوا يرهبونها من أمرها عسراً فأخذت تتنافس في اقامة الابراج وتجب كل منها أن تكون كنيسة أوسع وأكثر بهجة وأغنى وخطيبها أفصح ومتفنها أشهر . وأنشأت تبحث عن الرجل الذي يكون أقدر من غيره على التغني بأمجادها في أشعاره وتمظيم أعمالها الصناعية وبدائع النقش والرسم وبفضل هذه المباراة اغتنت المدن والقرى بالمعاهد البديعة فكنت ترى الكنائس

الكاتدرائية في كل مكان تناطح الجوزاء والقصور تسمو من الارض الى
الاجواء

وانتشر في جميع شسبه جزيرة ايطاليا ميل حقيقى للجمال لحدث منه ازدهار
الفنون التى لم تزل تبهرنا الى اليوم فكان هذا العهد مناسباً لتكوين أعظم الرجال
ليستطيعوا أن يحدثوا أعمالاً غريبة باقية وكان للقديسة كاترين دي سين والقديس
تومادي آكيك والقديس فرانسوا داسيز في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أثر
يذكر في السياسة والعلم فكانت هذه النهضة الايطالية الاولى متشعبة بالفكر
لديني الا أنها كانت تحوى في مطاويها بذوراً أنبتت بعد النهضة الثانية .

وقام على الاثر الشاعر دانتي الايطالى واضع أساس اللغة الايطالية الحديث
وأخذ ينادى في شعره ونثره بفصل السلطتين المدنية عن الدينية . ينطق في ذلك
بلسان طبقة كبيرة في عصره فلم يكذب يصرخ صرخاته حتى جاوبه على الاثر أرباب
الافكار الحديثة ممن أخذوا ينزعون ربة الدين بل ينحون عن جوهره . وكان
في هذا القرن أيضاً أناس من أرباب الفنون الجميلة يؤمنون بما يصورون ويريدون
به خدمة الدين ومنهم من كانوا يصورون وينقشون حباً بالمجد والشرف والمال
خصوصاً وهم يرون كم كانت أسرة ميديسيس اذ ذاك تغدق الهبات على أرباب
تلك الصنائع . حتى لقد قيل أن رافايل المصور رفض أن يكون باباً وآثر العمل
بالتصوير . وهذا العصر يسمونه بمصرليون العاشر الذى كان من أكرم الباباوات
وأكثرهم علماً وعصره كمصر أغسطس قام فيه أرباب الافكار الحديثة وأخذوا
يشيرون من طرف خفى بتحكيم العقل في المسائل فأصبح أهل العلم والادب
مرغوباً فيهم أكثر مما يرغب في الامراء وساعدوا اختراع الطباعة اذ ذاك فأخذوا
يبثون أفكارهم في روح القوم على صور مختلفة حتى غدا أمثال بوج وفيللف
وأرتين الحاكمين المتحكمين بالافكار في عصرهم يصرفونها كما يشاؤون .

في ذاك العهد أيضاً نشأ للظليان أمثال المؤلف لورازو فالانخدم الآداب
والتاريخ والخطابة والفلسفة خدما تذكر له على الدهر ومثله جيور دانوبرنوالذى

أحرق لأفكاره الفاسفية وكان عالماً كاتباً مؤثراً دينياً كانت الأفكار تتمخض على هذه الصورة قامت حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر ومنشأؤها من بيع الففرانات واستئثار الباباوات بالسلطة المركزية يريدون أن يتم كل شىء فى رومية فى الامور الدينية والملوك يريدون من حيث السياسة أن ينزعوا هذا العبء الثقيل عنهم والتخفيف من وطأة الارتباط بالمقام البابوى والفلاسفة والادباء يريدون أن يحرروا العقل من قيوده وكلما كان المجتمع يدخل فى طور الكمال كانت الحالة تستدعى تقسيماً أكبر فى العمل وتوجيه المناحى وجهاتها حتى ان أكثر من واحد من المتدينين جداً قد طلبوا التفريق بين السلطتين وبعد شئون وشجون انفصلت ألمانيا وانكلترا عن رومية .

كان العلم فى أواخر القرن السادس عشر قليلاً وقام أمثال غاليله الذى قال بدوران الشمس حول الارض فأوذى لما نادى بأرائه العلميه وان التجربة هى الشرط الضرورى فى تحقيق المسائل العلميه وقد طبق ليونارد بعقله العجيب هذا الاسلوب على جميع المسائل المبحوث فيها وأخذ ما كفافيل واضع فن سياسة الخداع يتشبع بها فى كتبه السياسيه وكما كان الشاعر دانتي يطالب بضرورة فصل السلطة المادية عن السلطة الدينية كان العالم غاليله يثبت بأن العالم العلمى يجب أن يكون منفصلاً ومستقلاً عن الاعتقاد الدينى وهكذا لم يبرح غاليله يؤكّد مع شدة احترامه للدين أن العلم والدين أمران مختلفان ليس بينهما تناقض ولا ارتباط . ويرى أن الكنيسة هى الحاكمة فى المسائل الدينية وليس لها أدنى سلطة فى المسائل العلميه وينبغى لها أن تحاذر من الحكم فى مسائل هى غريبة عنها تماماً .

رأت الكنيسة بعد عصر دانتي أن تحافظ على كيانها السياسى بالقوة وأرادت بعد غاليله أن تحافظ على كيانها العلمى بالتعليم خصوصاً بعد ان شاهدت النتائج التى تمت على ايدى اليسوعيين باتخاذهم العلم آلة للدين واتحدت الكنيسة مع الامراء وأخذت تلقن الناس الطاعة والخضوع فلم تحدث بعد ذلك ثورات وامن الناس واغتبطوا ولكن ظهر بعد قرنين من انتشار الإصلاح الدينى بقيام لوثيروس

ونزع ألمانيا وانكرا يدها من الكنيسة الكاثوليكية ان الانحطاط اخذ يبدو على الشعوب التي ظلت كاثوليكية على اختلاف في عناصرهم ومناخ بلادهم وأحوالهم الاجتماعية والسياسية وذلك لأن التعليم كان محدوداً عند هؤلاء الشعوب ومقصوراً على بعض الطبقات والعدل فيه شدة وضعف والطاعة أبداً يرغب فيها فقلت في هذه الشعوب القوة المبدعة على أن الرفاه المادي كان مضموناً لأهل إيطاليا بما أنشئ فيها من المعاهد الخيرية ولكن كل ذلك لم يخرج الشعب عن حالة التثبت والتراجع .

وعلى عهد مثل هذه الادارة ينزل ميزان العقل من كل وجه فقد أمست الصناعات والآداب والعلوم لا ترتقي الا ببطء حتى أن الشاعر كيودي المتوفى سنة ١٧١٢ من أعظم شعراء ذاك القرن كان يتغنى بمدح عصره معرضاً بالجفاء البربري الذي كان يشاهد من خلال أعمال قبائل رومية القديمة الذين لم يكونوا يحلمون الا بفتح العالم

ومن حشن الحظ أن إيطاليا لم تعد في ذاك الدور أناساً ينهضون هنا وهناك يشيرون العواطف وينادون قومهم بأن ماهم فيه باطل لا بد له من التجديد وأن هذا العالم ليس عالم الأموات . فقام بيتروميكا بالدفاع عن تورينو وقام فيليكيا يتغنى بأغانيه الحربية لينبه سكان هذه الشبه الجزيرة المتخدرة ونهض الأمير أوجين دي سافوا يحمل أجداد الحرب والسياسة الى القاصية وأخذ بيكاريا يقيم الحجة على فظائع المحاكم وقام غيرهم بأعمال كثيرة نبهوا فيها العقول من رقادها ما أمكن .

إيطاليا في القرون الحديثة

٢٩

بينما كانت إيطاليا غارقة في هذا السبات كانت أفكار غاليله قد وصلت الى انكترا فتلقاها الفيلسوف باكون وعادت الى إيطاليا منعكسة من طريق فرنسا

في كتابات الفيلسوف ديرو وأخذت السلطة الدينية تضعف أمام حقوق العقل وجاء انتشار دائرة المعارف (سنة ١٧٥١ - ١٧٧٢) فأحدث حركة في أهل الطبقة المستنيرة وساعد فيها أهل الطبقة الوسطى من الفرنسيين آمليين أن يروا منها سلاحاً يحاربون به رجال الكهنوت والاشراف أما العامة فقد استعملوها واسطة للارهاب وقد كفت فرنسا ثلاثون سنة حتى تأتي أفكار دائرة المعارف بعملها في التخريب وذلك لأن فرنسا كانت مستعدة أكثر من كل أمة لقبولها لأن السلطة كانت فيها على أشد ما تكون ثم إن صلاتها مع الشعوب البرتستانتيّة كانت مستحكمة العرى أكثر من غيرها فكانت ألفاظ « الحرية » « المساواة » « والأخاء » تؤثر في السواد الأعظم من القوم فتدفعهم إلا الأعمال الخارقة في باب الرجولية ولما ظفرت جيوش الفاتحين من الفرنسيين بفتح شبه جزيرة إيطاليا سنة ١٧٩٦ كانت حالة الافكار في فرنسا مخالفة كل المخالفة لحالتها في إيطاليا في الأولى مضاء واعتماد على النفس وفي الثانية ضعف وخضوع ولذلك كان الامراء ينهزمون من وجه الجيوش الفرنسية على صورة بشعة بل ربما ركبوا عار الفرار قبل أن تحتل بلادهم فلما استحكمت سلطة الفرنسيين في إيطاليا قلبوا كثيراً من أوضاعها باسم الحرية ووضعوا لها القانون الفرنسي وألغوا امتيازات رجال الدين والاشراف بيدان ما حدث من الاحتلال الفرنسي لإيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر قد نبها من سباتها العميق وحدابها أن تعقد مع سائر أوروبا الممدنة علائق ولم يفهم العامة من الطليان ما يراد بهم فكانوا يساقون كالانعام ولكن الطبقة المستنيرة ورجال الاعمال بعثت همها حالة الفرنسيين فأخذت تدرك امكان إعادة الوطن وتألّف شمله المبدد وتبحث عن الطرق لتحقيق هذه الأمنية فلم تمض على ذلك خمسون سنة حتى أثمر جهاد أرباب الافكار تأليف الوحدة الإيطالية الحديثة وحدة قوامها المساواة أمام القانون ومنح الحرية السياسية .

أعاد رجال السياسة في مؤتمر فيينا خريطة أوروبا الى ما كانت عليه قبل سنة ١٧٨٩ وعاد الباباوات والملوك والدوجات والامراء الى سابق أمجادهم تحميمهم

الحرب الأجنبية ولكن استحال الرجوع الى الحالة الأصلية لأن رجال
الشعور الخارق للعادة ومن تؤهلهم الجاذبية العقلية الشديدة الى أن يتحرروا
بعض الشيء من الوراثة والمحيط قد عدلوا في وجهة الافكار وجددوا ميدان
آمالهم فكان الشعراء وأساتذة الكليات والقسس والاشراف المتعلمون في
مقدمة من تبدلت عقولهم بتأثير الحوادث وما تم لفرنسا من المجد قد أفهمهم معنى
الجمال الذي ينطوى في مدارج القوة . وتراجع الايمان بالحق الآلهي وعادت
الفلسفة فتأثرت بتأثيرات المجددين وضربت مقعد الكنيسة الرومانية ضربة قاسية
وتحمس الأذكىاء وأرباب القلوب لفكرة أن وطنهم سيستعيد بهاءه ويعود عظيما
جيلا فأخذوا يعملون بمضاء وحماسة تدعو كل من اطلع على أعمالهم أن يعجدهم
ويحترمهم وكثر تجديد طبقات من الشعراء أخذت على عاتقها أن تنبه بلسان الشعر
وألحانه الرخيمة شعبا متناوما منذ قرون فتناول الشاعر جيوشى سوط الهجاء
الذي سقط من يد باريني وأخذ يضرب به وتحمس الشعراء بلليكو ومانزوني
ونيكوليني حماسة الغيرة المفجعة . وساعدت قصائد فوسكولو وأغاني برشت
الوطنية على هذا النشور .

بيد ان الدعوة الأدبية لا تسطيع أن تعمل الا في الافكار المستنيرة ولو
قليلأ فأخذ الاشراف والطبقة الوسطى من الأحرار يدركون ضرورة نشر هذه
الحركة بين العامة فأنشأوا يدخلون التعاليم الى القرى وكان تكثير سواد القائلين
بفكر التجدد وضم الشمل في المدن قد تسهلت أسبابه بارتقاء مستوى العقل في الشعب
واستعداده لقبول الجديد ولكن بث الدعوة كانت خطرة ، ولطالما أعار بعض
الكتبيين مؤخره حوائثهم لعقد الاجتماعات يتهامس فيها المتهاشمون بأفكارهم
وآمالهم وأحلامهم في المستقبل ونهضة البلاد .

ثلاثة عوامل أعانت على تخمير هذه الثورة الجديدة وتنمية بذورها : قدماء
الضباط والموظفين على عهد نابليون والجمعيات السرية ورجال الشرطة ومعظمهم
كانوا دخلوا في الجمعية الماسونية فتعلموا فيها أساليب الاجتماع ، وجمع الشمل

وحب النظام ، وبالنظر لحالة البلاد اذ ذاك لم يتأت ان تنعش من سقطتها الا بجمعية سرية وذلك لما عرا الأخلاق من الانحلال والضعف وثقله عدد ارباب الشخصيات الراقية فكثرت الجمعيات السرية من أجل ذلك في البلاد كلها ، وكان أشياعها كشاراً أولاً في الكليات ودخل فيها أبناء الطبقة الوسطى وكثير من أبناء الاسر الكبرى وجماع الاسرائيليين ، وكان أكثر الداخلين مدفوعين الى ذلك بعامل المنفعة الشخصية الممكنة وكلهم يرمون الى جمع شمل الوطن .

كان للاسرائيليين في هذه الحركة الكعب المعلى فانهم وان كانوا في ايطاليا أقل حيفاً من حيث مادياتهم خلافاً لما كانوا عليه في سائر أوربا لكنهم كانوا خاضعين لقانون مجرمهم من الوصول الى المناصب التي يؤهلهم اليها ذكاؤهم وثباتهم المتواصل على العمل ، ولقد علمهم احتقار الناس لهم فضائل تجرد منها ظالموهم ، فكانوا محتقرين وسذجاً في الصورة الظاهرة ويتذكرون أحياناً شيئاً من الخير نالهم ولسكنهم لا ينسون على الدوام العار وهم على تباتهم وحسابهم للعواقب قد أصبحوا متضامنين بدواعي مقاومتهم للعدو المشترك يكنمون أمرهم ويسرون ما يجول في قلوبهم وهم قد أثروا اثرأ مهما فكانت منهم قوة لا تعاد لها قوة لمقاومة نظام سياسى تكرهه نفوسهم .

فلم يكونوا يعتقدون ان في وحدة ايطاليا قلب الأوصاع التي طالما قاسوا منها الامرين بل كانوا يرون فيها صورة من صور الانتقام من انكلترا المسيحية في رومية الباباوات ولذا يمكن أن يقال في ذاك العهد ان جميع الماسون في ايطاليا ان لم يكونوا كلهم اسرائيليين فان جميع الاسرائيليين كانوا ماسوناً واذ كانت القوانين والعادات تبعدهم عن الحياة العسكرية فقدوا الشجاعة التي تورثها صناعة حمل السلاح فكانت معاونة الاسرائيليين ما عدا بعض الشواذ مالية أكثر منها شخصية وعظمت معاوتهم المالية في هذا السبيل حتى ان الحكومة الموقته في ميلان بالنظر لما ادره عاينها الاسرائيليون من المال بعد مغادرة النمساويين للبلاد قد شكرتهم على اعانتهم السريعة في سبيل الحرب .

وما كان القسيسون غرباء عن هذه الحركة فان أول من صاح « ايطاليا واحدة وحررة » كان قساً فئات في هذا السبيل وآخر من قضى في هذا المقصد هو قسيس أيضاً كان في صحابة اسرائيلي ، وكان هذا شأن جميع المستنيرين من عامة طبقات ايطاليا يريدون أن يحيوا وطنهم ولا يبقوه أرض الاموات . وما صادفته هذه الدعوة من العواطف في رابطة رجال الدين لا يعجب منها اذا علم أن البابا بيوس السابع كتب الى الكونت بورو بمناسبة أعضاء جمعية الكاربوناري الثورية « انهم يحبون ايطاليا وانا أحبها مثلهم » وكذلك كان الأشراف الذين لم تكن لهم مناصب تشغلهم في الحكومة وأقصاهم الملوك عن قريبهم فانهم شاركوا في الحركة الجديدة حق المشاركة .

قلنا الكاربوناري وهي جمعية اشتقت من الجمعية الماسونية وأعضاؤها من الجند والضباط على عهد نابليون فقامت منذ سنة ١٨٢٠ بثورات عسكرية في مملكة نابولي أولاً ثم في معظم أمارات ايطاليا ، ولكن قلة عدد اعضائها وفقدان المرددين لأعمالها غادرت حركاتها قاصرة . ولما قام مازيني الكاتب الذي كان يؤثر لانه كان متأثراً يرمى الى انه يارض ايطاليا وجد أنصاراً واعواناً وان كان العيب الوحيد انه كان يتمجل قطف الثمرة قبل نضوجها ، ويضيق المجال اذا اردنا احصاء من دعوا الى هذه الوحدة ومنهم الراهب فنسانزو جيورتي الذي اغضب الكنيسة بعمله ، فقضى آخر ايام حياته شريداً في باريز لانه قال بضرورة فصل السلطة المدنية عن السطة الدينية ومنافع ذلك للسياسة والاخلاق

وكانت نيران الثورة تشتعل تارة وتخمداً اخرى فيظن ان البلاد عادت الى حالتها من الامن والطمأنينة ، ثم لا تلبث فوهة البركان ان تقذف حممها ، وقد انفجرت لآخر مرة يوم قامت فرنسا وقلبت الملكية ونادت بالجمهورية وأخذت تهتز أعصاب أوروبا فتحركت ايطاليا من أقصاها الى أقصاها كأنها متأثرة بمجري كهربائي فقامت قيام الرجل الواحد من بلاد الألب الى صقلية أي من الشمال الى الجنوب وظهر ان الملوك تظاهروا بالاشتراك بالحركة والبابا كذلك وان شئت فقل

انه كان أكثر من غيره وتنازل الأمراء عن سلطتهم المطلقة ومنحوا دساتير لشعوبهم والكل يريدون أولاً طرد النمساويين من البلاد التي كانوا احتلوها ولقد تمثلت الثورة العامة في سنة ١٨٤٨ في جميع الطبقة الوسطى لمناهضة السلطة المطلقة فصادفت أولاً عطفاً من البابا وغيره فلما تحقق مقاصدها مزقت الدساتير المعطاة وأعيدت البلاد الى نظامها السابق فلم يثبت من ولايات الشبه الجزيرة سوى البيمون وكان لها فقط جيش يحسن الكر والفر وله نظام بزعامة الملك الجديد فيكتور عمانوئيل الثاني وما كانت المهمة التي انتدب اليها هذا الملك بالأمر السهل بل كانت تحتاج الى سلاح ماض وطرق مواصلات منظمة ومعارف منتشرة وضم شمل أحرار الطليان وتهدة خواطر الكاثوليك وهم كثر متحمسون في إقليم البيمون واقناع أوربا التي لا تصدق أوهى معادية لهذا الفكر واتخاذ أنصار من حكومات أوربا ليفتوا في عضد العدو العظيم . كل هذا ولا مال لتلك المملكة الصغرى وهي مدينة بمليارين من الفرنكات هذا المركز من أخرج المراكز وحل مشاكله يجب له نابغة من الرجال وهذا الرجل الذي ترمياً له هو « كافور »

قام هذا السياسي العظيم وعرف بما خص به من حسن الانتفاع أن يستخدم أمثال غاريبالدي ومازيني للمقصد الذي يرمى اليه في حين كانا يريدان المناداة بالجمهورية لا بالملكية . ومن دهاء هذا الرجل انه بحث من إقليم البيمون جنداً الى حرب القريم يعاون الدول الأوربية التي عاونت الدولة العلية اذ ذاك فعد العالم عمله خرقاً في الرأي على أمة صغيرة فقيرة مثقلة بالديون ولكن هذه المناداة هيأت لاطاليا بل لمملكة البيمون مركزاً بين الدول وصار لها الحق أن تبحث بمن يمثلها في مؤتمر باريز . ولا عجب فالأعمال بمقاصدها ونتائجها أتم هذا النابغة كل ما كان يظن انه مستحيل ولا يعرف اليوم ماذا كانت حال ايطاليا لولا قيام هذا الرجل . وقد جبر بدهائه ما بدر من الضعف في الجمعيات السرية الثورية التي اندمجت في جمعية « جيوفاني ايطاليا » لأن عملها لم يؤد الا الى فظائع فقام كافور يربط بحكمته القلوب حول عرش صاحب بيمون وغدت أسيرة سافوا محط رحال

الآمال وساعد أن كان الأمبراطور نابوليون الثالث الفرنسي من أعضاء جمعية الكاربوناري منذ صباه فاضطر إلى مساعدة إيطاليا ولما أيقن الملك فيكتور عمانوئيل بمعاودة الجيش الفرنسي نهض بالعمل بصورة أنخم وأعظم وأعلن الحرب على النمسا وقد قال لوزرائه عند ما وقع على إعلان الحرب اني سأكون بعد عشرة أشهر ملك إيطاليا أو المسيو سافوا .

ظفرت الجيوش الفرنسية في مونتبلانو وبالسترو وماجنتا وسولفيرينو ، وبموجب معاهدة زوريخ تركت لومبارديا لمملكة البيمون وقامت طوسقانة رويداً رويداً على دوجها الكبير وأعلنت انضمامها إلى البيمون . ونزل غاريبالدي إلى صقلية وتأخى مع سكانها وكانوا مربوطين بعهود الاخاء من قبل مع جمعية مازيني السرية ثم اجتاز المضيق ودخل ظافراً إلى نابل وكاد يزحف على رومية ليفتحها وبعد أيام أعلنت جزيرتا صقلية وسار دانية انضمامهما إلى الوحدة الإيطالية وفي ١٨ شباط ١٨٦١ اجتمع البرلمان في تورينو ونادى بالملك فيكتور عمانوئيل الثاني ملكاً على إيطاليا وتوفي كافور بعد بضعة أسابيع كأنه انتظر حتى أتم عمله المجيد خلفاً لقرمه شعاره « الكنيسة الحرة في المملكة الحرة »

وبقيت البندقية ورومية فقط لم تفتحاً فقام اخلاف كافور ، وعقدوا محالفة مع بروسيا فأخذوا البندقية وسمح استدعاء الجنود الفرنسيين من إيطاليا سنة ١٨٧٠ للجيش الإيطالي أن يدخل ظافراً إلى رومية مقاتلاً جيش البابا الذي قاوم بعض المقاومة ولكن ما حيلته أمام هذا التيار العظيم واردة الأمة في نزاع السلطة المدنية من يد صاحب السلطة الدينية فخصرت سلطة البابا بعد ذلك في دائرة معينة لا تتعدى حد السلطة الروحية .

إيطاليا بهر الوحدة

٥٠

هاقد ألقينا نظرة بمجمل على ماضي إيطاليا وأصول مدنيّتها واجمادها ودرس الماضي عون على فهم الحاضر ولقد ترك كل دور دخلت فيه البلاد طابعاً في صورة إيطاليا الحديثة كما أثرت فيها المؤثرات الجوية والجغرافية والعنصرية ولم تقو التربية الا على تغيير قابل فيها، ونشأت مؤثرات أخرى تقمت في نهوضها كل النفع وهي سرعة المواصلات وكثرة التنقل والصلات المتواصلة مع الامم الأخرى وغير ذلك، وبعد ان صرفت إيطاليا كل جهادها الماضي الى سنة ١٨٧٠ في تكوين الوحدة الإيطالية والغاء امتيازات الاشراف ورجال الدين وتأسيس ملكية ديموقراطية وجب عليها ان تنظم هذه القوة، فاختارت القانون الاساسي الذي كان معمولاً به في اقليم البيمون مع بعض تعديل أخذته عن القانون الفرنسي .

ولقد حق على القائمين بهذه الوحدة من أهل الطبقة الوسطى وأبناء اشراف من الدرجة الثانية والاسرائيليين والماسونيين والبيمونيتيين وكل من وجدوا مصلحتهم في قيام هذه الوحدة أن يرعوها فلم يجدوا أمامهم الا العامة يتقوون بهم فأنشأوا لهم مسائل الاشتراكية والنقابات الصناعية واعدتهم فيها بوعود خلافة أقلها ان الجمهور يعيش بدون ان يعمل . وكل ذلك لمناهضة الاشراف ، ورجال الكهنوت ففقدت طبقة الاشراف كل موازنة ولم تبق لها تلك المكانة المعروفة لها قديماً . اما رجال الدين فاحتفظوا بمرأ كزهم وذلك لانهم يمثلون شيئاً لا يبرح حياً في نفوس الشعب ولان لهم قانون يضم شملهم .

التفتت الحكومة بعد الوحدة الى تنظيم الجيش وكان الفكر الحربي مفقوداً من معظم طبقات الشعب فما برحت تزيد فيه وكان عدده على عهد اوائل الوحدة

مئة ألف نسمة فأصبح الآن خمسمائة ألف جندي منظم مدرب حين السلم وثلاثة ملايين وخمسمائة ألف جندي زمن الحرب يدخل فيهم البوليس . وكل ايطالى بلغ سن العشرين يدخل الجندية فيخدم فيها ثلاث سنين ويكاد السكرا لا يعرف في الجيش والضباط يقومون على تدريب الجند باخلاص ويلقنونهم الفضائل الحربية ولذلك نرى مجلس النواب الايطالى يمنح ميزانية الحربية وهى ٣٦٤ مليون فرنك كل سنة بدون أن ينظر فيها ثقة منه بانها تصرف فى سبيلها على أبناء الامة ، ومما يعمل لنفع الجند أنهم أنشأوا بالقرب من بعض الثكن فى البلاد دروساً زراعية عملية يتعلم فيها العسكر مدة خدمتهم ماينفعهم مع التعليم العسكري اذا رجعوا الى قراهم من العمليات الزراعية

أما البحرية وميزانيتها ١٨٦ مليوناً فيمكن أن يقال على الجملة أن ايطاليا لما تكونت لم يكن فيها أثر للقوة البحرية فأخذت منذ سنة ١٨٧٣ تنظم بل توجد بحريتها ليكون لها شأن فى البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي ورجال البحرية الذين يتخرجون فى مدرسة ليفورنه بدون كل اخلاص فى تخريج الجند البحري وهكذا تعمل ايطاليا على تحسين بريتها وبحريتها لتستطيع بذلك أن تجد مورداً لامتها التي يكثر نسلها وتريد أن تجد لها مرتزقاً فى الارض ولا سيما بعد أن طلبت بعض الحكومات التي تكثر مهاجرة الطليان الى أرضها أن يحصى العملة من غير الطليان الحماية الكافية التي تخولهم عدم منافسة العامل الايطالى . وأن ايطاليا لمضطرة بحكم الطبيعة أن تكون أمة بحرية من الدرجة الاولى لان شطوطها على البحر المتوسط تبلغ ٦٠٠٠ كيلو متر على حين ليس لفرنسا سوى ستمائة وتناسل السكان والخوف من اغلاق أبواب اميركا ذات يوم فى وجه المهاجر الايطالى دعا ايطاليا أن تفكر فى فتح طرابلس وبرقة حيث يجداً بناءً لها ولا سيما فى الجنوب مناخاً يشبه مناخ بلادهم ويكونون على مقربة من أرضهم ومساقط رؤوسهم ومما دعاهم الى الغارة على شمالى افريقية ذكرى أن أجدادهم الرومان فتحوا

تلك البلاد واستعمروها أيام عزهم وقد كلفت هذه الحرب ٩٢٧ مليون فرنك ربما كان الايطاليون من أكثر الامم الاوربية حبا بالهجرة وذلك لان بعض الجنوب من بلادهم فقير بزراعتهم ولانك لا تجد في ايطاليا طبقة وسطى على الاغلب فاما فقير معدم يولد له كل سنة ولا يجد في أرضه من المواد الاقتصادية ما يقوم بعيشه أو غنى كبير وهم قلائل ولذلك لم يبق أمام الطليان غير الهجرة فقد كان عددهم سنة ١٨٦١ أى بعد الوحدة بقليل ٢١ مليوناً وهم اليوم ٣٥ مليوناً بحسب الاحصاء الاخير دع الطليان المنبئين في اقطار العالم . وعدد من يسكنون في كل كيلو متر مربع ١٢٢ ساكناً أى أكثر من معدل السكان في المانيا وفرنسا ولا يفوق ايطاليا في كثرة عدد السكان بالنسبة لمساحة الارض من الممالك الاوربية الا البلجيك وانكلترا وبلاد القاع (هولاندة)

واكثر المهاجرين يهاجرون هجرة مؤقتة وقلائل منهم من يهاجرون هجرة قطعية بل ان من المهاجرين من يقضون الشتاء في اميركا ويأتون في الصيف يحصدون ارضهم ويقطفون ثمرات أشجارهم ولولا النقد الذى يحمله اولئك المهاجرون من اميركا يضمونه في المصارف وصاديق التوفير لبطلت حركة ايطاليا الاقتصادية لان النقد قليل فيها حتى تضطر الحكومة بل الامة ان تجرى أكثر معاملتها بالورق ولا تكاد تجد الذهب الا نادراً . وقد بلغ من هاجروا ايطاليا من ابنائها في الشهور التسعة الاولى من هذه السنة ٢٢٥ ٣٣٥ مهاجراً ولا يقل عدد المهاجرين كل سنة عن خمسمائة الف ومنهم من يهاجرون الى البلاد المجاورة ولا سيما جنوبى فرنسا ومنهم الى امريكا

والعامل الايطالى قنوع للغاية يقتصد جانباً من اجرتهم ومنهم من يعودون برؤوس اموال الى بلادهم المتعلقون بحبها فالعامل الايطالى يقبض دولاراً ونصفاً في الولايات المتحدة فيصرف النصف دولاراً ويقتصد الباقي حتى اذا عاد الى قريته تحدثه نفسه ان يبتاع له ارضاً يبنى فيها كونه ولذلك ارتفعت اسعار الاراضى في القرى أكثر من ارتفاعها في المدن الكبرى ولا سيما بعد ان انشئت جمعيات ومكاتب

للمهاجرين ومنها ما اسسته الحكومة ومنها ما اسسه الافراد لتسهيل الهجرة ووقاية المهاجر من التلاعب به وليس لاييطاليا من المستعمرات ماء عدا طرابلس وبرقة غير الاريتره وبنادر والصومال الايطالية وهي مجاورة فيهما لفرنسا وانكلترا. وايطاليا جاءت الى عالم الاستعمار بعد وحدتها وقد تقاسمت اوربامغانم افريقية وآسيا وتوزعت ممالكها بينها

احتاجت ايطاليا بعد وحدتها ، وتأليف هذا الجيش الضخم والبحرية القوية الى موارد كثيرة فالتفت فلم تر أحسن مورداً من الزراعة ، وتلك الايطاليين يعملون بها في أرض مزروعة تقدر بنحو عشرين مليون هكتار تخرج سنوياً مئة مليون هكتولتر من الحبوب حنطة وذرة وأرزاً وأربعين مليون هكتولتر من الخمر وعشرة ملايين قنطار من الزيت والثمار دع أعمال الألبان وتربية الحيوانات والحرير الخام وغيرها من الموارد التي تعد من جملة الزراعة ويبلغ مجموع قيمتها نحو خمسة مليارات فرنك كل سنة وزراعة الشمال راقية على الطرز الحديث وقد أدهشنا ما رأيناه من بدائعها في ضواحي فلورنسه وضواحي بولونيا وذلك لأن اقليم طوسقانة وعاصمته فلورنسة عامر منذ القديم وهو مقر أمجاد الطليان وكذلك حال العمران من سفوح جبال الالب الى طوسقانة فان أرضها حداثق غناء وهذه البلاد الشمالية تختلط كثيراً بالأأم الراقية المجاورة لها مثل السويسريين والفرنسويين أما سكان الجنوب ولا سيما في صقلية وساردنيا وغيرها من الاقاليم الجنوبية فان المناخ مؤثر في أخلاق أهلها وليس عندهم نشاط سكان الشمال ولا معارفهم ، وسكان الجنوب أشبه بالأأم الشرقية النازلة على شواطئ البحر المتوسط .

وصناعة ايطاليا وتجارها راقية على نسبة زراعتها فقد كان لهذه المملكة سنة ١٨٦٠ - ٢١٩٨ كيلومترا من الخطوط الحديدية فبلغت سنة ١٩٠٩ - ١٨٠٠٠ كيلومتر يضاف اليها خمسة آلاف كيلومتر من التراموايات والاتوبوس وكانت الطرق العادية على عهد الوحدة ٤٨ ألف كيلومتر فتجاوزت اليوم ١٤٠

ألفاً وكان لايطاليا سنة ١٨٦٢ - ٥٧ سفينة بخارية تجارية تحمل ١٠٢٢٨ رطل
طناً و ٩٣٥٦ رطل سفينة شراعية تحمل ٦١٣٩٩٦ رطل فأصبح لها سنة ١٩٠٨ - ٦٢٦
سفينة بخارية محمولها ٥٦٦٧٣٨ و ٤٧٠١ سفينة شراعية محمولها ٤٥٣٣٢٤ طنّاً
وبلغ عدد السفن الايطالية التي خرجت ودخلت في الموانئ الطليانية ١٩٠٥ ر٥٥٥
سنة ١٨٦١ فبلغت في سنة ١٩٠٩ - ٢٤٦٢٤٦ وكان اذ ذاك عدد الداخل
والخارج الى الموانئ الطليانية من بواخر الأجناب ٢٣٨٣٦ ر٢٣٨٣٦ فبلغ في العهد الاخير
١٧٤٣٤ ر١٧٤٣٤ واشتركت في ذلك جميع موانئ ايطاليا وفي مقدمتها جنوة ثم تجيـء نابـل
وليفورنـة والبندقية وبلرمة وكان لايطاليا عام ١٨٦٠ - ٨٠٠٠ كيلو متر من
الاسلاك البرقية ولها الآن ٥٤ ألف كيلومتر . تضاف اليها الاسلاك البحرية
والتلغرافات اللاسلكية مع ما لها من الخطوط التلفونية ولم يكن البريد بالشئ
الذي يذكر في بعض أصقاع ايطاليا على عهد الوحدة فبلغ وارده في سنة ١٨٨٦ -
١٦ مليوناً وفي سنة ١٩٠٠ بلغ ١٠٧ ملايين فرنك

وكانت الصناعة أيام الوحدة غير موجودة الا في اقليم البيمون ولومبارديا
فعمت الآن أقاليم ايطاليا كلها ولا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة فقد كان سنة
١٨٨٩ معمل واحد للسكر في جميع ايطاليا فأصبح لها ٣٢ معملاً وارتقت صناعة
حياكة الصوف والقطن والحرير والحديد والعربات والسيارات ارتقاء هائلاً ،
ووجدت الكهرباء في ايطاليا محيطاً حسناً للغابة بالنظر لما خصت به هذه البلاد
من الأنهار السريعة في جريتها ، ومن هذه القوى النافعة تخدم الصناعة أجل
خدمة ، وربما أوصلت الكهرباء الى مسافات متناحية ، ولا تسـل عن معامل
الأسلحة وبناء السفن مثل معمل انسالدو في مقاطعة جنوة وغيره كثير . واذا
ضم ما يرد ايطاليا من صناعتها الى ما تأتيها به زراعتها بلغ مجموع تلك الثروة
٧٥ ملياراً من الفرنكات يصيب كل فرد ٢٢٠٠ فرنك ويستدل على الرفاهية والغنى
مما يودغه الاهلون في صناديق التوفير فقد بلغ ما أودع في الصناديق العادية
مليارين ونصف مليار من الفرنكات يضاف اليها ما أودع في صناديق التوفير

في البريد وهو ١٧٠٠ مليون هذا عدا ما يضعه الناس في المصارف وجميعيات التعاون مما يعد جزءاً عظيماً من ثروة الامة . وما كانت البيوت المالية تعرف في ايطاليا الا في اقليم البيمون قبل الوحدة الايطالية ، وقد كثر عددها اليوم ، وهي من الدرجة الاولى بين المصارف مثل بنك ايطاليا وبنك نابل وبنك صقلية وبنك رومية وغيرها وكلها تشتغل بزهاء مليارين من الفرنكات ماعدا أموالها الاحتياطية النقدية التي تبلغ ملياراً ونصفاً

وفي ايطاليا مصارف زراعية ومصارف عقارية ، وشركات تجارية مساهمة ، وشركات صناعية تعاونية وغيرها وعددها يكثر كل سنة كثرة هائلة . وقد بلغت ميزانية الحكومة من كل ذلك مليارين ومائتين وستة عشر مليون فرنك في سنة ١٩١١ في قسم النفقات . ومليارين وثلاثمائة وأربعة ملايين في قسم الواردات ولقد أصيبت ايطاليا بأزمة سياسية شديدة سنة ١٨٩٠ أثرت في مالياتها كل التأثير فكان شأن المضاربين على الأراضي للبناء في المدن الكبرى شأنهم في مصر منذ بضع سنين فقدوا ثرواتهم الا قليلاً بسقوط أسعار تلك الأراضي وذلك لان بعض المدن الايطالية أرادت أن تجدد أبنيتها على الطرز الحديث ، فأخذت طائفة كبيرة من أبناء الاسرات القديمة ومنهم من يعتقد بأن له الكفاءة في كل شيء يبتاعون من تلك الأراضي والأبنية القديمة للهدم فكان بها خرابهم وخراب كثير من أرباب رؤس الأموال الصغيرة ومن المصارف وبسبب هذه الأزمة عرض الوزير كريسبي الايطالي على البرنس بسمارك الألماني أن تكون ألمانيا وايطاليا يداً واحدة فأحست فرنسا بالامر من الغد فلم تر أحسن من اخفاق مسمى ايطاليا واشغالها بقطع الموارد المالية عنها ، وكانت ايطاليا اذ ذاك لا تعتمد في اقتراضها وتجارتها الا على البيوت المالية والتجارية في باريز ، فأخذ هؤلاء يرفعون ثقتهم من ايطاليا ويشحون عليها بالمال فحدثت تلك الأزمة التي منشأها في الحقيقة من أناس ما خلقوا ماليين ولم يستعدوا لمعاناة الشئون المالية بالعمل وعلى العكس كان من قانون الوراثة والمحيط ان هياً الاسرائيليين ليعملا

أعمالاً عظيمة في إيطاليا وللاسرائيليين اختصاص بالشؤون المالية ولا نجاح الا
بالاخصاء . فانهم اقتصروا بالتجارة ومعاناة المال فنشأت لهم مهارة لا نظير لها
وقد بقيت سلطة الأب على أولاده محترمة عندهم بخلاف القوانين الحديثة
الاجتماعية التي قللتها عند غيرهم وترى النظام في بيوتهم التجارية والصناعية أتم
مما هو عند غيرهم والاعتصابات قليلة وأعمالهم ناجحة أكثر مما عداهم لأنهم
يحسنون الانتفاع من القوى والأشياء أكثر من كل الطوائف ، ومنشأ ذلك
كونهم كانوا مضطهدين فأحرزوا ببطء صفات يولدها الاضطهاد فيمن يؤخذون
به . وهذه الصفات هي قوة المقاومة والشعور بالتضامن واللين والمرونة
في أسباب الحياة .

وعلاوة على ما للاسرائيليين في إيطاليا من النفوذ العظيم الاقتصادي قد كان
لهم في المسائل السياسية مكانة لا تنطبق مع قلة عددهم ولكن لها ما يشفع بها
بما قاموا به من معاونة إيطاليا في وحدتها بالمال وما أبدوه من الصفات الحسنة
التي أبانوا عنها في تقديمهم ادارة المسائل العامة . وظالمها كان منهم رؤساء الوزارة
والولاة فأظهروا من البراعة في الأمور السياسية ما يحق لهم أن يفاخروا به بل ان
حاكم رومية نفسها هو اليوم اسرائيلي . وكذلك أكثر الولايات التسع والستين
الايطالية فان ولايتها من أبناء اسرائيل . لا يأتون ما يعسر عواطف الاكثريّة من
الكاثوليك بل كثيراً ما كان نوابهم ووزراؤهم في جانب المحافظين اذا أريد وضع
قوانين واحداث أمور جديدة من شأنها إثارة الرأي العام مما دل ان الاسرائيلي
في إيطاليا خلافاً لما هو عليه في سائر الممالك ايطالي أولاً ثم اسرائيلي وفي غير
هذه الديار اسرائيلي قبل كل شيء . وفي المظهرين تفاوت عظيم كما لا يخفى .

ايطاليا وعالمها وفنونها

٥١

كان علينا وقد وصل بنا البحث الى هذا الحد أن نتكلم على ما امتازت به ايطاليا من دون سائر بلاد أوروبا من التفنن في الفنون الجميلة والتبريز في مضمارها على جميع أمم الغرب مهما قالوا بانحطاطها عندهم بالنسبة للقرن السادس عشر والسابع عشر وذلك مثل الكلام على التصوير والنقش والهندسة والموسيقى ولكن ذلك يحتاج الى فصول كثيرة لا نتسع لها هذه العجالة ولا تنطبق مع أذواق أكثر القراء ومع هذا فنتكلم على الآداب الطليانية في العهد الأخير وكيف ارتقت حتى عم أهل القرى أثرها .

يعتبر تاريخ اللغة الايطالية الحديثة منذ عهد دانتي الشاعر فانها بعده لم يعد ينقصها شيء من الالفاظ للتعبير عن الفكر ومضت القرون الثلاثة التالية بعده فأصبحت البلاد لقلة المواصلات وكل مقاطعة لموقعها الجغرافي لا يعرف ما عند جارتها فنتج من ذلك تعدد اللهجات وفتحت هذه صدرها لكل الالفاظ الحديثة في حين ظلت الايطالية الادبية جامدة تقرأ في المدارس كما تقرأ اللاتينية واليونانية أي كنها لغة مينة لا حية . ودام الحال على ذلك الى قبل خمسين سنة وبفضل توفر المواصلات والخدمة العسكرية التي تقضى بتنقل الجند في البلاد أخذت الايطالية الحديثة تفهم في كل مكان وبقيت اللهجات التي تعوق ولا شك دون نشر لغة عامة تفي بمطالب الفكر الحديث وأصبح عندهم لغة يتكلم بها تؤثر فيها اللهجات المحلية ولغة ايطاليا مكتوبة يحسنها الكتاب والمؤلفون في ايطاليا نحو ١٤ لهجة لا يفهم أهل هذه لهجة أولئك وأفصح اللغات لغة طوسقانة ومنها سرت الى رومية ولغة ساردينيا تشبه اللاتينية كثيراً وتختلف عن لغة صقلية وابن رومية لا يفهم لغة ساردينيا وأهم اللهجات الايطالية اللهجة البيموننتية

واللومباردية والليكورية والبندقية والرومانية والنابولية والبولية والكالابرية والصقلية والساردينية .

وتعددت اللهجات مما عمت به البلوى لافى اللغة العربية فقط بل فى لغات أوروبا التى يسعى أهل العلم والسياسة الى توحيدها منذ زمن طويل ، فمن ذلك ان فى سويسرا ثمانى لهجات ألمانية لا يتفاهم أهلها بعضهم مع بعض بها بل ان أهالى ألمانيا لا يفهمون لهجات سويسرا مثل أهالى بافيرا وورتمبرغ وهيس ، وهكذا الحال فى فرنسا وغيرها من البلاد التى يظهر أن لها لغة واحدة والحال انها مختلفة اللهجات لا يكاد يفهم المتناوون لغة بعضهم بعضاً .

اقتضت وحدة الروح الايطالية أن يكون لايطاليا لغة مكتوبة واحدة فقام بهذا الغرض من الشعراء والكتاب فى أوائل القرن التاسع عشر أمثال مانزوني وبليكو وكاردوشى فأفادوا على اختلاف فى طرق الاداء فى بث اللغة الصحيحة فى الشعب . ومن الشعراء الكتاب المعاصرين الذين اشتهروا فى الآفاق دانوزيو وباسكولى وفوكازارو ودى سانكنيس وفريرو ومن النساء اللاتى نافسن الرجال فى صناعة الأدب سيرارو واوسانى ودللو ومنهن من تفردن فى القصص التمثيلية وأخريات فى القصص الروائية وغيرهن فى الصحافة .

كان من توفر أسباب الرفاهية فى الشعب الايطالى ان أخذ عدد المخطفين الى مسارح التمثيل يزيد اليوم بعد الآخر ومن نشر التعليم وقلة عدد الاميين سنة عن أخرى ان كثر عدد الصحف وقراؤها وكان من ذلك مواد ثمينة لتعجيل كمال اللغة الحية لان التمثيل كالصحافة اذا أراد القارئون بها أن يفهموا وجب عليهم أن يتكلموا بلغة تتناولها عقول الكافة واذ كان بعض هذه الجوقات التمثيلية تطوف بلاد الاقاليم اقتضى لها أن تعدل من لهجتها فى كل محل بحيث تتناولها الاذهان على أيسر سبيل . وعند الطليان مؤلفون كثيرون للروايات التمثيلية لا يقلون عن غيرهم من الامم الراقية كالفرنسيين والالمان .

أما الصحافة فهي تشبه صحافة فرنسا وغيرها من الممالك فى الصورة والشكل

وكل يوم تزيد العناية فيها بالاخبار المتنوعة المؤثرة وتقل مادتها من الانتقاد الجدى والموضوعات الادبية فالصحافيون هنا مثل غيرهم في البلاد الاخرى يبيعون من الجمهور ما ينفق عليه ويروج عنده وليس للصحف الكاثوليكية رواج كثير كالصحف غير الكاثوليكية وأعظم صحف ايطاليا وأهمها جريدة « كوربيه دلا سيرا » أى بريد المساء وهى تصدر فى ميلانو من عواصم العلم القديمة أو العواصم الادبية كما يسمونها وتجيء بعدها جريدة « التريونا » أى الميتر وهى نصف رسمية ثم « جورنال ديتاليا » أى جريدة ايطاليا وهاتان تصدران فى رومية . ومن خيرة جرائدهم جريدة « ايدياناسيونالى » أى الفكر الوطنى وهى تمثل الفكرة الوطنية الايطالية يريد بها أصحابها أن يبطلوا أو يقللوا على الاقل كل ما يزعج كلمة مواطنيهم وأن يجمعوا شملهم على خطة سمحة غايتها عظمة الوطن . وقد سارت صحافتهم كما هو شأن الصحافة فى كل مكان على توحيد الفكر واللغة .

كان السبب الرئيسى فى كل ما تقدم من ذرائع الارتقاء نشر التعليم بين جميع طبقات الشعب فقد كانت الحكومة الايطالية خصصت سنة ١٨٦١ مليون فرنك للمعارف العمومية وهامى الآن تنفق مئة مايون^(١) لهذا الغرض كل سنة وارتقاء كهذا فى البذل على المعارف تنشأ منه تلك الوطنية والوحدة دع المدارس المتنوعة التى أسستها الجمعيات الدينية أو الافراد وزاد عدد الطلاب صنعى ما كان عليه سنة ١٨٦١ فبلغ فى السنة الماضية زهاء ثلاثة ملايين .

(١) بعد كتابة ما تقدم اطلعنا على خطاب ناطر المالية الايطالى وقد جاء فيه أن ايطاليا ستصرف هذا العام على المعارف ١٤٨ مليون فرنك وتنفق المال الكثير على معارف الولايات ليطبق بالفعل قانون التعليم الاجبارى فى البلاد وقد بلغت الحركة الدولية فى المفاوضات خلال الاحد عشر شهرا من السنة الماضية (١٩١٣) ٥٥١٦ مليون أى بزيادة ٤٤ مليونا عد مثلها من السنة التى قبلها وفات الواردات ٤٨ مليونا وزادت الصادرات ٩٢ مليونا وزادت السفن البخارية الداخلة الى موانى ايطاليا فكانت ١٦٤ ألفا كما زادت البضائع الصادرة والواردة ١٠ — ١٢ مليون طن وزاد عدد السائحين فى ايطاليا مئة ألف وزادت كمية الممدن من مناجم الحديد ببلغ ٣٢٥ مليوناً وكذلك مداخيل الضريبة على السكر والتبغ ودخل السكك الحديد وكثر الاتفاق على المصارف وأعمال الرى والاسباب الصحية كثيرا والحكومة الايطالية ستزيد مبرايها البحرية والبرية وكل هذا بدون أن تستدين وتبادل الدخل والخرج على طريقة ماهرة فى الامور المالية .

ومع هذا فإيطاليا من أكثر البلاد الأوربية أميين — بعد روسيا — ولا سيما في القرى وان كان التعليم الابتدائي اجباريا الا أنه لا يعمل به كثيراً وبالنظر لما وقع من النزاع بين الحكومة والاكليروس انتهت الحال بان المدارس لا تعلم التعليم الدينى الا لولد يطاب أبوه ذلك والآباء قلما يحفلون بهذا الطلب ولذلك كاد التعليم الدينى يضمحل من مدارس ايطاليا وقد تعطي الحكومة أحيانا إعانات المدارس الأخويات الدينية ومن المدارس الحرة ماله حقوق عالية وله الحق بان يكون لتلاميذه بالامتحان حقوق تلامذة مدارس الحكومة ومن المدارس ما يديره اليسوعيون وان ألغيت مدارسهم في ايطاليا منذ زمن طويل ومدارس الجمعيات الدينية حاضمة اجمالا لتفتيش الحكومة وتترفع عن البحث في السياسة يقسم التعاليم الأوسط في ايطاليا الى فرعين مختلفين . الفرع المدرسى وهى دروس المدارس المعروفة بالجنائز والليسة والتعليم العملى وهو يدرس فى المدارس والجمعيات الفنية وقد كان عدد تلامذة الفروع الاولى على عهد الوحدة ١٢ ألفا فأصبحت فى السنة الماضية ٤١ ألفا والدروس العمالية التى يتخرج فيها الشبان الذين يتمخضون افروع الصناعات الكثيرة وقد بلغوا سنة ١٩١١ - ١٠٠٠٠٠ وما كانوا منذ خمسين سنة أكثر من ٦٠٠٠ وفى الفرع المدرسى تعلم اللغتان اليونانية واللاتينية وفى الفرع العملى تعلم اللغات الحية أما عدد تلامذة المدارس الوسطى للمدارس الخاصة فلا يقل عن ستين ألفا ويؤكد بعضهم أن المدارس التى يعلم فيها الرهبان والقسيسون أكثر نجاحاً من التى يعلم فيها العلمانيون لان فتيان القسس ممتازون بانكار الذات والتشبع بالروح الدينية أكثر من غيرهم من الأساتذة أما التعليم العالى فان لايطاليا منه سبع عشرة كلية ^(١) أو مدرسة جامعة تتنافس فيها بلاد الأقاليم ولكن معظم هذه الكليات لا تخرج رجال عمل بل أكثرهم خياليون من أرباب المنظر ويضاف الى هذه الكليات الجامعات العلمية العالية الكثيرة

(١) للحكومة فى ايطاليا سبع عشرة جامعة وهى جامعة بولونيا وكاليدارى وفلوران وجنوة وماسيرتا وميسنة وموديس ونابل وبادو وبلرم وبارم وبافى وبيزا ورومية وساسارى وسين وتورينو ومنها أربع جامعات حرة وهى جامعة كابرينو وفريرا وبيروز واويزيه

لدرس الآداب والعلوم في كل مدينة عظمى والحكومة تمدها بالمال . والمدارس العليا على كثرة ماتستلزمه من النفقات لاتتناول من مال الأمة أكثر من أربعة ملايين فرنك مساهمة مما يستبان منه أن الحكومة توفر العناية بالتعليم الأوسط والابتدائي أكثر مما عداها . وعدد تلامذة الكليات والمجامع العلمية العليا نحو سبعة وعشرين ألفاً وكان طلاب المدارس العليا في القرن التاسع عشر يصرفون أوقاتهم في الأعمال الوطنية أكثر من العلم أما الآن وقد استقرت حالة البلاد السياسية فانهم أخذوا ينصرفون الى أبحاثهم ودروسهم ليكون لبلادهم ماأحرزته ألمانيا وانكلترا وفرنسا في مضمار العلوم والآداب .

هذا اجمال مايقال في التعليم أما الاختراعات والاكتشافات فلم يقصر فيها علماء إيطاليا أسوة غيرهم من أمم الحضارة الحديثة فقد اكتشف باسي طبيعة الامراض الميكروبية وهى النظرية التى خلصت الجراحة والمداواة من الاوهام التى كانت تعوقها . وكذلك كان شأنها في الكهرباء وساعدها على ذلك كثرة شلالاتها وتيسير ارسال الحرارة والنور والاعمال الكيماوية والميكانيكية الى ابعاد شاسعة ومن مخترعيهم باشدتوفى وماركونى مخترع النافراف اللاسلكى وغيرهم من الذين شاركوا في الاعمال العلمية فاختلف الأمر وأصبح من الصعب التميز بين المتقدم والمتأخر من مكتشى العلماء في أميركا وانكلترا وألمانيا وفرنسا والنمسا والبلجيكا وهولاندة وسويسرا وروسيا وغيرها من الممالك المدنية .

والنجاح كما قال الأمير جيوفانى بورغزة في كتابه إيطاليا الحديثة (١) وعليه اعتمدنا في بعض ما تقدم في هذا البحث أعلاء الوسط على الدوام لينأتى للسكانات العليا ان تظهر بمظهرها وتثير المجموع بكلامها ومثالها وأعلاء الوسط يكون بتنشيط الشبيبة على القيام بجميع الأعمال الشريفة التى يخولهم اياها مظهرهم ومن الخطاء العظيم في عصرنا أن تجعل قيمة شعب على نسبة ماأحرز من الارتقاء العقلى . ان التعليم على اختلاف ضروبه يساعد على ظهور المدارك الاجتماعية وفى الكتابة

والقراءة معنى جديد يجعل بيننا وبين الفكر العام صلة ولكن التعليم بدو والتنظيم الطبيعي من جهة وتربية الأخلاق من أخرى لا يتولد منه انشاء رجال تامة أدواتهم في الجملة لتنشأ على أيديهم عظمة مملكة .

واذا نظرنا الى ارتقاء ايطاليا نراها دخلت في ثلاثة أدوار هي أدوار النشوء الشخصي فالدور الاول الدور المادى والثانى النفسى والثالث العلمى وكان بدو الدور الأول على أوائل تأسيس رومية وفي سنة ٧٠٠ قبل المسيح أى بعد سبعة قرون كان عصر أغسطس وهو عصر مجدها وبعد ثلاثة قرون عندما نقلت عاصمة المملكة الرومانية الى القسطنطينية تراجع أمر الدور المادى والدور النفسى أو الروحى هو دور ظهور النصرانية التى توفر الامبراطور قسطنطين على نشرها وجعل عاصمة بلاده القسطنطينية فمضى سبعة قرون على ذلك العهد حتى تنصرت أوروبا وتم عمل الدين الى أواخر القرن العاشر للميلاد وفى الرابع عشر بدأت تظهر تبشير دور النهضة التى أريد بها تحرير العقل الانسانى من قيوده . والدور الثالث هو الذى نحن فيه والقرن الاخير كان أرقى أيامه وبه ظهرت ايطاليا فى مظهر الدول العظمى واستقامت لها حياتها السياسية وتبعها سائر الاشياء ولا تستقيم حياة أمة بدون أن تستقيم سياستها واستقامة السياسة نتيجة ارتقاء العقول وارتقاء العقول لا يكون بغير قبول المدنية الحديثة والاخذ بالاساليب التى اتخذها السابقون فى مضمار التحضر .

ومن أنعم النظر فى هذه النبذة يدرك أن كل نهضة غير متعذرة وان أمما بلغت من الشقاء مبلغاً كبيراً وتيسر لها بقوة الارادة واخلاص المستنيرين من الوطنيين أن تغلبت على جميع العوائق وكونت مجموعا يفتخر به وحررته من قيوده الثقيلة ومن رأى ايطاليا أمس يجوس النمساويون أو الفرنسيين خلال ديارها ويستعبدون أبناءها ويرى الطليان اليوم وقد ألفوا مجموعاً حياً ودولة قوية وهم فى حكومتهم الملكية أكثر حرية من الفرنسيين فى حكومتهم الجمهورية على رأى بعضهم من رأى ذلك لا يقول بأن فى العالم شيئاً مستحيلاً . وان قوة

العقل والثبات على العمل تفعلان أكثر من كل قوة في الأرض في إيطاليا الحديثة عيوب كما في سائر الممالك وهذا يتعذر على السائح الشرقي في بلادها أن يدركه ولا يحل له أن يخط فيه حرفاً لانه لا يرى الا الظواهر خصوصاً مع عدم معرفته لغة البلاد فانه يبقى كالاصم الاخرس وليس ارتقاء الطبقة المستنيرة هو الميزان الوحيد في معرفة أقدار أمة وكم عند الطبقة الوسطى والدنيا من الفضائل وتقيضها ما تؤخذ منه حقيقة شعب وذلك لا يتيسر الا لمن عاشر الطبقات كلها وصرف زمناً طويلاً في أصقاعهم المختلفة وحكم العقل والانصاف فيما يكتب بعد درس الاخلاق والعادات والتنظير بينها وبين ما يماثلها من الشعوب الاخرى .

وغاية ما يستطيع المفكر أن يقول به اذا رأى إيطاليا ان بينها وبين الشرق القريب من الفروق أكثر مما بين مصر أو الشام والسفيغال أو بلاد نيام نيام يشهد هنا لكل شيء نظاماً وقانوناً من خرج عنهما ضل وما اهتدى ويجد نشاط الأفراد على آتاه ليس له ما يعوقه من سلطة جائرة وقانون غير معقول فالشقي يشقى بصنعه والسعيد يسعد كذلك ولكن السعادة أوفر مما يناقضها بدرجات السرور تقرأه في الوجوه والبسطة في الغنى والرفاهية تشهده على الأكثر في سكان الاقاليم الوسطى والشمالية ولكل صقع من الأصقاع خاصية لا يكاد يشركه فيها الصقع الآخر فهذا اشتهر بعاداته وآثاره ، وذاك بمحائله وأنهاره ، وهذا بتجارته ، وذاك بصناعته ، وآخر بزراعته ، وغيره بسكونه ، وآخر بحركته

وتكاد ترى المواهب مقسمة بين البلاد . فلفلورنسة مدينة الزهور وعاصمة طوسقانة وآثينة القرون الوسطى ومسقط رأس دانتي وبترا رك وبوكاس وغاليه وميكل آنجلو وليوناردى فنمى وبنفانوتو وسيليني وأندره دلسارت وغيرهم من نوابغ الطليان في الشعر والموسيقى والنقش والتصوير والهندسة والعلم من المزايا ما ليس لرومية وذلك لأسباب تاريخية واجتماعية كثيرة فان جمهوريات طوسقانة بينا كانت في القرون الوسطى تحسن الانتفاع من جميع العناصر الحيوية في الشعب كانت رومية تضيعها بما قام فيها من المنازعات بين الأسر الكبرى

والذهاب في الجدالات المذهبية مذاهب . ولذلك كان المجد كله في النهضة (La Renaissance) لمدينة فلورنسة التي هي اليوم إحدى الولايات الإيطالية هذا شأن المدن الداخلية وكذلك الحال في المدن الساحلية فانك تجد مثلاً للبندية من المزايا ما لا تجد مثله لجنوة ونابل وكلها مما يستدعى الغريب ويستهو به لنزول هذه الديار ودرس آثارها الكثيرة بل التي لا تدخل في عد لكثرتها وقد اتخذت الحكومة الجديدة أنواع الراحة لجلب أنظار سياح الأرض لغشيان بلادها وفي ذلك من الفوائد المادية ما لا يقدر فلو انقطع سياح الغرب سنتين عن زيارة إيطاليا لأحست بفقر شديد وذلك لما يبذره أولئك السياح من الأموال في جميع فروع الاتفاق . ولها أمثال في تاريخ إيطاليا وقد نشأ حينئذ وقوف في تجارتها عن طريق البر التي كانت عمل هاته الجمهوريات حتى اذا قام الإصلاح الديني في أوربا وفصل جزء عظيم من هذه القارة عن البابوية قل ما كان يرد مدة زمن طويل الى إيطاليا من الأموال بالطبيعة فافتقرت .

ان كل كنيسة من كنائس إيطاليا حرية بأن يقصدها السائح للفرجة من القاصية وقد وقع لي من الدهشة عند ما رأيت كنيسة « الدوم » في فلورنسة مثل ما وقع لي من الدهشة عند ما زرت كنيسة القديس بطرس^(١) في رومية مقر البابوية ومهوى أفئدة البابويين في الأرض . ولكل مكان ميزته .

امتازت رومية بكنائسها العجيبة كما امتازت بكثرة فواراتها وعيونها وكثرة تماثيلها وأنصابها في كل جادة وساحة مما يستهو الغريب ويستدعى دهشته كما امتازت جنوه بمقبرتها لتفنن الجنويين منذ القديم بتصوير الأموات على الرخام وهم بين أهلهم أو في آخر ساعات حياتهم والمقبرة هناك ثلاث طبقات كما ان أكثر الأبنية هي الآن في إيطاليا ست طبقات ويضيق المقام لو أردت فقط اللماع الى ما في رومية وحدها من العاديات والقصور والحدائق ولا سيما حديقة البنشيو العامة فانها خصت بكل أنواع المراحة والراحة وهي مجمع الحسان الرومانيات

(١) كلفت هذه الكنيسة ٢٤٠ مليون فرنك والمهندس المصور ميكل آنجلو هو الذي أقام قبتها

كل عشية وفيها تتجلى عظمة الطاليان وتتبدى طبقاتهم الاجتماعية وكل ما يقع
نظرك عليه في هذه المدينة الأزلية صاحبة المدينتين الرومانية والنصرانية تقرأ
فيه روح النفن وتقدير العلم والنشاط وحب التسامح الا قايلا .

دخلت مرة مع أحد اخواني من مستشرقي الطاليان لأزور كنيسة البانتيون
فدهشت لما رأيت واليك البيان : كنيسة البانتيون هي الكنيسة الوحيدة الباقية
من عهد رومية القديمة بنيت معبداً في سنة ٢٧ قبل المسيح ولما رسخت قدم
النصرانية في رومية جعلت كنيسة وكان يشترط على كل شيخ في مجلس الشيوخ
في القرن الثامن لأميلاد من جملة ما ينبغي له الاحتفاظ به كنيسة البانتيون .

وكان يدفن بها بعض قديسيهم وأعظم رجال الدين عندهم وما راغى الا وقد
رأيت الى جانب أضرحة رافيل (المصور النقاش المهندس المتوفى سنة ١٥٢٠)
والمصور أنيبال كاراشي (المتوفى سنة ١٦٠٩) وغيرهما من كبار المهندسين
والمصورين والنقاشين الطاليان ضريح الملك فيكتور عمانويل الثاني المدعواً بالوطن
لانه قام بالوحدة الايطالية وخلف لذريته من بعده التاج الايطالي بعد ان كانت
أسرته لا تحكم على غير اقليم البيمون فقط - وضريح ابسه همبرت الأول والدملك
الحالي الذي اغنيل سنة ١٩٠٠

نعم أعجبت لضريح المهندس والنقاش والمصور يكون في مقام التكريم الى جنب
القديسين والشهداء وهذا في تلك القرون التي كنا نظن فيها أوربا متوحشة وراقى
أن يجيء ملوك ايطاليا اليوم ويجبون أن يدفنوا الى جنب أولئك الصناع النوابغ
ان لحد المهندس والمصور في أقدم كنيسة بل أهمها بعد كنيسة القديس بطرس
والقديس بولس هو أكبر دليل على حب الباباوات لرجال الفنون الجميلة ولحد
ملكين عظيمين الى جنبهم هو أيضاً مما يدل على روح التسامح الحديث وعلى ان
رافيل المصور ليس في مكانته في خدمة أمته أقل من فيكتور عمانويل الثاني . فان
كانت باريز قد أقامت كنيسة البانتيون لتدفن فيها رفات العظماء في العلم والسياسة
في أوائل القرن الماضي فان رومية تفاخر بأنها خصت بانتيونها لهذا الغرض منذ

زهاء أربعة قرون . بانتيون باريز يضم رفات ميرابو وفينلون وكوفيه وقولتير وروسو وهوغو ولافايت ونابوليون واضرابهم . وبانتيون رومية يحوى أمثالهم من رجال الطليان . فتى يا ترى يقوم في الشرق القريب أعظم من أبناء هذه الاجيال الحديثة يكونون في عقولهم واعمالهم على مستوى اولئك الابطال لتقوم بهم مدنيتهما على أحسن الدعائم كما قامت مدنية الطليان في هذه الازمان .

ايطاليا والمشرقيات

٥٢

طمحت ايطاليا ^(١) في كل زمن الى هذا الشاطئ من البحر المتوسط فحملت أولا القوة والسلام الروماني ولما انحلت عرى هاتين المادتين تحت ضربات البرابرة عادت توجه وجهها الى تلك الوجهة أيضاً لا الى الشمال وكان البحر المتوسط ميدان عمل جنوة ويزا والبندقية وامالفي وباري وسالرن ولم يقنع تجارها بأن يفتنوا بالاتجار بأقمشة الهند وفارس وجزيرة العرب وأفلايتها وأبازيرها بل أخذوا يؤيدون النفوذ اللاتيني في آسيا الصغرى ومصر والحبيشة وكان من انتشار الاسلام وقوته في القرن الثامن أن ضربت هذه الفتوح التي تذكر بفتوح رومية أيام عظمتها ضربة شديدة فاحتقر المسلمون ايطاليا على سمو مدارك أبنائها ومرونة أخلاقهم وأغاروا عليها فأدخلوا على قلوب أهلها الهول والفرع فكان الجلال عظيماً ولئن وفقت ايطاليا الى طرد العرب من صقلية فان نجاح مدنها الساحلية في الجنوب قد تراجع وظلت جنوة ويزا متأثرتين وعادت البندقية فوجعت وجهتها الى آسيا الصغرى .

وكان من الحروب الصليبية أن تهيات لايطاليا أسباب الانتقام فان هذه

(١) من مقالة لانطوان كباتون في مجلة العالم الاسلامي الباريزية لخصناها في مجلة المقتبس ونشرت في المجلد السابع سنة ٦٩٢

الغارات وان كان باباوات رومية هم الذين أمثلتها عقولهم قد بذل فيها العنصر الايطالى بما عرف به من الحمية الممزوجة بقليل من التبجح من حسن السياسة أكثر مما بذل من الشجاعة فاقصر الايطاليون فى الحرب الصليبية على مرافقة جيوش أوروبا الى آسيا وبينما كان ملوك الأمم الأخرى يقيمون ممالك صغرى فى الأرض المقدسة كان الايطاليون يقطنون ثمرات تلك الحملات . وقد ثبت هذا الدهاء السياسى الايطالى فى الحملة الصليبية الرابعة فانه انتج لجنوة وبيزا ان ربحتا كثيراً واستأثرت البندقية بتجارة آسيا الصغرى وامتلاك أراض مخصصة على الشواطىء الشرقية من البحر المتوسط وجزء من الاستانة . ولما سقطت القسطنطينية فى أيدي محمد الثانى سنة ١٤٥٣ حالت دون هذا السير النافع ومع هذا فان البندقية بما أوتته من عجائب المهارة وحسن المأتنى بل بمجهادها العلى قد احتكرت جميع تجارة أوروبا مع الشرق .

وبهذا الاحتكاك المتصل تمت للبندقية على قوتها البحرية والتجارية معرفة الشعوب الاسلامية حق المعرفة أكثر من كل أوروبا وكان من العادة الجارية مع طبقة التجار من أبناءها ان يتكلموا بالتركية والعربية ويألفوا بعض العادات والمصطلحات الشرقية ولكن جاءت قوة فى القرون الثلاثة التالية أكثر من قوة البندقية على مالها من الصلات التجارية مع العناصر الاسلامية فزادت عليها لانها روحية تطمع فى امتلاك العالم ونعنى بها « البابوية » .

فامتدت أحلام كنيسة رومية الى الخارج ومطلبها أعلى من الربح المادى وكانت فى عهد غارات الجرمانيين تحلم بالقبض ذات يوم على قياد الوحدة فأحسنت صلاتها مع المسيحيين بل مع الوثنيين فى الشرق ممن تطمع فى تنصيرهم وأدركت كل الادراك الخطر الناشئ من امتداد كلمة الاسلام على أوروبا المسيحية . ومع أن الحملات الصليبية قد اخفقت وقوة الايمان قد انثلمت فى القائمين بها ما برحت كنيسة رومية الى أوائل القرن السابع عشر تطالب بأعمال أخرى وفى هذا العهد كان الضعف أخذ من العثمانيين .

بيد ان رومية شمعت في الحملة الصليبية الثانية أن السيف وحده غير كاف في مثل هذا الجهاد ورأت أن تعارض التعصب الاسلامي بطوائف متمسكين في اتحادهم من غيوري الاوربيين أو الشرقيين لتقطع أوصال المسلمين قطعاً أدبياً بعد أن أوقفهم عن سيرهم المادى . وما فتئت رومية منذ القرن الثاني عشر والثالث عشر تحاول تنصير جميع الشعوب الآسيوية التي ظلت على وثنيها فبعثت الى بلاد المسكوب وفارس وأرمينية والتاتار والتبت ومغوليا والصين والارخبيل الهندي وفوداً من أهل الذكاء والحصافة ممن خلفوا لنا رحلاتهم ومذكراتهم اليومية وعهدت اليهم أن يسبروا غوراً وراء تلك البلاد لينصروهم أو ليتحالفوا واياهم على الأقل ضد المسلمين . وكان نصيب مصر والحبشة أيضاً البحث عن مثل هذا الشأن .

ولم تلبث الرهبنات العظمى ان انشئت مثل الدومينيكانيين والفرنسيسكانيين واليسوعيين والكبوشيين والكرمليين والعاذريين ليكونوا جنوداً مخلصاً في خدمة امام الأحيار وتفتح تلك البلاد لدخول النصرانية اليها . فانبث جيش من الرهبان على اختلاف مظاهرهم في قارتي آسيا وأفريقية الشمالية لافتتاحها ونشر الانجيل فيها ثم نشر المدنية الغربية نخبط القائمون بالأمر أولاً ولم يهتدوا لاحسن الطرق في العمل فانهاال الفرنسيكانيون والدومينيكانيون يفادون بأرواحهم ويصبرون على ضروب العذاب في سبيل دعوة الشعوب الاسلامية في أفريقية الشمالية الى الدين المسيحى وكانت الطرق التي عمدوا اليها على تحمس فيها ممزوجة بكثير من الجهل فشعروا في الحال أن الضرورة تقضى على من يريد دعوة أحد الى دينه أن يتكلم بلغته على الأقل ليتفاهم الداعى والمدعو فنادى القوم من كل مكان بضرورة انشاء مدارس لتعليم اللغات كان رايموند لول داعيتها النشط .

فقضى مجمع فينسانة ١٣١١ الذى كان برئاسة اكلمنتس الخامس أن تؤسس في باريزوا كسفورد وبولون وسلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية من شأنها تخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود . وأنشأ الفرنسيكانيون

والدومينيكانيون في أديارهم دروساً من هذا القبيل ليعدوا رهبانهم لنشر الانجيل ومنذ ذلك العهد أصبحت إيطاليا مهد حركة نجحت في المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق في فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المساهين وكان أساتذة العبرية يتخرجون باعلم العلماء الربانيين وأساتذة العربية كانوا ممن رحلوا الى بلاد اللغة التي أخذوا يدرسونها ويصحبهم بصفة معيدين أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة ممن كانوا يعلمونهم العربية بالعمل ورأى هؤلاء القسس بحكم الضرورة أن ينتقلوا من اللغة العامية الى اللغة الفصحى ليستد ساعدهم في فهم المسائل الفلسفية ورد حجج المخالفين بأسلوب فلسفي أدبي .

ومن أجل هذه الغاية اهتموا أيضاً بمصر والحبشة ومن مدارسهم نشأ العلماء الأول من الأقباط والحبش والاعرجيين ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحامكة المتحكمة في شبه جزيرة إيطاليا فكان ينظر الى تعلمها أنه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية . فقد وضع أحدهم سنة ١٢٦٥ باللغة العربية كتاب المعاهدة التجارية بين تونس وجمهورية يزا وظلت العربية مألوفة في عدة أماكن من إيطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت في بلاط ملوك نورمانديا وهوها نستوفين وفريدريك الثاني ودي منقروا لغة العلم العالي والشعر والادب . وما كانت العربية على ما فيها من القصائد المقيمة المقعدة والعواطف المؤثرة لتحمل أمثال شارل دانجو على تحمسه لدينه ان يخاف عاديته بل كان الاطباء والطبيعيون في قصره أما من الاسرائيليين أو من المشهين المتسامحين في عقائدهم وكان الطب هو الجواز الذي سارت به الفلسفة العربية عند مقام جيرارد دي كرمون الشهير في أوائل القرن الثالث عشر في ظل دولة فريدريك الثاني يترجم بعض كتابات ابن سينا الفيلسوف .

وفي القرن الثالث عشر ترجم المعلم موسى من أهل بلرمة من العربية الى اللاتينية كتاب ابقراط في أمراض الخيل فتسربت فلسفة ابن رشد من أمثال هذه

الطرق ولم تلبث أن صادفت قبولا بين ناشئة إيطاليا حتى شكا من ذلك جهاراً
بتراكم في القرن الخامس عشر اذ رأى في تلقف فلسفة ابن رشد دليل الاتحاد
والازدراء باليونانية واللاتينية . وكثير من الادباء والعلماء من غير طبقة الرهبان
كانوا يرون من موجبات الفخر في القرن التالي أن يعرفوا اللغة العربية سائرين
على سنة بيك دى لاميراندول

وعلى توفر بعضهم على نشر كتب في الجدل مع المسلمين حتى قبل أن يترجم
القرآن باحدى اللغات الغربية فان عشاق العربية كانوا يرون من الحيلة ودواعي
الغيرة أن يمرنوا أنفسهم على ترجمة رسائل في الطب ينقلونها عن العربية اذ لم يكن
أحد يجهل مكانة العرب في هذا الفن وبذلك يرون أنهم ينجون من الاتهام
بالزندقة وقد أصبح أندري اريفاين في البندقية حجة في هذا الباب وانشأ هؤلاء
المرجعون يبالغون النظر فيما ينشرون فكان لهم أسلوب علمي حقيقي . ولما رأى
أندري مونكانجون بللون في القرن الخامس عشر أن تراجم ابن سينا القديمة
واطباء بلاط فريديريك الثاني ليس فيها عناية ذهب بحكم دراسة اللغة العربية في دمشق
وأتم تعليمه الشرقي بالرحلة الى مصر وسورية وفارس وآسيا الصغرى رحلة طويلة
وذلك قبل أن يعود الى كلية بادو ليشرح لتلامذته فلسفة ابن سينا . وقصد
جيرولامورانونزيو أحد أطباء البندقية بلاد الشام أيضاً في سنة ١٤٨٣ ليتبحر
في فهم فلسفة ابن سينا ويعاق شروحاً على ترجمته عليها .

وكان من سقوط القسطنطينية وهجرة علماء من اليونان الى إيطاليا وكثير من
نصارى الشرق واختراع الطباعة وقيام الاصلاح ان هبت في أرجاء إيطاليا حركة
النهضة العلمية التي تجلت في أجمل مظاهرها في الدروس الشرقية ولاسيما في دروس
العربية والاسلام .

كانت الحركة في تعلم المشرقيات عامة وافراديه معاً انتشرت كثيراً بفضل
الكردينال فريديريك دى مديسيس في فلورنسا والباباوات في رومية والكردينال
بورومو في ميلان والكردينال بارباريكو في بادو ومن تقدمهم مثل بابا غانينى الذي

نشر في مدينة البندقية أول طبعة من القرآن باللغة العربية ولكن هذه الطبعة لم تلبث أن أيدت بغيرة دينية خرقاء وكان من الاسقف اغوستينو جويستينيانى المشغوف بالدروس الشرقية ولا سيما العربية والعبرية أن قبل من فرنسيس الاول بتدريس اللغة العبرية بعد أن صرف ثروته في اقتناء مجموعات من المخطوطات المهمة في العبرية والعربية والكلدانية والرومية وكان تيزيو امبروكيو قومس (كونت) البونز مستشرقاً مدققاً

وهكذا كانت إيطاليا كلها أولع علماؤها باللغة العربية وتشربوا روحها تميل كل الميل الى الاقطار التي كان يتكلم فيها . وقد نشر اندريا أريفان من مانتو أول طبعة إيطالية من القرآن بيد أن كل هذه الاعمال على جلالها لاتعد شيئاً في جانب انشاء مطبعة أسرة ميديسيس المالكة والمطبعة الشرقية لبث الدعوة ومطبعة بادو وكرليتها وكل ذلك بغية تنصير المسامين والوثنيين . فقد طبعت مطبعة ميديسيس ١٨ ألف نسخة من الانجيل باللغة العربية سمته (أربعة أناجيل يسوع المسيح سيدنا المقدسة) وأرسلتها مع تجار لتباع بثمن بخس في البلاد العربية أو التي تفهم بها العربية على صورة حازمة لا يظهر منها المقصد الذي يرمي اليه دعاة الدين .

وكانت النية معقودة قبل كل شئ على اعلان حرب صليبية جديدة روحية على الاسلام يدخل اليها بالوسائل العلمية وعنى الباباوات الادباء أمثال ليون العاشر واكليمنتس السابع عناية خاصة بتأسيس خزائن كتب من المخطوطات تسلب من المسلمين الاعداء القدماء لتكون من ذلك مجموعات نفيسة في دار كتب الفاتيكان وكان غريغوريوس الثالث عشر لا يرى أحسن في النجاح من تنصير الناس وأبادتهم . وانشأ يوليوس الثاني في مدينة فانو على بحر الادرياتيك أول مطبعة عربية احتفل ليون العاشر بافتتاحها سنة ١٥١٤ بنشرها اول كتاب طبع بحروف عربية وهو كتاب « صلاة السوامى » . وكان في رومية مطبعة حجرية شرقية انشأها سافارى دى بريف الذى ظل سنين طويلة سفيراً للملك فرنسا في القسطنطينية وهو نفسه

الذى حفر أمهات الحروف العربية التى نقات عنها مطبعة الامة فى باريز اشكالها .
ونشر منذ سنة ١٦١٣ كتاب التعليم المسيحى .

وظل الكردينال فرديناندى ميديسيس متما لذوق أسرته فى حب المعارف
الشرقية فابتاع مخطوطات شرقية باسم البابا وكان يدير بطريركيات انطاكية
والاسكندرية ومملكة الحبشة ادارة روحية والنشأ على ثقته مطبعة ميديسيس
وولى عليها ريموندى الذى ولد سنة ١٥٣٦ فى نابولى وهى اكثر البلاد التى انتشرت
العربية فيها . فكان بالالغات الشرقية التى يتقنها ولاسيما العربية قدوة الداعين الى
تعلم المشرقيات ونشر بالعربية كتاب نحو وكتب ابن سينا وغيره فكانت مطبوعاته
يحسن طبعها ووضعها موضوع الاعجاب العام وبعد ان قضى ريموندى نحبه لم
تعد اسرة ميديسيس تفكر فى اعلان الحرب الروحية على المسلمين بواسطة الكتب
بل عمدت الى احداث الاضطرابات العمالية .

ولم تشأ رومية ان تكون فى خدمة المعارف الشرقية بالمطابع والمكاتب
والمدارس دون أسرة ميديسيس فى بث هذه الدعوة لنتشر بها الدعوة على
الاسلام فقد صارت بفضل الباباوات ميدان درس كل ما رقى عقول القسيسين الذين
تنتدبهم رومية لفتح العالم فتحاً روحياً يتخرجون فى المدارس ما يمكن بلسان
البلاد وعاداتها ومعتقداتها التى يريدون بث دعوتهم فيها ودار الكتب تنعم لهم هذه
المعلومات فيعثرون فيها على ماسطره اسلافهم فى رحلاتهم الى البلاد التى عنوا
بتنصير اهلها وما تلقفوه من معتقداتهم وعاداتهم ولهجاتهم وصناعاتهم ويقضى
على كل قسيس ان يكتب بعد مقامه فى القاصية كتابة أو رسالة تخدم هذا الغرض
ومطبعة بث الدعوة تنشر كل مايؤلف من هذا القبيل وترجم الى لغات شرقية
كثيرة الكتب المسيحية والردود على الاسلام وكان للغة العربية الشأن الاول
من بين هذه اللغات التى تطبع فيها المطبعة وهى عشرون لغة شرقية

وما كان القصد من هذه العناية الا دينياً محضاً باديء بدء ولم يكن العلم
علم الشرق الا واسطة تساعد على الجدل وكذلك اللغة العربية لم تكن الا سلاحاً

يقاتل به الاسلام ولذلك لم تر المدرسة الاكليركية الشرقية في بادو غضاضة عليها أن تشتغل بالعلم المجرد أحياناً للأثر الذي يحدث عنه وكانت المطبعة والمكاتب الشرقية من المتمات لتلك المدرسة لدهابها بفضل الشهرة وتأثيرها في الافكار . وقد تخرج بالاستاذين ماراسي وأغايتو عدة من التلامذة باللغة العربية فصنفوا فيها وأفادوا وتعاقب اثنان من الكرادلة على أبرشية بادو وكان كل منهما يتنافس في عصره في خدمة الدروس الشرقية . وهذا كان شأن ميلان فان فريدريك بورومو بث فيها روح العلوم الشرقية وبعث منذ سنة ١٦٠٩ الى الشرق يبتاع بالائمان الباهظة كتباً ومخطوطات شرقية فأسس المكتبة الامبروزية الشهيرة ولم يكثر تلامذة المدرسة التي أسسها لهذا الغرض بل كانوا قلائل امتازوا باخصائهم وكان ثمة أساتذة خاصة من مسيحي الشرق أو المسامين الملحدين ولطالما عطف عليهم ونشطهم وتخرج في مدرسة امبرواز انطونيو جيغي باللغة العربية فكان لها مجداً أثيلاً .

عد القرنان السادس عشر والسابع عشر عصر ازدهاء الدروس الشرقية ولا سيما اللغة العربية في ايطاليا أما القرن الثامن عشر فكان عصر الانحطاط التام اذ قلت فيه حتى الغيرة الدينية والحماسة العقلية ولم ينشأ فيه سوى الكردينال ميزوفاتي الخارقة في اتقان اللغات المنزعفة فكان مفخراً للعلم الايطالي وقد تقاسم جمهور الشعب اقيال وملوك متوسطون صار معهم الى الشقاء والعبودية أما الطبقة العالية فقد حرمت من الاشتراك في ادارة شؤون بلادها ينهكها الاستبداد البليغ أو اضطهاد النمسا الشديد فنسيت في لذائذها المادية حريتها وعلو منزلتها العقلية .

وفي سنة ١٦٩٠ احترقت مطبعة ميديسيس ثم أعيد انشاؤها وبعد أن تقلبت عليها الاحوال ونقلت الى باريز بأمر الامبراطور نابليون أعيدت الى ايطاليا وفيها طبع أعظم مستشرقى الطليان أمثال أماري وسكيا پارللي وكويدي كتبهم وما نشره من آثار العرب . ولما فتح نابليون مصر وأعلن للمسلمين بأنه يراعى

معتقداتهم وحقوقهم وانه لا أرب له الا قتال الممالك احلاف انكلترا رأى أن يستولى على قلوب المصريين فظهر لهم بمظهر الحياذ وحسن الخدمة وبعث يجلب مطبعة لبث الدعوة الشرقية من ايطاليا فأنته الى مصر وأخذ يطبع بها الكتب خدمة للسياسة والتجارة

فأصبحت من ثم المطابع الشرقية في ايطاليا بضربات السياسة والحوادث وبقيت المدرسة الاكليريكية وخزائن كتبها في بادو بمعزل وعلى ما عرف به المستشرق العالم بالعربية اسيماني من سعة الفضل فانه لم يتيسر لبلاده أن يعيد الحياة للمشرقيات بعد أن انطفأت جذوتها بالفن والكوائن وانقراض بيت ميديسيس . ونشأ للعربية أستاذ في القرن الثامن وهو القس فلادرس في كلية بلرمة ونشر بعض الكتب ولكن القرن التاسع عشر امتاز بآدابه كما امتاز بالحياة في ايطاليا التي هبت قوية حرة وراحت ترفرف على كل ما كان فيه مجدها أيام تاريخها المجيد فأزهرت فيه الدروس الشرقية ولا سيما الدروس العربية والعلوم الاسلامية . فكانت الولايات الجنوبية في ايطاليا تخرج أبطالا في المشرقيات أمثال المؤرخ والسياسي ميشل اماري الذي نشر أحسن تاريخ للمسلمين في صقلية وكثيراً من الكتب التي تدل على فضل علم وتدقيق . كذلك يقال في دروس العربية في كليتي فلورنسا وبيزا وعاصر أماري الاستاذ سكيا بارللي مدرس العربية في فلورنسا ثم بونازيا مدرس كلية نابولي واغناس كويدي الذي هو اليوم أحد الزعماء المبجلين من علماء المشرقيات من الطليان وهكذا نشأ لايطاليا أجلة من المتبحرين في علوم الشرق ولغاته وأمراء يفضلون على العلماء في طبع مايلزم ونشره

وكان امتياز ايطاليا قديماً بنشر المعارف في كل البلاد فأصبحت كذلك في عهد وحدتها تريدان تجعل لكل اقليم حظاً من هذه الخدمة ولم تلبث صعوبة الحياة الحديثة والاطماع القديمة التي يظهر أنها اليوم العامل في حياة الممالك الاوربية أن تحذو ايطاليا السياسية الى الانتفاع من هذه المعارف النظرية انتفاعاً عملياً واذا كانت مصر على قربها من ايطاليا وغناها وعراقها في الاسلام مما يكون

منه الخطر كانت هي أول غاية انصرفت اليها كهنة الطليان وتجارهم وكانت ايطاليا منذ القرن السادس عشر مركزاً لتعلم الآداب القبطية وقد انشأت تعلم علم الآثار المصرية والقبطية في بيزا لتثبت بذلك أنها لا تريد أن تكون غريبة عن علم كانت لها القدم الراسخة قديماً في الابداع فيه وكانت للغة الحبشية المقام الاول في ايطاليا لانها رأتها أقرب الى بث الدعوة في نساطرة الحبش وان التجارة تمكن بدون أن يصطدم الايطالى مع الاسلامى الذى لا يتساهل .

وفي أوائل القرن التاسع عشر أنشأت ايطاليا مجمعاً ومدرسة لتنصير الافريقيين وتعليم دعاة لهذا الغرض تأخذهم من أبناء تلك البلاد وتربهم ليعودوا الى مساقط رؤوسهم يحيون فيها روح دينهم الجديدة ولكن هذا العمل في التنصير أخفق لما حال أمامه في كل مكان من بث دعوة الاسلام ونشر الدعوة البرتستانتيّة فاقصرت ايطاليا من ثم على غرس نفوذها في تلك البلاد وأعداد الأسباب للمطامع الاستعمارية . ولما سحقت الحبشة لايطاليا سنة ١٨٩٥ جيشاً مؤلفاً من خمسة وسبعين ألف ايطالى في أدوا اصمحت آمال ايطاليا وقنعت بما ترك لها من المواني هناك وراح أبنائها ينقشرون في تونس ومصر وعلماء المشرقيات المتضلعين من العربية من أبنائها يرفعون شأنها الماضى في الحضارة وتقاليدها القديمة في النصرانية .

واتفق أن أحد رجال البيت الخديوى الامير أحمد فؤاد باشا (عظمة الملك فؤاد الاول ملك مصر اليوم) تعلم في المجمع العلمى العسكري في تورينو فكان منه بعد ذلك أن عقد أقيم الصلات مع ايطاليا كما بدأ ذلك منه سنة ١٩٠٨ وقد عين رئيساً لاجاهة المصرية لتعلم العلوم الحديثة للمصريين ونظم الجامعة بمشورة عالم فرنساوي مشهور المسيو مسبرو وكانت أكثر الدروس تلقى بالعربية فكان من الاساتذة كويدي ونالينو ومالو الايطاليين الذين درسوا الدروس التي عهدت اليهم بالعربية .

ومنذ ذاك العهد مالت الافكار في ايطاليا الى طراباس الغرب لتكون لها أهراء حنطة كما كانت للرومان قديماً وذلك لانها بصرف المال وبذل الوقت والعناية

بزراعتها سيكون منها مورد ربح عظيم ونجد فيها اليد العاملة من الطليان مجالا واسعا للاستثمار فرأت ايطاليا أن يكون الفتح الاستعماري مشفوعاً بالرفق والرحمة والتساهل في معاملة الشعوب الاسلامية وأن يكون أساس الاستثمار في تلك الاقطار المصالح الاقتصادية وان تدار البلاد بأيدي أعظم رجال الادارة ممن تتعلم منهم وزارات المستعمرات الاوربية دروساً في الاستثمار .

وأخذت ايطاليا بتنظيم كلية بادو التي كانت اتخذتها جمهورية البندقية منذ قرنين مدرسة لتخريج رجال سياستها وتراجتها وسماستها تدرس فيها العربية والفارسية والتركية ولا سيما العربية وستعنى هذه المرة بالعربية أكثر ليكون من متخرجيها أعظم الاداريين المستعمرين لليبيا وتضاف الى دروسها اللهجات البلقانية المتنوعة ممن تتجر معهم البندقية وايطاليا . ولمدينة جنوة درس عربي طالما تناوب تدريسه أعظم مستشرقها وهي اليوم تطلب بأن يكون لها امتياز بتخريج رجال الادارة والاستعمار بانشاء كلية بحرية استثمارية فيها وكذلك سيكون من كلية بولون أثر عظيم في تخريج رجال بالعربية كما لها منهم حظ ليس بقليل الآن . وفي رومية في مدرسة الدعوة الى الايمان درسان للعربية والسريانية وكذلك مدرسة القديس أبو لينير فان درس العربية يدرسه فيها الاسقف بوغاريني وتفتخر كلية الحكومة اللادينية في رومية بأن فيها درساً للغة العربية وآدابها بزامة الاستاذ سكياباريللى والحبشية تحت نظارة كويدي . وفي جنوب شبه جزيرة ايطاليا المملوءة بتذكارات اسلامية والقريب من حيث الوضع الجغرافي من بلاد المسلمين كلية بلرمة التي يدرس العربية فيها كل من الاستاذين نالينو وبونازا واقتصرت نابولي على تعليم العربية بالعمل كما تعلمها بالنظر أيضاً وفي نابولي مجمع شرقي يعلم بالعمل اللغات الحية في آسيا وافريقية وفيه تلامذة صينيون وهنود وبلغاريون وصرييون وفلاخيون والبانايون ويونان . وفي سنة ١٩٠١ أعيد تنظيم هذا المجمع على مثال مدرسة اللغات الشرقية في باريز ويمتاز بان دروسه مجانية ولا يمتحن الطلاب فيه

سويسرا

٥٣

أصحیح أن القطار غداً یخترق العقاب والشعاب . لیخلص من ايطاليا مهد
المدنيتين الرومانية والنصرانية . الى سويسرا جنة أوربا . بل جنة الدنيا ،
ومدرسة العمل العليا ، وأبهج مصيف ومشى . ملتمس الراحة والسوى
أیکتب غداً لاروح أن تطعمن قايلا فی أشرف دیار ، عرفت فی باب حرية
الاديان والافكار . ويشهد الطرف حسناء ضمت الى صدرها شمل المدنيات
العصرية ووضعت على مفرقها تاج البدائع الارضية والسماوية . بلاد خص كل شر
منها بمزية غالية عالبة ، وتعاونتها الايدى بالتحسين والتزین والتطرية ، فلم يتصور
العقل الآن أرقى من نظامها . ولا أبدع من طرازها وهندامها .

أصحیح أن هذه المدينة الفاضله . دهشة الامصار والاقطار ، وزبدة جهاد
القرون والاعصار ، المغبوظة من جاراتها بل من أهل الغرب أجمع ، على قانونها
المتكامل ، وأمنها الشامل ، سيكون للنفس قسط من الراحة فی رباعها البهجة
شهرًا من العمر . يعد كالف شهر . فتستمتع الحواس بمجائب صنع الديان والانسان
وآخر حسنات العمران فی هذه الازمان

سلام عليك يا جمهورية السلام والوئام . عقلت الايام أن تنشى مثلك .
أنت الوحيدة فی العمل بنعالم السيد المسيح بين الممالك الغربية . فلم يعد عليك
أن جوزت بعد تحضرك قتل النفوس . لا متلاك الفئاس . ولا انطلعت شعباً آمناً
لا ستصفاً بيته وحقله ، ولا ان هتكت استاراً وأعراضاً ، لتغنمي عروضاً وأعراضاً ،
بلى كنت من خير من عطف على مدحور ومظلوم ، وأكرم مشوى وافدمقهور مغمووم ،
وعلم طالب علم وصناعة تعليماً مجرداً من النزعات المذهبية والنزعات السياسية ، ومسلاة
كل متعب راغب فی التفرغ لنفسه ، لقنت الامم معنى الحكومة الصالحة

في الامة الصالحة ، وحققت بالعمل معنى تضامنك في شعارك د الواحد لكل
والكل لا واحد » حكمت نفسك بنفسك حقاً وصدقاً ، لا كذبا ورياء

هذه الوجوه النضرة التي تمش لاغريب ، كآمش للقريب ، هي صورة صحيحة
من اخلاق هذا الشعب القليل بعدده ، الكثير بفضائله وعدده ، فان كان هنا
لايتجاوز احصاء المكين ، أربعة ملايين ، ولا مساحة المكان ٤١٣٤٦ كيلو
مترا مربعا ، فلكم كان القليل العالم ، خيرا من الكثير الجاهل وعظمة الامم بعلمها
وعملها . لا بوفرة سكانها وطول سهلها وجبلها : سويسرا تفاخر وحق لها الفخر
بانها اليوم لا تعرف الاميين الا بما تقرأه عنهم في صحف العالمين . فهل عهد
مثل هذا النور لامة في القدماء أو المحدثين

يخيل للناظر ان هذه البلاد الواقعة بين أربع ممالك راقية . فرنسا وألمانيا
وايطاليا والنمسا قد أخذت من هذه المدن الأربعة أطايبها . ولعله لا يخطئ
من قال ان هذه الممالك أخذت كثيرا من أطايب ما عند سويسرا ، فجاءت هلفسيا
أو سويسرا مجموعة الابداع في البقاع والاصقاع ، وسلسلة مفرغة في المحاسن
لا يعرف أين طرفاها ، تقاسمت القرى مع المدن ، والأودية مع الجبال ، آثار
الجمال والكمال فمز لها قسم في استهواء القلوب بين هذه الديارات ، بل بين الخمس
من القارات وما ظرف عمران الألمانين والفرنساويين والايطاليين والنمساويين ،
اذا قيس بظرف بلاد السويسريين الا كالنضارة في حدود فتاة العشرين ، في جنب
نضارة ابنة الاربعين .

لا جرم أن هذه الجمهورية الرشيدة هي التي وصفها للناس افلاطون وروسو
فكانت بما وفقت اليه ، مما يضعف الفصحاء عن توفيتها حقها من الاستحسان ،
وذكر المجردات لا يقنع بقدر الادلاء بالحجة ، ولذا تقتصر على طرف مما عرفناه
وعرفه غيرنا عنها . كوصف حياتها القومية والروحية والعلمية والاقتصادية عسى
أن يثمر ذلك فائدة لمستفيد ، وعبرة لمعتبر ، في شرقنا المتخدر الأعصاب ، منذ
أحقاب ، الذي كادت تدمع لحاله عيون الأعداء ، بعد ان أدى مقل الأحياب

سويسرا : الافراد والاسرة

٥٤

أول ما يیده الداخل الى أرض سويسرا : الحضرة والنظافة . فانها كلها أشبه بحديقة في وسطها مصايف من أجل ما بني المهندسون ونقش النقاشون وصور المصورون . الدور على اختلاف هندستها سواء كانت بيضاء كما هي في سويسرا الفرنسية أو منقوشة كما هي في الشمال الشرقي أو من الخشب على ما تراها في أوبرلاند تفيض بهجة ونضرة ونظافة وزينة وتبدو على الدوام جديدة حتى ولو كانت مبنية منذ قرنين أو ثلاثة . والغربيون مولعون ببقاء القصور القديمة مهما كانت ويؤثرونها على الجديد من نوعها . وداخل البيوت على مثال خارجها في الحسن حذو القذة بالقذة .

ادخل الفنادق الكبيرة أو الصغيرة والى منازل الطبقة العليا أو الفلاحين : والى قصور الأغنياء أو المقترين . تجدها كلها متناسقة بنظافتها ، وتشهد المساكن والمخازن على هذا الطرز في الصباح والمساء على السواء ، وما أنس لا أنس تلك النظافة التي شهدتها في المنزل الذي حلت فيه في مدينة لوزان المطل على بحيرة ليان ومن ورائها جبال الالب وذلك منذ تدخل الدهليز فتصعد الدرج ، الى أن تدخل المنزل ، وتجلس في غرفتك . الى المائدة ، الى الطعام المنوع المستطاب . الى أحقر شئ في الدار .

ولقد كنت أعجب كل يوم من رؤية الخادمة تمسح البلاط والدف في الأرض والنوافذ والدرفات وتنفض الستور والأغشية والكراسى والمقاعد والخزائن والمناضد والزروع الموضوعة في الأصاصى دع التحف والصور والتماثيل الصغيرة ومصاييح الكهرباء وغير ذلك مما لا تخلو منه دار في الجملة ، كل هذا مع خدمة المطبخ والمائدة وبعض ما يلزم من السوق تقوم به خادمة واحدة وليس هذا

الحال خاصاً بالبيوت والفنادق فقط بل انك تراه في الشوارع والازقة على صورة مكبرة فان الاوساخ الخفيفة لا تلبث أن تطرح حتى تكتسح وكذلك الثلج لا يلبث أن يتساقط ٢٠ سنتيمتراً وأكثر الا ويرفع من الطرق ، وكل شارع وجادة وساحة وسوق ينظف ويغسل بلا أمهال بحيث تصح هنا حكمة الغرب : « للنظافة أثر من آثار النظام والعمل » والشعوب النظيفة هي التي تحب أن ترى كل شيء في مكانه تقاسي ضيقاً حقيقياً بل أليماً مبرحاً اذا شاهدت الخلل ليست النظافة ابنة الكسل لأنها تستوجب من الافراد والحكومة عملاً وجهاداً متواصلاً ويستدعى أن تحت عليه الحكومة المحكوم عليهم كما هو الحال في سويسرا فان بلدياتها تنفق عن سعة لتجعل البلاد في هذه الحالة من النظافة التي تعجب لها أرق أم الحضارة دع شرقياً لا يكاد يقع نظره في بلاده الا على أقذار في الشوارع والساحات والحارات بل في البيوت والحوانيت وخللا في كل شأن من شؤون الحياة الراقية

وكان من أثر هذه المفادة التي فادت بها بلديات سويسرا في منصرفياتها أو مديرياتها الانيين والمشرين تحسين الصحة العامة واستجلاب السياح وأحسن معلم لبث أفكار النظام والوقار والراهمية

تتبارى الحكومات والمديريات والادارات الخاصة والعامة في ضمائر النظافة فتجد اقفاصاً من أسلاك لطيفة موضوعة في المدن في كل شارع وحديقة لتوضع فيها القشور أو الاوراق وربما سار الواحد عدة أمتار حتى يرى تلك السلة المعلقة فيضع فيها ما بيده من الفضلات الخفيفة ، وذلك لأن كل سويسري لا يجب أن يرى متزهره وشارعه وحيه الا كما يرى بيته ظاهراً تقياً ليس فيه ما ينبو عنه النظر . وكيفما انقلبت في سويسرا في القطارات أو المراكب في المحطات والادارات تشاهد النظافة المجسمة كأن هذه الخاصية صفة من صفات الأمة السويسرية ، وربما نسي الغريب أن يضع ما استغنى عنه من الورق أو غيره فيشيراليه الاهلون بوضعها في محلها بل ان المفتش في القطار لا يستنكف أن يرفع اوراقا تتساقط

من ركاب قديكونون في الأكثر غرباء لا يعرفون درجة غلو السويسريين في النظافة في كل شيء

ما كانت النظافة في فطرة السويسريين أو جنسهم بل هي كسبية وثمرت تربية طويلة ومدنية باهرة . ولا جدال في أنهم بنظافتهم أرقى من سكان الجنوب والغرب أى من الطليان والفرنسيين نعم ما كانوا أمس كما هم اليوم والدليل على ذلك ان من البلاد السويسرية ما لم يبلغ حتى الآن درجة كافية من النظافة كما يحب السويسريون ولا سيما البلاد التي لا يقصدها السياح وليس فيها فنادق مثل بعض محال من مقاطعة الفالي والكريزون والرينتال ، وهي اذا قيست بمقاطعات زوريخ وفو واوبرلاند فقياسها مع الفارق ولا يزال في المدن العظمى مثل لوزان وجنيف وزوريخ احياء قليلة على شيء من الوساخة بالنسبة لمجموع البلاد ولكن مثل هذه الاحياء تهدم الواحد بعد الآخر والقرى تظهر بأسرع ما يمكن وهي نموذج مما كانت عليه سويسرا قبل خمسين أو مائة سنة فاستطاع أهلها بالتربية أن يحرزوا فضيلة النظافة التي أصبحوا فيها قدوة الأمم الراقية .

تساءل الباحثون في حال هذه الأمة فيما اذا كان للدين تأثير في نظافة السويسريين والراجح من آرائهم على ما ذكره البردوزا في كتابه « سويسرا الحديثة »^(١) ان الدين أثر بالواسطة لا مباشرة وأن للتربية العملية المقام الاول . فالمقاطعات التي سبقت غيرها في مضمار العلم وأحب أهلها النظام وتفانوا في المحافظة عليه كالمقاطعات الالمانية في الشمال وأهلها بروتينات هي أكثر نظافة من مقاطعات الجنوب أى الفالي والتسين والكريزون وأهلها كاثوليك وذلك لان سكان هذه ايطاليون والايطاليون جاؤوا متأخرين بالنظافة عن الالمان وكذلك في التعليم . ومع هذا نرى من مقاطعات الشمال مقاطعتي الفو ونوشاتل وهما من جنس فرنساوي لا تقلان في النظافة عن مقاطعتي زوريخ وبرن الالمانيتين

ومهما يكن من اصول السويسريين الماناً كانوا أو فرنسيين أو ايطاليين فان سويسرا أشبه بنفسفساء من الشعوب والعناصر تلاقت وامتزجت وتعاشرت

لا تفرق بينهم الا اللغة وقد اختلطت دماؤهم اختلاط الماء بالراح كما ترى من
سحناتهم فان أهالي مقاطعتي الفو و فريبورغ وان كانوا فرنسويين بلغتهم فالسحنات
الالمانية غالبية عليهم وكذلك ترى في بعض المقاطعات الالمانية التي تتكلم باللغة
الجرمانية أيضاً منذ عشرة قرون ملامح السلتيين والريتيين من قدماء الرومان
نشأت من هذه العناصر الممزوجة روح سويسرية ووطنية سويسرية وذلك
بامتزاج الفكر الجرمانى بالفكر اللاتينى فأخذ السويسرى عن الالمانى صفات الدين
والرزانة والشعور بالتضامن والنظام والثبات والرغبة في المساديات والحقائق
واقتبس من العنصر اللاتينى تقاليد البشاشة والادب وجودة الحكم وحسن
التقليد والظرف والرأى الدينى فى ابن مقاطعة تسين لايمانل الرأى الدينى
فى ابن مقاطعة لوسرن وان كان كلاهما يدين بالكثلكة . والسويسريون الالمان
أشد نظاماً من السويسريين الفرنسويين ويغالى الاولون بالاكثر فى توطيد
سلطة الحكومة وتوسيع اختصاصها وتراهم مولعين بتقاليدهم مرتبطين بعاداتهم
القديمة وحررياتهم المحلية وخصائصهم على العكس فى السويسريين الفرنسويين
فان هذه الصفات تبدو فيهم بمظهر آخر

والسويسرى على اختلاف أصوله ولغته افرنسياً كان أو ألمانياً قليل الفضول
لا يسألك فى الفندق ولا فى الشارع اذا تعرفت اليه عن مقاصدك ولا يتتبع
عوراتك ولا يسألك أسئلة لا تحب ان تجيب عايبها على العكس فى السويسرى
الايطالى وهو ساكن فى الجنوب ملبغاً فانه يملل نزيله وصاحبه بأسئلته ، ومن
ترك الناس وشأنهم فى هذه البلاد نشأ فى أمم أوروبا وأميركا حسن الظن
بالسويسريين ، فاختاروا سويسرا مصيفاً ومشقى لأن من تلك الامم ولا سيما
الشعوب الانكلسكونية من لا يحب أن يسمعك صوته فضلاً عن ان يطلعك
على عجره وبجره .

وهذا الخاق سعى للحكومة وهى وقانونها صورة من صور الشعب . أكتب
هذا عن لوزان وقد مضى علي فيها خمسة عشر يوماً وأنا لم أرى سوى ثلاثة أو أربعة

من رجال الشرطة بالعرض اقامتهم المديرية بداعى الاعياد فقط ولم أرسوى جندى واحد ، هذا والمدينة لا تقل تقوسها عن سبعين ألفاً وفيها على الأقل عشرون ألف غريب

هذه هي الجمهورية السعيدة التي أسسها ثلاثة فلاحين منذ عشرة قرون قد بلغت بالعلم والترية هذا المبلغ من الرقى . وان أكثر مايقع في هذه الديار من الحوادث مثل السرقة والسكر والعربدة التي لا تخلو منها أرض لا يكون على مارأيت من أنباء الصحف الا من بعض الغرباء وأ أكثرهم من الطليان والاروام . فبوركت بلاد هذا حالها

سويسرا : النساء والرجال

٥٥

السويسرى كالايطائى والالماني والانكلبرى كثير الولد والذرية وأولاده لا يعدون بالزوج بل بالمقد وبلغى أنه ولد لأحدهم من زوجة واحدة ثلاثون ولداً « ففقط لاغير » أما الازواج الذين رزقوا العشرة والخمسة عشر ولداً فهؤلاء أكثر من أن يحصوا فالولد السويسريين كالبيض أو البرتقال يعدون بالخمسات والعشرات . وترى الأيوين لا يدهشان لكثرة نسلهما فأنهما فى الاغلب يلبسانهم ولا سيما فى القرى البسة بسيطة للغاية لا تختلف فى الصيف عن الشتاء كثيراً ويطعمانهم ما حضر من الطعام وأكثره يدور على اللبن والحليب والبيض والجبن والخبز الاسمر وقد لا يطعمانهم اللحم الا قليلا اما الخمر فهذه لا تكاد تعرف لانها محتكرة للحكومة وأثمانها فاحشة لا يصل الفقير اليها وليست كل المقاطعات مما تجود فيها الكرمة

يلعب الأولاد حول أمهم وفى الحقل حتى السابعة من عمرهم ثم يذهبون الى المدرسة وعندئذ يقل لعبهم حتى ان ابنة العاشرة أو الثانية عشرة تعمل أعمالا

من الخدمة وتحصيل المال يعجز عنها ابن العشرين أو الثلاثين في شرقنا . فتراها من المدرسة الى النزل تخدم في الأوقات المتيسرة لها الى تربية أخيها أو أختها وتعهده الى بيت فلان تغسل لهم الأواني أو غير ذلك والحكومة تحول دون الأولاد وما يشتهون أحياناً فان أكثر الحقائق العامة لا يستطيع الأولاد أن يدخلوها اذا كانوا دون الخامسة عشرة الا اذا كانوا مع كبير من أهلهم يسأل عن حركاتهم وسكناتهم وفي بعض المقاطعات يحرم على الفتى أو الفتاة دون الخامسة عشرة أن يخرجوا الى الشارع بعد الساعة السابعة ليلاً وفي أخرى لا يحضر الولد بعض المسارح والصور المتحركة بل ان له مسارح ومشاهد غير ما للبالغين .

انتشر فكر الأسرة كثيراً في سويسرا وذلك بتدخل الحكومة أيضاً التي جعلت في جملة المرغبات في الزواج اعفاء الموارث من كل رسم اذا انتقلت الى وارث حقيقى مباشرة كالأبن ونحوه وأما اذا كانت تنتقل الى الاباعد فانه يدفع عنها رسم فاحش للحكومة

وبينا ترى الحياة الصناعية في أوروبا بأمرها قد عاقت كثيراً عن تأليف الأسرات وتأسيس البيوت ترى سويسرا كلما زادت حركتها الصناعية تتكاثر في ربوعها البيوت وذلك بأن العامل أو العاملة يعمل في داره ما يعرفه من أنواع الصنائع كعمل الساعات والتطريز والنقش على الخشب وغير ذلك . فابن القرى يعمل وهو في بيته ولا ينقطع عن عمله الزراعى طول السنة وقد حال ذلك دون كثير من أبناء القرى عن غشيان المدن والسكنى بها واقفار الارياف . فان خلو الدساكر من سكانها هو من أول أسباب الخراب كما هو حاصل في الشام من الهجرة الى أميركا مباشرة وكما هو كذلك في فرنسا في الهجرة من قراها الى مدنها والخطب أسهل .

نعم تعمل هنا المرأة والفتاة في قريتها ما تحسنه من الصناعات في المعمل أو في

بيها بدون أن تنقطع عن محيطها وأسرتها وان تتخلي عن تدبير منزلها والمرأة السويسرية مشتهرة بأنها لا تحب الظهور كل ساعة للناس وهي مغلصة صالحة على الجملة تؤثر تعهد عملها وبيتها على كل شيء وتفكر كثيراً بحيث أن السفاسف والزينة لا تشغل من قلبها مكاناً فهي امرأة منزل وعمل تهتم لبيتها اهتماماً غريباً وتظهر حبها للنظام حتى في عواطفها

مامن بلد في الأرض ساوت فيه المرأة الرجل كما هي في سويسرا فهي قرينته في عمله وشريكته حقيقة وهذا ناشئ ولا شك من تربية المرأة على العمل وحبها وقد بلغ سنة ١٩٠٠ عدد السويسريات اللاتي يعملن في الصناعات المختلفة من زراعية وتجارية وصناعية وصناعات حرة ١.٥٧٥.٠٠٠ امرأة . هذا في شعب هو اقل من أربعة ملايين فاذا فرضنا ان النساء ١٩٠٠.٠٠٠ في سويسرا وأخرجنا منهن العاجزات وصغار البنات لا يبقى الا عدد أقل من الفاييل غير عامل من النساء السويسريات فالمرأة العطلة عن العمل ليست بضاعة سويسرية والعاملات من النساء على نسبة العاملين من الرجال . وقد أحرزن منذ زمن طويل الحق بأن يكون منهن الطبيبات والمحاميات أما حقوق الانتخاب ومشاركة الرجال فيها فانها قلما تهمن ولذلك كان النساء في التجارة والصناعات الحرة أكثر من الرجال . قال لنا رئيس تحرير جريدة « غازت دي لوزان » ان الناس هنا يعملون مها كانوا أغنياء ولا تكاد ترى عشرة في مدينة لوزان لا عمل لهم على كثرة أغنيائهم وأرباب الأملاك فيها

الأخلاق هنا في الجملة قاسية والحياة بالغة حد النظام والناس كلهم يعملون ولذلك تقل البواعث على التبذل والخلاعة وحب الشهوات لان ذلك يستدعي أوقات فراغ والفراغ لا يعرفه السويسريون والسويسريات . ثم ان المناخ لا يساعد على الخروج كل ساعة بل بالعكس مما يحمل على الرغبة في الحياة البيتية . وسويسرا مثل هولاندة أقل البلاد الاوربية التي يولد فيها أولاد غير شرعيين فهي من هذه الوجهة أقل من ألمانيا ثلاث مرات . وسبب قلة العمر العمل بلا شك لان رأس البطل معمل الشيطان

متى تزوجت المرأة السويسرية تصبح عشيرة الرجل حقاً فهي يوم الاحد تذهب واياه الى الكنيسة وفي المساء الى القهوة . والسويسرى يجدفى عطلة الاحد أحسن فرصة له لأنه يتخلى عن عمله فلا يطلب من أسباب السرور الا أن يكون مع أهل بيته . ويقل اختلاط الشبان والشواب في أوقات الفراغ حتى يوم الاحد اللهم الا في الاعياد السنوية النادرة التى تقام فيها مراقص . ويذهب الشبان أيام الآحاد الى الكنائس ولا سيما البرتسنانت منهم وبعد الظهر يذهبون عصابات يتمرنون على الرماية ولعب الكرة ويغنون ويعربدون قليلاً ولكنهم يوم الاثنين فى الساعة المعينة تقرأ الرزاة فى وجوههم ويعود كل رجل يستعيد مركزه فى الحياة الاجتماعية .

تذهب الاسرات مساء الاحد ولا سيما فى سويسرا الالمانية الى أحد الفنادق أو القهوةات فترى الامهات والنساء والاخوات جالسات الى منضدة بالقرب من أبناءهن أو أخواتهن أو أزواجهن يشربون جمعة وقهوة قليلاً جداً من المشروبات الروحية والرجال يدخنون وربما غنى الحضور ولكن أغاني وطنية حماسية فيها ذكر الله واحترام المرأة ومدح جمال الجبال وحياة الفلاة وربما غنوا أغاني هزلية أديبة ولكن لا غرام فيها ولا عشق

المرأة السويسرية قد يعالجها الهرم فى الغالب أكثر من غيرها من النساء المرفهات فى أوروبا الغربية والوسطى ولكن هرمها يزيد فى عقلها ويبقى قلبها على نضارته وأخلاقها على سذاجتها . والسذاجة خاق من أخلاق السويسريين والسويسريات والسويسرى وسط بين حرية الغالى « الفرنساوى » ورصانة الانكليزى . واثن كانت كتب الرقاعة والخلاعة لا محل لها من الاعراب فى جملة حال السويسرى فهو مع ذلك لا يخامر ديب فى صحة أخلاق بناته وزوجته ويعرف أن اخنلاطهن اذا اقتضى الحال بالرجال والخلو بهن أو رؤية التماثيل المعراة فى المتاحف وعلى قارعات الطريق مما لا يلقى أدنى اضطراب فى عقن . ومن لم يكن له من نفسه وازع لا تحول الحواجز والأستار بينه وبين ارتكاب الرذائل .

سويسرا : الصفات الاجتماعية

٥٦

أول ما يبيده المسافر في سويسرا ضبط المواعيد فإن السكك الحديدية كما هي في أكثر بلاد العالم المتتمدن لا تتأخر ولا تتقدم دقيقة عن ميعادها والقطارات تسير الهويناء في أصقاعها كأنها هي أيضاً تحب أن تتمتع نواظرها بمناظر سويسرا البديعة فالسكك الحديدية هنا كسائر الأعمال تسير عجلة في ببطء ولا حاجة لأن يعجل المرء هنا في المبادرة الى المحطة لأن العالم كله هم مدققون في أوقاتهم ومتى كانوا كذلك بورك لهم فيها

الصلابة والثبات صفتان لازمتان لسويسري وقد كان المشهور ان الفرنسيين أكثر الأمم اقتصاداً ولكن ظاهر أن السويسريين يفوقونهم فاتهم أول أمة أوربية تحسن استخدام أموالها ويأبىها الأمم السكندنافية وقد تجاوز ما وضعه ١٠٣٠٠٠٠٠٠ من السكان في حسناد بق التوفير ما يارب فرنك فيصيب الفرد ثمانمائة فرنك وهذا مما لا يكاد يكون له نظير : تلك الأمانة تقتصد وتجمع المال الذي لا تحتاج اليه !

لا تردد في أخلاق السويسري يقبل الجديد ولا يخون القديم فهو اما أن يقول نعم أولاً . ليتحمل لك ذلك في المشاريع واللوائح التي توضع ولسن مما يقتضى تنفيذه عند غيرهم سنين . أما هنا فإذا أريد القيام بعمل تبدأ الصحف بأعداد الأفسكار له وتلقى المحاضرات فيصع أحد النواب أو الحكومة مشروع القانون الجديد وإذا اقتضى الحال تصدق عليه الأمة ويخضع له كل الماسر وإذا وضع قانون ولم ينفذ فالسويسري يصصر على العمل به بدون ملل مثال ذلك بعض السكك الحديدية الجديدة فان من الخطوط ما يمد في عشرين سنة ولا يكون طوله أكثر من عشرين كيلو متراً ومع هذا فقد تفتح كل سنة محطة جديدة منه ولكن الخط ينتهي في الآخر

إذا كان السويسريون عنودين فذلك لانهم عمليون لانظريون في أعمالهم قلما يطرون وراء الخيالات . وقديماً نبغ في السويسريين فلاسفة أمثال جان جاك روسو الذى ولد في جنيف أما اليوم فلم تنشأ لهم مثل تلك الطبقة بل ينشأ لهم أهل عمل أقرب الى الحقائق متشبعين بالحق عارفين المداخل والمخارج تخلف رجال الاعمال رجال الخيال .

امتاز السويسريون بالصناعات فاستفادوا من ذلك فوائد جمة في بلاد شحيحة بخيراتها صعبة المراس بطبيعتها والاقتصار على الزراعة فيها لاتسير به الحركة الاقتصادية على محورها . فليس فيها غم حجري ولا معادن للصناعة ولا شواطئ بحرية ولا أنهار عظي للتجارة بل فيها عقاب من جبال صعبة المرتقى أقيمت على التخوم فى الجنوب والشرق والشمال وربما غير صالح للزراعة لأنه مألّف الثلوج والجليد طول السنة أو صخور لاترتقى وتربة قاحلة وثلثها صالح للغابات والشاء يطول ويشتد فى بعض مقاطعاتها ويغمرها بالثلوج رمتها وبحيرات هى كالحال فى عذق ذات الجمال والدلال ولكن الانسان العاقل يغلب الطبيعة أو يعرف كيف يستخدمها فان تلك الحواجز الجبلية قد خرقتها السكك الحديدية بحيث ان سويسرا بعد ان كانت تحول دون الاتصال بين فرنسا والنمسا وبين ايطاليا وألمانيا أصبحت الصلة اللازمة بينهما اشق القطار جميع الاصقاع وتسلل بخطوطه المنوعة حتى الاصقاع البعيدة عن التركيب الاجتماعى يحمل اليها مائسة الحياة الاقتصادية ورشاشة من بحر المدنية واستعاضت سويسرا عن الفحم الحجري الاسود بما عندها من الفحم الابيض وأحسنّت ضبط المياه فدورت بها المعامل والمواد الاولية تجلب من الخارج ولكنها تعود بأرباح فائقة فان ثلاثة أرباع صادراتها هى من حاصلات بدلت فيها اليد السويسرية وغيرت مثل القطن والحريير والشكولاتا وأنواع المطرقات والساعات أحسنوا هنا استخدام جميع التربة الصالحة للزراعة على أحدث الطرق الزراعية المتنوعة فوفرت كرومها ومراعيها وكثرت فيها تربية البقر بما يلحقه من اللبن والزبدة والجبن حتى ان بعض مقاطعاتها الشرقية تبلغ حاصلاتها ٨٠ فى المئة من

البقر وما يشتق منه والثلوج والجمد والصخور والشقيف كانت من المعونات على الاستكثار من اقامة الفنادق والازال لياوى اليها السياح الذين ملوا من رؤية الحضارة ويريدون ان يرجعوا شهراً أو شهرين الى الطبيعة فليس في سويسرا حيوانها وجمادها وانسانها شيء لم يحسن استخدامه ويجر في سبيله

السويسريون عمليون في حياتهم الخاصة وهم كذلك في حياتهم العامة فلا تجد في الممالك مكاتب أشغال تنظر الى الجواهر لا الى العرض مثل مكاتبهم ولا ادارات أقل تشبهاً بالاعمال القرطاسية من اداراتهم . فهم في هذا الباب يصلحون أساتذة للفرنسيين والطايلان والالمان . دخات كثيراً من المصارف والبيوت المالية في مصر والشام وباريز ورومية فلم أشهد لمصارف سويسرا تلك الدهشة التي يلقى بها الغريب الوافد عليهم ولا ذلك التطويل الممل الذي يشاهد في مصارف الشرق والغرب على الغالب وهكذا هم في كل أعمالهم الاشتراكية الاجتماعية . ومن أغرب ما يسمع أن مدينة بال أرناث أن تستوفى الضرائب من الإهلين في بطاقات يردية فتم هذا العمل في أسرع ما يمكن ولم ينتظر المسكف في شبك البريد أكثر من عشر دقائق فاحتذى هذا المثال كثير من المدن السويسرية تخفيفاً من أجور الجباة وتيسيراً على الناس

اختار السويسريون السهولة حتى في أصول التعليم في مدارسهم فلا يخرجون البوم من ست كليات راقية لهم سوى رجال أعمال لرجال آمال وخيال . يخرجون رجل الغد على ما ينبغي له في جهاد الحياة فيتخرج من مدارسهم قليل من العلماء والأدباء وكثير من الزراع والتجار والعاملين . يعلمون أموراً تنفع الطالب في الحال ويلقنونه العمليات وحب الأعمال المنتجة . يرى السويسريون الآن في الامة كثيراً من المخترعين المتوسطين والمفنيين الجائعين والكتاب الذين لا قرائح لهم وكلهم لا فائدة منهم ولكن البقال والصانع وموظف السكة الحديدية وان كان متوسطاً أفيد للحياة الاجتماعية من شاعر شقي لا ينتفع به في شيء ولذلك ترى الكليات تطبق علومها على حسب أقطارها فكلية بال مثلاً يتفنن

أساتذتها في تعاليم الطلاب حسن استخدام الألوان في كل أبحاثهم الكيماوية لان البلاد صناعية ولحكيتي زورينج وفريديورغ فرعان تجاريان ولكل فروع التعليم مقام محمود للتعليم الصناعي في سويسرا يوافق ضروريات الحياة والمصالح في كل مقاطعة فالمدارس الزراعية متنوعة وهي مرتبطة بالمديريات مثل المعارف العمومية ولكن حكومة الاتحاد السويسري تمنحها اعانات كثيرة تقوم بحاجتها وفي سويسرا مدارس نظرية وعملية زراعية ومدارس زراعية لشتاء ومدارس لتربية الكرمة ومدارس لاستدرار الالبان وغير ذلك وفيها كثير من المدارس التجارية للمديريات أو للبلديات ونقيم شركة السجار السويسرية كثيرا من الدروس التجارية ولكثير من المدارس الوسطى فروع تجارية هذا عدا المدارس الخاصة مثل مدارس الساعات ومدارس التطريز ومدارس الفنادق ومدارس تدبير المنزل

بين تلك الجبال الصعبة الخطرة رسولة الشتاء الطويل التي لايسنطيع فيها المرء بمفرده أن يعمل مايقاوم الطبيعة التي لا تشفق أحس السويسري بضرورة التضامن وشعر بالحاجة الى التساند والعمل يدا واحدة وترتيب الجهاد على مايجب. الجبلى قاس وفطري وهو كريم المثوى واقراء الضيف سنة قديمة عند السويسريين كماهى عند الايكوسيين في انكلترا أو العرب في بلادهم ولا تزال هذه السنة الى اليوم كما كانت أمس ولكن الأجيال الجديدة مالت الى الحقائق أكثر من أجدادها فاخترعوا من الضيافة صناعة وهي صناعة الفنادق والازال

وربما يبالغ التضامن عند أمة ما بلغته عند السويسريين فان حركة جمعيات التعاون والشركات والنقابات أكبر دايمل على رسوخ عادة الاجتماع في عقول السويسريين منذ أحقاب فالنقابات الصناعية استعادت تقاليد الأخويات القديمة حتى ارتبط المستخدمون والتجار والصناع والزراع في سويسرا بنقابات لا ليكون من أثرها ضرر على المجموع من مثل الاعتصابات والاضراب بل ليكون منها عموم النفع والشركات المحلية متحدة كل مديريةية بمديريتها ثم ترتبط مديريات البلاد كلها وهذا في جماعات العملة والمعلمين . وأصحاب الفنادق بل المطاهى متحدة

بعضها مع بعض وما الحكومة السويسرية اذا نظرنا اليها من حيث المجموع
الا اتحاد واسع من النقابات السياسية

لا تزال بقايا الملك المشترك الذى كان معروفاً فى القرون الوسطى فى الغرب ولم
يبرح معروفاً بعصه فى الشرق قائمة على أتمها ولا سيما فى الاصقاع التى بقيت على
فطرتها فان السكان الى الآن فى وادي انيفرس يجلبون الابقار بالاشتراك والكل
الحق على نسبة ملكه فى حصته من اللبن والزبدة والجبن ولم ترتفع من ذلك خلال
عشرين سنة سوى شكويين وكثيراً ما تكون بقرة أو بغل أو بيت مشاعاً بين
عدة مالكين وكثير من المراعى الجبلية هى أملاك بعض رؤساء الأسر وفى كل
قرية تملك الأسرة بيتاً خاصاً أو مشاعاً بين أهلها .

وصناعة الجبن فى أكثر بلاد سويسرا تقوم بأيدي شركات مرتبطة بجماعات
المستخرجين للجبن وفى مقاطعة الفالى حيث تقل المياه تروى البلاد باقنية جابت
مياهها من اعيد على مسافة ٤٨ كيلو متراً وكل قنطرة عملت وأديرت على يد جماعة
من أرباب الاملاك ينتخب رئيس شركتها أصحاب الأرضى التى هى آخذة
بالتقسيم والتجزئة

وبعد فاذا كان الشعور بالنصامى العملى والسطرى هو على أتمه فى سويسرا
فان الفكر الوطنى والنظام الاختيارى والضمير الافرادى المشاهدى أخلاق
الوطنى السويسرى جدير بالاعجاب من كل وجه فالسويسرى يعرف واجبه نحو
المجتمع والحكومة ويخالف فى ذلك الشعوب اللاتينية التى تحب الخلاف بفطرتها
والشعب الألمانى الذى يخضع للسلطة ادارية وعسكرية على صورة غريسة وذلك
باطاعته الرؤساء طاعة عمياء والخضوع لأوامر الامبراطور ولكن الوطنى السويسرى
يخضع لنفسه ويرضى بنظام ارتضاه بحريته . والفكر الوطنى فى سويسرا الالمانية
أشد منه فى سويسرا اللاتينية وان كانتا فى وطنيتهما فى الحقيقة كاسنان المشط
فى الاستواء . وسويسرا الفرنساوية هى مديريات نوشاتل وفريبورغ وجنيف
ولوزان، وسويسرا الايطالية مقاطعتا النسين والغريزون وما عدا هذه الست
مديريات أى الأربع عشرة مديريةية فهى ألمانية

السويسرى الالماني خصوصاً لا يستنكف من أن يشكو كل من يخالف الأمر والنظام لان لكل شاك الحق بنصف الغرامة وقليل جداً من يشتكى منهم ولذا فليس من العيب ما تقرأه على المنعطفات وفي مداخل الحدائق والمتنزهات من الكتابات بحروف غليظة لجعلها تحت ملاحظة الجمهور ومعاونة الوطنيين فان هؤلاء قد عرفوا منزلتهم من بلادهم وما ينالهم من شرفها وما وضعت فيهم حكومتهم من الثقة فلا يريدون بحال أن يشوهوا وجوه مرافقهم ومتنزهاتهم وجنائهم بل يعملون بما فيه حفظها على ما يستلزمه حبهم لبلادهم وأعجابهم بها . ورجال الادارة يجتهدون أن يماموا الشعب وان يؤهلوه ليعخدم نفسه بنفسه بدلا من أن يعتبروه ولذا يجب على الدوام الأخذ بيده وقيادته ولهذا أمثال كثيرة تعد بالعشرات مما لا مثيل له عند الأمم الأخرى

وندر جداً في السويسريين من يستحلون أكل مال خزينة الأمة أى ان يخفوا عن الحكومة ما يحق لها أخذ رسوم وضرائب منه ولا سيما في سويسرا الالمانية وان كان بعض أرباب الغايات وهم لا تخلو منهم أمة مهما طهرت نفسها قد يقفون عثرة أحياناً في سبيل بعض الاعمال كما وقف بعضهم سنة ١٨٨٦ لما أرادت الحكومة احتكار الالكحول ووقفوا سنة ١٩٠٧ لما أرادت منع شراب الالبنت المضر ولكن انتصر حزب الحق وجرى احتكار الالكحول ومنع الالبنت بالاكثريه وحسنت صحة البلاد .

لا جرم ان هذا الشعب الذى صورنا هنا بعض صفاته الاجتماعية هو شعب عظيم فان من يضرب صفحاً عن شهواته المادية لنفع المصاحبة العامة ومن يفادى براحتة وحب ذاته وهو راض ساكن باسم لاجل مصلحة وطنه يمد من الشعوب التى تحيا حياة طيبة . اللهم انى أحسد الشعب السويسرى حسد غبطة على هذه الأخلاق الفاضلة واصاب اليك أن ترزق شرقنا المسكين مثلها حتى لا يموت بفساد أخلاقه وقلة علمه مية جاهلية وقد خسر الدنيا والآخرة

سويسرا: قيودها في الحرية

٥٧

منذ قام الهلفسيون وكانوا يسكنون في شمالي سويسرا الألمانية الحالية أى في أرض ألمانيا وانضموا نحو القرن الأول قبل المسيح الى التوتونيين والسميريين وهم مثلهم يحبون الغزو والغارة وأخلاق الحرية تبدو على هذا الشعب الهلفسى الذي سميت سويسرا باسمه « هلفسيا » - رضع هذا الخلق مع ابن أجداده وتسلسل فيه على اختلاف القرون وما كان أشرف القرون الحالية ولا حكومة الرومان التى استولت على سويسرا نحو خمسة قرون ولا النمسا بعد ولا الاساقفة ورجال الدين وكانوا هم الحاكمين في كثير من بلاد أوربا ولا دوجات ميلانو وسافوا وبورغونيا ممن حكموا سويسرا يستطيعون ان يشددوا الوطأة على السويسريين لأنهم أشداء من وراء النشأة الجبلية متصامنون بينهم احوال في السراء والضراء من قرأ تاريخ سويسرا يعجب من صبر السويسري ويرى أن حروبه حتى زمن القسوة كانت لطيفة وكثيراً ما كان السويسريون يردون غارات جيرانهم بنفزيهم واشتيتهم فقط أو بامطارهم الاحجار من الاعلى أو القائم في البحيرات ارهاباً وما أظن أنه سبق في التاريخ أن محارباً يجيء معتدياً على بلد ويحاصرها ثلاثة أشهر ويضيق خناقها ثم تخدم المحصورين الاقدار وينفيض نهر فيحمل حسراً عليه كمية من عسكر عدوهم فيتركون الحصار ويأخذون بانقاذ الغرقى كما وقع لمدينة سولور السويسرية فان صاحب النمسا حاصرها لتخضع له وهى مستقلة ثلاثة أشهر فطاف نهر الآر وحمل طائفة من جنده فبدلاً من أن يفتنم المحصورون هذه الفرصة تنادوا لمساعدة الغرقى فانقذوا منهم عدداً كثيراً فلما رأى الملك ليوبولد من السلوريين هذه الشهامة تأثر جداً وعقد معهم الصلح ورفع عنهم الحصار وكان ذلك في القرن الرابع عشر

تعلم الهنلسيون الاحتفاظ بحقوقهم والاعتياى على الشورى وحكم أنفسهم بأنفسهم وكره الملوك منذ قال زعيمهم ديفيكو ليوليوس قيصر عامل الرومان تلك الجملة البديعة وقد أراد ان يعقد معه صلحاً فطلب قيصر الى الهنلسيين رهائن فقال ديفيكو . « تريد رهائن وقد علمنا آباؤنا ان نأخذها لان نعطيها وكان على الرومان ان يذكروا ذلك » . ولكنك ترى اليوم هذه الامة مع ما بلغت من الحرية التى لم تعهد لغيرها تتساهل بحقوقها مع حكومتها فيما تراه نافعا لبلادها علماً منها بأن الحرية المطلقة لا يمكن حصولها فى مكان من المجتمع وهى بالضرورة محدودة بحقوق الغير وبالمصلحة العامة

السويسريون يرون فى كل مكان المصلحة العامة ويتركون لها برضاهم صفار مطالبهم النفسية ويطالبون خاصة بنطبيق حقوق الفرد الأولية فلا يسيئون استعمال حريتهم الوجدانية وحريتهم القولية ليتخلصوا من عبء فيه مصلحة عامة .

السويسرى لا يستطيع مع مانال من الحرية ان يقطع شجرة من غابته الا باذن حكومته ولا ان يضمن داره من الحريق الا عند حكومته لانها هى ضامنة من الحريق ولا ان ياتي ورقا ولا غصناً فى احدى البحيرات فضلاً عن الاقذار والاوام فسويسرا التى احتفظت بحقوقها فى عصور الظلمة قد زادت منذ خمسين سنة تدخل الحكومة فى مصالحها على ما هى الطريقة المتبعة فى ادارة البلاد الجرمانية وذلك بان يكون للحكومة اشراف قليل على بعض شؤون لا تضر بحرية الافراد والمجتمع حرية الضمير والرأى والعبادة مضمونة فى أرض سويسرا بموجب قانون الاتحاد السويسرى الاساسى ولكن لا بصورة مبهمه بل ان لكل مديرية قانونها الخاص للاجتماع والدين والصحافة ينظر فيه الحين بعد الآخر ويطبق بحسار تقاء الشعب وأخلاقه . وحرية الصحافة لم تنقلب قط الى عدا . ومما حكات ومع شدة الانتقاد والجدال فى المنازع السياسية فان لها حداً تقف عنده لا تتعداه أعظم الصحف السويسرية ولذلك كانت صحافتهم على صورة لا تشبه صحافة الامم الاخرى وربما كانت هى والصحف الانكليزية صحف الحرية الحقيقية مع الاعتدال الغريب

أما نشر السفاهات والغراميات والخلاعات فهذا لو جسر على نشره صحافي لا يجد من الامة من يقرأه فيسقط بطبيعته . ومن الغريب انك تجد في سويسرا كنيسة يصلى فيها أهل مذهبين من المذاهب النصرانية وجريدة هي لسان حال حزينين مختلفين الحزب المحافظ والحزب المتطرف الاشتراكي ، فالقارئ يحكم على آراء الفريقين المتخاصمين من العدد الواحد

لا جرم ان القرون الخالية وحوادث الايام قد دربت السويسريين طويلا على الحرية وقلبتهم بين الشدة والتسامح أزمانا فصاروا يقدرون نعمة السلام والوئام وما تعقلهم الحال الا ثمرة نضجت على مهل بعد ان ذاق أصحابها في انتظارها وتكييفها على هذه الحالة نصيباً . حرية العمل وحرية الاشتراك في سويسرا متعادلتان فمن هذه نشأ الاعتراف ببقابات العمال وبحقوق اعتصابهم . ومن تلك نشأ احترام المعتصبين لحق المخالفين لهم في الاضراب عن العمل . ومع هذا تجد الاعتصابات أقل مما هي عند الامم الصناعية الاخرى والاجور تزيد بزيادة غلاء الحماحيات وارتفاع أسعار الكماليات لان العملة يتفاهمون ويجمعون على الدوام مع زعمائهم . وكذلك حق حماية سويسرا للمظلومين ، ولا سيما السياسيين ، فانه أرقى مما عند الامم الأخرى . ولكن سويسرا لا تحمي القاتل . وكثيرا ما تعتمد بعض مقاطعاتها الى اخراج السفاكين وأرباب الدعارة من غير أنبائها الى خارج الحدود .

يبدأ تلقين الحرية وتطبيق حقوق الوطنى عند السويسريين منذ عهد المدرسة الابتدائية . وليس في سويسرا على الجملة مدارس داخلية ، بل ان الطلبة الذين يرحلون من قراهم وبلادهم للتعلم يدخلون في بيوت الأسر حتى لا يعيش التلميذ منذ صغره عيشاً متكلفاً كعيش المدارس الداخلية لا مثيل له في الحياة ولا يخضع لقوانين جائرة ، وهو الذى يحتاج في بدء نموه الى الهواء والشمس والانطلاق ، ومن علماء التربية هنا من بالغوا في منح اعطاء الطلبة حريتهم وأنشأوا لهم مدارس التربية الذاتية أو الحكم الذاتى فيتألفون أولاداً من سن الثانية عشرة الى السادسة

عشرة جمهوريات حرة ينظمون بينهم أمهرهم والمعلمون لا يعملون الا أن يلقوا عليهم الدروس وذلك لتلقين الأولاد الاستقلال والحياة العمومية ، فالاولاد يختارون رئيسهم وهياتهم الادارية وأمين صندوقهم . ويكون اختيارهم حسناً جيداً في الاغلب ويحيدون في مناقشة القانون الذي يضعه مديرهم ، وتصح أحكامهم في عقوبة المخالفين لنظامهم ، فلا يسرق شيء من مال الصندوق ولو كان الأمين عليه في النانية عشرة من عمره تحدته نفسه أن يبتاع ببعض الدراهمات حلواء أو شكولاتا أو ملابساً يأكلها أو كرة يامب بها ، فكان سويسرا خلقت بدون أولاد أو ان التربية جعلت أولادها رجالا ونساء كما كذلك

حرية الصيد البري والصيد النهري والبحري محدودة . مقيدة في بعض الاوقات وعلى بعض المحال . ورجال الصحة يمنعون كل شيء اذا اقتضت الصحة العامة ذلك ولو كان فيه خراب عدة مقاطعات كأن يقيمون الحجر الصحي على الانسان والحيوان فيمتنع أحد من الدخول الى تلك المحال الموبوءة أو الخروج منها ولا ينبس أحد بينت شفة اعتراضاً على ما حصل . وقانون العمل وتحديد أوقاته يشغل المستخدمين والعمال والعملة على ضرورة معقولة فيتمتعون به بشيء من الراحة والحكومة تتدخل في حياة الوطنيين الخاصة لتقدير الضريبة على دخل الافراد الذين يقدرونها بانفسهم أولاً وللحكومة الحق أن تراقبهم وكذلك كتابة كشف بعد وفاة الميت بمخلفاته .

لكل عمل في سويسرا موانع ومحظورات فالماهر من يقرأ كل ما يقع نظره عليه من المكتوبات في الطرق والمحطات لئلا يغرم شيئاً بتعديه حتى لا ينبغي السير فيه أو اتيانه عملاً يعد منكراً في عرف القوم وهو عند غيرهم مباح وأي مباح مثل منع دوس العشب في المروج عند ما تنبت وقطع عدة زهور من جبال الالب وسير المرء في بعض المقاطعات على بعض طرق الكروم يتناول المنع في ذلك الاولاد والرجال مخافة أن تحدث أحد الشرهين نفسه بان يقتطف خصلة من الكرم . واقتطاف العنب يجري بمعرفة الحكومة كل جهة بمفردها

ويمنع على بعض الجسور الخشب في بعض المقاطعات أن يدخن المرء أو يحمل قداحة ويوقف حيوانات ويجمع اجتماعات وهكذا تراهم يفرضون فروضاً ربما لا تقع مرة في العمر ويكتبون لها اللوحات ويضعون على من تعدى عليها الغرامات .

هذه قيود للحرية وضمانات لها في آن واحد لان الشعب معها بلغ من رقيه هو كقطع الغنم لا يخلو من جرباء وفي الاكثر يكون المقصود من هذه القيود الاجانب وهم ليسوا على مستوى واحد في عقولهم وعاداتهم . عادة البصاق ممنوعة قطعاً في كل مكان ولا سيما في القطارات حتى أن بعض الكنائس ككنيسة فريبورغ كتبت العبارة الآتية بحرف غليظ : « احتراماً لبث الله المرجو الامتناع عن البصاق » ويمنع التدخين من بعض المركبات في القطارات وامدخين مركبات خاصة كما أن للسكراري كذلك . واذا حدث اختلاف بين راكبين في قطار أحدهما يريد فتح النافذة والاخر يأباه فالحكم في ذلك لرئيس القطار فهو الذي يحكم بين المختلفين وهذا أيضاً من جملة ما قدروه من الاحتمالات في أنواع الحريات .

سويسرا أرض الحرية منذ القديم ولكنها كما رأيت حرية من نوع آخر خاص لا تخلو من قيد في كل حال خلافاً لما يتصوره بعض الخياليين

سويسرا : حياتها السياسية

٥٨

ليست سويسرا جمهورية بل فيفساء مؤلفة من عدة جمهوريات صغرى ملونة راقية غريبة في حجمها ونظامها وأفسكارها وأخلاقها السياسية . فمن مقاطعاتها ماهو صغير ومنها ماهو كبير ومنها ما تدار المدينة فيه بإدارة غير إدارة القرى المجاورة لها ومنها ماهو عبارة عن مدينة وبضع قرى حولها أو أرباض . ومنها

من يدين أهلها بالكثلكة وأحري بالبرتستانتية وغيرها مزيج من المذهبيين ومنها ما ينتمى الى الحزب الاكلىركى وأخرى محافظة متنظمة فى مذهبها وغيرها متطرفة فى اشتراكيتها ومنها التى تقدم نوافذ للعدراء مثل فريبورغ فى حين جارتها جنيف فصلت بين الكنيسة والحكومة

وفى الجبال الوسطى وجبال الشمال الشرقى لاتزال الحكومة المعروفة بحكومة البطارقة على الحالة التى كانت عاىها على عهد الالمان والفرنك والقوة التشريعية بيد مجلس الوطنيين ومن الجمهوريات جمهوريات صناعية مثل زورخ وبال احاطنا علما بكل دقائق المجالس النيابية فتضعان ضرائب على الدخل وضرائب على رأس المال وتختاران بعض الاصناف للحكومة وتختار أن طريقة الانتخاب على نسبة العدد ، عادات زروفجية قديمة الى جنب الاختراعات السياسية فى القرن العشرين قطعة من الجبال والاودية والبحيرات لا تبلغ مساحتها ثلث مساحة ولاية سورية وتفوسها لا يزيدون كثيراً عن نفوس بر الشام كله وحكومتها فى مديرياتها والاصح أن يقال فى ممالكها لان لكل مقاطعة حكومة كأنها مملكة مستقلة أنواع متنوعة وهذا لتكون عندهم الامركزية على أشدها ويستمتع أهل كل ناحية مهما صغرت بفصل مايرونه الانسب لمصلحتهم والتغيير يتناول حتى النواحي التى تختلف ادارتها بحسب الاقاليم

فى غرب البلاد يسرون على الطرق الفرنساوية وفى سويسرا الالمانية لكل بلد نظام والمرجع واحد . هنا تجبى الناحية الضرائب وهناك تسمح لها وارادتها أن لاتطالب المكافين بقرش . الاستقلال الادارى الى جانب السلطة المحلية تختلف كل الاختلاف ، المركزية فى سويسرا الفرنساوية أكثر من غيرها فى حين ترى نواحي اينزل الالمانية جمهوريات صغرى أو جمهوريات تنوب عن جمهورية مستقلة الا قليلا

وبهذا التغيير الكثير ساغ الا أنظمة والاضاع أن توافق أخلاق كل صقع وضرورياته وحاجات سكانه ورغائبهم التى تختلف باختلاف نوع الحياة . فالتعليم

مثلا اجبارى فى البلاد كلها يقضى على كل ولد أن يصرف فى المدرسة من سن السادسة الى الرابعة عشرة يتعلم فيها أموراً مشتركة بين المقاطعات كلها وما عدا ذلك فكل مديرية حرة بأن تنظم مدارسها على طريقها وهى تطلق للنواحي حريتها أيضاً فى بعض الامور مدة التعليم تسعة أشهر فى السنة ، ولكن بعض النواحي تقسم العطلة قسمين قسم وقت اشتداد الحر وآخر من آخر ايلول الى أول كانون الاول وهو الزمن الذى تنزل فيه الماشية من الجبال وترعى فى المروج الى أوائل نزول الثلج تحت ملاحظة أولاد تلك القرى .

للتخصيص على هذه الصورة فوائد لا ينكرها الا كل مكابر . يمنع التعديل الجائر ويحفظ للنواحي تنوعها وغرابتها وييث روح الحياة المحلية والههم الافراية ويزيد فى ارتباط المرء بوطنه الصغير ، وهذه أحسن طريقة لتعريفه قدر الوطن الكبير وتحببيه اليه . لكل مديرية وطنيتها فلها أعلام خاصة بها وألوان لا تشاركها فيها جارتها ولها أسلحة ولها شارات ، وفى جميع الأعياد وعلى جميع المعاهد العامة توضع شارات المديرية الى جنب اعلام الاتحاد السويسرى مثل دب برن وثور اورى ومفاتيح اونتروالد وكواكب فالى ومطرقة سان غال . لان كل مديرية هى مملكة ووطن ولها تقاليدها وتاريخها واجادها ، فهى ليست مديرية بالمعنى الذى نتصوره فى مصر والشام قطعة من بلاد اقتطعت منها كيفما اتفق بدون مراعاة الطبائع والتقسيم الطبيعى بل هى عضو حى تام واحد متماسك الاجزاء فى الجسم الاجتماعى .

وربما قيل ان تخصيص كل بقعة بحقوق خاصة مما يفرق اجزاء الحياة السياسية فتختلف الاحزاب وتكثر فلا يستطيع مجالس النواب العام ان يقوم بعمل ولكن سويسرا ليست على مثل ذلك فان ارادة الأمة تسرى حتى على المخالف ويسكت المناقش بظهور الحجة وربما قيل ان هذه اللامركزية المفرطة تشغل أهل كل ناحية بخصوصياتهم فلا يعودون يلتفتون لارقي مما يتجاوز حدود دائرتهم الضيقة كما هو المشاهد من جرائدهم المحلية فانها كلها جرائد خاصة بدائرة لا تتعدها ،

ولا سيما في سويسرا الألمانية ولولا الجرائد الكبرى مثل جورنال «دى جنيف» و«غازت دى لوزان» و«البوند» وهى الصحف الجواله الراقية لكان من يعيش في سويسرا أشبه بمن يعيش في قطر منمزل لأن السويسريين لا يهتمون بالزراعتهم وتجارتهم ومجالسهم وحوادثهم وما عداها فمعرفة وعدها سواء ولكثرة هذا التغالى في اللامركزية خيف في القرن الماضى من نشئت الكلمة بتعدد المنظمات فأحدثت أكثر القوانين العامة والمدنية واتحدت الخطوط الحديدية واتحد نظام العمل والجرك وسير السيارات فلم يعد يخشى التباس وصارت البلاد مستقلة كل واحدة بذاتها ولكنها في الشؤون العامة متحدة . وحدثت من هذا الاتحاد فوائد جمة من مثل اتحاد المديريات على أن تحتكر الحكومة كلها الخور فنشأت من ذلك فوائد قللت من مقطوعة الخمر وحسنت نوعه وقل السكرون والمربدون وحسنت الصحة العامة وما يؤخذ من دخل الاحتكار من كل مديرية يعطى لها عشرة لتنفقه على بث الدعوة للامتناع عن المشروبات الروحية ! . وابتاعت الحكومة الخطوط الحديدية الكبرى، ماعدا الخطوط الصغيرة المحلية على صورة كأنها لم تدفع عنه ثمناً وذلك بدون أن تضرب ضرائب ولا ان تعقد قرضاً أو تحتال حيلة فان باجتماع الخطوط تحت ادارة واحدة قات النفقات وكثر الاقبال فأخذت تلك الخطوط تربح ومن ريعها السنوى مدة ٥٦ سنة يعطى المليار فرنك الذى يدفع ثمناً للخطوط على نجوم وتقاسيط

ومن عجيب احتكارات الحكومة السويسرية احتكارها لضمان الحريق بل لضمان من الحوادث والامراض لا لطبقة مخصوصة من العمال كعمال السكك الحديدية مثلاً بل للجنود الذين هم تحت السلاح زمن السلام وزمن الحرب . ومن الغريب المدهش ان تضمن حكومة ارواح محكوميه من رصاص العدو وقنابله وهذا لا مثيل له في المدنية الحديثة ولا تضمن الحكومة من الشيخوخة كطبقة العملة مثلاً لتنفق عليهم أيام عجزهم مأخذته منهم أيام شبابهم وذلك لعلها بان دور الشيخوخة طبيعى لا بد لكل واحد ان يفكر فيه وضمانة مبلغ معين لمن بلغوا

سناً معينة هو مكافأة على عدم الحساب للمواقب وللکسل وللسكر . ولذلك لا ترى في سويسرا من لا يعمل أما الشحاذة فلا أثر لها ولا اسم . والحكومة العامة هنا احتكرت خطوط التلفون وضمتها منذ البدء لإدارة البريد والبرق ولكن للأفراد أن يضعوا في محالهم كحداثتهم أو منازلهم أو فنادقهم ما أحبوا من مثلها .

السويسريون عريقون في الديمقراطية بكل ما فيها من المعاني تأصلت في نفوسهم وتشربتها دماؤهم منذ قرون طويلة . قال لي أحد مديري الصحف الكبرى في لوزان اننى لا أستطيع أن أعامل عمالى والمستخدمين فى ادارتى الا معاملة الكفاة نعم أسرهم ولكننى أحاسنهم فى معاملتى كما أحاسن رصفائى فى التحرير وأصدقائى وما ذلك الا لأن الديمقراطية تأصلت فيهم وما ديمقراطية أميركا الشمالية التى يرد تاريخها الى زهاء مئة وثلاثين سنة وما ديمقراطية فرنسا التى بلغت ٤٣ سنة من العمر بالنسبة للجمهوريات الاتحاد السويسرى الا بنات وأطفال لجمهوريات سويسرا عمرها خمسة وستة قرون ولذلك ترى فى السويسرى شعوراً طبيعياً فى المساواة وليس فى جمهوريته أوسمة ولا القاب تشريف فالعامل يشرفه عمله والمفضل على أمته ترفعه على رأسها فى حياته ومماته . ورئيس الجمهورية السويسرى هو من أهل الطبقة الوسطى لا يميزه عن سائر أبناء السبيل فى شوارع مدينة برن شىء من الأبهة والعظمة التى يبدو بها فى بلادنا القائم مقام الصغير دع المتصرف والوالى والقائد والوزير ولا تجد تشريفات فى سراى الاتحاد السويسرى التى تضم إليها مجلس الأمة ومجلس الاقاليم وينتخب مجلس الاتحاد السويسرى كل سنة رئيساً يتولى رئاسة المجلس ورئاسة جمهورية هلفسيا السعيدة وليس هو فى الحقيقة الا عميد مستشاريه الستة

ولا تشهد فى بلاط حكومة سويسرا دسائس يراد بها بقاء الحكومة فى أيدي المتولين عليها على نحو ما يقع فى الامم النيابية فان المجلسين السويسريين لا يقلبان الوزارة قط فلا تعهد عندهم الازمات الوزارية التى تسمع بها فى الممالك الدستورية واذا حدث خلاف بين المجلس والحكومة يتفاهمان بحرية اذا لم يتيسر لهما الاتفاق

وينخضع المجلس الاتحادى أى الوزارة لارادة مجلس النواب والاقاليم كما أن هذين المجلسين لا يماحكان ولا يراوغان . فجلس الامة لا يقبل الحكومة التى ينتخب مستشاروها السبعة أو وزراؤها السبعة كل ثلاث سنين بل يجدد انتخابهم الفصل بعد الفصل لانهم يكونون قد نشأت لهم تجارب مهمة فى العمل ورئيس مجلس الاتحاد السويسرى أورئيس الجمهورية ينتخبه رصفاءه الستة كل سنة ويعمل وايامه باخلاص وخلو غرض ويجددون انتخابه على رأس السنة وربما مضت الاعوام والرئيس لم بتغير لأنه اذا عمل العمل الصالح وهو لا يعمل غيره بالطبيعة لا يرى من رصفائه من يحسده على مركز الرئاسة

رواتب النواب هنا مقسمة بحسب الجلسات فاعضاء المجلس الاتحادى يتناول أحدهم عن كل جاسة عشرين فرنكا ويمكن أن يبلغ مجموع ما يتناوله أحدهم فى السنة ثلاثة آلاف فرنك فقط أما نواب الاقاليم فيتناول عضو البلد عن كل جلسة ستة فرنكات وعضو القرية سبعة فيكون لواحد منهم على طول السنة من الرواتب من ٢٤٠ الى ٢٨٠ فرنكا فى السنة ورواتب مستشارى المملكة ووزراؤها ١٥ ألف فرنك لكل واحد مساناة وراتب رئيسهم أى رئيس الجمهورية السويسرية ١٨ ألف فرنك مساناة ولذلك قد يضطر المسكين اذا كانت له أسرة كبسيرة ان يشتغل أحيانا أعمالا أخرى من تجارة وزراعة ونحوها ولكن لا على أنه رئيس جمهورية له سلطة بل بصفته فرد حكمه حكم الأهالى

الاخلاص هو الخلق الجوهري فى الديمقراطية السويسرية فالشعب هو السيد ويجب أن يبقى كذلك . وقد اتخذت جميع الاحتياطات لتظهر ارادته بمظهرها ولتكون محترمة على الدوام . حتى ان بعض الاقاليم لاتزال بحسب قاعدة الفيلسوف جان جاك روسو تحافظ على الحكومة التى تحكمها مباشرة بمعنى أن مجلس الوطنيين فيها يلتئم كل سنة فينتخب حكام الاقاليم ويصدق على الحسابات ويقرر القوانين التى أعدها المستشارون الذين انتخبوا فى السنة الفائتة

فى سويسرا حزبان مهمان حزب المحافظين وحزب الاحرار يتناقشان فى مصلحة

البلاد ولكن اذا تولت الاكثرية زمام المجالس لاتنحى على الاقلية بل ترى من مصلحتها ان تقبل اعضاءها في جلساتها وهناك حزب اشتراكي ولكن لا نأثيرله لأن الأمة اشتراكية بطبيعتها . قال لي المسيو جان سبيرواستاذ العربية في كلية لوزان: عندنا حزبان وانا من حزب الاحرار ولكنني لا أجد فرقاً بين الحزبين يصح أن يعد فرقاً ولذلك فكلنا حزب واحد في الحقيقة . فبارك الله بامة مهما تعددت مناحيها وأصولها وأهويتها ودرجة غناها وأعمالها لاتختلف في المصاحبة الوطنية ولا تتخلف عن الحق قيد شبر

سويسرا : الوطنية والجيش

٥٩

قالت العرب : احرص على الموت توهب لك الحياة وقال المتأخرون من أراد السلم فليكن أبداً على استعداد للحرب . هاتان القاعدتان جرت عليهما سويسرا وبعد فن يظن ان هذه الامة التي تعيش بمعزل عن الدول وليست لها سياسة خارجية واستقلالها مضمون باتفاق الدول العظمى تنمرن ايلها ونهارها على الاعمال الحربية وكلها مسلحة وكلها محاربة عند الاقتضاء وتستطيع عند أول صرخة أن تجهز ١٨٠ ألفاً من الجنود الذين يحسنون الرماية كأحسن أهلها ويعلمون عما يدافعون ويأتون الى أي مكان من حدودهم في سرعة البخار ثم يستطيعون أن تجهزوا ١٤٠ ألفاً من الدرجة الثانية ومثل هذا العدد في الدرجة الثالثة وتجهيزاتهم ليست على الورق بل عددهم وعددهم حقيقة لاشائبة فيها كأعمالهم . قسم السويسريون الخدمة العسكرية الى عدة أدوار حتى لاتثقل عليهم وينقطعوا بتاتاً عن أعمالهم وبيوتهم ويخففوا عن أمتهم نفقة اطعامهم وايواءهم فبدلاً من أن يقضى الشاب السويسري سنتين أو ثلاث سنين تحت السلاح كما هو عند معظم الامم لايبقون في الخدمة الا أشهراً معدودة في السنة الاولى ولكن

المرء يبقى جنديا من العشرين الى الاربعين ويدعى لحمل السلاح والتعلم في مواعيد مختلفة قد لا تتجاوز الاربع السنين وتكون عنده بندقيته يتعلم فيها في بيته وحقله ولا يستعملها الا لهذا الغرض . والولد منذ المدرسة الابتدائية الى المدرسة العليا الى الكلية يتعلم التعليم العسكري وهو تحت ملاحقة الضباط الذين يأتون أحيانا للتحقيق عن أمره والاشراف على رمايته وفحص سلاحه الذي تعطيه اياه الحكومة ومن خالف ذلك يعاقب بأشد العقوبات وهيئات ان تجدد مخالفاً .

سويسرا الحديثة ليست محاربة ولا تثير بينها وبين جاراتها أسباب النزاع لان قلة عددها بين أمم كبرى لا يجعل الحرب من مصلحتها ولذلك فاستعداد السويسري للطوارئ وتدريبه على الحرب ووطنيته المشتعلة وفكره الشعبي ليست الى عدااء وحب فتح بل للدفاع عن كيانه فسويسرا كل سنة تعطى منحة لمكتب السلام في برن ولكنها باليد الاخرى تبتاع السلاح الجديد وتجهز جيشها بكل ماتقدر عليه من القوة وتزيد في ميزانيتها البرية سنة عن سنة لم يمنعها الحياد ان تعتمد الى الطرق العملية كسائر أعمالها في فروع الحياة لأن أرضها لا تحمي الا اذا كانت على حال الدفاع بحيث يحترمها جيرانها وبذلك تحفظ استقلالها لا بمجرد العهد التي تداس بالارجل عند ثوران الغضب وهيجان النفوس للفتح وجر المغنم

سويسرا لا تريد أن تكون طاعة سهلة لكل آكل ولا تخاف في الاغلب أن تداهمها فرنسا من الغرب ولا النمسا من الشرق بل تحاذر في الاكثر من الشمال تخاف عادية المانيا وان تضمنها هذه ذات يوم بالقوة الى أرضها كما فعلت بمقاطعة شلشويك هولستين وهانوفر وهيس وفرانكفورت والازاس والورين واخوف ما تخاف من عادية ايطاليا من الجنوب ولذلك تقيم على الشمال معظم جيشها وعلى الجنوب المعاقل المدهشة ومنها معقل غوتار والسميلون . فان كان السويسريون يحمون بلادهم ويفادون بالرجال والمال للذب عن حياضها فذلك لانهم يحبونها حباً يمازج أجزاء نفوسهم ولا شيء أحسن وأضمن للتعلق بالوطن من الاستقلال وحكم المرء نفسه بنفسه .

قال أحدهم : أن سويسرا ليست من البلاد التي تبقى لضرورة في بقائها
كانكثرا واسبانيا بل أنها لم تبقى الا لان السويسريين يريدون بقاءها . نعم
أن الارادة وحب الحريات السياسية قوة من القوى ولكنها ليست كلها جماع
القوى فان سويسرا لم تتألف عرضا أو لارادة المتعاقدين المتحدين من أبنائها
بل انها اجتمعت لاتفاقها في العواطف والروح وبما لها من التقاليد المتماثلة والماضى
والمجد الذى يتجسم كل حين باسم « غليوم تل » بطلها القديم

و « غليوم تل » هو أحد رجال الثورة الذين انتقدوا سويسرا من رتبة
النساء سنة ١٣٠٧ م وذلك أن حامل الامبراطور النمساوى كان عاق قبة « الدوج »
على رأس خشبة في الساحة العامة في « التورف » وأراد أن يذل السويسريين
بان يساموا على القبة كلما روا بها فابى أن يخضع غليوم تل لهذه المذلة فاستدعاه
الوالى النمساوى ولما عرف أنه من الرماة الماهرين بالقوس والنشاب حكم عليه جزاء
أبانه أن يضرب سهما على تفاحة وصعها الوالى على رأس ابن غليوم تل فلم يسمع
هذا الا أن التى سهمه فأصاب التفاحة ولم يصب ابنه بسوء ولما سأله الوالى لماذا
أعد سهمين فقال له الواحد للتفاحة والآخر لك وعندها نادى بالثارات سويسرا
وكان بذلك خلاص البلاد من حكم النمساويين في أوقات مختلفة كان يكتب فيها
النصر للسويسريين لأنهم مدافعون لامهاجون .

غليوم تل نصبت له التماثيل الكثيرة اليوم في بلاد سويسرا فهو مثل غاريبالدى
في ايطاليا أحياء أمته بشجاعته ، ومن أجل هذا التاريخ المفعن بالواقع لا ترى
السويسريين سواء كانوا ممن يتكلمون الألمانية وهم الأكثرية أو الافرنسية
أو الايطالية أو الرومانشية يتحدثهم نفوسهم ان ينضموا الى أبناء جنسهم بل انك
ترى السويسري وأبناءه وأحفاده وأحفاد أحفاده تغربوا في ايطاليا وألمانيا والنمسا
وفرنسا قرنا وأكثر ولا يزالون محافظين على تابعيتهم ، وقد عرض مرة على أحد
علمائهم « ادوار وود » وكان باريزيا في موطنه فقط . وسويسريا بجنسيته أن
يتجنس بالجنسية الفرنسية لينتخب عضوا في المجمع العلمى بجمع الأربعين المخالدين

فقال والسذاجة ساذجة من كلامه : اننى أحب فرنسا وأسكن باريس . والكنى
سويسرى . بيت والدى ووالدتي فى سويسرا وأنا لا أكون فى المجمع العلمى .
هذه هى الوطنية السويسرية متأصلة فى شغاف القلوب ، ولكنها ساذجة لا تعتمد
لصياح ولا التظاهر ولا تجدد داعياً للتبجح بها كل حين .

وطنية السويسريين فى صدورهم مكتومة لها أعياد وحملات ومصانع
وتذكارات تذكروهم الساعة بعد الساعة بما بدل أجدادهم من اهراق دماءهم
فى دفاعهم عن وطنهم وما يجب عليهم أن يقوموا به ليحفظوا هذا التراث الجميل
النادر . دع ما ينشره علماءهم وأدباؤهم من المصنفات الممتعة التى كلها ترمى الى
تحبيب وطنهم اليهم وتلقن أبناءهم منذ نعومة أظفارهم التعاليم الوطنى فى المدارس
وتلامذة مدارسهم يتغنون فى كل شارقة وبارقة بالقصائد الحماسية الوطنية التى
نظمها الشاعر السويسرى جوست اوليفيه ، ويتلون الفترة بعد الفترة ما وصف
الشاعر الكاتب اوجين رامبرت طبيعة سويسرا وجبالها وأوديتها وبحيراتها فيزيد
هيامهم بأرضهم .

السويسريون لا يقنعون أن يحبوا بلادهم حباً مجرداً بل يزورونها بعناية
واهتمام وعدد من يرحل منهم صيفاً وشتاء ٢٢ فى المئة من مجموع السياح القادمين
الى سويسرا ينتقلون فى جبالها وأوديتها وترى العامى منهم اذا اجتاز أرضاً لم
يعرفها بعد يقف فى القطار مأخوذاً بما يمر به من الأصقاع بحيث لا يفوته منها
جبل واذا ذهبت الى القرى أتاك بعض أهلها بدون طلب منك وحدثوك عما يجب
زيارته من المحال البديعة فى جوارهم . فالسويسريون معجبون ببلادهم وحق لهم
العجب وربما كانوا أكثر الأمم المجاورة فى طربهم بما خصت به جبال الألب
من المحاسن التى تخلق الألباب .

اشتهر السويسريون منذ عهد غليوم تل انهم فى مقدمة الرماة فى أوروبا لأن
بلادهم تستلزم ذلك ولا تكون حربها بالنظر لجبالها الامناوشة وكينناً فترى
فى كل قرية جمعية للرمى وتقام له الأعياد . وكل سويسرى فى سن العسكرية فلاحاً

كان أو ساكن المدينة يسر - مع رفقته يوم الأحد ساعات طويلة في التدريب على الرماية وفي كل بيت بندقية أو عدة بنادق لشبان سويسرا يعدونها ليدفعوا بها عن أنفسهم وبلادهم كأنهم لا يزالون في عهد الاقطاعات يكلف فيها كل واحد بحماية نفسه وأسرته ولكن هذا شأن الامة المسلحة بالاحين سلاح القوة المادية وسلاح القوة المعنوية المعليه التي لم تنكر في القرون الوسطى .

فسيباطهم يخرجون من الجيش مباشرة ثم يتعلمون التعاميم الحربى وأكثره عملى فى الغالب وهم فى الاكثر من أبناء الفلاحين يعاشرون الافراد ويواكلونهم وطعام الجنود من أحسن ما يعهدولهم مطابخ تنتقل معهم فى المناورات فتراهم فى كل وقت يتناولون الطعام الصحى الفاخر الذى لا يوجد الا فى المدن وفى حال التوطن والرفاهية وجنديهم يقبض كل يوم ٨٠ سنتيما فى المشاة وفرنكا فى الفرسان وهو أحسن راتب يقبضه حندى فى جميع أمم أوروبا لان هذه عجبت عن اطعامهم والباسهم لكثرتهم بدون فائدة دع أدرار النفقة عليهم ولا يبتعد عن أهله من الجند الا من دخل فى جيش الفرسان فالسويسرى سعيد فى كل حال من أحواله مرتب فى حله وترحاله ممتع باستقلاله ناهض فى عامة أعماله ولذلك لا تراه يشكو شيئاً على نحو ما يشكو ابن البلاد الراقية الاخرى الذى يروح تحت أثقال المغارم والمظالم لينفق على بحريته وبريته . قال لى كثيرون نحن سعداء فى بلادنا فكنت أقول لهم بارك الله بسعادتكم التي أحرزتموها بحكم وورزق شرقنا المسكين بعض ما أنتم فيه انه كريم جواد

سويسرا: المذاهب والقوميات واللغات

٦٠

الدين واللسان من جملة المظاهر المهمة التي تدل على روح شعب وقد كان لها فى الارض السويسرية بفضل التسامح والاتحاد ومراعاة حرية الغير مشا كل فى

الماضى ولكنها اليوم قد انحلت صعوباتها وتعبدت عقباتها وكان الدين ثم اللسان شعار الوطن الاصغر ثم امتزج أهل كل دين وأهل كل لسان امتزاجاً في البلاد فلم ينشأ في سويسرا مشا كل تذكر كما نشأ في بعض البلاد التي تنازعها البرتستانتيّة والكاثوليكيّة أو الارثوذكسيّة والاسرائيليّة أو مذاهب أهل السنة والشيعة في الاسلام .

المذهبان السائدان في سويسرا هما البرتستانتيّة والكاثوليكيّة ولما انتشر المذهب البرتستانتي في القرنين السادس عشر والسابع عشر على يد دعاة من أبناء البلاد أخذت كل مقاطعة تجعل مذهبها رسمياً واجبارياً وتدعو اليه في أرضها وتحتم على الاهلين حضور الصلاة به وان كانوا لا ينتحلون هذا المذهب وهو شيء من الشدة نشأ للسويسريين بانتشار المذهب البرتستانتي ثم أخذت المدنية تعدل من شدته والبرتستانات أكثر عدداً من الكاثوليك بقليل .

قال دوزا : اذا كان الدين يؤثر أحياناً أثرًا ظاهرًا في روح أمة فان الشعب يكيف الدين على صورته مع توالي الأيام والامر الثاني ظاهر في سويسرا وان لم تكن تخلو من الاول ولا جدال بان المقاطعات الكاثوليكيّة بمجموعها أكثر انحطاطاً من المقاطعات البرتستانتيّة والانحاء الاقل نظافة هي كاثوليكيّة أيضاً والمقاطعات الكاثوليكيّة هي التي احتفظت بالاكثر ببلجاتها وان فكر حرية البحث الذي دعت اليه البرتستانتيّة قد أثمر واينع فان التعليم العام في البلاد البرتستانتيّة أكثر انتشاراً مما هو في غيرها وأفكار التسامح مقبولة فيها بسرعة ورجال المذهب البرتستانتي قلما يعنون بالسياسة . وليست هذه الفروق مهمة فان تأثير عقل الامة في المذهبيين هو أشد ظهوراً .

السويسري متدين حق التدين ولكن دينه في قلبه وهو لا يحفل على الجملة بالظواهر ولذلك ناسبت البرتستانتيّة مزاجه وللقيام بالفروض الدينيّة منزلة من حياة السويسري المنظمة كما للاعمال الدنيويّة كذلك فتراه يذهب صباح الاحد الي الكنيسة كما يذهب في المساء الي القهوة بكل رزاة وتماسك أو كما يذهب الي

عمله خلال أيام الاسبوع . والرجال والنساء يحضرون في القرى والمدن في البيع لسماع القداديس أو المواعظ وربما كان النساء أكثر عدداً في الكنائس الكاثوليكية كما لحظت من الحضور في بعض كنائس لوزان الكبرى ولكن الكنيسة البرتستانتية مع هذا تفص بالمستمعين والعابدين الراكمين وكلهم يستمعون باحترام لما يلقى عليهم من المواعظ .

ذكرت الفروض الواجبة نحو الخالق في جميع البرامج المدرسية ومعظم المدارس تقيم الصلوات وليس لرجال المذهب البرتستانتى في سويسرا ارتباط بسلطة خارجية وكذلك أهل المذهب الكاثوليكي ليس لهم أساقفة ورؤساء عظام بل ان كل واحد مرتبط بالمقام البابوي ارتباطاً خفيفاً لا يشبه ارتباط سائر البلاد الكاثوليكية في أوروبا وأميركا وآسيا وأفريقية مثلاً فالسويسريين غلاة في حب الاستقلال في كل شيء حتى ان رهبانهم وقساوستهم يلبسون لباساً يخالف البسة غيرهم في الامم الاخرى . وترى الكل متشابهين متقاربين مما يذكر ان سويسرا كانت في القرون الوسطى مهد التسامح وان وقع لها في القرن التاسع عشر ان نشبت فيها حرب دينية من أجل القانون الذي وافقت عليه الاكثية بنفي الرهبنات من سويسرا في حين لم تنشب في أوروبا حرب دينية في ذلك القرن ومع ذلك تجد جنيف برتستانتية وفريبورغ كذلك في تمسكها بكنائسها كأنهما رومية بكنائسها ولم تمض على هذه الحرب خمس وعشرون سنة بفضل تلقين المدارس فكر التسامح حتى أصبحت سويسرا أكثر بلاد أوروبا تعلقاً بحرية الوجدان والعبادة على صورة منظمة حرة لا مثيل لها .

اعتبرت سويسرا حتى اليوم الكنيسة ادارة من ادارات الحكومة هذا مع أن الحياة الدينية فيها مادة من مواد الحياة العامة فجعلت الاديان تحت سلطة الحكومة مثل المصارف والسكك الحديدية ولكل مقاطعة قانونها الاكليركى الذى تنظر فيه السلطة التشريعية وتقر عليه أو تعدل منه مطلقة الحرية تحت بعض شروط يرضيها الدستور السويسرى من مثل حرية الوجدان وحرية التدين

وغير ذلك ورؤساء الدين بحسب المقابلة برتستاناً كانوا أم كاثوليكاً تدفع لهم الحكومة رواتب تستوفيها من أهل هذا المذهب وللحكومة حق التدخل في مسائل العبادة والطقوس وإذا أرادت فيكون القول الفصل في بعض المسائل لمجلس الامة . وتدخل الكنيسة البرتستانيتية في أعمال الحكومة غير محسوس في سويسرا الالمانية البرتستانيتية مثل ماهو في سويسرا الكاثوليكية الفرنسية وغيرها

وبعد حرب سوندربروند اتهم اليسوعيون بانهم أوقدوا الفتنة الدينية في البلاد السويسرية فطردوا منها وقد حظر عليهم دستور سنة ١٧٤٨ الدخول الى سويسرا بيد أنهم دخلوا في الحقيقة الى فريبورغ بعد عشر سنين . ومدرسة اللاهوت في هذه المدينة يديرها الدومنيكيون في الظاهر ولكنهم يدير اليسوعيين في الواقع ولاهوتها هو اللاهوت اليسوعي دع من هناك من الرهبان الذين طردوا من فرنسا وجاءوا فريبورغ وغيرها من بلاد الكتلحة السويسرية يعملون ويعطون . وللعظم الكليات السويسرية صفة دينية ظاهرة عليها فاذا كانت كلية فريبورغ كاثوليكية محضة فكلية لوزان وكلية جنيف برتستانيتان

هذا أجمال ما يقال في المذاهب في هذه البلاد أما القوميات أو الجنسيات أو العناصر المتألفة منها فان نصف سويسرا روماني أو لاتيني والنصف الآخر جرمانى وربما كان العراقي بين هذين العنصرين على صورة لم يعرف بها في بلد آخر في أوربا منذ أوائل القرون الوسطى فقد اختلط العنصر اللاتيني بالجرمانى وعلى العكس اختلاطاً كبيراً ومن السويسريين الفرنسيين من تألموا أى أصبحوا ألماناً بلسانهم على طول الزمن ومن الالمانيين من تفرنسوا ويكاد لا يتجاوز اللاتينيون أى الفرنسيين والاطليان والرومانش في سويسرا مليوناً ومائتى ألف وبقية الاربعة ملايين هم المان عاشوا حتى اليوم بحرية تامة في استعمال سنتهم بفضل استقلال المقاطعات وعدم المركزية وربما كان الالمان أكثر توسعاً في البلاد وهم الراجحون في التبسط في ربوعها على الزمن حتى أصبح الانسان الفرنسي خاصاً

بغرب البلاد والرومانشى بشرقها والايطالى بجنوبها والالماني بشمالها ويقدر
عدد الالمان المهاجرين الى المقاطعات الفرنساوية بمئة ألف وعدد الفرنسيس
المهاجرين الى المقاطعات الالمانية بخمسين ألفاً .

ولم تعترف الحكومة رسمياً باللغة الرومانش كما اعتبرت الالمانية والافرنسية
والايطالية وكتبت معظم الاوراق الرسمية بهذه اللغات الثلاث وذلك لان المتكلمين
بها قلائل ولأنها أشبه بلهجة خاصة لأدبيات لها وأهلها يتزوجون بالالمان
ويختلطون بهم وكل سنة يخف عدد المتكلمين بلسانهم وربما كان الرومانشيون
مثال مملكة أضاعت لغتها على التدرج بدون أن تضيع استقلالها أضاعت لغتها
واندمجت في غيرها على خلاف الطايان وعددهم في سويسرا اللاتينية زهاء
٢٣٠ ألفاً فانهم احتفظوا بعنصريتهم لانهم احتفظوا بلغتهم واحتفظوا بلغتهم لان
لها آداباً خلافاً للرومانشية

ومسألة الألسن غريبة في سويسرا لا تؤثر في الامور الادارية لان حقوق
الاقالية مصنونه كحقوق الاكثرية . ومن أعجب الامور ان اللسان في سويسرا
وان كان من مواد الوطنية المحلية فليس شارة من شارات الوطنية الجامعة .
واختلاف الالسن ليس من العوائق في ادماج السويسريين في قالب الاخلاق
المتحدة وليس في اللسان أدنى مادة من مواد الاتصال فالسويسرى الفرنساوى
في مقاطعتى الفوونوشاتل لا يريد أن يصبح فرنسواً بتابعيته وكذلك السويسرى
الايطالى لا يحب بوجه من الوجوه أن ينضم الى ايطاليا ومثله الماني مقاطعات
شافوز وتوركوفى وسان غال لا يريد أن ينضم الى المانيا

ولولا أحوال نادرة لصح أن يقال أن سويسرا في جميع أدوار التاريخ قد
نالت أعظم الحرية في استعمال اللغات في جميع الاعمال الخاصة والعامة أما اليوم
فان الحرية موجودة مبدئياً ولكن احترام حقوق الاكثرية والاقلية على أسلوب
معقول تحت نظارة جمعيات تتولى النظر في مسائل اللغات المحلية وانتشارها
وتدافع عن حقوق الاكثرية ولا تغمط حقوق الاقلية في كل بلد يسبق غيره

في عدد المتكلمين بلغة دون أخرى وكانت كتابة جميع الرسميات والعموميات بعدة لغات في القديم للافهام والتفهيم أما اليوم فانه يراعى بما يكتب حق السواد الاعظم

اللغة الرسمية في كل ناحية هي لغة أكثرية السكان وبهذه اللغة تكتب مداولات المجالس البلدية والاعمال الادارية التي تعلق ليقراها الجمهور وبها تكتب أسماء الشوارع والمصانع ويدرس في المدارس ويلقى الوعظ والقداس في الكنائس ومن النواحي من اختارت برضاها التساهل مع أهل اللغة الأخرى في بعض هذه المسائل كأن تترك مقاطعة المدينة اللغة الأفرانسية تجعل لسان التدريس في مدرستها أو أن سكان مقاطعة رومانشيه يقدس لهم بالألمانية . وللمنتحيين في المقاطعات المختلطة أن يتكلموا بأحدى اللغتين كما يشاءون في جميع المداولات وتكتب الاعلانات وغيرها باللغتين وإذا بلغت الاقلية العدد الكافي تكون لها مدرسة بلغتها وكنيسة تعظ وتقدس بلسانها . وفي الكتابات الخاصة وعناوين الدكاكين تركت للناس حريتهم . وما يسري على الناحية يسري على المديرية حذو القذة بالقذة أي تكون اللغة الرسمية لغة الأكثرية والاقلية لا تحرم من حق التفاهم ويطلب الى الموظفين في جميع المقاطعات المختلفة معرفة لغتين وتكثر فيها الاعلانات وأسماء الاماكن باللغتين ويقبل استعمال اللغتين في المجالس وعمال السكك الحديدية يبدأون في كل مقاطعة بلغة البلاد في مخاطبة الركاب ثم يثنون ويثلاثون اذا اقتضى الحال بغيرها وجميع القطارات تكتب عليها اللغات الثلاث إلا الايطالية فانها تنقص من بعض القطارات التي تمر قليلا في البلاد الايطالية السويسرية وللغتين الألمانية والأفرانسية المساواة التامة تكتب جميع أسماء المحطات وغيرها بهما ويجعل التقدم للغة البلدة الشائعة

وفي سويسرا سبع كليات منها ما يدرس بالألمانية ومنها بالأفرانسية وفي بعضها دروس مختلفة باللغتين فكلية بال التي انشئت سنة ١٤٦٠ تدرس بالألمانية وكذلك كلية زوريخ التي انشئت سنة ١٨٣٣ وكلية برن التي انشئت سنة ١٨٣٤

أما كلية جنيف التي أسست سنة ١٨٧٣ وكلية لوزان المؤسسة سنة ١٨٩٠ وكلية نوشاتل التي تمت سنة ١٩٠٩ وكلية فريبورغ التي قامت سنة ١٨٨٩ فإنها تدرس بالفرنسية وفي كلية فريبورغ عدة دروس مختلطة بين اللغتين أعضاء مجلس الاتحاد السويسرى سبعة ومنهم رئيس الجمهورية خمسة منهم المان واثنتان فرنسيان وقراراتهم تكتب باللغتين وفي سويسرا ثمانية فيالق انسان فرنسيان وخمسة المان وواحد ايطالى ورومانشى و لغة التعليم فى الصيقل الأخير الالمانية والادارات الخاصة تتبع هذه القاعدة لارضاء قرائها من ذلك ان نقابة أصحاب الفنادق فى سويسرا الالمانية لم ترض ان تغير أسماء قوائم الطعام من لفرنسية الى الالمانية لأن معظم الداخلين الى البلاد يفهمون الالفرنسية أكثر من الالمانية حتى ان الالمان أنفسهم يفضلون أن يروا أسماء الأتوان بالالفرنسية لا اعتقادهم بان المطبخ الفرنساوى هو خير المطابخ وألوانهم أجل المآكل وكذلك ترى أصحاب الفنادق يصدرن جريدتهم باللغتين . كل ذلك يدل على جوهر أخلاق السويسريين وان المحافظة على حق أو على حرية ينبغى أن يكون على قدم المساواة سويسرا بابل اللغات لان فيها على صغرها منهم أربعاً وفى الخمسة سبع وفى العثمانية سبع أمهات الآن ماعدا اللهجات ولكن سويسرا والنمسا حلتا هذه المسألة الحل المعقول العادل فهل نوفق نحن الى حلها كذلك . والعرب هم السواد الأعظم وقد أمرنا باتباع الاكثرية ولانهم ميزات ليست لغيرها والامم الدستورية تراعى فيها قبل كل شىء حقوق الاكثرية

سويسرا: كيف تجلب الغريب

٦١

كانت بعض البقاع فى سويسرا منذ نحو ثلاثين سنة من أفقر بلاد أوروبا بفضل ما أنشئ فيها من الفنادق وبذل من المساعي لاستجلاب رضى السياح

والمصطافين والمشتين اغتنت تلك الاصقاع وأصبحت سويسرا وجل اعمادها على القادمين اليها من أقطار الارض حتى لقبوها « فندق أوربا » ولكن هذا اللقب وهذه الثروة التي يبذرها فيها الاجانب لم تحصلها عن عبث فان علم جلب الغرباء وامساكهم وحملهم على العودة ثانية بكمية أوفر قد أصبح في سويسرا علماً حقيقياً له أساليبه وقوانينه واحصائه وجرائده ومنشوراته المنوعة الطريفة وكلها متناسقة متساوقة كآلة الساعة . وقد علمت السويسريين التجارب أن السائح يستمال بست قواعد من أحسن استخدامها اغتنى وأفاد واستفاد

القاعدة الاولى : أن يزرع المرء كثيراً ليحصد أكثر فقد جعل السويسريون لنشر الاعلانات بالكلام والصور المقام الاول ماعدا اعلانات المحطات والمنشورات المصورة وغيرها من المقالات التي تدفع عليها الاجور الباهظة أحياناً في صحف سويسرا وغيرها والمقصود منها الاعلان . وكل ادارة وكل نقابة توزع منشوراتها مجاناً وكثيراً ما تكون كبيرة الحجم يحتاج طبعها لمال كثير وعناية تامة من استجادة الورق والصور والجلود وفيها من كل شيء أطيعه بحيث تستدعى النظر اليها ولو بعد مدة وتنفق على ذلك كله نفقات هائلة ولكن الثمرات التي تعود منها قد قدرت بثلاثة أضعاف أو أربعة

القاعدة الثانية : جميع ترا كيب هذه الآلة متضامنة ولا تنافس بينها . وهذه قاعدة اقتصادية مهمة وهو أن كل صاحب فندق لا تحدته نفسه أن يحتكر جميع السياح بل يهتم لانجاح المدينة أولاً ثم الناحية وأرباضها أو النجاح العام وهذا لا يتم الا بالتضامن بين أبناء هذه الحرفة فيشارك مثلاً جميع أرباب الفنادق في بقعة ليعملوا عملاً يسر جمهور النازلين في فنادقهم وأنزالهم ويجلبوا السرور والراحة لهم على السواء ومثل ذلك التضامن نراه على أتمه أيضاً بين الادارات والشركات المختلفة لا تحاسد بينها ولا تعير في المصلحة وقد ألف معظم أرباب الفنادق نقابات لهم فتألفوا مديرية مديرية أولاً ثم تألفت المديريات كلها نقابة واحدة آخرأف أصبحت فنادق سويسرا كالبنيان المرصوص ومثل ذلك أصبحت بعض القهاوى ومحال

لسماع ومحال اعطاء التعليقات وشركات التضامن نقابات خاصة يأتون كل ذلك على شرط أن يرضى السائح ويرتاح

القاعدة الثالثة : أن تراعى حال جميع الطبقات بحيث يرضى كل سائح بالمعاملة التي براها^(١) وذلك لأن سويسرا أدركت أن الرحلات اليوم قد أصبحت ديمقراطية أيضاً وإن لم توسط غنائمهم أكثر من الأغنياء أرباب اليسار بل هم أخلص وأشرف وعلموا بالاحصاء أن واحدا فقط في المائة من السياح الذين يصطفون أو يشتون في بلادهم يركب في الدرجة الأولى في السكك الحديدية و ٨٥ في الدرجة الثالثة ولركاب هذه الدرجة ميزانية مقررة إذا فسدوا كثيرا في مادياتهم لا يعاودون رؤية تلك البلاد وفي سويسرا فسادق وانزال على اختلاف أذواق الناس واقتدارهم ثم أراد الرفاهية يدفع ثمنها في قصور هي أحسن من قصور الملوك ومن أحب المتوسط كان له ما أراد وكذلك من أحب أقل من المتوسط وإنى لم أسمع بأن إنساناً يمكن في أوروبا أن يأكل ويشرب وينام بفر نكين وهذا ما أعلن عنه مؤخراً إحدى البيوت التي نزل الاضياف عليها في لوزان

(١) أتى لكل عرق يريد أن يصطف أو يشو أو يسبح في أوروبا أن يطيل معامه في البلاد السويسرية أكثر من غيرهم من الملدان لأوربية وإن يوم صلاته مع هذه المذبة الصغرى لأنها جمعت آيت المدينة الكبرى ومن الاسم أن عدد المهاجرين من السويسريين إلى البلاد الأخرى يعدل بحسبه آلاف في السنة وليس منهم بضعة يأتون بلاد الشام مثلاً لشاهد اسماء قومي الفرق بين الاوربيين في احلامهم وحسن معامتهم . قلت يوماً لرئيس جامعة لوزان اما مع الاسف لم نشهد في بلادنا سويسرياً مند جئتم في القرون الوسطى مع من جاء من الصليبيين وارسلمه مثات من شاككم واشراكم يقالو ما مع من يقاتون هل : نعم ذهبنا اددان الى قطركم ولكن عدنا ممزقين آت عشرتنا واحداً فحن لا يريد ان يداود ما سبق لاجدادنا ولو متحجرين مستعمرين لا عزيز فالحين . وقلت لاحد اسادة جامعة جيب من احسن ضمه بالاسلام والمسلمين في كتبه ومحاضراته ان من كسبوا مثلكم بدون تحريب عنا من الاوربيين قلائل جداً فلم يشكركم على احلاصكم وصدقكم واكدوا ان معظم من يكسبون متأثرين بعوامل السياسة من الامم الاخرى والاطهروا في مطهر علمي يخالفوكم في رأيكم فقال : هذا ما عرفته بعد البحث والسياحة والاختلاط برجالكم وهرق كل ذى علم عليم فتأمل .

القاعدة الرابعة : النظر أبداً الى راحة السائح و اظهار العناية بأمره (١) فقد عني السويسريون ان يسهلوا جميع مصاعب السفر على المسافر فيرى هذا أهم اللغات الاوربية الرئيسة يتكلم بها في المحطات والفنادق والمخازن الخ والبريد من أسهل ما يمكن وفي زهاء ١٠٧ مدينة وبلد من سويسرا مكاتب للاستعلامات للغريب والقريب يسأل الانسان فيها عما يشاء مجاباً وقد نظمت بمعرفة الشركات المحلية ولا عمل لعمال هذه المكاتب الا أن يجيبوا الناس عما يسألون من الصباح الى المساء والشعب يبسدي العطف على الغريب والعناية بأمره فالسويسريون اذا لم يكونوا في رقة الطليان بالاحتفال بالغريب والأخذ بيده فيما لا يعلم ومرافقته مئات من الأمتار أحياناً لدلالته على طريق أو غيره فهم وسط في ذلك فان الواحد منهم يشرح لك محل مقصدك بأوضح عبارة ممكنة واذا شكرته لا يرى أنه يستحق الشكر

القاعدة الخامسة : أن يعرض كل شيء أمام السائح من دون أن يعجز بمطالب مبرمة . وذلك أنك تصل الى المحطة فلا تجد حملاً بل أنت تصرخ حمال فيجيبك

(١) منذ وصلت الى مودوسولا على الحدود الايطالية الى ان خرجت من سويسرا عن طريق جنيف لم اشهد نقداً يصح ان يوجه الى احد أو الى ادارة سوى اللين والاعطف بالغريب . واذكر انني ركبت المطار السريع من ميلانو وقت العصر وسألت مأمور المحطة متى يصل المطار الى لوزان فاجابني في الساعة الحادية عشرة ايلاً جلست في المركبة وحدي وكان عدد الركاب قليلاً فبقيت فريداً في الدرجة الثانية وليس لهذا المطار السريع سوى درجتين اولى وثانية كما هي معظم القطارات السريعة في اوروبا فلما قارب نصف الليل سألت مأمور القطار عن وقت وصولنا الى لوزان فقال لقد قطعناها اما رأيت كيف وقفنا بها بصبح دقائق قبل الحادية عشرة فقلت سامح الله المأمور الايطالي فقد فصر في بيان ساعة الوصول بالضبط فقال لا بأس من ذلك فامك تزل في فالورب وننام هناك وانت هل كان احد في انتظارك على المحطة في لوزان قلت لا . قال : اذ أتيت في فالورب وفيها نزلان ومن الغد تمود الى لوزان وانا لا ادفعك اجرة عن المسافة التي وكبتها فوق تذكرتك لان ما جرى ليس من صنعك ثم انزلني من القطار لما وصلنا الى فالورب وحمل لي أحد الصندوقين اللذين كانا معي وحملت انا الآخر فابقيتهما في محل الامانات في المحطة وخرج معي ودلني على -ت الفندقين وسمى لي اسمهما وحبرني بين احدهما ولما شكرته قال لي هذا بعض ما يجب فانظر بالله عليك الى هذه الاخلاق التي قلما تراها من خادك دع من ليس بينك وبينه صلة ولا يعرفك ولا تعرفه وليس هو بمكلف ان يضع وقته معك على هذه الصورة في مثل ذاك الوقت والبرد قارس للغاية

ولا تجدد عملا من عمال الفنادق بل تجد لوحة موزونة في مخرج المحطة فيها أسماء الفنادق في البلدة على اختلاف درجاتها ولا تجد حوزيا يريد أن يركبك في مركبته ولا سائقاً يريد أن يستأقك في سيارته بل إذا أنت طالبت واحدا منهم أنك سريعا بادب . أما وجود الشحاذين الذين يطلبون صدقة كما تشاهد في إيطاليا فهذا لا أثر له لأن الشحاذة ممنوعة هنا أكثر من فرنسا ولا تجد أحدا يتعرض لك لا ببيع شيء منه وتحسين بضاعته بل تراها على اختلاف أنواعها معروضة في الزجاج وقد كتبت عليها أسعارها وهذه أخدسر طريقة وأشرفها في قاعدة العرض والطلب وهكذا بائع المرطبات والمشروبات يكتب عليها أسعارها ويجلس في المحطات بحيث تراه ولا يسألك شيئا .

القاعدة السادسة : أرضاء جميع الأذواق والحاجات حتى الغريب منها واجتناب ما يكدر وإذا وقع خلاف فإعراى ذوق الاكثرية . ولأجل استمالة قلوب السياح عنى السويسريون بحسن الانتفاع من بلادهم من كل وجه وضاعفوا المسليات والمفرحات فتقرأ في نشراتهم التي يستولون بها على عقل الغريب ما يشير الى أن في بقعهم ما يرضى جميع المشارب والامزجة من أرباب الصفاء الى طلاب الخلاء الى المولعين بالالعب الرياضية الى الراغبين في التصعيد في جبال الالب الى من يريدون التسلق الى من يرغبون في التعليم الى من يؤثرون الوحدة الى المصورين والطبيين والأثريين وكل واحد يخاطبونه بما يشتهي ويدلونهم على ما يهيمه

نعم وفروا الراحة لجميع الأذواق وقاموا بما يرضى الأرواح والاشباح فترى أوقات الأطباء معينة مذكورا الى جانبها أوقات القسايس والمواعظ وعنوان الطبيب مع عنوان الكاهن أو الواعظ . ولا يأتون ما تشمئ منه نفس السائح حتى ان دفن الموتى لا يجري في أوقات الصيف الا قبل الشمس حتى لا يقع نظر السائح على ما ربما تشمئ منه نفسه فيذكر الموت في بلاد لا يجب أن يكون فيها الا الصفاء والرخاء وكثير من هذه الأعمال تقوم بها شركات لأن فكر الاشتراك منتشر للغاية عند السويسريين فمن شركاتهم شركة المنتدى الأدبي السويسري وهذه عنيت

بتربية الأدلة وتعليمهم ليصعدوا مع السياح في جبال الألب وقد فتحت لتعليمهم ثلاث مدارس في أهم البلاد الجبلية وضمنت لهم حياتهم بمبلغ يربو على ثلاثة مليارات وربع من الفرنكات وعددهم نحو ٩٠٠ يدفع لهم المنتدى في السنة نحو نصف التقاسيط وهناك شركات لا تحصى في كل مديرية لنجيب البلاد الى الأمم ونشر ما ينبغي عنها من مالههم و بما أعان بعضها المجالس البلدية على تحسين حالة البلد أو القرية اذا كان هناك نقص يجب تداركه لاستجلاب رضا الغريب فكان من أثر هذه الجمعيات تكثير سواد القادة من على السويسريين سنة عن سنة .

والحكومة لم تدخر وسعاً في هذا السبيل فبذلت الأموال عن سعة في المدن والديساكر فتحت الشوارع الجميلة وجات الأرض وعبدت الأرصفة الفسيحة وأنشأت المتنزهات الظليلة والحدايق العامة وأقامت فيها المقاعد الكثيرة ليجلس عليها من أحب وأدخلت الكهرباء الى كل مكان وكذلك التلفون والمياه الطاهرة النقية وأقيمت القهاوى المهمة في جميع المحال التي يلحظ أن المسافرين يقصدها

وقد أعاد السويسريون جميع الألعاب الرياضية التي يحبها الانكليز كالتيennis والفوت بول وغيرها دع أيام الشتاء الترحلق والتدحرج في الثلج (الالوج والسكى والباتناج) . عادة أولع الغربيون بها تقليداً للانكليز وكل سنة يموت في خلالها من المرتاضين المئة والمئتان ومع هذا ترى النساء والرجال يرتاضون هذه الرياضة الخطرة ويزيد عددهم سنة عن أخرى . وبذلك كثر ترداد الناس الى سويسرا في الشتاء ولا سيما الانكليز والاميركان . ويتقدر عدد من يقصد سويسرا كل سنة بزهاء مليوني نسمة فاذا فرض ان كل واحد ينفق عشرين ليرة فيكون المجموع أربعين مليوناً تأخذها سويسرا في أشهر معدودة من السنة من الالماني والانكليزي والروسي والنمساوي والمجري والفرنساوي والايطالي والاسبانيولي والبرتغالي واليوناني والمصري والهولاندى والاميركانى والبلجيكي والسكاندينافى وغيره وللألمان المقام الأول في كثرة العدد وهم يؤثرون النزول فى البيوت لخص العيش فيها

ويقدرون عدد الفنادق الكبيرة بزهاء ألفي فندق في سويسرا كلها من الطراز الاول والثاني أما الفنادق البسيطة والبيوت فهذه أكثر من أن تعد وما وصلت هذه الصناعة في إقراء الضيوف الى هذا الحد من الارتقاء الا بالثبات والعمل والتفنن والعلم حتى أصبح السويسري معلماً للامم في صناعة الفنادق وكثير من مدن أوروبا وحماماتها المعدنية ومنتزهاتها البحرية بيد أناس من السويسريين .
ويقدرون عدد السرر الموجودة على الدوام في هذه الفنادق بنحو مئة وثلاثين ألف سرير وعشرة آلاف سرير احتياطية

وما برحت شركة الفنادق السويسرية منذ أسست سنة ١٨٨٢ وهي تتفنن في خدمة الفنادق والازال واستجلاب أنظار العالم المتمدن ولها جريدتان لبث أفكارها توزيعها ومما أنشأته مدرسة لتعليم صناعة الفنادق يتعلم فيها مدير الفندق تعليماً على أسلوب معقول وذلك لان ضرورة المباراة وحاجات الزبن وصعوبة الحياة الحديثة تجعل صناعته مشكلة يوماً بعد آخر ولذلك أحدثوا مدرسة داخلية في ضواحي لوزان واسعة الاطراف مطلة على البحيرة وفيها محال للالعاب الرياضية وجعلتها داخلية وشددت قانونها فقضت بان ينام طلبتها في الساعة العاشرة وتطفأ المصابيح ويمتنع فيها جميع أنواع اللعب بالورق والقمار ومنعت التدخين والخروج بدون رخصة وان يذهب الواحد الى غرفته حتى في النهار بدون ترخيص وأذيتختلف الى الاماكن العامة وأحررة المدرسة أو ثمن الاكل فيها فقط ١٢٠ فرنكاً في الشهر لابن سويسرا و ١٥٠ للغريب ومدة الدراسة ثمانية أشهر ويسأل فيها الطالب في الاكثر في اللغات الحية ويجب أن تكون سنه من ١٦ الى ١٨ وتدرس في هذه المدرسة الفرنسية والانكليزية والالمانية والايطالية والحساب والجغرافيا (الجغرافية العامة وجغرافيا طرق المواصلات) وتاريخ سويسرا والتعليم الوطني وحسن الخط والحساب (أصول معاملة الفنادق والمعاملات التجارية على أصول الدفاتر) ومعرفة الحاصلات ونظريات

في الخدمة ودروس في التنظيم وحسن المندام وتقديم الطعام وحفظ الصحة والرياضة البدنية والالعاب والرقص . وبعد أن ظهرت فوائد هذه المدرسة أنشئت عدة مدارس في سويسرا كلها للوفاء بهذا الغرض ولكن الظاهر أن مدرسة لوزان أرقاها

وأنشأت شركة الفنادق تعلم أناساً فن الطبخ وعهدت الى خبراء يتمتعون من يريد الدخول في هذه الصناعة بمد أن ينال شهادة منهم بتقدمه فيها . ويقدرون رؤوس الاموال التي وضعتها الفنادق بنحو ثمانمائة مايون فرنك وما برحت على ازدياد وأرباحها كذلك في اعتدال لان السويسري يرضى بالربح القليل جرياً على ما تستلزمه القاعدة الاقتصادية . وتختلف أجور الفنادق فمنها ما يدفع فيه الواحد في اليوم مائتي فرنك ومنها ما يأكل فيه وينام كل يوم بأربعة فرنكات وكل على حسبه ويقدرون عدد المستخدمين في الفنادق بزهاء خمسة وثلاثين ألفاً معظمهم من النساء وفيهم الغرباء يدفع اليهم ١٦ مليون فرنك عدا الحلواين التي تقدر بثلاثة أضعاف هذا المبلغ ومن الصعب تقدير ما تربحه البلاد كلها من السياح والمعروف ان أرباحها من ذلك تجيء بعد أرباحها من صناعة الحرير والتطريز والساعات اللهم الا اذا حسب من ينتفعون من الغريب بالواسطة فان أرباح السياح يكون لها المنزلة الأولى وبها اغتنت سويسرا بعد ان كانت فقيرة .

طول الخطوط الحديدية في سويسرا نحو خمسة آلاف كيلو متر اي ١٢ كيلومترا في كل عشرة آلاف متر مربع وقدر بـ ٩٥ مليوناً عدد من ينتقلون كل سنة على خطوطها ولها طريقة جميلة في اعطاء أوراق اشتراك فيدفع الواحد ٢٥ فرنكا يأخذ بها ورقة في الدرجة الثالثة يركب بها أي قطار أحب مدة خمسة عشر يوماً ويدفع ٦٥ في الدرجة الثانية و٩٠ في الدرجة الأولى . هذا عدا الخطوط الكهربائية والخطوط الحديدية الجبلية والحوافل . ولسويسرا ١٢٠ سفينة تجارية في ١٧ بحيرة كبرى من بحيراتها تغدو وتروح في نقل الركاب تنقل زهاء ثمانية ملايين راكب في السنة وهي دائماً تنتظر القطارات والقطارات تنتظرها . والبرد متصلة علائقها

مع السكك الحديدية وفيها جميع أنواع الراحة للغريب ومراكز البرد وصناديقها كثيرة حتى لقد ذكرت إحدى الصحف مؤخرًا ما مثاله : يتم عن ارتقاء الشعب كثرة مواصلاته البريدية وكثرة ما يبتاعه من الصابون وقد امتازت الدانيمرك بكثرة بردها فان لكل ٢٣٤ ساكنًا فيها صندوق بريد وفي سويسرا لكل ٢٨٦ نسمة صندوق ولكل ٣٢٠ في لو كسمبرغ صندوق ولكل ٤٢٤ ألمانيا صندوق ولكل ٤٧٢ فرنساويا صندوق ثم تجيء النمسا فانكلترا فالبرتقال أما العثمانية فقد أحرزت الدرجة الأخيرة اذ ليس عندها غير صندوق واحد لكل ٦٩,٣٠٠ عثماني ! هذا بعض ما عرفته عن سويسرا وما يأتيه الافراد والحكومة لجلب السياح اليها حتى أصبحت فندق أوروبا حقًا وصدقًا

سويسرا : تفننها في الاعلانات

٦٢

لا ترى في مدينة سويسرا نقصا في فرع من فروعها وعمل من أعمالها فكل مخزن وكل دكان وكل ادارة وكل معمل وكل شارع وكل حي وكل دار وكل منزل صغير وكل دائرة وكل مدرسة بل وكل مستراح وكل شيء كتب عليه اسمه وعمله وما يجب للداخل اليه والمعاملة معه بحيث لا يحتاج الانسان أن يسأل أحداً وربما اذا ترويت قليلا بالنظر لوضوح هذه الكتابات تطوف سويسرا كلها وقاما تطلب من يدلك على من تقصده اذا كانت نمرة محله واسم شارع في جيبك . خاصية غريبة قلما تجد مثلها حتى في كثير من البلدان الراقية . بل قد كتب على الأبواب الخاصة والعامة « ادفع » أو « اقبل » وكتب على المراحيض « ارفع » أو « اخفض » لتطهير المكان وكتب على بلاس الباب « الرجاء مسح رجلك » وكتب في المدارس

« اياك وادخال عصاك أو مظلتك الى الداخل » وكتب على الصور والتماثيل « ممنوع من شيء » وكتب على صناديق البريد « تفتح ساعة كذا ودقيقة كذا » ولوأردنا تعداد مثل ذلك لطال بنا المطال وسم القراء تفاصيل لم يسمعوا بها ولا تخطر لهم ولا في عالم الخيال

ومن يظن أن في دور البريد صناديق تدفع اليها ثمن الطابع كما هو في بعض بلاد أوربا الراقية فينزل اليك فتلصقه على كتابك وفي صناديق البيوت التي تعلق في دهايز الدار وتكون هذه مؤلفة على الاكثر من خمس أو ست طبقات كل طبقة شقة تان أو مسكان فيجيء الساعي ويضع كتب كل منزل وجرائده في صندوقه حتى اذا وضعها يطن جرس من داخل الصندوق فيسمع أهل المنزل فينزلون ويأخذون بريدهم كل ذلك تخفيفا على الناس من الحركة بدون لزوم وفي المخازن والمحال العامة صناديق للقبض والصرف لا تغلط في العد والحساب وتحصى على العامل مأبأعه في يومه

ذكرنا هذا وان كان بعضه لا يدخل في باب الاعلان الذي هو المقصود بهذه الجملة فقد بلغ التفنن بالاعلان في الغرب حداً من الارتقاء لا يكاد يوصف وأظن سويسرا ان لم تكن أرقى الغربيين في التفنن باعلاناتها فهي من أرقاهم بلا جدال وكفاهها نغراً انها لولا الاعلان عن بلادها ما استطاعت أن يكون لها هذا الفنى الدثر والسعادة الشاملة فعرفت الناس بقدر بلادها وجمال أصقاعها وربما أفرطت في ذلك أحيانا لمقتضى الوصف الشعري ولقد اطلعت على كثير من الكراسات التي توزعها مكاتب الاستعلامات مجاناً على طالبيها فما رأيت أكثر من مهارتهم في ايجاد المزايا لكل مدينة ولكل قرية ولكل طريق ولكل غابة في أرض سويسرا وكل شيء هنا بالاعلانات اذا لم تقرأ صحفها لا تهتدى الى ما تريد ابتياعه أو عمله وقد يكون لها جرائد خاصة بها اسمها جريدة اعلانات مقاطعة كذا ومنها ما يطبع الثلاثين والأربعين ألماً في اليوم لا تكاد تخلو منها دار واشتراكها عشرة فرنكات في السنة تصدر في ثمانى أو عشر ورقات من حجم جريدة المقتبس وكلها اعلانات

الا الصفحة الأخيرة أو الصفحتان الآخريان ففيهما حوادث ونكات قد يكتفى الواحد بهما للوقوف على حركة بلاده على الأقل . وكل جريدة مرتبطة مع شركة اعلانات تبتاع منها قدراً معيناً من الصحيفة وهي نفتش لها على اعلانات تناسب سعة انتشارها ومكانتها . كنت أتلهى في الاحايين بقراءة بعض الاعلانات في الصحف لأعرف منها روح الشعب وحركة تجارته وعمله فكنت أستغرب في الضحك عند ما اقرأ السذاجة تغلب على اعلاناتهم والتفنن فيها آخذ ما أخذه من النيقية والعناية ففهم من يعان عن ١٠٠ كيلو من الجن من جنس كذا بنمن كذا ومنهم من يقول ان عنده رأسين من البقر عمرهما كذا وهما يصلحان للذبح ومنهم من يقول يجب ان يبيع خمس نعاج عجفاء وآخر عشرين رأساً من الغنم وبعضهم يعلن عن لبنه وآخر عن زبدنه وآخر عن بيع عربته أو دراجته أو دنارد أو صندوقه أو ثيابه وآخر عن خنيره الذي علفه وغيره عن حذائه الذي ما أتفه . وتحد آخر يعان عن رفشه وبعضهم عن عفشه وآخر عن خزانته وبعضهم عن سريره وبعضهم عن آلة موسيقاه أو محراثه أو منكاشه أو مجرفته أو حصادته وعصارته ومذراته وآلة تصويره وآلة حياطته وآلة حياكته وآخر عن كلبه والصدق يغلب عليهم في اعلاناتهم عن مناعهم وآلياتهم وأدواتهم .

أما التفنن في الاعلان عن الاستخدام وطلب عمل في محزن أو حقل أو إدارة أو منزل ذكورا كانوا أم أناثا صغاراً أم كباراً فهذا مما بلغ الغاية التي لم يبق وراءها وراء فكل طالب وكل طالبة يضع شروطه ومزاياه وعمله وربما الأجرة التي يريدتها باختصر عبارة تستهوى الفارئ وتستدعى الراغب فيه الى مفاوضته ومخابرة على أسرع ما يمكن وكل يوم نقرأ اعلانات كثيرة في طابحالب بقرات تبلغ عدد كذا في محل كذا باجرة كذا ومستخدم لمخزن يعرف كذا وطاهية تحسن ادارة بيت فيه كذا من الأقمس وبواب لمحل كذا وسائس باجرة كذا وحوذى وسائق وراعي كذلك وحراث ومجلد ووراق وسكاف ومطرزة وعاملة في معمل الى غير ذلك

من الأساليب التي لم يسمع بها الشرق وهي من اختراع الغرب لأن الاعلان نشأ فيها ومنه نشأت الجرائد

الاعلان عن الحاجيات والسكاليات لطيف ونافع ولكن ما كان يظن أن الغربيين اذا أعلنوا عن بيع كذا وايجار كذا وعمل كذا انهم يتزوجون بالاعلانات ويستمتعون بالاعلانات أيضاً تساوى في طلب ذلك الرجال والنساء لأنهم يعتبرون الزواج وما يشبهه من الحاجات الطبيعية التي لا عيب فيها وغاية الأمر انهم يعلنون عن ذلك بدون تسمية اسم الطالب والطالبة . وهذه الطريقة كانت البادئة بها فيما أظن جريدة «الجورنال» الباريزية ثم تبعها على الأثر جرائد العالم وكان للسويسريين حظ وافر منها وان كان عدد الطالبين والطالبات أقل من عددهم في باريز

وذلك بأن يطلب أحدهم خادمة تستخدم لكل شيء باجرة كذا على أن تقوم بعمل كذا وان يكون عمرها كذا من السنين أو ان الخادمة تطاب ذلك ولا تتوقف عن أن تصف صفاتها وجمالها وسنها وتصف رزانتها ووقارها . اكتب هذا وامامى صحيفة اعلانات لوزان وفيها كثير من هذا القبيل منها ان امرأة اسرائيلية تريد التعرف الى زوج عمره بين الخامسة والعشرين والثلاثين وان تكون له ثروة ثم وصفت عمرها وما تملكه . ومنها ان عقائل واوانس يردن أن يتعرفن الى خواتم تكون لهن مراكر طيبة ومنها ان شابا في الثالثة والثلاثين لا يتناول المسكرات حسن الخلقة والخلق من كل وجه له منصب حسن في الارياض يريد أن يتعرف الى فتاة في الخامسة والعشرين الى الثلاثين ويؤثر أن تكون مسيحية ومعمودة النظام ويقبل بأن تكون حاملة شيئاً من النقود وانه رزين لا يفشى سراً واذا أرسلت اليه الصورة الفوتوغرافية يعيدها في الحال والرجاء ان يكتب في ذلك بنمرة كذا لادارة جريدة لوزان

والقوم هنا لا يكتفون بتعليق اعلاناتهم على الحوائط والمركبات في السكك الحديدية والكهربائية ومجلات النقل وفي الصحف والمنشورات والكراسات وعلى الأبواب والنوافذ ورؤوس الأبنية بل ان التاجر يعلن عن عمله حتى في الورق

الذى يصر لك به قيصاً أو بدلة أو كتاباً أو حذاء أو منديلاً أو ورقاً أو أى شىء
تبتاعه بل ان الخيط الذى يربط به الاضبارة أو الرزمة قد كتب عليه اسم محله
وغمرته وما فيه وهكذا فى جميع ما يخطر ببال

وتعتقد جميع المحال التجارية والشركات الصناعية والمدارس وغيرها انها اذا
لم تكثر من الاعلان عنها يتناساها الناس وتقل أرباحها وهذه لوزان لولا ماتقن
أهلها فى الاعلان ما أصبحت عاصمة العلم فى سويسرا الفرنسية وبلغ طلبة كليتها
ألفاً وأربعمائة منهم نحو ألف غريب من غير السويسريين وهكذا المدارس الخاصة
التي يعيش بالعلم فيها أناس لا يستقل بمدهم ومنها ما يدرس فن تدبير المنزل وآخر
الفنون الجميلة وغيرها التجارة وبعضها اللغات وبعضها الالعاب الرياضية الى آخر
ماتقنوا فيه فجاء الغريب يستفيد منه فكان لوزان فصلان فصل الصيف يكثر
فيه السائحون للنزهة وفصل الشتاء يكون خاصاً بالطلاب والمتعلمين ويستفيد من
ذلك أهل البلاد مئات الألوف من الليرات

وبلغ من تقن القوم بالاعلانات ان أحدهم ألف كتاباً فى فن الطبخ فكسده
كساد بضاعة العلم فى بلاد العرب ففكر فلم يجد أحسن من أن يعلن أن الفتاة
التي تراجعته مرسله اليه ثلاثة فرنكات يقدم لها خير نصيحة قبل زواجها تكفيها
غوائل الدهر وحوادث الايام فكان يبعث لكل مرسله بالمبلغ المطلوب بنسخة
من كتابه ويقول لها تعلمى هذا فباع من كتابه ثلاثة آلاف نسخة . وكتب
بعضهم اذا أردت أن تفتنى فاعمل عملى وأنا لا أعلمك ما عملت الا اذا بعثت بكذا
فرنك حوالة . فكان جواب هذا الشاطر لمن طلب اليه النصيحة أن يقول
له اعمل عملى فتفتنى لانهالة أى اكتب فى اعلانك كما كتبت وهناك المال
يفيض عليك

ولكن هذه الطرق نادرة جداً والصدق هو الغالب على الاعلانات كما قلنا
ولذلك اعتمد الناس عليها وزادت عنايتهم بأمرها وأسست لها البيوت والشركات

المهمة التي تدخلها فتظان نفسك في مصرف كبير أو معمل خطير . والاعلانات مادة الصحف في الغرب وكثير من أمهات جرائدها لا تصدر يوماً واحداً لولا الاعلانات لأن ما تأخذه من القراء والمشاركين لا يبالغ ثمن الورق مع أنها تطبع بمئات الألوف فتأمل يا تاجر بلادنا

سويسرا : التربية العملية

٦٣

من أعظم أسرار امتياز الغربي عن الشرقي ان الفرد عندهم يعيش بنفسه لنفسه ونحن نتكل في عيشنا في الاغاب على الوالد والوالدة والقريب والحكومة ويقل جداً فيهم من اغتنى من غير المذاهب الطبيعية في المعاش من صناعة وزراعة وتجارة وأقل منه فتى أو فتاة في مستقبل العمر تقعد به همته عن اتخاذ أسباب الكسب انتظاراً لارث ربما يورثه اياه أبوه أو أمه أو لوظيفة تليق بعظمته يتناول راتبها الباهظ بعمل ضئيل قليل

حالة تدهس في الغرب من عيش الاستقلال ونحن حالنا على ما تمهد من عيش الاتكال الذي انقص عدد العاملين والعاملات وقذف بنا من حلق مجد وسعة الى دركات ذلة وفاقة . كلما ذكرنا وأيم الحق ان في دمشق نحو ثلاثة عشر ألف شحاذ أكثرهم أصحاء أقوياء تقضى العجب من حالنا ونسجل بأننا سواء وحكومتنا في هذا النوم أو التناوم عن السعى في مداواة أمراضنا الاجتماعية وبدون ذلك لا تقوم لنا قائمة ولا نتحرر من قيودنا السياسية والاقتصادية

واني آسف وأبكى لمئات من الشبان في سورية ولا سيما في دمشق وحلب وحماة ومطرابلس والقدس سئموا الحياة وسئمتم الحياة لبطالتهم وهم يعيشون عالة على أهلهم ومنهم الموسع عليه في رزقه لا يتنزلون للاحتراف بحرفة ولا يرون أنه

يليق بهم الا ان يتصدروا على مقاعد الحكم آمين ناهين يؤثرون البطالة منتظرين أن يموت أولياؤهم ليستولوا على أموالهم وفي الغالب أن يموت الموسر عندنا وهو موسر بالنسبة لمحيطه ويخلف أولاداً كثاراً تقسم بينهم الثروة فينال الواحد جزءاً قليلاً لا يستطيع انعامه ولا يقوم بتفخله وبذخه هذا اذا لم يكن فاسداً اخلاقاً ولم يصرف دخل سنة في شهر وهناك بشره بالفقر الى أرذل العمر .

أما الغرب فحاله غير حالنا اذا تعلم الولد التعليم لا ابتدائي غالباً يبدأ أهله يقطعون عنه راتبه ويطالبونه باجرة الدار وثمان الطعام ليلقى بنفسه في معمصان الحياة ويعلم أنه فرد مسؤول عن نفسه لا يقوم باعالة غير عمله ولهذا مئات الالوف من الامثلة ولقد قلنا في مقالة سبقت أن ليس في الارض امرأة ضاهت الرجل في عمله كالمرأة السويسرية فلا تكاد تجد في النساء من لا يحترفن في هذه الجمهورية السعيدة غنيات كئنا أو فقيرات ولذلك تزد ثروة البلاد يوماً بعد آخر وترتقى في كل فرع من فروعها المدنية الحيوية . وحال معظم أمم الحضارة كذلك

اكتب هذا وأمامي أربع فتيات في النزل الذي أويت اليه في لوزان لأطلب لوطي الا أن يكون رجاله دع نساءه في درجتهم من التفاني في الحياة العملية والتناغي بحب الاستقلال في الاعمال . الفتاة الاولى انكليزية والثانية المانية والثالثة سويسرية فرنساوية والرابعة سويسرية المانية وكلهن سواء في كره الاتكال ومثال صالح غريب المثال

قالت لي الفرنسية السويسرية وهي في الحادية والعشرين من عمرها تعطى دروساً في الموسيقى وقد سألتها عن والدها وحالته في الدنيا : انه متعهد ابنية ولنا بيتان يحتويان على زهاء عشرين مسكناً تؤجرهما في « شالي » من ضواحي لوزان وشقيقي الواحد صاحب نزل في نيس والاخر معلم بستاني في لندرا فقلت لها مثلك في الشرق يستريح ولا يعرف الا الازياء والرفاهية فقالت ان الناس كلهم في سويسرا يعملون وكل واحد يعيش لنفسه فليس من العدل أن أعيش طالة على والدي أو والدتي ولا على أحد اشقائي بل أعمل واجمع ثروة لنفسي عملاً بسنة العاملين والعاملات

أما الفتاة الانكليزية وهى فى الحادية والعشرين أيضاً فقد هجرت بلادها وجاءت لوزان تدخل فى احدى البيوت الخاصة التى توفرت على تعليم الفتيات اللأئي تخرجن من المدارس العليا فى انكلترا والمانيا وروسيا أو غيرها وأردن أن يتقدمن فى معرفة الفرنسية وآدابها والرياضيات البدنية والرقص والغناء وغير ذلك من لوازم المرأة الاوربية الراقية التى تليق لرأس المجتمعات العالية والتصدر فى الردهات والقاعات . قالت أنها تعلم الانكليزية وهى لاتتناول مالاً وانما تعيش مع الفتيات فى مدرسة وتتعلم الافرنسية بهذه الوسطة وقد ذهب الفتيات خلال عطلة رأس السنة الى الجبال للترحلق والتدحرج والتسلق على الثلج فاقفل باب النزل فعرض عليها هى ورفيقتها الفتاة الالمانية أن يذهبا مع الفتيات فآثرتا البقاء فى لوزان فجعلتهما مديرة تلك المدرسة فى النزل الذى نحن فيه مدة العطلة تنفق عليهما ريثما تفتح أبواب منزلها أو مدرستها .

أما الفتاة الالمانية رفيقة الانكليزية فهى فى الثالثة والعشرين وحالها أيضاً حال رفيقتها تعلم الالمانية وتتعلم الافرنسية وتزيد عليها بأن تعطى دروساً خارج المدرسة وأهلها أصحاب يسار فى الجملة ولكنها تحتاج لتعلم الافرنسية وهذه هى الوسطة التى رأت أن تعتمد اليها فى اتقان لغة هوغو وموسيه لتضمها فى صدرها الى لغة كيتى وشيلر .

أما الرابعة وهى المانية سويسرية فخالها أدهش من حال الفتيات الثلاث وذلك لان والدها صاحب مخزنين فى لوسرن وانتزلا كون لو حسب ما يملكه على حساب بلادنا لعد من الاغنياء عندنا على أنه لا يعد فى المحاويج بل المتوسطين هنا فأراد أن يعلم ابنه وابنته الافرنسية لمسيس الحاجة اليها فى تجارته وحتى يكونا على أتم الاستعداد لتلقى مصاعب الحياة فجاء بالولد وهو فى السابعة عشرة يجعله فى نزل فى أرباض لوزان خادماً يأكل وينام ويتناول راتباً قليلاً ويتعلم الافرنسية ويتمرن عليها بالعمل وكان تعلم مبادئها بالنظر فى المدرسة

وشقيقة هذا الفتى فى التاسعة عشرة من عمرها شأنها شأن شقيقها تحب أن

تتعلم الافرنسية وتدير المنزل وتعيش مستقلة فجعلها أبوها خادمة براتب ٢٥ فرنكا في الشهر في النزل الذي نحن فيه وهي وحدها تتولى جميع أعمال المنزل الا ملاحظة الطبخ فان صاحبة الدار تنظر فيه بنفسها فتري تلك الفتاة من الساعة السابعة صباحاً الى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلا تعمل بكد لم أر مثله وتقوم بجميع أنواع الخدمة على صورة مدهشة فبينما تراها تكنس بضع غرف في الدار وترتب فرشها وتصلح أدواتها الكثيرة أو تفرك الدهليز والممشى والزجاج والدرفات والأبواب اذا هي تتمهد المطبخ أو تخرج كالبرق في جلب حاجة من السوق أو تقدم الطعام على المائدة وترتب السفرة أو تجلو الطباقي والصحون أو غير ذلك مما يكثر عدده في البيوت الاوربية تعمل كل ذلك ومنه الشاق الوسخ ومع هذا لا تراها الا باسمه في حين حرمت من رفايتها في دار أبيها وعنده الخادومات والخدمة .

هذا مثال مما رأيته بالذات من أمثلة التربية الاستقلالية في البنات هنا وبعدها هل يعجب المرء من غنى هؤلاء الاوربيين بعد ان عدوا كل عمل شريفاً اللهم الا ما يثلم العرض ويعيب بالمروءة وهذا لا تكاد تخلو منه أمة مهما ادعت أنها أمة أخلاق وتدين وشرف .

كل فتاة من هاته الفتيات وفرت على أهلها بعملها مئة أو مئة وخمسين ليرة في السنة وربحت التعلم العملي والتدرب على الحياة الاقتصادية الاستقلالية فبالله عليك أستطيع أحد أبناء الطبقة الوسطى عندنا وهي تعد من الفقراء في الغرب أن يقول لابنه اذهب الى بلد كذا واخدم وتعلم فضلاً عن أن يقول لابنته علمتك القراءة والكتابة والحساب فعلمها لمن يعلمك الطبخ وتدير المنزل والخياطة والتفصيل .

وأينا في مصر والشام أناساً من المساتير لم يعقهم عن تعليم أولادهم التعليم المطلوب الا ضيق ذات يدهم وكثرة أولادهم لانهم كلهم يريدون أن يعيشوا مرفهين ابن الحراث كابن الغنى صاحب المزارع والعقارات . ورأينا أناساً قادوا

بالمال واقتطعوا جانباً من رؤوس أموالهم ليعلموا به أولادهم على أمل أن يعينوهم في أيامهم السود فكان من أولادهم من تعلموا تعليماً ناقصاً ولم يكن منهم الا أن عظمت نفوسهم وظنوا أنفسهم شيئاً مذكوراً وشمخت أنوفهم عن العمل الا في الاعمال التي يصورها لهم الخيال انها نافعة شريفة وذهب ماصرفه أولياؤهم من الذهب عبثاً

الاولاد اذ اربوا كما ربي السويسري والالمانى والانكليزي بناته جاء منهم محكزون يعرفون قدر العمل والعمال ويدخلون في الحياة من الصغير فيرتقون الى الكبير . يهتمون الالمان بالشح والفرنسيين بالاقتصاد الزائد والانكليز بقسوة القلب والحقيقة أن البشر كله من طيبة واحدة يحن الى أولاده ويستمتع في ترفيههم ولكن الفرق بيننا وبينهم انهم يلقنون أولادهم معنى الحياة المستقلة ونحن نفشئهم على حياة الاتكال والرصا بالقلة . .

أيأتى ياترى على الشرق الاقرب يوم نرى فيه الرجال والنساء صغارهم وكبارهم يعملون لنشهد أو أبناؤنا واحفادنا مثالا من الامم التي تود البقاء لا الدثور والفناء أم نبقى هكذا يسرق بعضنا بعضاً ونعد عملة مهارة أو يفتنظر صغيرنا كبيرنا ليموت فيرثه ونحسبه من الموفقين أم تنضع وطنيتنا وحبنا لبلادنا فنتركها تنعى من بناها الى بلاد أخرى حيث الحياة سهلة والعيش مخضل

طف المدينة والمزرعة وأدخل المعمل والمخزن وانظر الباعة والأشراف في سويسرا تجدهم كلهم لا يستنكفون عن العمل . في لوزان سوق تقام مرتين في الأسبوع على عادة معظم المدن الأوربية مثل سوق الاحد وسوق الجمعة في دمشق تباع في ذاك السوق جميع أنواع المأكول والملبوس والمطلور فتري فيه نموذجاً صالحاً من حاصلات البلاد وصناعاتها وأكثرها رخيص قصدته عدة مرات للفرجة وابتياح بعض اللوازم فدهشت وقد رأيت بعض النساء الغنيات والفتيات البارعات الجمال يبتعن بأنفسهن حاجات ببوتهن يجعلنها في كيس براق من المطرز ويحملنها الى مساكنهن وقد تكون بعيدة وعند أكثرهم على ما بلغنى الخادومات والطباخت والوصيفات قلما يعهدن اليهن بشراء حاجة ولو طفيفه ويذهبن بأنفسهن لا بتياعها

وهكذا تجدد الديمقراطية تشربتها نفوس الكبير والصغير فلا يجد أحد من المعيب ان يخدم نفسه وداره وأهله وسواء في الشرف من يكسح القمامات والثلج من الشارع ويرزق خمسة فرنكات في النهار ومن يملك مصرفاً كبيراً يعد ما يربحه كل يوم بمئات من الفرنكات مادام كلاهما يعمل في دائرته بقدر طاقته ولا يتعلق بأحد وأول ما يسأل الزوج عن فتاة يخطبها قبل أن يسأل عن جاهلها ما هي معارفها وما تستطيع عمله . فاللهم عامسا عاماً ينفعنا في نهوضنا حتى لا نخجل من انحطاطنا في أنفسنا دع خجالتنا أمام غيرنا فان الفرق بين بلادنا وبلادهم أصبح كالفرق بين النور والظلمة والجنة والنار وما راء كمن سما

فل سبروا في الارض

٦٤

ليس كالسياحة تجدد الحياة وتزيد الاختبار وتعلم وتهذب وتزيد في الاعتبار بحوادث الليل والنهار . وانى لأتمنى لكل من ساعدته الحال ان ينهض ليعتبر ويتعلم ويتسلى فان النفس في قرارها تصدأ كما يصدأ الحديد بالرطوبة فهي تحتاج للنور وللحرارة والافتدبل كالزهرة

قال ولیم هازلت من مفكري الانكاز « ان الوقت الذي أمضيته في السياحة الاجنبية مقطوع من عمرنا مفصول من حياتنا لاسبيل الى وصله ولا وسيلة الى ادماجه والمرء مادام خارج وطنه رجل آخر غير الذي كان هنالك حتى ان المسافر ليودع نفسه فيمن يودع والله در القائل « خرجت من موطنى ومن تقسى » فمن أراد أن ينسى الحزن والشجن فليذهب الى غير بلده من بلاد الله يجد في عجيب المناظر وغريب الأحوال سلوة وروحاً وتغيب من عينه مذكرات الهموم وباعثات

الاممي ولذلك كنت أنفق حياتي خارج بلادى لو وجدت من يقرضنى حياة أخرى أنفقها في وطنى حتى أقضى حقوقه اه . »

كلمات حكمة وخبرة ولذلك ترى أكثر الأمم رقياً أكثرها سياحاً والعكس بالعكس . والانكليز والاميركان هم في المقدمة ثم يجيئ الالمان والفرنسيين وغيرهم من أمم المدنية الحديثة وأمتنا العربية يكون محلها في قائمة السياح في الآخر بالطبع لأنها اعتادت سير القهقري وانا لو أخرجنا المصريين من جملة السائحين في الغرب لا تجد لنا الا عدداً يضحك بالنسبة لأرباب الرحلات من الأمم . أما العرب السوريون ممن يهاجرون الى أميركا فهؤلاء لا يقصدون من رحيلهم الا الكسب ولا يعرفون على الاغلب كيف يستفيد المرء من سياحته علماً وعملاً

نتمنى لأمتنا أن يسيح منها العلماء والوجهاء والنجار والموظفون وأرباب الصنائع والزراعات الواسعة ممن يمكنهم ولو بعض الشيء تطبيق ماأوه عند من ارتقوا عنهم مراحل . فهذه الطبقات الغنية هي التي تستفيد بالاحتمالك بغيرها من أهل طبقها في الغرب اذا أخذت على نفسها البحث والدرس خلال التنقل وترويح النفس

السياحة لا تكلف اليوم من العناء والمال ما كانت تكلفه منذ مئة سنة فان العارف قد يستطيع أن يطوف أهم عواصم العالم ولا ينفق في يومه أكثر من ليرة صرفها رفاهية لا تقيس له في بلده ولو كان من أغنى أغنيائها لأن البلاد في الغرب كلها منظمة ومعظم الفنادق والبيوت سواء في الأخذ بأسباب الراحة . والعيش فيما خلا العواصم الكبرى سهل للغاية وهو أرخص مما هو في بلادنا فان المصطاف أو المشتى في سويسرا قد يستطيع أن يكون في عائلة ولا ينفق في شهره ثمن الطعام والنام الجيد أكثر من ١٥٠ فرنكاً وهذا قدما تجد له مثيلاً في بلدة أوربية الا في المدن الصغرى أو القرى وكل مدينة من مدن سويسرا حرة بأن يتعلم فيها الشرقى سنين لا أياماً ومن رأى مدينة أو ثنتين يكون قد رأى نموذجاً صالحاً من هذه المدينة الفاضلة

بيد ان من يسيح في الغرب لا يصح له أن ينخلى عن غشيان العواصم الامهات مقر المدنات الضخمة كرومية ولندن وباريز وبرلين وفيينا وهذه العواصم يكتنى منها السائح ببضعة أيام والأولى أن ينظر الى دولاب الحركة في المدن الصغرى اذ يستطيع أن يحيط بها فكره أما العواصم الكبرى فان أهائها قد ضاعوا فيها ولا تكاد تجد واحدا منهم يعرفها حق معرفتها فباريز مثلا كلما غبت عنها أشهراً وعدت اليها تجد فيها غرائب جديدة وجواد نفحة لم تكن من قبل وكل شىء فيها يزداد على الزمن فخامة وعظمة فالمرع الواحد فيها اذا أراد درسه السائح الشرقى لا يتيسر له في أقل من بضعة أشهر ولكن النظرة الاجالية يكفى لها خمسة عشر يوماً ومثلها سائر العواصم وأصعبها على السائح احاطة لندن بمدينة الثمانية ملايين نسمة ونيويورك مدينة الخمسة ملايين .

ان مدنية الغرب متشابهة في أكثر الاوضاع فمن رأى نموذجاً منها اكتبى والزيادة على ذلك من النوافل . من زار باريز مثلا يشهد أعظم نموذج في الحضارة الحديثة . وخير لمن يعرف لغة مملكة في الأكثر أن يذهب اليها . وان كان من يعرف لغة أوربية كبرى مثل الافرنسية أو الانكليزية يستطيع أن يسيح بدون عناء في كل ممالك ويتفاهم مع أهلها ولا سيما أهل الطبقة العليا والتجار والعلماء ثلاث لغات أصول هي التى تفرعت منها لغات القارات الثلاث أوربا وأميركا واستراليا الانكلوسكسونية واللاتينية والسلافية فمن عرف الروسية مثلاً لا يشق عليه السياحة في البلقان وأكثر النمسا ومن عرف الانكليزية استطاع السياحة في أميركا الشمالية وأستراليا ومن عرف الافرنسية كانت عليه سياحة ايطاليا واسبانيا والبرتغال والبرازيل والارجنتين مثلاً من أسهل الاشياء

أما من لم يكتب له الأخذ بحظ من هذه اللغات وأراد الاستفادة من الغرب فليس أحسن له من استصحاب ترجمان من بلاده ويكون ممن سبقت له الرحلة الى ديار الغرب واذا أريد الاقتصاد فالأولى أن يجتمع كل ثلاثة أو أربعة أشخاص ويرافقهم ترجمان مؤتمن عندهم وعندها تقل النفقة نحو الثلث . وافد شاهدنا

كثيراً من أغنياء مصر ساحوا أوربا وهم لا يعرفون لغة من لغاتها ولكنهم بواسطة التراجمة استطاعوا أن يحسنوا التصرف بيد أن الأولى أن يكون المرء نفسه عارفاً بأحدى لغاتهم وهناك حدث ما شئت أن تحدث عن استفادته وسروره وبالجملة فإن الخوف من السياحة توهم ليس في محله فلا المال وقلته ولا عدم الاحاطة بلغة أجنبية بل أن المحرك الأعظم في السياحة الارادة ومن صحت عزيمته زعزع الجبال فما بالك بالسياحة وابناء السابعة والثامنة اليوم يسيحون في أوربا وأميركا بدون أن يخشوا ضرراً والفتيات الجميلات يضربن في البر والبحر ولا من يتعرض لهن بسوء فهل من العدل أن يكون فتيان الغرب وفتياته أرقى منا كعباً وأكثر أقداماً مادامت لنا في السياحة فوائد لا يقدرها الخامل في بلده والسياحة مدرسة لتعليم الكبار كما أن المدرسة هي المعامة للصغار فاللهم علم كبارنا وصغارنا علماً نافعاً .

نحن في البورد الفرنسيّة

٦٥

ليس عجيباً أن ترى العثماني والایراني وغيرهما من سكان آسيا الغربية والساحل الشمالی من أفريقية يطربون في البلاد الفرنسيّة ويؤثرونها على غيرها من بلاد الغرب في التجارة والتعلم والنزهة فإن معرفة لغة قوم هي مفتاح جميع هذه الاعمال وتعليل صحيح لعامة هذه الاحوال .

انتهت فرانس قبل غيرها لاستتباع الشرق الاقرب بتعليمه على مناحيها وتلقينه لغتها فكانت منذ زهاء قرنين تبعث البعث وترسل المعامين مبشرين بمدنيّتها ولغتها فلم يعض زمن طويل وفرنسا اذ ذاك صاحبة الكلمة الاولى في السياسة الغربية قبل انكلترا والمانيا وروسيا الا والخاصة في هذه البلاد يعرفون الافرنسية ويأخذون

عنها ويؤثرون الفرنسيين على غيرهم لأنهم لم يعرفوا غيرهم خصوصاً وأن المرونة التي يجدونها عندهم تشبه مرونتهم والفرنسيين عرفوا بلين الجانب وكثرة التفاني بتعليم ما عندهم لغيرهم لأنهم يرون لغتهم أرقى اللغات الأوروبية وأمتهم في مقدمة الشعوب التي قاتلت لأجل الحرية .

ان ميل الفرنسيين (١) للابتكار في كل شيء دعا الى نشر أفكارهم وأوضاعهم في بلادنا

(١) كتب أحدهم مقالة افتتاحية في جريدة الايكودي باري قال فيها : انه مما اثبتته التجارب أن الفرنسيين خلقوا مخترعاً وقد أنى الفرنسيين أمثال لافوازييه وكويه وكلود برنالي وبيشا وباستور من الأعمال العلمية ما استحقوا به أن يكونوا مؤسسين لجميع العلوم الحياتية والكيمياء والتشريح والفسيولوجيا والجيولوجيا وقامت أهم الاختراعات الغربية في الأربعين سنة الأخيرة على أيدي الفرنسيين وهم الذين اخترعوا سر التفريغ بلا سلك وأوجدوا صناعة الأنومويلات وعملوا مدفعاً من عيار ٧٥ وعثروا على الأسباب الرئيسية التي سمحت بالظيران . وهكذا في السياسة فإن الفرنسيين أول من أوجدوا في أوروبا وحدة وطنية وهي الوحدة الفرنسية وأول من نسوا وطناً وهو الوطن الفرنسي وهم كانوا أول الدائرين تحت سنار الحرية والمساواة الأفكار الثورية

هالفكر الفرنسي حاد ياتيه بسرعة الفلاذات الأولى في الأشياء وهو براق يدرك بدون كبير عناء المؤثرات التي تحدث بين أجراء عناصر المادة فهو ذو خاصية تخدم حاجته فاقول وحده الموضوع . الفرنسي جريء على مثال لويس الثالث عشر وبولايون والموت الذي كثيراً ما يكون جراء المخترع قلماً يفرعه بل يبعث همته ويشجعه سيف مضاءاته . والفرنسي ميل لحوادث وذوق في اكتشاف الجيولوجيا وهذا مما حدا بكثير من الصباط أن يتجهشوا الاخطار الى آسيا وأفريقية لفتح أراض جديدة واسعة وهذا الذوق هو الذي ساق فيها مصي النورمانديين والبروتوبيين الى سواحل البحار الى لم يسلكها أحد ليؤسسوا مدائن في الشواطئ البعيدة

هذا هو الوجه الحسن وإذا جئنا الى نقيضه نرى الفرنسيين مخترعين ولكنهم ماقطع عرف الانتفاع بشرة اختراعه ولا يحفظون ويظن ما اخترعه . وحنه العقيمة تحمل الى غيره الانتفاع بتطبيق ما أوجدوه . فهو يفتح المستعمرات بدمه وماله ولكن الألمان أو الإيطاليين أو الأسبانيين هم الذين يستثمرونها . اختراعاته في العلوم لا يقع عليها حصر ولكن لم يستعملها قط لتحسين أدوانه أو حاصلاته فقد أسس مثلاً الكيمياء ولكن ألمانيا هي التي وجدت في الصناعة الكيميائية مورداً عظيماً من الثروة أي ملياراً وستمائة ألف مليون من الحاصلات السنوية منها نحو سبعمائة مليون صادرات وانشأت تسعة آلاف معمل فيها مائتا ألف عامل يدفع لهم ٣٦٠ مليون فرنك مشاهرات وأجوراً . —

الفرنسوى يتحرك فى الهواء أسرع من الطير . وهو طيار خارق للعادة بجرأة طبيعية فيه نظنها بلادة منه . ولكنه لا يستطيع أن يجعل للطيارين ولمراكز الطيران نظاما معقولا واذا سقطت فى درجات الاشياء الصغرى ترى الفرنسوى على هذه الصورة من الاضطراب وعدم الانتظام وقلة الاهتمام . ويقال فى ذلك ان الفرنسوى يكره وهو على هذه الصورة من الحركة ان ينشئ الى ضرورة انتباه طويل متساق ويشعر بأنه يخنع اذا لم ير نفسه مائلة الى الاعمال الخلفة التى تحته واذا وجب عليه أن يعمل عملا مجهولا يحتاج الى صبر . اما الالماني فهو على العكس من ذلك له قليل جداً من النبوغ فى الاختراع والايجاد بل لا يكاد يذكر له شئ منه ولكنه مختص كل الاختصاص بالاقتناع بما اخترع وتنظيمه .

وما عدا الفلاسفة والموسيقيين فى المانيا القديمة الذين اخترعوا وأوجدوا فان الالماني لا يخترع لان فكره ثقيل وبطيء ومفكر لم يخلق لهذه الانوار الفجائية التى توحى بالمجهول ولكنه متى اخترع اختراع فهناك حدث ما شئت ان تحدث عن حسن استخدامه له فهو يحب العمل الذى يحتاج لثبات ولا يستعجل لان الضرورى عنده أن لا يعمل بسرعة بل ان يعمل بجودة وان يكون على استعداد لحين الحاجة فيكون مجهزة لساعة العمل ولا يبدأ قط ببطيئا .

جاء الالماني بعد الفرنسوى فى الطيران ولكنه أدهس العالم بتنظيمه له فلم يخط على غير هدى بل رأى بسرعة كل ما ينبغى أن يرى ووفاه حقه . له قليل من المستعمرات ولكنه يسكن مستعمرات غيره فينزلها الجار والصناع الذين يبعث اليها بهم . الالماني لم يخترع التلفون ولكن لالمانيا الآن نحو مائتى ألف كيلو متر من الاسلاك التلفونية أى أكثر من فرنسا وعدوا المخبرات التلفونية فى بلاده بـ ٨٠٠ مليون مقابل ١٩٠ مايونا فى فرنسا وما من قرية المانية مهما صغرت الا وهى مرتبطة بهاتف تخابر به وادارتها فى البريد أول ادارة فى العالم . وهى تعترف أن ليس بين كياويها الكشار واحد مثل لا فوازيه وبرتلو ولكن لها معامل تجريبية تعينها الحكومة والمدن والنقابات الصناعية . ان كان الفرنسوى

مخترع الاصباغ الصناعية فالألماني بفضل مدارسه ومعامله أتى فيها بالمعجائب حتى كاد يختص بتجارة الاصباغ . وما من بلد يعنى فيها بتجديد أدواتها على الدوام لتكون كاملة من كل وجه على أحدث طرز كما يعنى فى ألمانيا . والقاء أدنى نظرة على محطة من محطات سككهم الحديدية تشهد لهم بذلك الخ

ثم انتبه الانكليز والأميركان ثم الألمان والطليان للأمر ولكن بعد ان رسخ التمدد الفرنسي في النفوس وكثر أصداره بطبيعة الحال مع أنه ربما كان في أوضاع الأمم الأخرى ما يماثله أو يفوقه . واذا قبلت مصر والعثمانية وإيران ان تعلم الافرنسية بصفة اجبارية في مدارسها مثل لغة البلاد كان ذلك من أكبر المعونات على بث هذه اللغة البديعة فأنخذناها لغة التخاطب والتكاتب في التجارة والسياسة . للبلاد المصرية والعثمانية والارانية في البلاد الفرنسية اليوم مئات من الطلبة يدرسون العلوم المتنوعة في مدارسها في حين لا تجد سوى عدد محدود من الطالبين في مدارس انكلترا وأميركا وأكثرهم من المصريين والهنود أما في ألمانيا والنمسا وإيطاليا وروسيا فان عددهم يعد على الأنامل والارانيون أكثر الشرقيين اختلافاً الى مدارس روسيا للجوار والسياسة .

فاذا طربت النفس يوم دخولها أرض فرنسا وسويسرا الفرنسية وبلجيكا الفرنسية فذلك لأننا نشعر باننا بين قوم يفهمون من نحن ونفهم من هم . اننا نستفيد هنا أصعاف استفادتنا في أي أرض سواها لأننا نجد تقارباً في الأفكار والمناحي ولأننا نعرف تاريخ هذه البلاد كما نعرف تاريخ بلادنا وقد حصلت لنا على الزمن أنسة بأوصعها المرنة اللطيفة ومن تعلم لغة قوم قلت ما بينه وبينهم من الفوارق وتيسر له أن يشاركهم ويشاركوه في كل ما لا يضر بعاداته وأخلاقه الخاصة ان المدنية الأوروبية تنسرب كل يوم الى عقولنا في طرق مختلفة تنقلها الصحف والسياح والمدارس والجيش والاسطول بل ينقلها البرق والهواء ونحن لو أردت أن تجردنا مما استفدناه منها منذ عهد محمد على الكبير وسليم الثالث لرجعت بنا قرونًا الى الوراء ظننتنا معها من أهل القرن السابع أو الثامن للهجرة على نحو

ما شاهد اليوم الافغانين أو المراكشيين أو الجاويين الذين سدلوادون مدنية الغرب حجابا كثيفاً فخرموا من حسناتها ولم ينجوا مثل غيرهم من شرورها .
ان سكان الشرق الاقرب اذا ذكروا الفرنسيين كثيراً فذلك لانهم يعتقدون فرنسا فاتحة العالم ومدنته على نحو ما كانت على عهد نابليون الاول ففرنسا هي التي وضعت في الحقيقة أساس النهضة المصرية الحديثة وفرنسا هي التي كانت كذلك في سورية منذ جاء نابليون عكا طامعاً في فتحها لأنها كانت مفتاح سورية حتى اذا جاءت حادثة الستين المشؤمة وكان لفرنسا اليد الطولى في اعطاء لبنان استقلالاً ادارياً عظمت تلك المنة على أهلها وعمت المدنية الفرنسية بلاد الشام من طرق مختلفة خاصة وعامة وطنية وأجنبية رسمية وغير رسمية .

نحن اليوم اذا لجأنا الى فرنسا في معظم حالاتنا فللأثر الناتج من تلك التربية والدعوة الطويلة المتأصلة ولا يضرنا الأخذ من مدنية القوم ولكن يضرنا الغلو والجود فكما ان الفرنسيين أنفسهم لا يستنكفون أن يقتبسوا ما عند الامم الاخرى كالانكليز والالمان والاميركان مثلاً مما ايسر في أوضاعهم فنحن من مصلحتنا أن لا نكون حكرة لامة فنأخذ عن كل قبيل أحسن ما عندهم ولا نقول هذا سويسري وذاك بلجيكي وهذا فرنسوي وآخر ألماني وغيره ايطالي أو انكليزي فكلهم أرقى منا سراحل ونحن في حاجة لكل من يعلمنا مدنية نهض بنا من حولنا ليساويننا بنفسه بعد واعد شيئاً مذكوراً في سلسلة المراتب البشرية .

رأيت كثيراً من خاصة الطليان والالمان والانكليز يشيرون الى أن السوريين خاصة من بين سكان الشرق الادنى يغالون بحب الفرنسيين وليس حتى في البلاد التي حكمتها فرنسا في أقطار الشرق بلد كسورية يحسن أهلها الظن بالفرنسيين فكنت أقول لهم ان ذلك صحيح ولكن لا على إطلاقه فان القوم هناك درجات ومن يحبون الفرنسيين هم الذين أحسن هؤلاء اليهم بتعليمهم على أساليبهم وتلقينهم لغتهم المذبة فأتمكم أيضاً اذا مدت يدها لسورية تعلمها لغاتها وأمجادها يمتد للسوريين لها بصنيعها ويصبحون زبناً في التجارة . وكيف يحب السوري المانيا مثلاً وهو

لا يعرف عنها الا ما يقرأه في الجرائد الفرنسية والكتب الافرنسية والمانيا حتى الآن لم تفتح لها مدرسة راقية في سورية والفرنسيس ملأوا سهلنا ووعرنا بمدارسهم الدينية والعلمانية على اختلاف درجاتها

لا ينال المرء الا بقدر ما بذل . والامم الانكلوسكسونية هي ارقى الامم بأخلاقها وآدابها ولكن أنا نيتها الكثيرة دعته الى أن أحبت في العهد الأخير الارتفاع من الشرق دون أن تبذل في سبيل رقيه درهما أو تخطو الى اعلاء شأنه قدماً . ولذلك يبقى الشرق الاقرب يتغنى بالفرنسيس والفرنسوية حتى ينافسهم غيرهم من أم الحضارة الحديثة منافسة حقيقية . ولا عار علينا اذا صرحنا بأننا نظرب في أرض فرنسا لا أننا لانعرف غيرها في الواقع ونفس الأمر فقد سبقت فعلمتنا آدابها وذكرتنا أمجادها فنحن بها عرفنا الغرب والمرء لا ينفق الا بما عنده وعرفنا الجميل لاهله طبع الكرام . ولا ينسى الا يادى التي لك عندهم الا اللثام والسلام

الحياة السياسية والاقتصادية في بلاد المغرب

٦٦

تسكن بلاد المغرب عناصر مختلفة قديشور بينها نائر الخلاف أحياناً ولذلك كان لمسألة الجنسية في الارض المغربية شأن عظيم وحروب قلمية ولسانية لا تكاد تهدأ وتدور المناقشات في الغالب على برامج المدارس وعلى القدر الذي يجب أن يعطى للغة المغربية في التعليم في المقاطعات التي فيها رومان وسلوفا كيون وصرييون . وهناك اضطرابات تحدث زمن الانتخابات النيابية تتدخل فيها القوة المسلحة لتحمي حرية الانتخاب وأزمات وزارية قد تطول سنة وجلسات نيابية شديدة الوطأة قد يتلاكم فيها النواب ويتضاربون وربما أطلق بعضهم عياراً نارياً على خصمه أو هددته بالقتل أو ضربه بكتاب وذوابة كما حدث ولا يزال يحدث

نحو نصف سكان بلاد المجر هم من العنصر المجرى والنصف الآخر من عناصر مختلفة (المان وسلوفاكيون ورومانيون وروتنيون وخرواتيون وصرييون) بلاد أشبه ببرج بابل اختلطت فيها اللسان وتبليات والمجريون يحاولون بكل ممكن ان يحترم غيرهم جنسيةهم باحترامهم لغتهم والاعتراف بنقدهم السياسى والمدنى وهذه هى حالة المجر ولولا أن العناصر غير المجرية مؤلفة من أجناس كثيرة ليس بينها أقل صلة وطريق الانتخاب النيابية الجارية فى المملكة تحول دون أدنى مقاومة لما تم للمجر هذا التقدم على غيرهم .

ولئن حاول الامبراطور فرنسيس يوسف ملك النمسا والمجر أن يصلح أسلوب الانتخاب بوضع الاقتراع العام منذ سبع سنين فان مسائل الجنسية ما برحت مقدمة على المسائل الاجتماعية وقد وقع التحكيم على أن تكون النمسا متجانسة بالجرمانية وان يكون للمجرية حق التقدم فى هنغاريا (بلاد المجر) وقد كان فى مجلس النواب المجرى سنة ١٩١١ - ٤٥٣ مبعوثاً : منهم ٣٨٧ مجرياً و ٤٠ خرواسياً و ٣٤ وطنياً وهذه نسبة تسندعى الاسنغراب والمجلس الاعلى أو مجلس الاعيان مؤلف من أعضاء وراثيين مثل البالغين من الارشيدوقه وأعضاء الاسر الشريفة التى تدفع على الاقل ضريبة عن عقاراتها لا يقل عن ٦٠٠٠ كورون ومن أعضاء معينهم الملاك مدة حياتهم بانتهاء رئيس المجلس ومن أرباب المناصب العليا مثل كبار الحكام ومن ٣٣ أسقفاً كاثوليكياً و ٩ اساقفة روم أرثوذكس و ٦ يمثلون المذاهب الاثرية والكالفانية البرتستانية ومن ثلاثة يندسهم مجلس نواب خرواسيا .

وللمجلس الاعلى أن يرد ما يشاء من المشاريع والقوانين التى يقررها مجلس النواب ولكنه لا يستعمل هذا الحق الا نادرا لان مجلس النواب وقر فى صدره وغاية ما يستطيع عمله أن يرجىء الاقرار على قرار مجلس الامة

ومن الامراض التى أصيبت بها بلاد المجر كما أصيبت بهافرنسا والعثمانية مرض كثرة الموظفين الذى يزداد استحكما اليوم بعد اليوم فى احصاء رسمى أخير ان فى المجر ٣٠١.٤٨٠.٠ وظلما فى شعب لا يتجاوز احد وعشرين مليون نسمة

فان الوزارة التي تولت شؤون المجر منذ سنة ١٩٠٦ - ١٩١٠ قد أحدثت عملاً لـ ٤٥ ألف رجل والوزارة التي خاضتها أحدثت في العشرة الاشر الأول لتوليها الامر ثلاثين ألف وظيفة . وهذا السواد العظيم من الموظفين ينفع الحكومة مدة الانتخابات النيابية لانه يمثل نحو ثلث المنتخبين بيد أن كثرة الموظفين في الحكومة لا يفسر بأن الاشغال تمشي بسرعة على طريقة حسنة بل ان الوقت والمال والقوة تضيع في هذا التطويل والقيود . يساعد على ذلك الاهمال المغروس في طبيعة الموظفين على الاغلب ولا سيما في المجريين فمن لم يتابع البحث عن أوراقه ويلحقها من ديوان الى آخر ويوصى صاحب الشأن بتضييع وتهمل ولا لغالى اذا قلنا أن المجر على كثرة تغاليهم في التساغى باستقلالهم قد فتحوا للحكومة من أبواب التدخل في أمهم حتى في المسائل الخاصة ما يصح معه أن يحكم بأن البلاد المجرية أكثر الممالك التي جعلت نفسها تحت وصاية حكومتها في كل شأن من شؤونها

ولقد عددت مجلة القرن العشرين الحرة وهي لسان حال علم الاجتماع في بودابست عدة أحوال نابت فيها سلطة الحكومة مناب الاقدام الخاص والنبعة الشخصية فقالت ان الحكومة تعطي راتباً للكهنة الذي يعتمد الوليد والموظف الذي يقيدة في السجل وترزق المعلمين وتوصى الطابعين وصناع الأدوات المدرسية وتدفع لمؤلفي الكتب المدرسية ولنقادها ولا نشاء دكات للمدارس ويستعمل خشب الحكومة وحديدتها والحكومة تعاون المطابع ومخازن الدخان وعمال الدخوليات (أوكتروا) والكتاب والاختباريين وغيرهم والجمعيات العامة والصناعية والزراعية والنقلية والمجمع العلمى والممثلين والمغنين وكل من لهم مشاريع يريدون ابرازها الى حيز الوجود ولارباب الضجة والسكوت وتدر المال على السنائع الاهلية واستملاك محال الوقود وتساعد العامل الصغير والصانع الكبير ومنها يطلب الممثل قرضاً والصراف مالا

هذا وحرية الأديان والمساواة لم تتم في المجر الا سنة ١٨٩٥ وكان لاكتلاكة المقام الأول ولرجال الدين سلطة نافذة ويكفى أن يقال ان مساحة بلاد المجر

تبلغ ٣٢٤،٨٥٠ كيلومترًا مربعًا تملك الاسقفيات والاديار والبيع ١٢ ألف كيلومتر مربع منها وبذلك يحكم رجال الدين لان من المال قوة فكيف فيمن اجتمعت له القوتان القوة الروحية والقوة المالية

أهم القوانين الدستورية في المجر ٤٥ قانونًا يرد عهد الاول منها الى القرن التاسع أى الى أحد عشر قرنًا وأهمها قانون سنة ١٧٢٣ و ١٨٤٨ وضم النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ الذى تم الاتفاق بين المجر والنمسا على أن يدافع المجر عن مملكة النمسا كما يدافعون عن مملكتهم أنفسهم ويكونون مستقلين الا في الجيش والبحرية والامور الخارجية فيدفعون قسطًا صالحًا من المال لمعاونة حكومة فينا وتتعهد الاسرة المالكة النمساوية بالمحافظة على استقلال المجر وحرية البلاد واستعمال جميع قوة النمسا للدفاع عن سلامة الاملاك المجرية وملك النمسا يحكم المجر كما يحكم بلاده ولكنه يمثل مملكتين متباينتين ولا يكون ملك النمسا ملكًا شرعيًا الا اذا أقر على تنويجه مجلس المجر ويقضى القانون الاساسى في البلاد أن يقيم الملك ستة أشهر في فينا وستة أشهر في بودابست ولكن هذه العادة لا تنال حظ قدومه سوى شهر واحد على الاغلب وهو يتلطف كل التلطف مع الامة المجرية الا أن هذه لا تنسى ما نالها من سحق النمساويين لها في ثورة ١٨٤٨ التى لا يرح المجرىذكرونها ويحنفون كل سنة بذكرى مقتل الثلاثة عشر قائدًا مجريًا الذين اعدموا سنة ١٨٤٩ لا شترا كهم بحرب الاستقلال ضد النمسا ويسمونهم الثلاثة عشر شهيدًا وترفع الاعلام السوداء على النوافذ وقد كانت جنازة كوشوت سنة ١٨٩٤ من أعظم الدلائل على ذلك كما كان الاحتفال بافتتاح قبة سنة ١٩٠٩ بالغًا حدًا دل على مبلغ تعلق هذه الامة برجالها الذين سمعوا لاستقلالها .

للمجر انشودتان أنشودة الملك والجيش وأنشودة الامة ولها عيدان وطنيان الأول فى ١٥ آذار والثانى فى ١١ نيسان فالأول هو عيد المجر الحقيقى يحتفل فيه بذكرى سنة ١٨٤٨ وقد قرر مجلس الامة المجرية اشتراك الاشراف فى جميع

التكاليف العامة والغاء حقوق السادة وحرية الصحافة وفي ١١ نيسان هو اليوم الذي صدق فيه الملك فرديناند على القوانين الدستورية

لا يحب المجر النمساويين ويريدون أن يخالفوهم في كل شيء ولو بالصورة الظاهرة وما أنس لأنس يوم اجتاز بنا القطار من الأرض النمساوية وابتعدنا ساعتين عن فينا ودخلنا في الأرض المجرية فان الأرض تكاد تلبس حلة غير الحلة الأولى وقال لي رفاقي في القطار وكانوا مجريين أنت الآن في أرض هنغاريا مولاي ثم خرج الشرطة والمفتشون كأننا دخلنا الى مملكة أخرى وان ما بين فرنسا والمانيا من التباين لا يشعر به على الحدود بأكثر مما يشعر بالتباين بين المجريين والنمساويين والمجر يطلبون اشارات خاصة لمسكرهم كما يطلبون أن يكون التعليم العسكري باللسان المجرى ولهم مطالب أخرى يسعون اليها لئلا يكون للنمساويين عليهم أقل سلطة وتأثير وان كان هؤلاء تأثير كبير في الأمور الاقتصادية والعلمية كالألمان هذا مع أن بلاد المجر غنية بصناعاتها وزراعتها وعلمائها ويكفى بأن ثروة المجر قدرت سنة ١٩١١ بثمانية عشر مليار فرنك قيمة أملاكها العقارية وخمسة مليارات قيمة أموالها غير المنقولة ومثلها صناعاتها وبائتي عشر مليونا نقودها وبثلاثمائة مليون أموالها في الخارج أي بأربعين مليون مليار وثلاثمائة مليون فرنك يخرج منها ديونها العمومية خمسة مليارات ونصف

هذا حال مملكة أفقدتها النمسا استقلالها ولكنها لم تقض أو لم تستطع القضاء على حياتها الوطنية والاقتصادية كما فعلت روسيا مع بولونيا وبقيت بولونيا بحالها أو زادت ولولا معاونة روسيا للنمسا ما استطاعت هذه ان تغلب المجريين

ليست الامة المجرية عريقة في المدنية كالامم القديمة في أوربا فقد جاءت حوالى القرن التاسع وانضمت الى أهل أوربا ونزلت بلادها اليوم ولذلك تجد فيها حتى الآن شيئا من أوضاع القرون الوسطى في نظاماتها الاجتماعية فان تسعة اعشار من يعملون في الحقول المجرية الى اليوم هم من السلافيين « الصقالبة » أو الرومانيين المغلوبين على أسرهم افتتح المجر البلاد وامتلكوا الأراضي وما زالوا يستثمرونها

بأيدي غيرهم ولم يبرحوا في كثير من البلاد على طريقة القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر

وإذا تأملت ملياً في حال المجري تجده يشبه التركي في كثير من أحواله فإنه يعمل القدر اللازم حتى لا يموت جوعاً هكذا شأن الفلاح والصانع وكذلك شأن طالب العلم وصاحب المنصب كأن حكم العثمانيين على بودابست مئة وخمسين سنة قد طبعهم بطابع تركي فقد رأيت المجريين يشكون من ضعفهم وقلة توفرهم على العمل ويقولون ان منا كثيرين من يعملون شهرين وينقطعون عن العمل عشرة أشهر وهذا عيب كبير في مجتمعنا

تقدر مساحة أملاك صفار الفلاحين في المجر بعشرة ملايين هكتار أي ان يكون الواحد يملك ستين هكتاراً والوسط الذي يملك ستمائة هكتار يقدر بثلاثة ملايين وكبار المزارعين بستة ملايين وبمجموع ما تملكه الحكومة والمدن والمقاطعات والكنائس والاديار بعشرة ملايين هكتار

وقد أصيبت بلاد المجر بداء الهجرة فهاجر منها منذ ١٩٠٠ الى ١٩١٠ سبعمائة الف رجل فارتفعت أجور العملة وبيعت أملاك صفار الفلاحين من أواسطهم وكبارهم ومهاجرهم مقتصد بحيث يرسل مهاجروهم الى بلادهم كل سنة مئة وستين مليون كورون ومن يعودون الى بلادهم يعودون أغنياء وقليل ما هم والعائدون يتعاونون الاراضي بالاثمان الفاحشة

وللإسرائيليين المقام الاول في تجارة البلاد تعرفهم بسيماهم ولا سيما في بودابست عاصمة البلاد فان ثلث سكان هذه العاصمة من الاسرائيليين أي ثلثمائة الف من أصل تسعمائة الف وييدهم التجارة والصرافة والصناعة وهم أكثر الامة تعليماً وأقدمهم على الاعمال هذا مع أنهم ليسوا قداماء في البلاد بل أن هجرتهم اليها ترد الى العهد الذي طردت فيه اسبانيا وفرنسا والمانيا وبلاد القاع الاسرائيليين من بلادها فوجدوا في بلاد المجر صيداً رحباً وخلفوا اليونان في التجارة . وحيث توطدت قدم التاجر الرومي يصعب على التاجر الاسرائيلي أن ترسخ قدمه والرومي

كالاسرائيلى بشوش لين العريكة يعرف من أين تؤكل الكتف فى التجارة
بمخلاف المجرى

يقدر عدد الاسرائيليين فى المجر بثمانمائة وأربعين ألفاً منهم ستائة ألف « تمجروا »
أى أصبحوا مجراً حتى فى أسمائهم ومناحيهم ولا يزال عددهم ينمو فان كان أبناء
اسرائيل يقبلون على التوطن فى هنغاريا فليس لان التجارة والصناعة والصرافة
تستميلهم الى نزولها لان جميع الصناعات الحرة مفتحة الابواب أمامهم
هذه معلومات قليلة عن بلاد المجر التقطتها فى يومين اثنين صرفتها فى عاصمة
بلادهم أزور معاهدها البديعة وبودابست من أجل عواصم أوروبا وهى مدينتان
فى مدينة أى بوداواست يفصل بينهما نهر الطونة وترتبط البلدان بأربعة جسور
كبرى بديعة من أجل ماهندس المهندسون والجسران الجديدان الاخيران هما
من صنع مهندسين مجريين أما المدينة فتقسمة شوارع نخمة فسيحة وهى نظيفة
لا تقتل عن أحسن العواصم

وأهل المجر يحبون الأتراك ولا يزالون يذكرونهم بالخير لأنهم يرون أن اخواننا
أسدوا اليهم جيلاً غير مرة وآخر مرة فى ثورة المجر الاخيرة يوم لجأ زعماء الثورة
الى الارض العثمانية فقام سلطان العثمانيين « واطمه المرحوم السلطان عبد المجيد »
من أن تنالهم يد النمسا التى طلبت بالحق تسليمهم وآثر أن يشهر حرباً على النمسا
أو تشهرها عليه على أن يسلم من دخل حماه ولذلك ترى المجر يذكرون هذه المنة
على الدهر ويشفعونها بالشكر وحسن الذكر

(١) حياتنا والحياة الادبية

٦٧

سادتي الاعزة : تقاضاني بعض الاحباب ديناً لم أر بدأ من قضائه على حين
اشتداد الازمة بل الازمات فى بلادنا . أرادونى أن أحضركم بشيء مما جنيته
(١) محاضرة لنا القيناها فى المنتدى الادبى فى الاستانة يوم ٢٤ ربيع الاول ١٣٢٢ و ٢٠ شباط ١٩١٤

في هذه الرحلة الثانية الى ديار الغرب من ثمرات مدنيته الزاهرة فلم يسعني الا اجابة الطلب مع الشكر لحسن ظنهم وان كان البحث في نهوض القوم أو في فرع من الفروع ارتقاءهم يحتاج الى درس عميق وبحث دقيق ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله فاذا أتيتكم بأمور تعرفونها أو أكثرها فذاك لاني أحببت المبادرة الى امتثال الامر مع علمي بأنني لا آتي بجديد على أنه لا جديد تحت الشمس :

كانت السياحة في سالف الزمان ضربا من شاق الاعمال ولكنها أصبحت في هذا العصر على سهولتها حاجة من حاجات المجتمع يحتاج الخاصة اليها أكثر من غيرهم ويدخل في الخاصة أرباب النعمة من التجار والزراع والصناع كما يطلق على العلماء والمفكرين والباحثين والمتعلمين وقد وردت عدة آيات في الكتاب العزيز في الحث على السياحة ولكن الشرق ضعف في العمل يهوى قديمه ولم يهتد الى وجه الصواب في حديثه .

كان أجدادنا يطوون الاميال والفراسخ أياما وشهورا لينتقلوا من قطر الى آخر ونحن اليوم نسيح في شرق الارض الى غربها في أيام يسيرة ونقطع بضعة الوف من الكيلومترات في ساعات معدودة ومع هذا نرى السائحين منا الى الآن أقل من السائحين في العصور الماضية هذا اذا قابلنا بين سرعة المواصلات وتوفر أسباب الراحة في عصرنا وفقدانها في أعصار أجدادنا أيام كان يقول ابن زريق البغدادي وقد رحل من بغداد الى الاندلس .

ما آب من سفر الا وأزعجه رأي الى سفر بالبين يجمعه
كأنما هو في حل ومرتحل موكل بقضاء الله يذرعه

اننا اذا رحلنا اليوم الى الغرب نجدد حياتنا بعد ذبولها ونقوى حواسنا بعد انثلام حدها وندخل في طور نعلم فيه ونعتبر ونعود عادات حسن أكثرها وجدير بنا أن نقتبسها عن سبقونا بمراحل وأشواظا . لانها نتيجة علم متوارث ونظر بعيد متسلسل . فكل ما نراه في ديار الغرب هو عمل قرون خلت . وأجيال عانت فعملت :

وأحب آفاق البلاد الى الفتى ارض ينال بها كرم المطلب
تكثر الخواطر على السائح منا في ربوع امم الحضارة الحديثة فلا يابث ان
يذكر بلاده ويقابل بين حالها وما يشاهده هناك من السير نحو الكمال بخط سريعة
في حين يرى امته تسير سير السلاحف .

ان الفباع سار سيرا نكرا يسير يوما ويقيم شهرا
نعم يسير الغرب بسرعة البخار والكهرباء . ونحن مارلنا سير اسير الجمال
والبغال والحمير . وشنان بين نظام السيرين .

سر اين شئت من بلاد المدنية تجدها نفساً واحداً في الاستمتاع بنعم الجمال
والكمال وقد تشاهد لبعضها على بعض امتيارا في أمور تتفرد بها ولا فرق في
اصل المادة بين الشرق والغرب : سهول واودية وجبال وانهار وبحيرات وبحار .
ولكن الفرق في تربية العقول ونمط الحياة فالسر اذا في السكان لا في المكان .
سحت هذه المرة في ايطاليا وسويسرا وفرنسا والنمسا والمجر فرأيتها لا قليلا
متشابهة في راحتها واعيمها وعمرانها وعلومها وآدابها وصناعاتها : الناس كلهم يتفننون
فيما يعملون ويسرون اليوم بعد اليوم نحو الكمال فيارب ماهذه الروح التي تجرد
منها جسم الشرق وسرت في عظام الغرب وأعصابه وشرابينه فأني أهله بالعطائم
ونحن بقيننا حامدين مبهورين منجلين منضائين

لا تغبط المجدب في علمه وان رأيت الخصب في حاله
ان الذي ضيع من نفسه فوق الذي ثمر من ماله
مدنية الغرب غريبة في كل مظهر من مظاهرها ، لأن أهلها أحسنوا
الانفعا من كل قوة في الوجود ونحن أضعنا بجهلنا القوى القريبة الانفعا .
هذا شأنهم في كل شيء فكأن الغرب حلف أن لا يخالف الشرق والشرق آلى أن
يخالف الغرب على كثرة حاجته اليه واضطراره الى الأخذ عنه .

رأيت أولاداً وبنات دون العاشرة يسبحون في الغرب من قطر الى آخر وخدمهم
بدون أدنى رهبة وارتباك ، ولم أشهد كثيراً من رجالنا يستطيعون السياحة في
أوروبا وأميركا على ما يجب ، وبهذا نعرف درجتهم ودرجتنا وتسجل بأن صبيانهم

أقوى من رجالنا ، وفتياتهم أعقل من نساءنا فاذا كانت النسبة مفقودة بين ابن العاشرة وابن الحسين فهلا تكون المسافة بين حالنا وحالهم أطول وأجزل .

اننا في درس المدنية الغربية تأخذ مآثيها لنا وتمثل لانظارنا باديء الرأي ولو أردنا استقصاء البحث لاقتضى علينا أن نصرف السنة والسنتين لندرس حال مدينة واحدة من مدنها فما بالك بالمملكة أو الممالك ينقد العمر ولا تنقد مادة الكلام عن رقي الغرب وكلما تأملنا معاهده ، وحللنا مادة قواه ، نبكى لضعفنا وقوتهم ، وجهلنا وعلمهم ، ونكاد ندخل في اليأس المميت ، من تحسين حالنا لولا أن اليأس محرم ، وأن التاريخ يحدثنا أن أمماً كانت أحط من منزلتة فارتقت لما صحت عزائم بنينا على انهاضها ، والأُم لا تموت الا اذا اسلمها بنوها العارفون للموت . مواد هذه المدنية التي تأخذ بالعقل والقلب كثيرة ومن أهمها تقدم الغربيين في بيوتهم عنا ، وركى الأسرة هنالك وانحطاطها هنا . والمملكة التي تتألف من بيوت راقية هي التي تحرز شوطاً أبعد من غيرها ، وما الممالك الراقية ، الا مجموعة بيوت راقية ، والكليات تتألف من الجزئيات ، ومن تماسكت أجزاء مادته ، كانت أسبابه اقرب الى القوة بالطبيعة .

كل من يدخل مدينة من مدن الغرب ويختلط بسكانها بعض الاختلاط فلا يبقى مقتصرأ في معلوماته على حياة الشارع والمطعم والفندق والمسرح والقهوة والا ما كن العامة يسجل في مذكرته أمثلة لا يكاد يحصيها من رقي الأسرة الأوربية تجسدت في جميع حالاتهم اى تجسيم ، وحامل المسك لا يخلو من العبق

تحمل مدنية الغرب في مطاويها حسنات وسيئات ، ولكن حسناتها تربو على سيئاتها فترى فيها الفضيلة التي بزت الفضائل ، والذيلة التي تربو على مجموع الرذائل ، ولكن الملبح ، يغلى وجه القبيح ، فكأن شعار المدنية الحديثة الارتقاء ، في كل شيء ، والجمع بين المتناقضات ، اما الشرق فهو وسط او دون الوسط ، والوسط والدون لا يكادان يميلان عملاً محموداً في هذا الوجود .

أذكر لكم أمثلة ثلاثة من عشرات من الأمثلة وقعت العين عليها في باب ارتقاء الأسرة الغربية تمثل أدوار الأعمار وأدوار البيوت . المثال الأول أسرة

فرنساوية مؤلفة من والد ووالدة وطفلتين وطفلين من سكان الولايات من أهل مقاطعة الجورا على الحدود السويسرية جاءت لوزان لنظيب أحد أولادها ونزلت في المنزل الذي أقمت فيه فلاحظت أمرها مدة أربعة أسابيع انظر عناية الأبوين بتربية أولادها فكان الوالد يوقظ أولاده في الساعة السادسة والنصف ويأخذ في لباسهم ثيابهم مع زوجته وهذه تسرح شعور الأبنيتين وتمشطهما فاذا تناولوا طعام الصباح يرافق الثلاثة من أولاده الى المدرسة لانه وضعهم في المكتب مع أن مدة مقامه في تلك المدينة لاتتجاوز شهرين ثم يعود الى الدار ويحمل ابنته الى الطبيب ويعود به بعد ساعتين فيجىء الاولاد في وقت الظهر وبعد تناولهم الطعام يعود فيشيعهم ثانية الى المدرسة وربما عاد اليهم في المساء ليستصحبهم أو اكنفى بانتظارهم للخروج بهم مع والدتهم الى الزهرة . عناية فائقة في هذين الوالدين الذين لا يعرفان غير تعهد صحة أولادها وتعليمهم وتربيتهم وتخريجهم على الآداب والفضيلة والندى . هذه الأسرة من أسبر الأرياف والفلاحين من أهل الطبقة المتوسطة التي تكون على شىء من اليسار ولطالبها هنأت الوالدين على عنايتهم بأولادها وقلت لها أن الأسرة الفرنسية لو كانت كلها مؤلفة على هذا النحو وتربى بمثل هذه العناية وتتعهد بما يشبه هذا الحمان الفتان لاستبحت فرنسا أن تشكو من قلة نفوسها وانحلال التربية في بعض عواصمها . ولهذا الأسرة مئات الألوف من الأمثلة ومثل ذلك يقال في جميع ديار الغرب

والمثال الثانى الذى رأيت يمثّل درجة أخرى من درجات الأسرة رأيتّه في إيطاليا في قصر من أعظم قصور الكبراء الذين جمعوا بين الطريف والتليد وأعنى به منزل صديق الامير ليوني كايثانى الذى صرفت أياما في الاشتغال في مكتبته . أبحث عن تاريخ بلادى وأجدادى فان هذا الرجل الشريف في أمته الغنى بعلمه وماله لم يرزق سوى ولد واحد هو دون العاشرة ولما جاء وقت تعليمه أرسله الى سويسرا يتعلم فيها ولم تأخذ الشفقة عليه وآثر أن لا يراه وأن يربى تربية راقية صحيحة على أن يكون في داره القوراء بين والديه وأهله وقبيله .

والمثال الثالث آتيكم به من بودابست عاصمة المجر فان العلامة غولد صهير شيخ

المشروعات في هذا العصر لم يرزق سوى ولد واحد علمه فلما زوجه أخرجه من بيته على عادة الافرنج في اخراج أولادهم من دورهم متى شبوا وتأهلوا ليؤلفوا أسرة برأسهم ويعيشوا مستقلين عن أبويهم فلا يقع تقور بين الكنة وحماها ولا بين الولد ووالده . والراحة في الاستقلال في كل شيء . هذه أمثلة ثلاثة من أطوار الأسرة الاوربية تمثل أطوار تلك الأمم أما تحابل أجزاء تلك التربية ومادة تلك النفوس الكبيرة فيحتاج لمعمل كياوى كبير يحشر اليه علماء التربية من أجدادنا والمحدثين من أهل الغرب ليقولوا للاخلاصة تحليلهم لمادة الحياة الاوربية النامية . والعبرة بالكيفية لا بالكمية .

دعاني الأستاذ غولد صهر لناول طعام العشاء في بيته وقال لى أنه سيكون معنا ابنه غولد صهر المهندس وكننه ولما قدمنى اليهما قال لى : ان كتنى وهى نعرف خمس لغات فقط تكتب بها ونكلم بسهولة عارفة بالآثار المصرية . فقالت لها : بارك الله فيك أيتها العذبة المحترمة : محبرة في مقبل الشباب تدرس آثار مصر ومصر باريزنا وأهلها أرفى شعب اسلامى ليس فيهم لدرس آثار بلادهم سوى رجل واحد هو العلامة أحمد كمال بك وكيل المنحف المصرى هذا الرجل الفرد في وادى النيل ينوفر على البحث في عاديات مصره على الاصول الغربية وهو منذ زهاء عشرين سنة يلوب على من علمه ما يعلم ليخلفه على الاقل في منصبه لانه باع سن الشيخوخة ولم يجد في نلانه عشر مليون مصرى من يقبل على تعلم ما أفنى حياته في تحصيله وألف فيه ونوع الاساليب في نشره في الكنب والمحاضرات والمقالات . أنا أعلم أيتها العقيلة المبيلة أن في أوربا نحو عشرة من علماء الآثار المصرية ولكن ما كان يخطر لى ببال أن أرى في بلاد المجر فتاة تشارك الرجال في علمهم وتساهمهم في من يحتاج الى نظر دقيق ومادة متنوعة في العلم . فان كان نساؤهم على هذا المثال فلا عجب اذا كان من رجالهم العجب العجاب الى اليوم لم تفكر في هذا الشرق الاقرب في تعليم فتياتنا كما يتعلم فتيات الغرب ، والنساء نصف البشر ولا يقوم النصف الاول الا بنهوض النصف الثانى ، فان كانت كنة غولد صهر أستاذ تفسير القرآن والأصول والحديث والملل

والنجل في جامعة بودابست عالمة بالآثار المصرية . فكم عالمة بل عالم عندهم معاشر العرب بآثار البتراء وبعلمك وحرش وتدمر وبابل وأشور وحمير والحيرة
أنا مع الأسف على كثرة بحثي في تراجم الناس وأيامهم لا أقدر أن آتيكم
بواحد يكون على النمط الاوربي في بحثه ودرسه كما لا أجد في أمني المهندس الذي
أريده ولا الكيمياء ولا الطبيعى ولا المصور ولا النقاش دع من عيالهم من
النساء اللاتي شاركن الرجل في معظم حياته المادية والمعنوية في الغرب . وعما قريب
بشاركنه في الحياة السياسية .

كل ما تعلمناه الى يوم الناس هذا . وفلدا وفيه الامم الراقية لم يخرجنا من الظلمات
الى النور . فلم نبرح عيالا على الغرب في معظم شؤوننا ومرافقنا وقيام أمرنا ،
ما دمنا نريد التحرير السياسي وايس لنا من أسباب التحرير العاني قليل ولا كثير
ههنا أن نقوم لنا قائمة .

كيف تعمر بلادنا وتستبحر الحضارة فيها ونقلد الغرب في حياته السعيدة وليس
عندنا مصور ولا مهندس ولا نقاش ولا معمار ولا موسيقار ولا كيمياء ولا
غيرهم وريادة على ذلك جهل النساء وهو من أعظم الويلات .

لم نعمل حتى الآن احصاء بعدد الاميين في بلادنا ولكن المعلوم ان عدد
الاميين هو ٩٥ في المئة في بلاد العرب في حين أصبح عدد المتعلمين في أكثر
مدن الغرب مائة في المائة تساوى في الاحد من العلم بالخط اللارم النساء والرجال
والمتعلم منهم التعلم الابتدائي أرقى من المتعلم مما النعائم الراقى وكل شىء نسبي
فالت لى فتاة بولونية في الثامنة عشرة من عمرها تدرس علم التربية والتعليم
في جامعة جنيف على أحد مشاهير هذا العلم وهى عارفة بوضع لغات أوربية وقد
سألتها عما تقصده من تعلم هذا العلم فقالت : أريد أن أوسس مدرسة في بلدى
لان الواجب على المرء ان يكون شبا في هذا الوجود . فقات لها : جزاك الله عن
هذا السعى لامتك خيرا ولكن نساءنا في الشرق لا يردن ولا يريد أولياؤهن
مثل ماتريدين . اكتفين بان يكن لا شىء في هذا العالم ولذلك لا تجد بين ألوف
من الطالبات البولونيات والروسيات والمجريات والالمانيات والايطاليات والرومانيات

والبلغاريات والصربيات واليونانيات والاسبانيات والبرتغاليات والبرازيليات والارجنتينيات طالبة عربية اللهم الا واحدة مصرية فيما أعلم تساهم بنات جنسها وتزاهن على ذكات الجامعات في سويسرا وفرنسا وانكلترا وألمانيا فتأملوا حال أمتكم وانظروا الى أى درجة بلغ بين أظهركم انحطاط عقول بنات حواء .

كلما نظرت ملياً في سعادة الحياة في الغرب وشقاءها في هذا الشرق يتجلى لى سر تعليم المرأة كما يعلم الرجل وانها هي التي أوجدت تلك الحياة البيتية السعيدة فبالحب والجمال والعواطف والرغبة في الكمالات تمت للبيت الغربي سعادته ومن سعد في بيته أو توقع السعادة فيه كان حرياً بأن يعمل الأعمال العظيمة خارجه اذ يجده في منزله سلوى وعزاء وراحة وهناء .

رأيت كثيراً من شبائنا يشكون انحطاط تربية المرأة العربية وقلة ما عندنا من الفتيات المتعلمات اللائي ياقنن للزواج الذي تكون من سعادة أسرة حديثة قوامها الآداب المصرية والفضيلة والمعارف ولكنني لم أر شاباً من هؤلاء المتعلمين ولا ممن سبقوهم من العلماء من غنى بتعليم أخنه أو ابنته التعليم الراقى ولا من فكر في تأسيس مدرسة ابتدائية على الطراز الحديث لتأقن البنات مبادئ تنفعهن حقيقة في تأليف البيوت التي يرفرف عليها طير السعد والرغد . النظريات عندنا كثيرة ولكن العمليات لم نسلك طريقها وبالله . ف حتى الآن

أوروبا ممدنة العالم وجنات النعيم المقيم وقرارة الراحة ومستقر الهناء أيقضى ياترى على مدينتك البديعة وتنحل بما حوت ديارك من جمال الوجود وجمال الفعال ووفرة العلم والغنى وآثار الغبطة ومعاهد الصفاء والنعمة ليقوم الشرق فيستلم زمام هذه المدنية ويكمل مابدأت به أو يمزقه تمزيق الاخرق الاحمق كثروة ورثها وارث لم يعرف قيمتها أم تسلم لك هذه الحياة السعيدة وتقل مؤلماتها وموكلاتها ويمع الشرق أثرها ويشاركك في كل معنى من معانيك البديعة ويكون حفظه كحفظ البلاد الراقية من ربوعك ويتحرر من أسره السياسي وأسره الاقتصادي وأسره العلمى ويتخلص من التبعية لك في كل مايدل على ضعفه وتراجع أمره .

تيار الغرب ينهال عاينا فيأتيناتارة بحمأة وطوراً بقليل ماء فهل نرزق التوفيق

ياترى فنكرع من معينه ونطرح كدوراته أم نتناوله على علاته ولا نكاد نسيغه .
ان مالدينا اليوم من أسباب القوة لا يقوم في وجه ذاك التيار لانها ضئيلة
لا كفاه لها بالمقاومة : ولعمري أن ألف أمى وأمية لا يوازي عقلهم عقل متعلم
أو متعلمة واحدة .

كانت حكوماتنا ومجتمعاتنا حتى الآن تعد الجهل قوة والانحطاط نهوضاً .
وكما كانت الأفكار منصرفة الى وجهة واحدة يعينها صاحب الشأن كانت تلك
المجتمعات تغتبط وتفرح ولطالما قال بعض من أحسن الأئمة ظننا بهم قروناً واستولوا
على عقولها وقلوبها وتصرفوا بعجزها وبجرها اذا قيل لهم أن العلم انقلاى مفيد ينبغى
أن يكون فى الأمة أفراد يعرفونه : أن هذا العلم لا تنفع معرفته ولا يضر جهله .
بيد أن الأيام أثبتت أننا فى أشد الحاجة لكل علم وفن ومجتمعنا العربى
العثمانى لا يقوم حق القيام الا متى عمد أفرادنا الى الأخذ من كل مطلب من
مطالب الحياة كما هى سنة من سبقونا ، ومن الأسف أننا لم نبرح فى مجتمعنا شاهد
ناشئتنا الكريمة على الاغلب تميل الى المداهب الاتكالية وأكثرها يؤثر التوظيف
فى فروع الادارة والجندية ولو كانت هذه غير رابحة فى الجملة . ان جعل وظائف
الحكومة هدفاً لنا فى تعاملنا هو الذى أفقر هذه المملكة وجعلها فى مؤخرة الممالك فى
عمرانها وثروتها وراحتها . والمال أساس الاعمال ولا يأتى به الا المتعاملون من الرجال .
فهل لكم يا رجال الأمة أن تحققوا هذا الظن بكم فقد سئمنا ونحن نسمع من
أقبال المتعلمين من أمثالكم على الوظائف والزهة فى الصناعات الحرة وانى لأخجل
اذا قلت أن صانع الخزف والفخار والقرميد أنفع لهذه الأمة من وزير متوسط
القريحة ضعيف مادة العلم لا يحسن عمله وقد وصل الى منصبه بالمصاومة والشفاعات
وان دباغ الجلود أو صباغ الحرير والقطن أشرف من فقيه تعلم بعض فروع
المعاملات ليتولى بعض الاعمال القضائية والشرعية .

وبعد فرجائي اليكم يا شبان هذه الامة . وبغيركم لا تجد شبابها ، أن تجعلوا
نصب أعينكم الاعمال الاستقلالية ويكنى بعضكم أن يتولى الاعمال الادارية وغيرها
فى المملكة فان الكل لا تنسع خزينة هذه الامة لاعاشته خصوصاً وأنتم تعلمون

سائمة المومنين وان حيويهم في الغالب فارغة تنقاذها الرياح لانها حالية وهم على الدوام مثل تجار البورصة اقبال وادبار والادبار في الاكثر هو الغالب .

من لى بأن يعمل كل واحد من شبان هذه الامة الواجب عاياه أولاً ويتوفر على دراسة انفع الذي يمت به فن سن الدراسة معينة محدودة لا ينبغي أن يعمل فيها مايجب عمله في غيرها ومتى أتم الطالب ذاك الدور فلا جناح عليه اذا اشتغل بالعموميات فمشاركة الطالب في المسائل العامة يجب أن تكون في سن الدراسة الى حد محدود وبعد ذلك فهو في حل من الاشتغال بما أراد .

أنا أحب أن أشهد من أبناء أمتي وقره عينها رجالا يفكرون في ترقية نفوسهم وذويهم ويوتهم والاخذ بأيدي اخوانهم أكثر مما أحب أن أراهم يفكرون في المسائل الاجتماعية الكبرى التي يصعب بها الوقت على غير مائل بالنسبة اليهم وان كان الواجب على كل وطني أن يصرف من فكره ووقته شطراً ولو قليلاً للنظر في المسائل العمومية .

تلامذة السكيات في ألمانيا هم الذين هياؤا الوحدة الألمانية ووضعوا أساسها في القرن الماضي ولكن كان العلم رائدهم وكان عملهم يقف عند حد محدود فهل يأتي يوم على هذه الامة البائسة ياترى يشهد فيه طلاب مدارسها العليا بعد أن يتموا وظائفهم المدرسية يفكرون في الخير العام لانهم خصوصاً متى أتموا سنى الدراسة وأصبحوا أحراراً في أعمالهم وأراداتهم . نعم أيها الاخوان « ان الشقيق بسوء ظن مولع » وان مايتمثل الانظار من مدنية أوربا مهما كان طاهره فيه الرحمة فرحمته لاهله لا لنا ونحن لارحمة لنا الا اذا أتناعلى أيدي رجال لنا أمثالكم وهؤلاء لا يأتون بعمل تام الا اذا شاركهم النساء وحسن نظام البيوت وتنظيمها على الاساليب الغربية نعم نحن لاحياة لنا الا اذا تعلم الرجال وربات الحجال التعليم اللازم وقام كل واحد بواجبه ووجدنا المقاصد في التربية والتعليم .

ان القليل المتعلم منا لا يؤلف أقل أمة صغيرة . وهذه الزهرات التي أراها مهما بلغ من نضارتها تضيق بين ما هناك من عوسج وبلان فلا سبيل الى وقيتها الا بتنقية هذا الشوك ما أمكن ولا ينقى بغير معول العلم والتربية ومعرفة الواجب والعمل بسنة

الغرب التي سالكها في الترقى على تعديل لطيف يدخل فيها بطبيعة الاقليم والعادة .
ان نادىكم هذا مثال من أمثلة التضامن ولكن أمتنا لا تعد مرتقية الا متى
كان في كل مدينة بل في كل قسبة من مدنها وقصباتها أندية تنسج على منواله
في المعارف والتعاطف وتوفد في الصدور جذوة الغيرة الوطنية وتحمس النفوس
الى طالب العلم ويأخذ الذوى بيد الضعيف حتى يساويه في المنزلة ويتدبر الكل
في مستقبل محيد للامة يخرجها الى حالة أحسن من حالتها الآن ويتعلم ان الفلاح الصغير
كما يتعلم ابن الغنى الكبير واذا لم نقيم جميع أعضاء هذا الجسم لا ينمو ولا يتم له البقاء .
واجباتكم أيها الاعزة كثيرة جدا والاولى البداءة بالجزئيات ولكن على شرط
أن نبداً ونجعل تاريخ الامم التي نهضت قدوة لنا ومهمازنا على العمل يجب أن تكون مدنية
الغرب اذا أردنا أن نحيا حياته مصدرنا وموردنا وبدون ذلك الفناء المطلق والعباد بالله
أو الاندماج في حسم الامم الغربية التي تبسط أيديها علينا اليوم بعد اليوم .
اننا لانحيا الا بقوميتنا على نحو ما كان أجدادنا أمس وحال أمم الحضارة الحديثة
اليوم ولكن هذا اللفظ الجبل - لفظ القومية - لا يطابق معناه مبناه الا باتخاذ
جميع أسبابه على نحو ما يعمل المجر والبولونيون والايطاليون وما يجري من منافسة
محمودة بين الفالونيين والغلانديين في البلجيكي والالمانيين والفرنسيين في سويسرا
ومن دواعي الحسرة ان من رحلوا من أبناء العرب الى ديار الغرب يدرسون
في معاهد العلم ليستحقوا الاسم العربي الشريف بالفعل لا بالقول أقل عدداً من
أكثر عناصر هذه الدولة . نعم هم أقل من الأتراك والروم والأرمن هذا مع
أننا أكثر من نصف سكان هذه المملكة المحبوبة وبلادنا أغنى من بلاد تلك
العناصر التي أخذت ما استطاعت من الحكومة لتعليم أبنائها وقامت بسد العجز
من أموالها الخاصة .

بلغنى أن في نية الحكومة السنية ارسال ستين طالباً من أبناء العرب الى مدارس
أوروبا العليا فان صح النبأ عد من أعظم الاصلاحات . وان كان هذا العدد دون
الواجب أيضاً وذلك بأننا اذا ضمنا عدد طلابنا الآن بستين طالباً بلغ من قابل
مجموع طلبتنا في الغرب مائة وعشرين وهم لا يبلغون نحو سبع طلبة الايرانيين

في مدارس أوروبا مع أن العرب العثمانيين أكثر سواداً من الإيرانيين بالتحقيق .
هذه عددنا وهذا ما أعددناه ، هذه أدواؤنا وتلك أدويتنا ، وبأيديكم
وأيدى أمثالكم خلاصنا ، لا تخيبوا آمالنا فيكم معاشر الشبيبة المستنيرة العبد
ثقل عليكم وبتضامنكم وتماسكم يهون كل عسير على شرط أطراد العمل وأتقانه ،
ومضاعفة الأفعال أكثر من الأقوال . وصرف المسعى الى المنتج النافع ،
والزهد في التافه العبت . والله يتولاكم ويسدد صراميكم ، ويقر عيون أوطانكم
بنجاحكم ويجعل منكم أعضاء عاملة في جسم مجتمعا وأصواتاً داعية الى كل نافع
ورافع أنه سميع الدعاء

ارض يونان

٦٨

اغتنمت فرصة ارساء الباخرة الرومانية التي ركبتهما من الاستانة الى الاسكندرية
في ميناء بيرالازور آتينة مدينة ارسطو وسقراط والمسافة بين بيرالآتينة تسعة
كيلو مترات تقطعها السكة الحديدية الكهربائية في خمس عشرة دقيقة . رأيت
آتينة مدينة وسطى لا تزيد تقوسها عن مائتي ألف وهي في منبسط من الأرض
وعلى مقربة منها أكمة قام عليها الاكروبول والمدينة نظيفة في الجملة مبلطة
أرصفتها بحجر أبيض يشبه الرخام وفيها حدائق نظيفة وابنيته الحديثة من الرخام
أيضاً وأهم ما لفت نظري فيها معاهدها التي قامت بعطايا المحسنين من أبنائها مثل
الاستاد أو الماعب العجيب الذي أنشئ بمال أفيروف ونصب تمثاله أمامه .
وأفيروف هو الذي خلف ملايين من الفرنكات أعطاها لأمته ومنها أنشأت
قسماً من الدارعة اليونانية المنسوبة لاسمه .

نعم في آتينة تتجلى عطايا اليونان المحدثين فترى مدرسة البنات عالية داخلية
وخارجية أنشأها ارساكي من ماله وترى مكتبة الامة أسسها فاليانوس وترى
لافيروف حبوس النساء والاولاد ولسنيا المجمع العلمي ولسينكروس حبوس الرجال

وقد أنشأ على تقفته من آتينة الى فالير طريقاً معبدة وطولها ٩ كيلو مترات .
وأنشأ فارفا كيس مدرسة عالية للأولاد وجاياس قصر المعرض وهو مؤسس مدرسة
البنات العليا لاروم في الاستانة وهكذا تجد فلاناً من أغنياء اليونان أنشأ مدرسة
صناعية وآخر مدرسة زراعية وغيره مدارس ابتدائية ويلية للفتيان والفتيات
فتجد اليوناني مع أنه أكثر الامم هجرة لبلاده - لأن نصف اليونان هاجروا
الى مصر والسودان وأميركا وشواطئ البحر المتوسط وغير ذلك من البلاد -
أكثرهم تعلقاً ببلدهم وتفكيراً في انبساطها يفتنى أحدهم من مصر أو من أميركا
ويجود بالالوف لبلاده لينهض بها وهذه خاصة من خصائص اليونان وان كان
المشهور عنهم كرازة الايدي .

نهضت يونان في المدة الأخيرة نهضة عظيمة بفضل نشر التعليم على اختلاف
صنوفه بين أبنائها وهو الدواء الشافي لكل مرض اجتماعي .

التعليم في يونان مجاني اجباري وفيها اليوم ١٤١٤ مدرسة ابتدائية للذكور
منها ١١٩٧ من الدرجة الأولى و ١٣٤ من الصف الثاني و ٢٩ من الصف الثالث
و ٥٤ من الصف الرابع وعندهم ٤٠٠ مدرسة للبنات منها ٣٠٠ من الدرجة الاولى
وفي القرى ٨٨٤ مدرسة تقبل الذكور والآنث على السواء وعندهم مدرسة
عليا لتخريج المعلمات وقد أنشأت جمعية آتينة الأدبية عدة مدارس مسائية يتعلم
فيها مئات من الفتيان المضطرين أن يعملوا في نهارهم وليس لهم من الوقت غير
الليل . في يونان ١٨٧٨ أستاذاً و ٦١٠ معلمات و ٧٦٨ معلماً في مدارس الاولاد
في الحقول ولهم مدرسة صناعية عليا تنقسم الى قسمين قسم يعلم الفنون والعلوم
ويخرج المهندسين والميكانيكيين ومنهم من يعد من الدرجة الأولى والقسم الآخر
يعلم الصناعات النفيسة أي النقش والرسم والتصوير والحفر والصناعات النقشية .
وعندهم مدرسة تجارية ومدرسة جامعة عليا فيها أساتذة اشتهروا بأعمالهم العلمية
حتى في أوروبا .

هذا مع أن لليونان في الممالك العثمانية مدارس كثيرة راقية فان لهم في الاستانة
وحدها ٧٨ مدرسة فيها ٥٩٧ معلماً يدرسون ١٦٠٣٧٣ طالباً دع ما لهم في البلاد

الى ضمت اتي بلادهم حديثاً وكل المدارس التي هي خارج علمهم لاتنال شيئاً من الرواتب من الحكومة بل ان يونان هناك يقومون بنفقاتها .

ربما لم نصب بلاد بمصائب الهجرة أكثر من اليونان فان الداخل منهم الى نيويورك وحدها كل سنة يقدر بأربعين ألفاً فما بالك في الاقطار الأخرى فاذا كان عدد يونان قبل الجزر وسلانيك ويانيا التي انضمت اليهم نحو ثلاثة ملايين فان المقدران مثل هذا العدد منهم موزع في أقطار العالم وهم يحافظون على لغتهم وعاداتهم حينما كانوا بحيث كادوا يجعلون لغتهم في الاسكندرية ومصر والاستانة لغة رسمية لكثرة انتشارها وحرصهم على التناغمي بها .

ومع كثرة المدارس في اليونان ترى طلبتهم في جامعات الغرب كثيراً جداً ولا سيما في باريز ولندن . واليونان ان لم يكونوا أكثر الأمم اقبالاً على تلاوة الصحف والتشوق للاخبار السياسية فهم في جملة الأمم المتقدمة في هذا الشأن فلا تكاد تجد واحداً لا يتلو جريدة أو كتاباً أو مجلة في كل مكان والفقير منهم يستعير جريدة جليسه ولذلك لا تبيع جرائدهم كثيراً فان لهم في أتينة (١١) جريدة يومية واذ كان العدد الواحد ينتقل من يد الى أخرى كما تنتقل جرائدنا في الشام ومصر في أيدي قرائها الذين لا يحبون أن يشتركوا ولا أن يبتاعوها اقتصاداً بارداً منهم صعب على جرائدهم ان ترقى .

وللبونان جرائد كثيرة في الاستانة والقاهرة والاسكندرية وجرائد أسبوعية في بعض عواصم أوروبا ومنهما ما يصدر بغير اللغة اليونانية ليبتاعها فيها أفكارهم ويؤثروا في الاسواق المالية والمجالس السياسية .

هذا ما أمكن الالماع اليه من حالة رقي المعارف في يونان وأرضهم القديمة قبل الحرب لم تتجاوز ٦٤ ألف كيلو متر مربع وهي غير مخصصة في الجملة بل أكثرها جزر متقطعة في عرض البحر حتى ان سواحلها تباع في مساحتها سبع مرات مساحة سواحل انكلترا وتربو ١٢ مرة على سواحل فرنسا ولذلك كان اليونان في كل زمن يحصرون قواهم في بحريتهم ويصرفون فيها أموالهم وقسماً عظيماً من ميزانيتهم وقد كان اواخرهم التجارية يدطولى في استقلالهم سنة ١٨٢٤ لا ينكرها التاريخ .

واختلف العلماء في أصل اليونان الحاليين هل هم من نسل القدماء الذين ملأوا الأرض فتوحا وفلسفة وصناعات تقيسة والأرجح عند الباحثين في أصول الشعوب أنهم اخلاط من الناس جاؤا منذ قرون الى هذه الأرض واستعمروها بعد أن فرغت من سكانها الاصابين أما هم فيصعب عليهم سماع هذا الحجاج ويحاولون بالطبع أن ينتسبوا لافلاطون وأرسطو وسقراط وديوجنس وهو ميروس وغيرهم من فلاسفة يونان الذين يبيضوا وجه التاريخ بعلمهم وحكمتهم . آثينة تشبه المدن الاوربية ممزوجة بشيء من الحياة الشرقية ولكن الفقر ظاهر على السكان والغلاء فيها أكثر من جميع أوروبا قال صاحب كتاب يونان الحديثة ^(١) ان أسعار العيش في يونان يزيد ٥٠ في المئة عما هو عليه في انكلترا ونحو ٢٥ في المئة عما هو في الولايات المتحدة

المدنية الرومية الحديثة مقول أكثرها عن فرنسا وفرنسا ساعدت اليونان كثيراً ولذلك حفظوا لها جيلها وما برحوا حتى اليوم يتخذونها معلمة لهم ومربية حتى أن معلمي جيشهم الى الآن هم ضباط من الفرنسيين وفي الحرب الالمانية الفرنسية بعث اليونان بكتيبتين من متطوعاتهم ليقاتلوا في صفوف الجيوش الفرنسية فقتل بعضهم وبيضوا وجوههم مع من أسدى اليهم جيلا ومن طبع اليوناني معرفة خدمة الأمزجة المختلفة والميل الى السافع له ما أمكن بكل وسيلة . ان ما في آثينة من بقايا العاديات القديمة ليس بالشيء الذي يلفت نظر السائح اللهم الا اذا أحب أن يزورها ليتذكر ما فيها . وأين عظمة رومية من عظمة آثينة ولا نغالي اذا قلنا ان بقايا عادياتها في جرش ووادي موسى وبعليك وتدمر أفحم وأعظم من بقايا عاديات اليونان كلها التي لم تقو على عاديات الايام .

في العاصمتين

٦٩

رأيت هذه المرة في العاصمتين عاصمة الترك الاستانة وعاصمة العرب القاهرة ما طالما شككته الاجتماعيون من الاتكال الجسم والغلو في حب التوظيف والاستخدام

(١) Percy F. Martin la Grèce moderne

رأيت ابن الاستانة لا يفكر ولا يريد أن يفكر في غير استحصال الرزق من باب الحكومة ورأيت المصرى كذلك كلاهما يستميتان في طلب الوظائف وقد زهدا في الاعمال الحرة فلا تكاد ترى في الاستانة متعلماً الا وهو يرغب أن يبيع استقلاله من غيره ويكون بيده آلة تحرك بدون اختيارها . ومن الاسف ان هذا الخلق استحكم حتى لا تشهد سوى أسباب الرزق الضئيلة بيد الاثراك أما التجارات الواسعة والصناعات الراجحة فهي للرومى والارمنى والالماني والافرنسى وغيرهم من الشعوب والامم وكذلك المصرى المتعلم لم يتعلم الا للخدمة في الدواوين وترك التجارة وغيرها من مذاهب المماش للرومى والايطالى وغيرها .

داء استحكمت حاقاته حتى أفقرنا يسلب الغريب من أمواله والنالي يحملها الى بلاده ولا يزال آخذاً بالانتشار والعبر في القطرين تتلو العبر داعية القومين الى أطراح المذاهب الاتكالية وان ابواب الاستخدام اذا فتحت اليوم قليلاً فغداً تقفل حتى في وجود الكفاة من الطالبين وخزائن فروق ومصر تضيق سدرأ عن اتفاق ما يلزم من المال على العمال والمستقل في عمله أتمتع لنفسه ولقومه من المتعلق باذبال غبره الذى يعيش عالة على السوى .

كنت في القاهرة في زيارة صديق لى من أهل العلم والمكانة في الحكومة المصرية فجاءته فتاة مسامة ودفعت اليه ورقة بخطها كتبت فيها صورة مانالها من من تنحية ديوان الصحة لها من الخدمة في المستشفى وحرمانها من خمسة جنيهات كانت عينت لها منذ تخرجت من مدرسة القصر العينى وطالبة اليه أن يساعدها لارجاعها الى مركزها .

فقال لها صاحبي أن مصلحة الصحة قد أسدت اليك معروفًا يجب عليك أن تشكرها عليه . وهو أنه فتحت أمامك باب الاستقلال في عمالك ومصرفى حاجة الى طبية مسامة مثلك وليس فيها كثيرات من أمثالك وأنت تكتبين العربية والانكليزية وتحسنينهما كما لحظت من كتابتك فانصح لك أن تعمدي الى نشر اعلانات عن محل تخزينه وتشتهرين مع الزمن فلا ترضين بعد مدة ان تدفعى هذا القدر من المرتب الذى تعدنيه شيئاً للمرض الذى تستخدمينه فانك ستربحين

العشرات من الجنيهاات في شهرك وتخدمين بذلك بلادك وتفسك .
فلم يحل هذا الكلام محل القبول من قلب الطيبة وأخذت تورد الحجج على
صحة ما تريده وانه لا قبل لها الا باستخدام ولا رزق لها الا فيه وانها اذا نالت الخمسة
جنيهاات فقد حيزت لها الدنيا وأخذت بحظ من السعادة لها ولا سرتها لان هذه
أنفقت ما كانت تملكه في تعليمها فلم يعد في وسعها ان تزيد على ذلك .

وهكذا بقى صاحبي وانا نورد البراهين القاطعة التي تلقن الفتاة معنى الاستقلال
وتبعد بها عن مواطن الاتكال حتى كل اللسان وانتهى الامر الى ان يكلم في امرها
أحد اصحاب الشأن ليرجعوها الى وظيفتها التي اخرجت منها من غير سبب ولا
تجد سعادتها الا فيها .

هذا مثال رايته بالامس في مصر وكل يوم يقع مثله عشرات في الاستانة .
وان المرء ليأسف جد الاسف على عقول تضيع من غير فائدة واعمال وكفاآت
تذهب هباء .

اناس يرضون بالدون من العيش وفي استعدادهم ان يبرزوا في كل عمل
تصح ارادتهم على اتخاذه وان يغتنوا ويرتاشوا ويعيشوا مرفهين لا مقترأ عابهم
واحراراً لا مقيدين مستعبدين .

في الشرق قوى كثيرة تضيع وبعض ما يمكن الانتفاع به من موجوده لا يحسن
استخدامه والمتعلم من أهله يعتقد أن الراحة والغبطة في الاعتماد على خدمة
يخدمها ومادري أن تعب في هذه الراحة وأنه لراحة بدون تعب ولو كان هذا
الخلق غرس في طباع الانكليز والاميركان والالمان والفرنسيين وغيرهم من أمم
المدينة الحديثة كما غرس في طباع سكان هذه الديار ما قامت هذه الحضارة التي
تدهشنا ولما استقام نظام الاسرة على صورة تبهرنا آثارها .

ليس من الاسف ان نكون حتى في بلادنا غرباء فاذا اراد احدنا ان يترفه
بعض الرفاهية لا يجد نزلاً ولا مطعماً ولا قهوة ولا مسرحاً لوطنى بل كلها للافرنج . والتركي
والعربي باهتان شاخصان لا يعرفان من اين تؤكل السمكة لانهما مجهلان اصول
الحياة وتحصيل الرزق ويحبان التفعل والفخفة وضخامة الالقاب .

ولطالما راينا من نعدهم من كبرائنا بطأئون رؤوسهم ذلة لئاجر صغير في
ه في الحقيقة ولكنه كبير في ذاته لانه جمع مالا وعدده ارادة ان يقرضه
مايستعين به على تمشية اموره او يتبلغ به يسيرا ريثما تصرف له مشاهرتة . وهذه
الحال تراها على اشدها في القطر المصرى لان ابن مصر منفاق على الاكثر
لا يفكر في أن يوازي غالباً بين دخله وخرجه ولذا انقأت الاملاك اوجزء كبير
منها من ايدى المصريين الى الغرباء والرومى في المقدمة والحال في الاستانة
أدهى وامر .

وبعد فحيت اشتد العراك بين الامم وبعبارة اخرى في العواصم الشرقية
التي تكون فيها المنافسة على اتمها تجدد الوطنى يتضاءل ويضعف امام الغربى بل
ينهزم شر هزيمة وتتحلّى للناظر صورة الانكال والاستقلال — بل صورة من
العلم النظرى الذى هو القشور وصورة العلم العملى الذى هو الالباب

اشتدت في فرنسا على عهدا الاخير محبة الوظائف وكثر فيها جيوش الموظفين
والمستخدمين فأحسر القوم بهذه الافة التي تهدد كيانهم فانشأ بعض المستعبرين
حقيقة يستنكفون من تولى الوظائف حتى ضاق ذرع الحكومة او كاد في البحث
عن الكفاة اذ لم يقبل عليها الا المنوسطون وزهد في خدمتها النوابغ وما أنس
لأنسى وزيرا تعارفت اليه في باريز ترك الخدمة وتولى ادارة مصرف صغير وكم
في الغرب من رجل عظيم خطبته المناصب فابى وآثر ان يكون تاجراً او صرافاً
او صاحب معمل او مدير شركة او محرر جريدة او استاذاً في مدرسة على ان
يكون وزيرا كبيراً يقدم ويؤخر في مصالح امته ويحل ويعد في اقدارها . والامثلة
كثيرة في هذا الباب فهل يتعظ شرقنا المسكين .

فهرس غرائب الغرب

الجزء الاول

الرحلة الاولى

صفحة	صفحة	صفحة	صفحة
٣	٩٢	١٨	كلية باريز
٤	٩٥	١٩	حدائق باريز ومتاحفها
	١٠٠	٢٠	مكاتب باريز ومكتباتها
١٠	١٠٣	٢١	مجامع باريز العامة
١٦	١٠٦	٢٢	كنائس باريز ومعابدها
٢٢	١٠٨	٢٣	قصور باريز وسرايها
٢٦	١١٢	٢٤	تاريخ الحصار الفرنسية
٣٤	١١٧	٢٥	الصحافة الباريزية
٣٩	١٢٢	٢٦	الطباعة الباريزية
٤٥	١٢٤	٢٧	مدرسة فرنسا
٤٨	١٢٧	٢٨	المجارة الباريزية
٥١	١٣٠	٢٩	الاعلان أساس التجارة
٥٤	١٣٥	٣٠	دور التمثيل والانس
٥٧			والاحتماع في باريز
٦٠	١٣٨	٣١	من باريز الى الاستانة
٦٣	١٤١	٣٢	عاصمة السلطنة العثمانية
٦٧	١٤٤	٣٣	المتحف السلطاني
٧١	١٤٨	٣٤	المتحف العثماني
٧٧	١٤٤	٣٥	خطابنا في التربية الادبية
			مقدمة الكتاب
١			الرحيل من دمشق الى لبنان
٢			وصف لبنان الطبيعي
٣			نبذة في تاريخ لبنان
٤			غابات لبنان
٥			البحر من لبنان
٦			حالة مصر
٧			مرسيليا
٨			ليون
٩			بحيرة باريز
١٠			باريز بعد الغروب
١١			تاريخ عمر ن باريز
١٢			اجماليات في عمران باريز
١٣			علم المشرقيات
١٤			درس من سلايك
١٥			دار معونه العلماء
١٦			تأخي الغربيين
١٧			محاضر تنا في نهضة العربية

الرحلة الثانية

صفحة		صفحة	
١٧٢	٣٦	٢٥٧	٥٥
			سويسرا - النساء ورجال
		٢٦١	٥٦
			سويسرا - الصفات
١٧٤	٣٧		الاجتماعية
		٢٦٧	٥٧
			سويسرا - قيودها في
			الحرية
١٧٧	٣٨		
		٢٧١	٥٨
			سويسرا - حياتها
١٨٠	٣٩		السياسية
١٨٤	٤٠		
		٢٧٧	٥٩
			سويسرا - الوطنية
١٨٨	٤١		والجيش
١٩١	٤٢		
		٢٨١	٦٠
			سويسرا - المذاهب
١٩٤	٤٣		والقوميات واللغات
١٩٧	٤٤		
		٢٨٧	٦١
			سويسرا - كيف تجلب
٢٠٠	٤٥		الغريب
٢٠٧	٤٦		
		٢٩٥	٦٢
			سويسرا - تفننها في
٢١٠	٤٧		الاعلانات
		٣٠٠	٦٣
			سويسرا التريبة العملية
٢١٤	٤٨		
		٣٠٥	٦٤
			قل سيرا في الارض
٢١٧	٤٩		
		٣٠٨	٦٥
			نحن في البلاد الفرنسية
٢٢٤	٥٠		الحياة السياسية
٢٣١	٥١	٣١٣	٦٦
			والاقتصادية في بلاد الحجر
٢٤٠	٥٢		
		٣١٩	٦٧
			حياتنا والحياة الاوربية
٢٥١	٥٣		
		٣٣١	٦٨
			أرض يونان
٢٥٣	٥٤	٣٣٤	٦٩
			في العاصمة